سلسلة (تَوضِيحُ السُّنَّةِ لِعَامَّةِ الأُمَّةِ و تَبيِينُ مُعْتَقَد أَهْلِ السُّنَّةِ)

أولًا : الشَّرْحُ المُعِين

لِحفْظِ وفَهْمِ الأَرْبَعِين

وتَتِمَّة الخَمْسِين

مع الأسئلة والأجوبة التدبرية

مزيدة بـ ١- حكم الشيخ الألباني على الأحاديث التي في غير الصحيحين .

٢ – المعنى الإجمالي لكل حديث .   ٣ – معاني المفردات .

٤ – ما يستفاد من كل حديث ، وتحتوي على ما يقارب ألفين (٢٠٠٠) فائدة .

٥ – أسئلة وأجوبة تدبرية على كل حديث .

جَمْعُ وتَرْتِيب

عِمَادُ الدِّين أَبُو النَّجا

عَفَا اللهُ عَنْهُ وَعَنْ وَالِدَيْهِ وَأهْلِهِ وَمَشَايِخِهِ وطُلَّابِهِ وَلِمَنْ دَعَا لَهُم وَللِمُسْلِمِين

حقوق الطبع لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

شُكـــــر

انطلاقًا من قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ " (صحيح التِّرْمِذِيّ / ١٩٥٥) فإنني أشكره سبحانه – ؛ استجابة لأمره إذ قال – تعالى – : (أَنِ اشْكُرْ لِي) (لقمان / ١٤) كما أشكره – سبحانه – أن هدانا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ .

وبعد شكره – سبحانه – فإنني أشكر رسولَه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الذي علّمني وعلّم الأمة بأسرها فكان المعلِّم الأول للأمة . كيف لا وقد تولّى ربُّه تعليمه ، قال – سبحانه وتعالى – مخاطبًا إياه : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) (النساء / ١١٣) ، فكان – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أعلم العلماء وأحكم الحكماء ، ولمّا علّمه ربُّه أمره بالبلاغ فقَالَ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) (المائدة / ٦٧) ، قال الشيخ السعدي – يرحمه الله تعالى – عند تفسير هذه الآية : " هذا أمر من الله لرسوله محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بأعظم الأوامر وأجلها ، وهو : التبليغ لما أنزل الله إليه ، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من العقائد والأعمال والأقوال ، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية إنما كان بتبليغه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إياه فبلَّغ أكمل تبليغ ، ودعا وأنذر ، وبشَّر ويسَّر ، وعلَّم الجهال الأمِّيين حتى صاروا من العلماء الربانيين ، وبلَّغ بقوله وفعله وكتبه ورسله .

فلم يبق خير إلا دلَّ أمته عليه ورغبها فيه ، ولا شر إلا ونهى الأمة عنه وحذرها منه ، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة ، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين ، ومن هنا يجب الإيمان بأن الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونصح للأمة " .

وبعد شكر الله – عزّ وجلّ – وشكر رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فإنني :

أولًا : أشكر الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – أجمعين ، الذين نقلوا لنا هذا الدين ، وبذلوا من أجله كلَّ غالٍ وثمين ، بعد أن نهلوا من معين رسولنا الأمين ، فعَلِموا وعَمِلوا وبَلَّغوا خير دين ، جمعنا الله وإيَّاهم مع سيِّدِ وَلَدِ آدم أجمعين .

ثانيًا : أشكر علمائنا ومشايخنا الذين لهم الفضل بعد الله في تعليمنا وتأديبنا .

ثالثًا : أشكر والداي ففضائلهما عليَّ تترا قال – تعالى – : (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) (لقمان / ١٤) .

رابعًا : أشكر كل من ضحَّى أو تنازل عن حق من حقوقه من أجل إتاحة الوقت لي لإنجاز هذا العمل من زوجة وأولاد ومَن لهم حق عليَّ .

خامسًا : أشكر إخواني وتلامذتي وكل من ساهم في خروج هذا العمل من كتابة وطباعة وتنسيق وكذا نصح وتوجيه .

سادسًا : القراء وكل من سيقدِّم لي نقدًا بناءً ونصيحة لله أو توجيهًا أو إرشادًا أو تصويب أخطاء أو أيَّ شئ من شأنه إخراج هذا العمل في أفضل صورة ليعمَّ النفع به كل الناس .

شكر خاص

وهذا شكر خاص جدًا لإخواني الذين حفّزوني لإتمام هذا العمل ، ولمساعدتهم إياي في تجهيز بعض الشروح وقد رتَّبتهم ترتيبًا ألفبائيًا ومن هؤلاء :

١ – إبراهيم السعيد

٢ – أحمد إسماعيل

٣ – سامح منصور

٤ – عمرو اللبان

٥ – كريم صلاح

٦ – مجدي كمال

٧ – محمد حلبية

٨ – محمد السحراوي

٩ – محمد المغربي

١٠ – مدحت زنيزن

مقـــدمــــة

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَ نَسْتَعِينُهُ ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (آل عمران / ١٠٢) .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)) (النساء) . (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)) (الأحزاب) .

أما بعــــــــــــد

فلا يخفى على مسلمٍ شرفُ الحديثِ وأهلِه ، بل من العلماء من قال عنهم هم الفرقة الناجية ، والطائفة المنصورة وكذلك قال إنهم أهل الحديث : عبدالله بن المبارك ، وعلي بن المديني ، وأحمد بن سنان ، والبخاري ، وغيرهم ، قال يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري مَنْ هُم . قال ابن تيمية – يرحمه الله – في العقيدة الواسطية : وبالنظر إلى أحوال الفِرَق ، وأقوالهم ، وما هم عليه يتبين (أن أحق الناس بأن تكون الفرقة الناجية ، أهل الحديث والسنة) ، إذ هم (المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب) ، فهم أهل هذا الوصف ، وأحق به . فالفرقة الناجية المنصورة هم أهل الحديث كما عليه أقوال أكثر أهل العلم ، وهم أهل العلم ، وهم الذين اعتقدوا الاعتقاد الحق .

فمن اعتقد الاعتقاد الحق فهو ناجٍ بوعد الله جل وعلا له ووعد الرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ – له في الآخرة وهو منصورٌ في الدنيا ومنصورٌ في الآخرة كما قال تعالى : (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) فهم منصورون في الدنيا ومنصورون في الآخرة .

إذن هذا النعت الذي عبَّر به شيخ الإسلام – يرحمه الله – يُنبئ عما كان كالإجماع عند أهل السنة والجماعة وعند أهل الحديث وعند أئمة الإسلام أن الفرقة الناجية والطائفة المنصورة كلها تدل على طائفةٍ واحدة وعلى فرقةٍ واحدة وهم الذين اعتقدوا الاعتقاد الحق وساروا على نهج السلف الصالح – رضوان الله عليهم – .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بني إسرائيل حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ بني إسرائيل تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً ، قَالُوا : وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي " (صحيح التِّرْمِذِي / ٢٦٤١) .

لهذا أرجو الله أن يجعلني والقارئين ممن ينالوا هذا الشرف ، ولذا شرح الله صدري لهذا العمل .

– تنبيهٌ مهمٌ جدًا :

وقبل أن أبدأ أنبِّه على قضيتين مهمتين وهما كالآتي :

أولًا : وجدت أثناء قراءتي في الكتب المعنية بشروح أحاديث رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أن معظمها – وللأسف الشديد – على غير عقيدة أهل السنة والجماعة ، وأن أغلب شروح كتب السنة وقع فيها تأويل لصفات الله – عز وجلّ – ، ومنهم من يذهب مذهب الأشاعرة في باب الصفات .

ثانيًا : نظرت في شروح الأحاديث ، وبحثت فيها لعلي أجد شرحًا يُقرّب لي كلام النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حتى أفهم معناه ، وأعمل بمقتضاه ، – وللأسف الشديد – لم أجد بُغْيَتِي فقلت في نفسي : هل إذا أردتُ أن أعرف معاني أحاديث صحيح البخاري ، أقرأ فتح الباري ؟ وإذا أردت أن أعرف معاني أحاديث صحيح مسلم ، أقرأ شرح النووي ؟ وهكذا كل كتب السُّنة . وماذا يفعل عامة الأمة إذا أرادوا أن يقرأوا أو يعرفوا معاني أحاديث رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، هل يقرأون في هذه الشروح المطوّلة ؟

أعتقد أنهم سيقابِلون صعوبات عِدَّة منها : –

١ – لا يستطيعون تمييز عقيدة أهل السنة والجماعة من غيرها .

٢ – صعوبة الأسلوب في هذه الشروح .

٣ – كثرة المسائل والتفريعات مما لا يتناسب مع المبتدئين .

٤ – ضخامة الكتب وكثرة المجلدات بمثابة حاجز نفسي يحول دون الاستفادة من هذه الشروح .

كل هذا وغيره جعلني أُفكِّر في أن أحاول (تَوضِيحُ السُّنَّة لِعَامَّةِ الأُمَّة ، و تَبيين مُعْتقَد أَهْل السُّنَّة) .

وإن كنت لست أهلًا لهذا العمل الشريف ، إلا أنني أستعين بمولاي – الله عز وجل – أن يوفقني لوضع اللبنة الأولى في هذا الصرح الشامخ ، ولعل الله أن يستخلف من يُكمل البناء ، وقد مَنَّ الله عليَّ ، وألقى في رُوعي أن أكتب سلسلة بعنوان (تَوضِيحُ السُّنَّة لِعَامَّةِ الأُمَّة ، و تَبيين مُعْتقَد أَهْل السُّنَّة) ثم وفقني الله وأعانني في الشروع بأول حلقة في هذه السلسلة ، ووقع الاختيار على مجموعة أحاديث معروفة بـ (الأربعين النووية) .

فإنّ كتابَ (الأربعين النووية) الذي اختار أحاديثه وجمعَها الإمام يحيى بن شرف الدين النووي (ت ٦٧٦ هـ) – يرحمه الله تعالى – ، يُعتبر من الكتب المهمة التي كَتَبَ الله لها القبول والانتشار ، لأنه ضمَّنه الأحاديث التي هي من أصول الإسلام وقواعده . وهو من أشهر كُتُب الحديث المجموعة ، وأوفرِها حظًّا بالدراسة والشرح ، فقد عَدَّ بعضُهم شُروحَها خمسين شرحًا ، بعضها مطبوع ، وأكثرها مخطوط .

وأصل كتابه (الأربعون النووية) أن ابن الصلاح – يرحمه الله تعالى – جمع في مجلس من مجالس تدريسه للحديث ، الأحاديث الكلية التي يدور عليها علم الشريعة ، فجعلها ستة وعشرين حديثًا ، فنظر فيها العلامة النووي – يرحمه الله – فزادها ستة عشر حديثًا ، فصارت الأحاديث التي اختارها النووي ثنتين أو اثنين وأربعين حديثًا ، فسميت بالأربعين النووية تجوزًا .

ثم زاد عليها الحافظ الإمام عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي ثمانية أحاديث كلية أيضًا ، وعليها مدار فهم بعض الشريعة ، فصارت خمسين حديثًا ، وهي التي شرحها في كتابه المسمى

" جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم " .

وأصل هذه الأحاديث في اختيارها على أنها جوامع كلم تدور عليها أمور الدين ، فمنها ما يتصل بالإخلاص ، ومنها ما هو في بيان الإسلام وأركانه ، والإيمان وأركانه ، ومنها ما هو في بيان الحلال والحرام ، ومنها ما هو في بيان الآداب العامة ، ومنها ما هو في بيان بعض صفات الله – جل وعلا – وهكذا في موضوعات الشريعة جميعًا .

فهذه الأحاديث الأربعون ، وما زيد عليها أيضًا ، فيها عِلْم الدين كله ، فما من مسألة من مسائل الدين إلا وهي موجودة في هذه الأحاديث من العقيدة ، أو من الفقه ، وهذا يتبين لمن طالع " الشرح العجاب "

شرح ابن رجب – يرحمه الله – على الأربعين النووية ، وعلى الأحاديث التي زادها ثم شرحها .

فالعناية بها مهمة ؛ لأن في فهمها فهم أصول الشريعة بعامة ، وقواعد الدين ، فإن منها الأحاديث التي تدور عليها الأحكام كما سيأتي بيانه – إن شاء الله تعالى – مفصلًا .

ولعل من أسباب شُهرة هذا الكتاب ، وإقبال الناس عليه قديمًا وحديثًا ما يأتي :

١ – أنّ أحاديثَه تُعَدُّ من جوامع كَلِمِ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

٢ – وأنّ أغلبَ هذه الأحاديث هي من أحاديث الصحيحين البخاري ومسلم .

٣ – وأنَّ كُلَّ حديثٍ منها يُعَدُّ قاعدةً عظيمةً من قواعد الدين ، وقد نَعَتَ العلماءُ بعضَ أحاديثه بأنَّ عليه مدارَ الإسلام ، ونعتوا بعضَها الآخر بأنَّ عليه نصفَ مدارِ الإسلام ، أو ثلثَه أو نحو ذلك .

وبعد فلقد سألني بعض إخواني أن أشرح لهم (الأربعين النووية) إلَّا أن شروح النووية كثيرة جدًا ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فلست أهلًا لهذا العمل ، فقد أحسنوا بي الظن إلا أنهم في الحقيقة (استسمنوا ذا ورم) ، فاتفقت معهم على أن نجمع شروحها ، ونختارَ منها شرحًا يسيرًا نلتزم به حفظًا للمتن ، وفهمًا للشرح ، وذلك من باب التحفيز والتدريب ، فجمعوا – جزاهم الله خيرًا – عدة شروح مهمة تغني عن التكرار ، إلَّا أن الله شرح صدري لطريقة مختلفة في الشرح ، فاستشرت بعضَ أهل الفضل ، وكذا إخواني فأثنوا عليها ، فاستعنت بالله وشرعت فيها ، سائلًا الله أن تكون لبنة في خدمة السنة وأهلها ، وأما هذه الطريقة فهي عبارة عن الآتي :

١ – تقسيم الحديث إلى جُمَل ، أو قد يكون كلمة واحدة .

٢ – أُوَضِّح معاني كلمات هذه الجملة .

٣ – ثم أذكر المستفاد من هذه الجملة ، وهكذا إلى آخر الحديث .

و الأربعون النووية يعتبر من أهم متون الحديث وقد تناوله جمع من العلماء وطلاب العلم بالتعليق تارة ، وبالشرح المُيَسَّر تارة ، وبالشرح المُطَوَّل أخرى ، إلا أن الله قد شرح صدري لجمع تعليقٍ يسيرٍ بطريقةٍ مختلفة ، ما أعلم أَنِّي سُبِقْتُ إليها ، فلعلها تناسب بعض طلاب العلم ، أو ينفع الله بها .

– لماذا هذه الطريقة ؟

١ – طريقة مبتكرة في شرح الأحاديث فلم أرَ شرحًا سابقًا للنووية – على كثرة مَنْ شرحها – على هذه الطريقة وهذا من باب التنويع في الشرح فلعله يناسب طائفة من الناس .

٢ – سهولة هذه الطريقة .

٣ – ربط ما يستفاد من الجملة أو الكلمة بمعناها ، مما يسهل الحفظ والفهم معًا .

٤ – إرشاد القاريء إلى أن هذه الفائدة مستنبطة من هذه الكلمة أو هذه الجملة مما يعينه على الاستنباط والتدرب على إعمال الذهن في التفكر والتدبر للنص .

٥ – بيان فضل وبركة كلام النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وأنه أوتيَ جوامع الكلم فقد تُخْرِج من كلمة واحدة الكثير من الفوائد .

٦ – يستطيع الشارح بهذه الطريقة أن يقف عند أي نقطة أو جملة ويستكمل ما بعدها وخاصة إذا كان إمامًا

في مسجد يشرح للمُصلّين ولا يريد أن يطيل عليهم ؛ فبإمكانه أن يُقطّع الحديث إلى جُمَل يتكلم عن معاني كلمات هذه الجملة وما يستفاد منها ويتوقف عند هذا الحد ويستكمل بسهولة في لقاء قادم .

٧ – ينتفع السامع من أي جملة حضر عندها حتى وإن جاء متأخرًا أو لم يستمع للشرح من أول الحديث .

٨ – كل جملة بمثابة درس منفصل فيقطع الملل عن المستمع ويقضي على كثرة الكلام فإن كثرة الكلام يُنْسِي بعضه بعضًا .

وقد جمعت عدة شروح لنخبة من العلماء وطلاب العلم وصهرتها في بوتقة واحدة مع التصرف في بعض العبارات بالحذف أو الاختصار أو الإضافة أحيانًا ، فإن أصبتُ فالحمد لله وحده أولًا وآخرًا ، وإن أخطأتُ فهذه طبيعة البشر ،
فأرجو من القاريء أن يلتمس لي العذر ، وأن يقدِّم لي النصح ، وله مني الدعاء والشكر .
ومن الشروح التي أكثرتُ من الاستفادة منها ما يلي : –

١ – التلخيص المعين في شرح الأربعين للشيخ العلامة / محمد بن صالح العثيمين إعداد : سلطان بن سراي الشمري .

٢ – التحفة الربانية في شرح الأربعين حديثًا النووية / إسماعيل بن محمد الأنصاري .

٣ – الفوائد المستنبطة من الأربعين النووية / عبد الرحمن بن ناصر البرَّاك .

٤ – فتح القوي المتين / عبد المحسن العبَّاد .

٥ – كتاب الجامع في شرح الأربعين النووية / محمد يسري .

٦ – شرح الأربعين النووية / سليمان بن محمد اللهيميد .

٧ – تعليقات تربوية على الأربعين النووية / عقيل بن سالم الشمري .

٨ – قواعد وفوائد من الأربعين النووية / ناظم بن سلطان .

٩ – الأربعين النووية مفردات وفوائد / محمد مرعي .

تنبيه :

أثناء مطالعتي لشروح النووية ، طالعت كتيِّب موسوم بـ (الأربعين النووية مفردات وفوائد للأخ المفضال / محمد مرعي – سدده الله وحفظه ووفقه لما يحبه ويرضاه – إلا أنني وجدت فيه شيئًا أردت أن أُنبِّه عليه ، وأرجو من أخي أن يسامحني على إساءة الأدب ، فيعلم الله قد حاولت الوصول إليه ، ففشلت في ذلك ، على العموم الذي أردت أن أُنبِّه عليه ، ما ذكره أخي المفضال في حديث رقم (٣١) ذكر في المفردات معنى (أحبني الله : بإرادة الثواب والإحسان) كذا قال – عفا الله عنه – ، وأنا أحسن الظن به أنه ما قصد مخالفة عقيدة أهل السنة والجماعة ويأوِّل صفة المحبة لله عز وجل ، ولعل هذا سبق قلم منه لعله يتداركه إن شاء الله .
و قبل أن أبدأ أقول للقاريء الكريم أخيرًا في هذا التمهيد : أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم إنه جواد كريم .
وبعد فهذا جهد المقل ، لا أُبرِئه من نقص ، ولا أُحاشيه من خطأ ، فإن الكمال لله تعالى ، والعصمة لنبيه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، ومأمولي من الناظر فيه أن ينظر بالإنصاف ، ويترك جانب الطعن والاعتساف ، فإن رأى حسنًا يشكر سعي زائرِه ، ويعترف بفضل عاثرِه ، أو خللا يصلحه أداءً لحق الأخوة في الدين ، فإن الإنسان غير معصوم عن زللٍ مبين ،

وأسأل كلّ من وقف على هذا البحث المسامحة عما فيه من التقصير ، وإصلاح ما فيه من الغلط بعد التحرير ؛ وسبب الغلط في الغالب النسيان ، وقد جُبل عليه كل إنسان .

وأقول كما قال الحريري :

فانظُرْ إِليهَا نظَرَ المُسْتَحْسِنِ *** وأَحْسِنِ الظَّنَّ بِهَا وحَسِّنِ

وإن تَجِدْ عَيبًا فَسُدّ الخَلَلا *** فَجَلَّ مَنْ لَا عَيبَ فِيه وعَلا

فالمنصف لا يشتغل بالبحث عن عيب مفضح ، والمتعسف لا يعترف بالحق الموضح :

فعين الرضا عن كل عيب كليلة *** ولكن عين السخط تبدي المساويا

فلينعم الناظر فيه النظر ، وليوسع العذر ؛ إنَّ اللبيب مَنْ عذر ؛ فلقد سنح بالبال على غاية من الإعجال .. ويأبى الله العصمة لكتاب غير كتابه ، والمنصف من اغتفر قليل خطإِ المرء في كثير صوابه .

فيا رب اغفر لمن كاتبه *** وعم به يا رب من قال آمينا

كتب أحدهم على ظهر مخطوط " بديع المعاني شرح بديعية القازاني " :

لله الحمد دوما إذ هداني ... لما ألفت مع ضعفي وكربي

فإن تنظر خطا والعبد يخطي ... فأصلح زلة بانت بكتبي

وإن تنظر صوابًا فاثن خيرا ... فهذا كله من فضل ربي

وعلى ظهر مخطوط " لقط المرجان في أحكام الجان " للسيوطي :

وإن تجد عيبا فسد الخللا ... تبق عند الله في عين الملا

لا تعاير من به عيب وقل ... جل من لا عيب فيه وعلا

ولآخر : وإن تجد عيبا فسد الخللا ... واكس ما تلقاه فضلا حللا

وبخاتمة متن السلم للعلامة الأخضري الجزائري :

وَكُنْ أَخِي لِلْمُبْتَدِيْ مُسَامِحًا ... وَكُنْ لِإِصْلاحِ الفَسَادِ نَاصِحَا

وَأَصْلِحِ الفَسَادَ بِالتَّأَمُّلِ ... وَإِنْ بَدِيْهَةً فَلا تُبَدِّلِ

إِذْ قِيْلَ كَمْ مُزَيِّفٍ صَحِيْحَا ... لِأَجْلِ كَوْنِ فَهْمِهِ قَبِيْحَا

وَقُلْ لِمَنْ لَمْ يَنْتَصِفْ لِمَقْصِدِيْ ... العُذْرُ حَقٌّ وَاجِبٌ لِلْمُبْتَدِيْ

وبخاتمة ألفية ابن الوردي في تعبير المنامات :

الناس لم يصنفوا في العلم ... لكي يكونوا هدفًا للذم

ما صنفوا إلا رجاء الأجر ... والدعوات وجميل الذكر

لكن عدمت جسدًا بلا حسد ... ولا يضيع الله أجرًا لأحد

والله عند قول كل قائل ... وذو الحجا من نفسه في شاغل

ورجائي ممن اطّلَع عليه أن ينظر إليه بعين الإنصاف والموادعة ، لا بعين الاعتساف والمنازعة ، فإني ما قصدت به الشقاق والمجادلة ، ولا إظهار الغلبة والمماحلة .

واللهَ أسألُ أن يكسوه حُلَلَ القبول ، وأن يمن عليَّ ببلوغ منتهى السُّول إنه قريب مجيب .

وما أحسن قول القائل :

فإن وقَفَتْ قدرتى دون همّتى ... فمبلغ علمى والمعاذير تقبل

وقيل أيضًا : لو كانت للكلمات أجنحة فطارت لتعود على أعشاشها القديمة التي انطلقت منها لما بقي في كتبنا إلا أقل القليل .

قال أبو محمد بن حزم : (وإنما ذكرنا التآليف المستحقة الذكر والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلّف عاقل إلّا في أحدها وهي : -

١ - إما شئ لم يُسبق إليه يخترعه ٢ - أو شيء ناقص يُتمُّه ٣ - أو شيء مستغلق يشرحه

٤ - أو شيء طويل يختصره دون أن يخلّ بشيءٍ من معانيه ٥ - أو شيء متفرّق يجمعه

٦ - أو شيء مختلط يرتّبه ٧ - أو شيء أخطأ مؤلّفه يصلحه

فالجواد قد يكبو والسيف قد ينبو والكمال لله سبحانه .

سائلًا المولى - عز وجل - أن يرزقني الإخلاص في جميع أقوالي ، وأفعالي ، ويجعلها ذخرًا لي يوم لقاه ، وسببًا لنيل رضاه ، وأن يتقبلها مني بقبول حسن .

مَنْ ذَا الذِي مَا سَاءَ قَطْ وَمَنْ لَه الحُسْنَى فَقَطْ

فسمع هاتفًا يقول :

مُحَمَّدُ الهَادي الذِي عَليْهِ جِبْرَيلُ هَبَطْ

وقال غيره : إنَّ أخَاكَ الحَقُّ مَنْ كانَ مَعَكَ وَمَنْ يضرُّ نفْسَهُ لِينْفَعَكَ

وَمَنْ إذا ريبُ الزّمانِ صَدَّعَكَ شَتَّتَ فيكَ شَمْلَهُ ليَجْمَعَكَ

وقيل أيضًا : (السعيد من عُدَّت غلطاته وما اشتدت سقطاته) .

قال أبوعبد الله (أحمد بن حنبل ت ٢٤١) : ما رأيت أحدًا أقل خطئًا من يحي بن سعيد القطان ،

! ولقد أخطأ في أحاديث ثم قال أبو عبد الله : ومن يعرى من الخطأ والتصحيف ؟

قال الجاحظ (ت ٢٥٠) : ينبغي لمن كتب كتابًا ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء وكلهم عالم بالأمور وكلهم متفرغ له .

قال يحيى بن خالد البرمكي (ت ١٩٠) : (ثلاثة أشياء تدلّ على عقول أربابها : الهدية ، والكتاب ، والرسول) .

قال الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣) : (من صنّف فقد جعل عقلَه على طبق يعرضه للناس) .

قال ابن المقفّع (ت ١٤٤) : مَن وضع كتابًا فقد استُهدِف فإن أجاد فقد استُشرِف ، وإن أساء فقد استُقذِف .

قال يعقوب الأديب : كم من كتاب قد تصفحته ... وقلت في نفسي صححته

ثم إذا طالعته ثانيًا ... رأيت تصحيفًا فأصلحته

فالله عز وجل يرضى عن المنصف في سواء السبيل ويوفق المتعسف حتى يرجع عن الأباطيل ويمتع بهذا الكتاب المسلمين من العالمين العاملين فإني جعلته ذخيرة ليوم الدين وأخلصت فيه باليقين والله لا يضيع أجر المحسنين وهو على كل شيء قدير وبالإجابة لدعانا جدير وبه الإعانة في التحقيق وبيده أزمة التوفيق .

وقال آخر :

بمكارم الأخلاق كن متخلقا ليفوح عَرْف ثَناك العطر الشَّذي

وانفع صديقك إن أردت صداقة وادفع عدوك بالتي فإذا الذي

يشير – يرحمه الله – إلى قوله تعالى : (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (فصلت / ٣٤) .

التمهيد

لا يخفى على طالب علم أهمية حفظ المتون خاصة في بداية طلب العلم ، وسوف ألقي الضوء على ذلك .

أهمية الاهتمام بالمتون حفظًا وفهمًا وعلمًا وعملًا وتبليغًا .

إذا ضبط طالب العلم المتون المعروفة في الحديث ، وفي العلوم المختلفة ، فإنه يكون مهيئًا للانتقال إلى درجات أعلى بفهم وتأسيس لما سبق .

يقال : من حفظ المتون حاز الفنون ، ونحن في الواقع ضيعنا المتون بينما كان طلبة العلم في السابق لا يقرءون فنًا إلا بعد حفظ متنٍ فيه ، مثل الزاد في الفقه ، والألفية في النحو ، فلا بد لطالب العلم في أي فن يقرأه ، أن يكون حافظًا لمتن فيه .

ولكن – وهذا من المؤسف – كثرة المشاغل ، وحشو القلب بكثير من الأشياء أضعف ذاكرة الحفظ ، ومهما يكن من شيء فينبغي للطالب إذا استطاع أن يحفظ متنًا ولو لم يفهمه ، لأنه سيأتي وقت يفهمه .

ولذا نجد في نظام الكتاتيب ، اعتناءهم بتحفيظ الأطفال القرآن الكريم مع أن أحدهم لا يفهم معناه ، ولا يستطيع أن يرتقي إلى مستوى الفهم ، لكن بعد أن يكبر يكون الحفظ موجودًا ، فإذا قرأ فهم ، أو رجع إلى التفسير كان أيسر عليه ، والله المستعان .

لقد سلك العلماء في قديم الزمان وحديثه في طلب العلم مسالك عِدَّة منها :

الحفظ : و هذا مسلك سار عليه كثير من أهل العلم و أبدعوا فيه : تأصيلًا له ، و عملًا به ، ودعوة إليه .

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي :

ليس علمًا ما حوى القِمَطْرُ .... إنما العلم ما حواه الصدر

وأهمية الحفظ معلومة ، ولاريب أن الحافظ يُقدم على غيره ، وتظهر ميزته بين أهل العلم أنفسهم ، ولهذا قال صاحب الرحبية :

(فاحفظ فكل حافظ إمام) وقيل : (من حفظ المتون حاز الفنون)

ولا يحسن في حق طالب العلم الاشتغال عن حفظ وضبط المتون بالمطولات ، وأُوصى نفسي وطالب العلم بالجد والاجتهاد في طلب العلم والصبر والمثابرة عليه وتعهد المحفوظات بالمراجعة فمن تعهدها أمسكها ، وفي إمساكها العلم الكثير ، وفي إهمال وترك مراجعتها إهمال لأصل عظيم من أسباب حفظ العلم ، وليجتهد في الحرص على الحفظ وعدم الملل والسآمة من ذلك ، فإن الحفظ رأس المال ، وكفى بالحفظ شرفًا أنه يَدخل تحت دعاء النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – للذي يحفظ بالنضارة إذ قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ " . قال الألباني في صحيح الترمذي : صحيح ، ابن ماجة (٢٣٠) وقد قال بعضهم :

حرف في فؤادي ولا ألف في كتابي ، وقال آخر شعرًا :

العلم ويحك ما في الصدر تجمعه حفظًا وفهمًا وإتقانًا فداك أبي

وقد أحسن بعضهم حيث يقول :

اطلُبْ ولا تَضْجَرَ منْ مَطلَبٍ * فآفَةُ الطَّالِبِ أن يَضْجَرا
أما ترى الحبلَ بِتِكْرَارِهِ * فِي الصَّخْرَةِ الْصماء قَد أَثَّرَا

وعلى طالب العلم ملازمة العلماء العاملين ، والاستفادة من علومهم ، والصبر على ما يبدر منهم إن بدر .

وقد أحسن الشافعي حيث يقول :

اصبرْ على مُرِّ الجفا من معلمٍ ... فإن رسوبَ العلمِ في نَفَراتهِ
ومن لم يذقْ مُرَّ التعلم ساعةً ... تجرَّعَ ذلَّ الجهلِ طولَ حياتهِ
ومن فاتَه التعليمُ وقتَ شبابهِ ... فكبِّرْ عليه أربعًا لِوَفَاتِهِ
وذاتُ الفتى والله بالعلم والتُّقَى ... إذا لم يكونا له لا اعتبارَ لِذَاتِهِ

وقال رجل من بني أسد في الصبر :

دَبَبْتَ لِلْمَجْدِ والسَّاعُونَ قَدْ بَلَغُوا ... جَهْدَ النُّفُوسِ وأَلْقَوْا دُونَهُ الأُزُرَا
فَكَابَرُوا المَجْدَ حتَّى مَلَّ أَكْثَرُهُمْ ... وَعانَقَ المَجْدَ مَنْ أَوْفَى وَمَنْ صَبَرَا
لا تَحْسَبِ المَجْدَ تَمْرًا أنْتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

ورحم الله القائل : (مَنْ ثَبَتَ ، نَبَت) .

والقائل : (مَنْ طلب الراحة ، ترك الراحة) (والنعيم لايُدرك بالنعيم) .

وليُعلم أنه لا بدَّ من المنهجية والمرحلية في الطلب ، فلكل علم ثلاث مراتب :

١ – اختصار ٢ – اقتصاد ٣ – استقصاء

وهذه الثلاث لثلاث : ١ – للمبتدئ ٢ – للمتوسط ٣ – للمنتهي

وليُعلم أنه ما من علم من العلوم إلا وكُتُبه بين مختصر ومطوَّل ، متى رام المطوَّل قبل المختصر ، فقد منهجية مهمة في استقرار الأصول .

والمختصرات لها فائدة ، وفائدتها تثبيت أصول العلم ، والبناء كما هو معلوم يحتاج إلى أساس قبل تشييد ارتفاعه ، فالمختصرات طريق للكتب المطوَّلة ، وإنما المطوَّلات يُحتاج إليها في معرفة ما أشكل من المختصرات ، ولمراجعة مسألة مثلًا ، لكن كتأسيس في طلب العلم ، لا بد من رعاية الاختصار ، قبل المتوسط ، قبل المطوَّل .

(انظر المنهجية في قراءة أهل العلم / لصالح آل الشيخ) .

الحديث الأول

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي حَفْصٍ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ :

" إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلى اللهِ وَرَسُولِهِ ؛ فَهِجْرَتُهُ إِلى اللهِ وَرَسُوْلِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيْبُهَا ، أَو امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " . (١) رواهُ البخاريُّ ومسلمُ .

---

(١) الحديث الأول من النُسَخِ التي بين أيدينا من البخاري ومسلم :

١ – " إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " . (خ / ١) .

٢ – " الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " . (خ / ٥٤) .

٣ – " الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَلامْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " . (خ / ٢٥٢٩) .

٤ – " الْعَمَلُ بِالنِّيَّةِ وَإِنَّمَا لامْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ : وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " . (خ / ٥٠٧٠) .

٥ – " إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَإِنَّمَا لامْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " . (خ / ٦٦٨٩) .

٦ – " إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَإِنَّمَا لامْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ هَاجَرَ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " . (خ / ٦٩٥٣) .

هذا الحديث ورد في البخاري في ستة مواضع وبينها الفروق الآتية :

١ – (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ) (الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ) (الْعَمَلُ بِالنِّيَّةِ) (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ) .

٢ – (وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ) (وَلِكُلِّ امْرِئٍ) (وَلامْرِئٍ) (وَإِنَّمَا لامْرِئٍ) .

٣ – (فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ) ليست موجودة في الحديث الأول .

٤ – (إِلَى دُنْيَا) (لِدُنْيَا) .

٥ – (أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا) (أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا) (أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا) .

٦ – وَمَنْ هَاجَرَ

– أما رواية مسلم : " إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَإِنَّمَا لامْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " . (م / ٥٠٣٦) .

* تنبيه مهم جدًا * : قد يقول قائل أو يسأل سائل : لماذا هذا الاختلاف بين هذه الروايات عما أورده الإمام النووي ؟

فأقول مُستعينًا بالله مُلتَمِسًا العذر للإمام النووي – وهذا من اجتهادي – فإن أصبتُ فالحمد لله ، وإن أخطأتُ فكل بني آدم خطّاء :

١ – قد تكون هذه الرواية التي ذكرها موجودة في بعض النسخ التي لم تصل إلينا .

٢ – قد تكون هذه الرواية التي ذكرها رواها كما وصلت إليه .

٣ – قد تكون هذه الرواية التي ذكرها رواها من حفظه .

٤ – أو قد يكون اعتراه ما يعتري البشر من الخطأ أو النسيان ، أو غير ذلك مما لا أعلمه .

المعنى الإجمالي

هذا الحديث أصل من أصول الدين ، ومن جوامع الكلم التي أوتيها الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، ولذلك يدخل في كل باب من أبواب الأحكام ، هذا حديث عظيم وقاعدةٌ جليلة من قواعد الإسلام هي القياس الصحيح لوزن الأعمال ، من حيث القَبول وعدمه ، ومن حيث كثرةِ الثواب وقِلَّتِه . فإن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يخبر أن مدار الأعمال على النيات ، فإن كانت النيةُ صالحة ، والعملُ خالصًا لوجه الله تعالى ، فالعملُ مقبول . وإن كانت غيرَ ذلك ، فالعملُ مردود ، فإن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك . ثم ضرب رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مثلًا يوضح هذه القاعدةَ الجليلةَ بالهجرة . فمن هاجر من بلاد الشرك ، ابتغاء ثواب الله ، وطلبًا للقُرْب من النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وتعلُّمَ الشريعة ، فهجرته في سبيل الله ، والله يثيبه عليها . ومن كانت هجرته لغرض من أغراض الدنيا ، فليس له عليها ثواب . وإن كانت إلى معصية ، فعليه العقاب .

توضيح الحديث

أولًا : فضل هذا الحديث :

– هذا الحديثُ أحدُ الأحاديث التي عليها مدارُ الإسلام ، ولهذا قال العلماء : مدارُ الإسلام على حديثين : هما ، هذا الحديث ، وحديث عائشة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْها – : " مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ " فهذا الحديث عمدة أعمال القلوب ، فهو ميزان الأعمال الباطنة ، وحديث عائشة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْها– : عمدة أعمال الجوارح .

(المعنى)

" إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى "

(إِنَّمَا) : أداة حصر تُثبتُ المذكور وتَنفِي ما سواه .

(الأَعْمَالُ) : جمع عمل ، وهو : الفعل بقصدٍ ، والمقصود به : الأعمال الشرعية المفتقرة إلى نِيَّة ، ويشمل أعمالَ القلوبِ وأعمالَ النُّطقِ ، وأعمالَ الجوارحِ ، فتشمل هذه الجملةُ الأعمالَ بأنواعها .

(بِالنِّيَّاتِ) : بتشديد الياء وتخفيفها جمع نيّة ، هي عزم القلب على فعل الشيء .

وهي لغة : قصدُ الفعلِ ، وانبعاثُ القلبِ نحو ما يراه موافقًا لغرضٍ من جلب نفعٍ ، أو دفع ضرٍ .

وشرعًا : العزمُ على فعلِ العبادةِ تَقَرُّبًا إلى الله تعالى ، ومَحِلُّها القلب ، فهي عملٌ قلبيٌ ولا تعلُّق للجوارِح بها .

(امْرِىءٍ) : أي لكل إنسانٍ .

(مَا نَوَى) : أي ما نواه ، فمن نوى شيئًا لم يحصل له غيره .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٣٥)

١– الحديث أصلٌ في تعظيم أمر إخلاص النية ، فإخلاصُ النية هو رأسُ الأمر والذي يُبنى عليه وهو العاصم بحول الله وقوته .

في الحديث دليل على أن النيةَ من الإيمان ، لأنها عملُ القلب ، والإيمانُ عند أهلِ السنةِ والجماعةِ تصديقٌ بالجنان ، ونطقٌ باللسان وعملٌ بالأركان .

٢- أهميةُ النيةِ الصالحةِ ، وعِظَمُ فضلِها حيث إن جميعَ الأعمالِ مدارُها على النية .

٣- الناسُ يختلفون في قَبولِ العملِ وعدمِ قَبوله ، وعظمِ الثوابِ والأجرِ ونقصانِهِ بناءً على اختلافِهم في صدق النيةِ وصلاحِها أو فسادِها ، وكمالِها أونقصانِها .

٤- من بركات الإخلاصِ أنه يتضاعفُ به فضلُ العمل ، ويَعظُمُ به أجرُه .

٥- أن العمل الخالي عن القصدِ لغوٌ لا يترتب عليه حُكمٌ ولا جزاءٌ إلا ما يُضمنُ بالإتلافِ .

٦- يدلُّ الحديثُ على وجوبِ تعاهدِ النيةِ والعنايةِ بها ومعالجَتِها .

٧- اشتراطُ النيةِ في كلِ عبادة من صلاة وزكاة وصيام وغير ذلك ، ويدخل في هذا نيةُ نوعِ العبادةِ وعينِها ، كصلاة الظهر الحاضرةِ وصلاةِ الراتبةِ لإحدى الصلواتِ المكتوبةِ ، وصومِ القضاء ، وكذلك تُشترطُ النيةِ لجميع العقود كالبيع والهبة والعتق ونحوها .

٨- أنه لا يُفرّقُ بين الأعمال المتشابهة في الصورة إلا النية .

٩- فوائد النية بالنسبة للأعمال :

أ - تُمَيّزُ العبادةَ من العادةِ : مثلُ تُمَيّزُ غُسلَ الجنابةِ عن غُسلِ التبرُّدِ والتنظفِ .

ب - تُمَيّزُ العباداتِ بعضُها من بعض : مثل : تُمَيّزُ صلاةَ الظهر عن صلاة العصر .

ج - تُمَيّزُ المقصودَ بالعمل أهو اللهُ وحدَهُ أم لا ؟

١٠- ابتناء العملِ على النية صلاحًا وفسادًا ، وكذلك الجزاءِ ، ففسادُ النيةِ يستلزم فسادُ العمل ، كمن عمل لغير الله . وصلاحُ النيةِ لا يستلزمُ صلاحَ العمل لتوقف ذلك على وجود شرط ، كموافقة الشرع .

١١- مدارُ الثوابِ في الأعمال عند الله سبحانه مرتبطٌ بالنية الصالحة وليس مجردُ الفعل ، ومن هنا لم ينتفع المنافقون بأعمالهم وذلك لذهاب نيتهم الصالحةِ أو نقصانها .

١٢- أنه لا يحصل للمُكلَّفِ من عمله إلا ما نوى .

١٣- بالنية الصالحةِ تتحولُ المباحاتُ إلى مستحباتٍ يثابُ عليها الإنسان ، فمن جلس مع غيره وسامرَهُ وآنسه من غير باطل فإنه يثاب على هذا المباحِ إن قصد مؤانسةَ أخيه المسلمِ وإدخالَ السرورِ عليه وهكذا .

١٤- وجوبُ إخلاصِ العملِ لله .

١٥- تحريمُ العمل لغير الله .

١٦- النيةُ الصادقةُ لا بدَّ لها أن تكونَ على سنةٍ نبويةٍ حتى تُقبلَ عند الله .

١٧- الحديثُ يتكلمُ عن قضية النيةِ فقط وأهميتِها ، ولم يُقصدْ به أن النية تكفي عن العمل .

١٨- أن النية نوعان :

أ - نيةُ العملِ نفسهِ وذلك في قوله : " إنما الأعمال بالنيات " .

ب - نيةُ مَنْ لأجلهِ العمل ، وذلك في قوله : " وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى " ، وهذه هي التي عليها المُعوَّلُ في الإخلاص وضدّه .

١٩- حسنُ تعليمِ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وذلك : بتنويع الكلام وتقسيمه ، لأنه قال : " إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ " وهذا للعمل " وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى " وهذا للمعمولِ له .

(المعنى)

" فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلى اللهِ وَرَسُوله فَهِجْرَتُهُ إِلى اللهِ وَرَسُوله "

(فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ) : انتقاله من دار الشرك إلى دار الإسلام .

(الهجرة) : لغة : الترك والانتقال ، وشرعًا : الانتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام ، ومن دارِ الخوفِ إلى دار الأمان ، كما فعل الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم – في الهجرة إلى الحبشة ، أو الانتقال إلى دار الإسلام فرارًا بالدِّين ، والمقصودُ بها في هذا الحديث : الانتقالُ من مكةَ إلى المدينةِ قبل فتحِ مكةَ ، وتُطلقُ الهجرةُ أيضًا على ترك المنكرات كما في قوله تعالى : (والرُّجْزَ فَاهْجُر) (المدثر / ٥) .

(إلى اللهِ) : بأن يكونَ قصدُه بالهجرة طاعةَ الله عز وجل يريد ثوابَ الله ونُصرةَ دينِ الله .

(وَرَسُولِه) : محمدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والهجرة إلى رسولِ الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
ليفوزَ بصحبته ويعملَ بسنته ويدافعَ عنها ويدعوَ إليها وبالذبِّ عنه ، ونُصرةِ دينه ، فهذه هجرته إلى رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، والهجرة إلى رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لشخصه وشريعته حال حياته ،
أما بعد مماته فتكون الهجرة إلى رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بالهجرة إلى شريعته فقط .

(فَهِجْرَتُهُ إِلى اللهِ وَرَسُوله) : ثوابًا وأجرًا .

(المستفاد)

٢٠- ضَرْبُ العَالِمِ الأمثالِ للتوضيح والبيان .

ففي هذا الحديث ذَكَرَ النبيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قاعدةً وهي : " إنما الأعمال بالنيات " ثم ذكر لها مثالًا يوضِّحُها وهو " الهجرة " .

٢١- من أساليبِ التعليم : ذكرُ قاعدةٍ ثم ذكرُ مثالٍ يوضحها .

٢٢ – من حُسنِ التعليم : تقسيم الهجرة إلى قسمين : شرعية وغير شرعية ، وهذا من حسن التعليم ، ولذلك ينبغي للمعلم أن لا يسرد المسائل على الطالب سردًا لأن هذا يُنْسِي ، بل عليه أن يجعل أصولًا ، وقواعدَ وتقييدات ، لأن ذلك أقربُ لثبوتِ العلم في قلبه ، أما أن تَسرُدَ عليه المسائلَ فما أسرعَ أن ينساها .

٢٣- قُرِنَ الرسولُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مع الله تعالى بالواو حيث قال : " إِلى اللهِ وَ رَسُوله " ولم يقل : ثم إلى رسوله ، مع أن رجلًا قال للرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : مَا شاءَ اللهُ وشِئْتَ ، فَقَالَ : " بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَه "
فما الفرق ؟

والجواب : أما ما يتعلق بالشريعة : فيُعَبَّر عنه بالواو ، لأن ما صدر عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من الشرع كالذي صدر من الله تعالى كما قال تعالى : (مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ) (النساء / ٨٠)

وأما الأمور الكونية : فلا يجوز أن يُقرن مع الله أحدٌ بالواو أبدًا ، لأن كل شي تحت إرادة الله تعالى ومشيئته وحده .

٢٤- مشروعية الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

٢٥- وجوب الإخلاص في الهجرة وذلك بأن تكون إلى الله ورسوله في حياته – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وإلى دينه وسنته بعد وفاته – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

٢٦- الأفضل لكل إنسان أن يسكن الأرض التى يكون فيها أطوع لله .
٢٧- أن من أخلص في عمله حصل له مراده حكمًا وجزاءً ، فعمله يكون صحيحًا ، ويترتب عليه الثواب إذا تحققت شروط العمل .

(المعنى)

" وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيْبُهَا ، أَو امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ "
(لِدُنْيَا) : بضم الدال وكسرِها من الدنوّ ، أي القُرْب ، سميت بذلك لسبقها للأخرى ، أو لدنوها إلى الزوال ، وهي ما على الأرض مع الهواء والجو مما قبل قيام الساعة . وقيل : المراد بها هنا المال بقرينة عطف المرأة عليها .
(يُصِيْبُهَا) : يُحصيها .
(يَنْكِحُهَا) : يتزوجُها .
(فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) : كائنًا ما كان ، فالأول تاجر (الذي هاجر للدنيا) ،
والثاني خاطب (الذي هاجر للمرأة) .

(المستفاد)

٢٨- خطورة الرياء : ويكمن خطرُه في كونه أمرًا خفيًا سريعًا إلى القلب ، قد يقعُ فيه الإنسانُ من حيث لا يشعر ، فآثاره خطيرة ، وعواقبه وخيمة .
٢٩- أن من عمل للدنيا لا يحصل له إلا ما نوى إذا شاء الله ، قال تعالى : (مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا) (الإسراء / ١٨) .
٣٠- في الحديث إشارةٌ إلى عظيمِ خطرِ حب الدنيا على النيات ، وخاصةً فتنةَ الجاه وطلبِ الرياسة .
٣١- حبوطُ العمل بعدم الإخلاص لله .
٣٢- وقولُه : " فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلى اللهِ وَرَسُوله فَهِجْرَتُهُ إِلى اللهِ وَرَسُوْله " اتَّحدَ فيه الشرطُ والجزاء ، والأصل اختلافهما ، والمعنى : من كانت هجرته إلى الله ورسوله نيَّة وقصدًا ، فهجرته إلى الله ورسوله ثوابًا وأجرًا ، فافترقا .
٣٣- تحقير الدنيا وشهواتها لقوله : " فهجرته إلى ما هاجر إليه " حيث أبهم ما يحصل لمن هاجر إلى الدنيا ، بخلاف من هاجر إلى الله ورسوله فإنه صرح بما يحصل له ، وهذا من حسن البيان وبلاغة الكلام .
٣٤- إخفاء نية من هاجر للدنيا ، لقوله : " فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " ولم يقل : إلى دنيا يصيبها ، والفائدة البلاغية في ذلك هي : تحقير ما هاجر إليه هذا الرجل ، وهي : الدنيا أو المرأة . أي ليس أهلًا لأن يذكر ، بل يُكَنَّى عنه بقوله : " إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " . وقولُه : " فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلى اللهِ وَرَسُوله " الجواب : " فَهِجْرَتُهُ إِلى اللهِ وَرَسُوْله " فذكره تنويهًا بفضله .
٣٥- التحذير من فتنة النساء لقوله : (أو امرأةٍ ..) وخصَّها بالذكر لشدة الافتتان بها .
كما في الحديث : (.... فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ) (م / ٧١٢٤) .

الأسئلة والأجوبة التدبرية على الأربعين النووية

الحديث الأول

– قالوا في تعريف النِّيَّة : هي عزم القلب على فعل الشيء .

وهي لغة : قصد الفعل ، وانبعاث القلب نحو ما يراه موافقًا لغرض من جلب نفع ، أو دفع ضر .

وشرعًا : العزم على فعل العبادة تقربًا إلى الله تعالى ، ومحلها القلب ، فهي عمل قلبي ولا تعلق للجوارح بها .

س : إذا قال قائل : قول المُلَبِّي : لبيك اللهم عمرة ، ولبيك حجًا ، ولبيك اللهم عمرة وحجًّا ، أليس هذا نُطقًا بالنية ؟

ج : لا ، هذا من إظهار شعيرة النُّسك ، ولهذا قال بعض العلماء : إن التلبية في النسك كتكبيرة الإحرام في الصلاة ، فإذا لم تلبِّ لم ينعقد الإحرام ، كما أنه لو لم تكبر تكبيرة الإحرام للصلاة ما انعقدت صلاتك .

* واعلم أن النية محلها القلب ، ولا يُنْطَقُ بها إطلاقًا ، لأنك تتعبّد لمن يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، والله تعالى عليم بما في قلوب عباده ، ولستَ تريد أن تقوم بين يدي من لا يعلم حتى تقول أتكلم بما أنوي ليعلم به ، إنما تريد أن تقف بين يدي من يعلم ما توسوس به نفسك ويعلم متقلّبك وماضيك ، وحاضرك .

ولهذا لم يَرِدْ عن رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ولا عن أصحابه – رضوان الله عليهم – أنهم كانوا يتلفّظون بالنية .

س : " فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُوْلِهِ " كيف تكون الهجرة إلى رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بعد موت الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وهل يمكن أن نهاجر إليه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ؟

ج : أمَّا شخصه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فلا ولذلك لا يُهاجر إلى المدينة من أجل شخص الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لأنه تحت الثرى ، وأما الهجرة إلى سنته وشرعه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فهذا مما جاء الحث عليه وذلك مثل : الذهاب إلى بلد لنصرة شريعة الله والرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والذود عنها .

فالهجرة إلى الله في كل وقت وحين ، والهجرة إلى رسول الله لشخصه وشريعته حال حياته ، وبعد مماته إلى شريعته فقط .

س : لماذا قُرن الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مع الله تعالى بالواو حيث قال : " إِلَى اللهِ وَرَسُولِه " ولم يقل : ثم إلى رسوله ، مع أن رجلًا قال للرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : مَا شاءَ اللهُ وشِئْتَ ، فَقَالَ : " بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَه " فما الفرق ؟

والجواب : أما ما يتعلق بالشريعة : فيعبر عنه بالواو ، لأن ما صدر عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من الشرع كالذي صدر من الله تعالى كما قال تعالى : (مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ) (النساء / ٨٠)

وأما الأمور الكونية : فلا يجوز أن يُقرن مع الله أحدٌ بالواو أبدًا ، لأن كل شي تحت إرادة الله تعالى ومشيئته .

فإذا قال قائل : هل ينزل المطر غدًا ؟

فقيل : الله ورسوله أعلم ، فهذا خطأ ، لأن الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ليس عنده علم بهذا .

* مسألة : وإذا قال : هل هذا حرامٌ أم حلال ؟

فقيل في الجواب : الله ورسوله أعلم ، فهذا صحيح ، لأن حكم الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في الأمور الشرعية حكم الله تعالى كما قال تعالى : (مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ) (النساء / ٨٠)

– (فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللهِ وَرَسُوْلِهِ) .

س : هل هاتان الجملتان بمعنى واحد ، أو مختلفان ؟

ج : يجب أن نعلم أن الأصل في الكلام التأسيس دون التأكيد ، ومعنى التأسيس : أن الثانية لها معنى مستقل ، ومعنى التأكيد : أن الثانية بمعنى الأُولى .

وللعلماء – يرحمهم الله – في هذه المسألة رأيان :

والصواب : أن الثانية غير الأُولى ، فالكلام من باب التأسيس لا من باب التوكيد ، فالأولى باعتبار المنوي وهو العمل .

والثانية : باعتبار المنوي له وهو المعمول له ، هل أنت عملت لله أو عملت للدنيا .

ويدل لهذا ما فرعه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في قوله :

" فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللهِ وَرَسُوْلِهِ " وعلى هذا يبقى الكلام لا تكرار فيه .

والمقصود من هذه النية تمييز العادات من العبادات ، وتمييز العبادات بعضها من بعض .

* و مثال تميز العادات عن العبادات :

أولًا : الرجل يأكل الطعام شهوة فقط ، والرجل الآخر يأكل الطعام امتثالًا لأمر الله تعالى في قوله : (وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ) أكل الثاني عبادة ، وأكل الأول عادة .

ثانيًا : الرجل يغتسل بالماء البارد تبردًا ، والثاني يغتسل بالماء من الجنابة ، فالأول عادة ، والثاني : عبادة .

ولهذا قال بعض أهل العلم : عبادات أهل الغفلة عادات ، وعادات أهل اليقظة عبادات .

* و مثال تميز العبادات بعضها من بعض :

رجل يصلي ركعتين ينوي بذلك التطوع ، وآخر يصلي ركعتين ينوي بذلك الفريضة ، فالعملان تميزا بنية ، هذا نفل وهذا واجب ، وعلى هذا فَقِسْ .

وقوله : " فمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله " اتَّحد فيه الشرط والجزاء ، والأصل اختلافهما ، والمعنى : من كانت هجرته إلى الله ورسوله نيَّة وقصدًا ، فهجرته إلى الله ورسوله ثوابًا وأجرًا ، فافترقا .

* مسألة : أيهما أفضل العلم أم الجهاد في سبيل الله ؟

والجواب : العلم من حيث هو علم أفضل من الجهاد في سبيل الله لأن الناس كلهم محتاجون إلى العلم ،وقد قال الإمام أحمد : " العلم لا يعدله شيء لمن صحت نيته "، ولا يمكن أبدًا أن يكون الجهاد فرض عين لقول الله تعالى : (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً) فلو كان فرض عين لوجب على جميع الناس (فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ) أي وقعدت طائفة (لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (التوبة / ١٢٢) ولكن باختلاف الفاعل واختلاف الزمن ، قد نقول لشخص : الأفضل في حقك الجهاد ، ولآخر الأفضل في حقك العلم ، فإذا كان شجاعًا قويًا

نشيطًا وليس بذاك الذكي فالأفضل له الجهاد ؛ لأنه أليَق به ، وإذا كان ذكيًا حافظًا قوي الحجة فالأفضل له العلم وهذا باعتبار الفاعل .

أما باعتبار الزمن فإننا إذا كنّا في زمن كثر فيه العلماء واحتاجت الثغور إلى مرابطين فالأفضل الجهاد .

وإن كنّا في زمن تفشى فيه الجهل وبدأت البدع تظهر في المجتمع وتنتشر فالعلم أفضل .

وهناك ثلاثة أمور تحتّم على طلب العلم :

١- بدع بدأت تظهر شرورها .

٢- الإفتاء بغير علم .

٣- جدل كثير في مسائل بغير علم .

وإذا لم يكن مرجّح فالأفضل العلم .

س : هل الهجرة واجبة أم مستحبة ؟

الجواب : فيه تفصيل ، إذا كان الإنسان يستطيع أن يظهر دينه وأن يعلنه ولا يجد من يمنعه في ذلك ، فالهجرة هنا مستحبة .

وإن كان لا يستطيع فالهجرة واجبة وهذا هو الضابط للمستحبّ والواجب ، وهذا يكون في البلاد الكافرة .

أما في البلاد الفاسقة – وهي التي تعلن الفسق وتظهره – فإنا نقول : إن خاف الإنسان على نفسه أن ينزلق فيه أهل البلد فهنا الهجرة واجبة ، وإن لم يخف فتكون غير واجبة ، بل نقول في بقائه إصلاح ، فبقاؤه واجب لحاجة البلد إليه في الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والحاصل أن الهجرة من بلاد الكفر ليست كالهجرة من بلاد الفسق ، فيقال للإنسان : اصبر واحتسب ولا سيما إن كنت مصلحًا ، بل قد يقال : إن الهجرة في حقك حرام .

س : ماذا يستفاد من قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " بعد قوله : " وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيْبُهَا ، أَو امْرأَةٍ يَنْكِحُهَا " ، ولم يقل : (فهجرته للدنيا ، أو لدنيا يصيبها) ؟

ج : تحقير الدنيا وشهواتها لقوله : " فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " حيث أبهم ما يحصل لمن هاجر إلى الدنيا ، بخلاف من هاجر إلى الله ورسوله فإنه صرح بما يحصل له ، وهذا من حسن البيان وبلاغة الكلام .

و إخفاء نية من هاجر للدنيا ، لقوله : " فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " ولم يقل : إلى دنيا يصيبها ، والفائدة البلاغية في ذلك هي : تحقير ما هاجر إليه هذا الرجل ، أي ليس أهلًا لأن يُذكر ، بل يكنى عنه بقوله : " إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " .

ولم يقل : إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، لأن فيه تحقيرًا لشأن ما هاجر إليه وهي : الدنيا أو المرأة .

الحديث الثاني

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذَاتَ يَوْمٍ ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ ، وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . قَالَ : صَدَقْتَ . قَالَ : فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ ؟ قَالَ : " أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ " . قَالَ : صَدَقْتَ . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ ؟ قَالَ : " أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ " . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ ؟ قَالَ : " مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ " . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا ؟ قَالَ : " أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ " . قَالَ : ثُمَّ انْطَلَقَ ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي : " يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ " .

قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : " فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ " . (م / ١٠٢) .

المعنى الإجمالي

هذا الحديث أصلٌ في جميع المعارف والعلوم التي يحتاجها المسلم ، فهو شاملٌ لمعنى الإسلام والإيمان والإحسان ، كما شمل الكلام في الاعتقاد وذكر جملةً من أموره ، كالإيمان بالقدر ، واليوم الآخر ، وعلامات الساعة ، والغيب ، وشمل الحديث عن العبادات وبيَّن أصولها ، وأركان الإسلام التي لا يقوم بدونها ، فهو كالأمّ للسُنَّةِ جميعًا كما أن فاتحة الكتاب " أم القرآن " ، لما تضمنته من جمع معاني القرآن .

وفي الحديث بيانٌ لما يجب أن يكون عليه الداعية من الحرص على تعليم المدعوين أمورَ دينهم والتدرُّج في دعوتهم ، والبدء بالأركان والفرائض التي لا بد منها لكل مسلمٍ ، والترقِّي بهم إلى أمور الإيمان ومسائل الغيب التي لا يطيقها عقلُ كل أحدٍ . وفيه بيان لما يجب أن يكون عليه المسلم عامة وطالب العلم خاصة من التسليم والانقياد ، وترك التقديم بَيْنَ يدي الله ورسوله بقولٍ أو فعلٍ .

توضيح الحديث

فضل هذا الحديث

هذا الحديث على وجازته اشتمل على فوائد كثيرة ، وعوائد وفيرة ، حتى اعتبر أصلًا لعلوم الشريعة .

قال القرطبي : " هذا الحديث يصلح أن يقال له أُمّ السنة ، لما تضمنه من جملة علم السنة " .

هذا حديث عظيم قد اشتمل على جميع وظائف الأعمال الظاهرة والباطنة ، وعلومُ الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه لما تضمنه من جمعه علم السنة فهو كالأُمِّ للسُنَّة كما سُمِّيَت الفاتحة : أُمّ القرآن لما تضمنته من جمعها معاني القرآن قال القاضي عِياض كما في شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٥٨) :

(وهذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة ، من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال ، حتى إنَّ علومَ الشريعة كلَّها راجعةٌ إليه ومتشعِّبةٌ منه ، قال : وعلى هذا الحديث وأقسامه الثلاثة ألَّفنا كتابنا الذي سمَّيناه بالمقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان ؛ إذ لا يشذ شيءٌ من الواجبات والسنن والرغائب والمحظورات والمكروهات عن أقسامه الثلاثة ، والله أعلم) . وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/٩٧) : (وهو حديث عظيم يشتمل على شرح الدِّين كلِّه ، ولهذا قال النَّبيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في آخره : " هذا جبريل أتاكم يعلِّمكم دينكم " ، بعد أن شرح درجة الإسلام ودرجة الإيمان ودرجة الإحسان ، فجعل ذلك كلَّه دينًا) .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٩٨)

(المعنى)

(عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذَاتَ يَوْمٍ)

(بَيْنَمَا) : هي (بينا) ولكن زيدت (مَا) فيها والأصل : بين نحن ، (مَا) زيدت للتوكيد .

(ذَاتَ يَوْمٍ) : أي في يوم من الأيام .

١– بيان حسن خلق النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وأنه يجلس مع أصحابه لتعليمهم وإيناسهم ويجلسون إليه ، وليس ينفرد ويرى نفسه فوقهم .

٢– أهمية الصُّحبة في التربية وطلب العلم ، ونَلْحَظ هذا من قول عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – :
" بينما نحن جلوس عند رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " .

٣– جواز جلوس الأصحاب إلى شيخهم ومن يفوقهم ، لكن هذا بشرط : إذا لم يكن فيه إضاعة وقت على الشيخ ومن يفوقهم علمًا .

(المعنى)

(إِذْ طَلَعَ) : خرج فجأة .

(رَجُلٌ) : هو جبريل أتى إلى النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – (بصورة رجل لا يعرفونه) .

(المستفاد)

٤– أن من طرق الوحي أن يتمثل الملك بصورة رجل فيكلِّم النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

٥– أن الملائكة عليهم السلام يمكن أن يتشكلوا بأشكال غير أشكال الملائكة ، لأن جبريل أتى بصورة رجل كما جاء في الحديث .

٦– قدرة الملَك على التمثل بصورة الإنسان كما قال تعالى : (فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) (مريم / ١٧) . والمراد روح الله الذي هو جبريل ، وكذلك كان يتمثل للنبي كما في هذا الحديث ، وليس في هذا دليل على جواز التمثيل الذي اشتهر في هذا الزمان ؛ فإنَّه نوعٌ من الكذب ، وما حصل لجبريل فهو بإذن الله وقدرته و عُرف هذا الحديث عند أهل العلم بحديث جبريل المشهور .

(المعنى)

(شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ) : لأن ثيابه بيضاء وشعره أسود ليس فيه غبار ولا شَعَثَ السفر ، ولأن المسافر في ذلك الوقت يُرى عليه أثر السفر .

(المستفاد)

٧- استحباب حسن الهيئة والهندام لطالب العلم والمتعلِّم .

٨- تحسين الثياب والهيئة والنظافة عند الدخول على الفضلاء ، فإن جبريل أتى مُعَلِّمًا للناس بحاله ومقاله .

٩- استحباب لبس البياض عند لقاء الناس وفي المحافل ، والعناية بتسريح الشعر والادِّهان ، لا سيما شعر اللحية ، وقد ورد أنه " شديد سواد اللحية " .

١٠- بياض الثياب والعناية بالشعر ليست من الكبر في شيء .

١١- أن السفر يورث الشَّعَث والغُبْرة .

(المعنى)

(وَلا يَعْرِفُهُ مِنا أحَدٌ) : أي وليس من أهل المدينة المعروفين ، فهو غريب .

(المستفاد)

١٢- التعارف بين الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – ، لقوله : " وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ " .

(المعنى)

(حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ)

(وَوَضَعَ كَفيْهِ) : أي كَفَّي هذا الرجل .

(عَلَى فَخِذَيْهِ) : على فخذي النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كما يُفهم من رواية النَّسائي . وقيل أي فخذي هذا الرجل ، وليس على فخذي النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وهذا من شدة الاحترام . (١)

(المستفاد)

١٣- الأدب مع المعلِّم كما فعل جبريل عليه السلام ، حيث جلس أمام النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – جلسة المتأدب ليأخذ منه ، وهذا له دور على مدى استفادته منه .

١٤- آداب طلب العلم تسبق طلب العلم ، ولذلك تأدب جبريل في جلسته ثم سأل .

١٥- الرفق بالسائل و إدناؤه ، ليتمكن من السؤال غير منقبض و لا هائب .

١٦- استحباب الدنو من العالم والقرب منه .

---

(١) قال النووي أي فخذي نفسه جالسًا على هيئة المتعلم ووافقه التوربشتي وزعم البغوي وإسماعيل التيمي بأن الضمير راجع للنبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ورجحه الطيبي وقواه ابن حجر فإن في رواية ابن خزيمة ثم وضع يديه على ركبتي النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : والظاهر أنه أراد بذلك المبالغة في تعمية أمره ليقوى الظن بأنه من جفاة الاعراب .

(المعنى)

يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ ؟

(أخبرني عن الإسلام) : أخبرني عن حقيقته وأعماله شرعًا ، وكذا يقال في " أخبرني عن الإيمان والإحسان " .

– وتعريف الإسلام : هو الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ ، وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ : الإِسْلامُ ، وَالإِيمَانُ ، وَالإِحْسَانُ . وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ .

(المستفاد)

١٧– جواز التورية لقوله : " يا مُحَمَّد " وهذه العبارة عبارة الأعراب ، فيوري بها كأنه أعرابي ، وإلا فأهل المدن المتخلقون بالأخلاق الفاضلة لا ينادون الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بمثل هذا .

١٨– مشروعية التعليم بالسؤال والجواب .

١٩– احتمال العالم جفاء الجاهل ، لقوله : " يا محمد " ولمبالغته في الدنو من النبي .

٢٠– ينبغي للمسئول التواضع والصفح ، وإن لم يأت السائل بما ينبغي من حُسن الأدب والاحترام .

٢١– من أساليب التعليم : أسلوب السؤال والجواب .

٢٢– جواز أن يَسأل الإنسان عمّا يعلم ليستفيد غيره باستخراج ما عند العالم .

٢٣– استحباب السؤال في العلم . وقد قال تعالى : (فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ) (النحل / ٤٣) وقد قيل : السؤال نصف العلم .

٢٤– السؤال عن العلم النافع في الدنيا والآخرة ، وترك السؤال عما لا فائدة فيه .

٢٥– السؤال من مفاتيح العلم ، فمن استحى منه أو استكبر عنه لا ينال العلم .

٢٦– أن حسن السؤال من أسباب تحصيل العلم .

٢٧– التنويع في طرق التعليم ، واللجوء إلى استخدام وسائل للإيضاح والتشويق .

٢٨– بيان أهمية طريقة الحوار والمناقشة في توصيل المعلومات ، وأهمية التحضير لتلك المحاورات وتنسيقها وتنظيمها بشكل جيد .

٢٩– أنَّ السائلَ كما يسأل للتعلُّم ، فقد يسأل للتعليم ، فيسأل مَن عنده علم بشيء من أجل أن يسمع الحاضرون الجواب .

٣٠– من حضر مجلس علم ولمس أن الحاضرين بحاجة إلى مسألة ما ، ولم يسأل عنها أحد فيجب أن يسأل عنها وإن كان يعلمها هو لينتفع أهل المجلس بالجواب .

٣١– العناية بمهمات الدين وأصوله .

٣٢– فضيلة الإسلام ، وأنه ينبغي أن يكون أول ما يُسأل عنه .

(المعنى)

" الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا "

(أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) : تشهد أي تُقِر وتعترف بلسانك وقلبك ، فلا يكفي اللسان ، بل لا بد من اللسان والقلب ، ويُبين معنى هذه الكلمة ما في الرواية الأخرى لأبي هريرة بلفظ : " أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا " .

(وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله) : أي وتشهد أن محمدًا رسول الله .

(مُحَمَّدًا) : هو محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي ، من ذرية إسماعيل ، وليس من ذرية إسماعيل رسول سواه .

(رَسُولُ الله) : رسول بمعنى مُرسَل ، والرسول هو مَن أوحى الله إليه بشرع وأمر بتبليغه والعمل به .

– وتعريف الشهادة .

لغة : الإخبار والعلم ، وحقيقتها : أنها متركبة من شيئين :

١ – يتعلق بالله .   ٢ – يتعلق برسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

– فإن قيل : الأركان ستة لا خمسة لأن الشهادة شهادتين ، فيكف يُرد ؟

ج : يردُّ من وجهين :

١ – الخبر : كما في حديث جبريل .

٢ – النظر : لأن الشهادتين أقيمتا مقام الواحدة لا الاثنتين بإحدى علتين : –

أ – لأن الشهادة الثانية فرع عن الأولى ، وإذا كان الأصل موجودًا مع ذكر الأصل ارجع الفرع إلى أصله (والأصل هي : شهادة أن لا إله لا الله) ، والفرع (أن محمدًا رسول الله) .

ب – أن يكون من باب التجوُّز وهو وارد في اللغة أن يتجوز في الإطلاق فيجعل الشيئان شيئًا واحدًا .

– ما معنى لا إله إلا الله من الناحية الشرعية بشئ من التفصيل ؟

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ : أَيْ : لَا مَعْبُودَ حقٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ الْوَاجِبُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ ، أَيْ : الْمُسْتَحِقُّ لِلْعُبُودِيَّةِ وَالثَّابِتُ الْأُلُوهِيَّةُ فِي تَوْحِيدِ ذَاتِهِ وَتَفْرِيدِ صِفَاتِهِ .

– قلت : (والقائل / عماد) : تنبيه مهم : اشتهرت عبارة (لَا مَعْبُودَ بِحَقٍ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ) والعبارة التي ذكرتها (لَا مَعْبُودَ حقٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ) فهل يوجد فرق بين العبارتين ؟ قال الشيخ العثيمين : الفرق بينهما أنك إذا قلت " لا معبود حق إلا الله " صار هذا أوفق للقرآن ، (ذلك بأن الله هو الحق) (الحج / ٦٢) ، وأنه لا يحتاج إلى تقدير ، لأنك إذا قلت " لا معبود بحق " فالجار والمجرور خبر متعلق بمحذوف ... تقديره " لا معبود كائن بحق " ، أما إذا قلت " لا معبود حق " فإن الخبر هو الموجود ولا نحتاج إلى تقدير ، لكن لو قلت (لا معبود موجود) فلا يصح ، لماذا ؟

لأنك إذا قلت (لا معبود موجود إلا الله) صارت الأصنام كلها هي الله عز وجل ، وهذا منكر عظيم انتهى .

(والإله) : هو المألوه ، لا إله يعني : لا مألوه ، ولا أحد يستحق أن يؤله ، أي : تألهه القلوب وتوده وتحبه وتعظمه وتقر له بالعبودية ، غير الله تعالى .

– إِلَّا اللَّهُ : اسم الجلالة : هُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؛ والله : اسم عَلَم على الإله المعبود بحق ، أصله إله ، دخلت عليه أل ، فصار الإله ، ثم حذفت همزته وأدغم اللامان فصار (الله) ، رب العالمين ، وهو علم مختص به لا يمكن أن يكون لغيره ، وهذا العلم يكون دائمًا متبوعًا لا تابعًا ، بمعنى أنه هو الذي يُتبع بالأسماء وليس بتابع ؛ فمثلا قال الله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الفاتحة / ٢) قال : (لله) ، ثم قال (رب العالمين) ، ولم يقل (الحمد لرب العالمين الله) وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، ولم يقل : بسم الرحمن الرحيم الله ، فدائمًا هو الذي تتبعه الأسماء وتلحق به .

وهو الاسم الذي تتبعه جميع الأسماء حتى إنه في قوله تعالى :

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) (ابراهيم / ١،٢) لا نقول إن اسم الجلالة (الله) صفة بل نقول هي عطف بيان لئلا يكون اسم الجلالة تابعًا تبعية النعت للمنعوت ، ولهذا قال العلماء أعرف المعارف اسم (الله) لأنه لا يدل على أحد سوى الله– عز وجل – .

واسم الله عَلَمٌ على الذات المقدّسة ، لا يُسمّى به غير الرّب سبحانه وتعالى ، لم يسمّ أحد بهذا الاسم أبدًا ، حتى الجبابرة ، حتى الطواغيت والكفرة ، ما أحد منهم سمّى نفسه (الله) أبدًا ، فرعون قال : (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) ما قال : أنا الله ، مع كُفْره لم يجرؤ أن يُسمّي نفسه هذا الاسم ، وإنما هذا خاص بالله سبحانه وتعالى .

و(الله) معناه : ذو الألوهية ، والألوهية معناها : العبادة ، يقال : أَلَهَ يأْلَهُ : بمعنى : عَبَد يعبُد ، فالألوهية معناها : العبادة ، ف (اللهِ) معناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين .

– ما تفسير (شهادة أن محمدًا رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –) ؟

ج : أما الشهادة الثانية : فهي أيضًا بمعنى الإقرار والاعتراف ، فقوله : (أشهد) يعني : أُقِرّ وأعترف بأن محمدًا عبده ورسوله ، ولا شك أن هذه هي مكملة الشهادة ، ولا تكفي واحدة منهما ، لابدَّ من الشهادتين ؛ وذلك لأن الشهادة الأولى تستدعي العبادة والطاعة لله ، والشهادة الثانية تستدعي المتابعة للنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والتأسي به ، والاقتداء به فيما بلَّغه ، وطاعته فيما جاء به .

وشهادة أن محمدًا رسول الله مقتضاها : أن تؤمن بأنه رسول الله ، وأن تؤمن بأنه بلَّغ ما أرسل به ، وأن تؤمن بأن على الأمة تصديقه ، وأن تؤمن بأنه تجب طاعته ، والتحاكم إليه ، وامتثال ما أمر به ودعا إليه ، وأن تؤمن بأنه بلغ ما أرسل به أتم بلاغ وأتم بيان ، وأن تؤمن بأن لا نجاة لأحد إلا باتّباعه ، وأن الطرق مسدودة إلا من طريقه .

وإذا آمنت بذلك ظهرت عليك آثار ذلك بأن تطبق كل ما جاء به وتمتثله ، وتقدم أقواله على كل قول ، وترضى بالتحاكم إلى شريعته ، هذا هو الرسول ، والرسول معلوم أنه الذي يحمل الرسالة من الله ، أي : فهو مُرسَل من الله ، وهذه الرسالة هي هذه الشريعة التي جاء بها وبلغها قولًا وفعلًا .

وتعريف الرسول : هو مَن أوحي إليه بشرع أو بكتاب وأُمِرَ بإبلاغه أو بتبليغه إلى قوم مخالفين له يعني في أصل الدين .

وشهادة أن محمدًا رسول الله ، ترجع إلى اجتماع أربعة أمور :

١– طاعته فيما أمر والطاعة نوعان : أ – طاعة تحفظ للإنسان أصل إيمانه .   ب – طاعة زائدة عن الأولى .

٢ – تصديقه فيما أخبر : والإخبار من حيث سلب الإيمان أو عدمه نوعان :

أ – أخبار متواترة مستفيضة إن كذَّب بها الإنسان كفر (كتكذيب قيام الساعة وغيرها) .

ب – أخبار خفية دقيقة غير متواترة ، فجماهير أهل السنة على أن من كذّب بها وأنكرها لا يكفر ، حكاه ابن تيمية في الفتاوى ومنهاج السنة .

٣ – اجتناب ما نهى عنه وزجر .

٤ – الأمر الرابع : (وألا يُعبد الله إلا بما شرع) : أن تكون العبادة من المكلف لله متابعًا فيها رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وليس بالبدع ولو ظن الإنسان أنها حسنة .

(وَتُقِيْمَ الصَّلاة) : أي تأتي بها قويمة ، ولا تكون قويمة إلا بفعل شروطها وأركانها وواجباتها – وهذا لا بد منه – وبمكملاتها ، تكون أكمل .

(وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ) : بمعنى تعطي ، والزكاة هي المال الواجب بذله لمستحقه من الأموال الزكوية تعبُّدًا لله ، وهي الذهب والفضة والماشية والخارج من الأرض وعروض التجارة .

(وَتَصُوْمَ رَمَضَانَ) : أي تمسك عن المفطرات تعبُّدًا لله تعالى من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

وأصل الصيام في اللغة : الإمساك .

(وَتَحُجَّ البيْتَ) : أي تقصد البيت لأداء النسك المعدود من أركان الإسلام في وقت مخصوص تعبُّدًا لله تعالى .

(إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) : وهو الزاد والراحلة . السبيل : الطريق ، تؤنث وتذكّر .

– عرِّف (الصلاة – الزكاة – الصيام – الحج) ؟

ج : الصلاة : من تعاريفها : هيئة مخصوصة بأفعال وأقوال مخصوصة تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم .

الزكاة : إخراج مال مخصوص من شيء مخصوص بطريقة مخصوصة وفق شروط مخصوصة .

الصيام : الإمساك بنية مخصوصة عن أشياء مخصوصة في وقت مخصوص من شخص مخصوص .

الحج : لغة : القصد ، وهو قصد بيت الله الحرام قصد عبادة في أيام مخصوصة .

(المستفاد)

٣٣– أن أركان الإسلام هي هذه الخمسة .

٣٤– أن أصول الإسلام القولية والعملية هي المباني الخمسة .

٣٥– أن أصل الدين مطلقًا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

٣٦– التلازم بين الشهادتين في الحكم فلا تصح إحداهما دون الأخرى .

٣٧– تفرد الرب بالإلهية وبطلان كل معبود سواه .

٣٨– اعتبار الشهادة – وهي الإقرار – ظاهرًا وباطنًا بالتوحيد والرسالة لصحة الإسلام .

٣٩– فضل الصلاة وأن الصلوات الخمس أوجب الواجبات على المسلم ، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين .

٤٠– وجوب إقامتها كما أمر الله وبَيَّن رسوله وأنها ركن من أركان الإسلام .

٤١– أن إيتاء الزكاة أعظم أصول الإسلام بعد الصلاة .

٤٢– الاقتران بين الصلاة والزكاة في نصوص الشرع وهو يدل على عظم شأن الزكاة .

٤٣– أن العبادات منها بدنية كالصلاة والصوم ، ومنها مالية كالزكاة .

٤٤– أن صيام رمضان من أصول الإسلام .

٤٥– فضل شهر رمضان .

٤٦– أن الحج إلى بيت الله الحرام من أصول الإسلام .

٤٧– فضل البيت الحرام .

٤٨– أن الحج لا يجب إلا على المستطيع ، كما دلّ على ذلك قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (آل عمران / ٩٧) .

(المعنى)

(صَدَقْتَ) : أي أخبرت بالحق ، والقائل صدقت : جبريل عليه السلام وهو السائل .

(فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ) : فَعَجبنا له : أي منه ؛ لتصرفه الخارج عن المألوف حيث سأل سؤالَ المسترشد ، والحال أنه عارف مصدّق .

(المستفاد)

٤٩– أن تصديق السائل للمُخبِرِ يشعر بأن لديه علمًا سابقًا ، لقوله : " فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ " .

٥٠– أن الأصل في السائل عدمُ العلم ، وأن الجهلَ هو الباعثُ على السؤال .

٥١– تنبيه المستمعين بالإشارة إلى مقصود السائل ، وهو تعليمهم ، وذلك في قوله : " صدقت " .

(المعنى)

(قَالَ : فَأَخْبِرْنِيْ عَنِ الإِيْمَانِ) : (قال) : أي جبريل ، (فَأَخْبِرْنِيْ) : أي يا محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن الإيمان ؟

والإيمان في اللغة : هو الإقرار بالقلب والاعتراف المستلزم للقبول والإذعان وهو مطابق للشرع .

وأما قولهم : الإيمان في اللغة التصديق ؛ ففيه نظر [١] .

---

(١) تفسير الإيمان بمعنى التصديق أنكره غير واحد من المحققين المحررين كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره ، وقالوا بأن الإيمان ليس بمعنى التصديق ولا يرادفه التصديق ؛ لأن في اللغة ليس هناك كلمة بمعنى كلمة أخرى من كل وجه هذا أولًا ، في اللغة ليس هناك كلمة بمعنى كلمة أخرى من كل وجه ، يعني لا نقول مثلًا بأن الإيمان بمعنى التصديق هكذا من كل وجه ، فهذا غير موجود أصلاً في اللغة ، الأمر الثاني : عندما ننظر إلى الاستعمالات اللغوية لكلمة الإيمان والاستعمالات اللغوية لكلمة التصديق نجد أن هناك فروقًا كثيرة أثبتها شيخ الإسلام في أكثر من ثمانية أوجه جمعها في كتابه القيم : " الإيمان الأوسط " ، فمن هذه الفروق أن التصديق يتعدى بنفسه كما يتعدى بالأداة ، فتقول : صدقته ، وتقول : صدقت به ، صدقته : فتعدى هنا بنفسه ، وصدقت به : تعدى بحرف الباء ، أما الإيمان فإنه لا يتعدى بنفسه أبدًا فلا تقول : آمنته ، وإنما لا يتعدى إلا بماذا ؟ إلا بالأداة ، تقول : آمنت به ، وآمنت له ، ومنه قول الله – عز وجل – : (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ) (الشعراء / ١١١) وقول الله – عز وجل – في النبي – عليه الصلاة والسلام – : (يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) (التوبة / ٦١) فالإيمان يتعدى بالباء كما يتعدى أيضًا باللام ، فلفظ الإيمان لا يأتي إلا متعديًا بالأداة ، أما لفظ التصديق فإنه قد يتعدى بنفسه وقد يتعدى بالأداة ، ففارق هنا لفظ التصديق لفظَ الإيمان من حيث الاستعمال اللغوي ، وهناك وجوه كثيرة ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله – من ذلك مثلًا : أن التصديق إنما يكون في الأخبار وأما الإيمان فإنه أوسع من ذلك ، ليشمل الأمور الثابتة المقررة ، وبالتالي يميل شيخ الإسلام إلى تفسير الإيمان لغة بمعنى الإقرار ؛ لأن الإقرار معناه : الرضا المستلزم الانقياد والطاعة ، هذا معنى الإقرار ، إذن الإقرار معناه الرضا المستلزم الانقياد والطاعة ، =

– مسائل تتعلق بالإيمان :

س : هل الإيمان يزيد وينقص ؟

ج : عقيدة أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، قال البخاري : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدًا منهم يختلف في الإيمان قول وعمل يزيد وينقص .

س : ما الدليل على الزيادة ؟

ج : قوله تعالى : (لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ) (الفتح / ١) و (وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا) (المدثر / ٣١) و (وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) (الأحزاب / ٢٢) وغيرها كثير .

س : وما الدليل على النقصان ؟

ج : قول النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
(مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ ...) (خ / ٣٠٤) .

= ولذلك قال شيخ الإسلام – يرحمه الله – بأن تفسير الإيمان بمعنى الإقرار أولى من تفسيره بمعنى التصديق .

وقال فضيلة الشيخ / علي بن عبد العزيز بن علي الشِّبل في رسالته (مسألة الإيمان دراسة تأصيلية) : ذهب كثير من المتكلمين وغيرهم ؛ بل هو العُمدة عند جماهير المرجئة أن الإيمان في مفهوم اللغة العربية هو مجرد التصديق ، استدلالًا بقوله تعالى في أول سورة يوسف :
(وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَاَ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) (يوسف : ١٧) .

* الصواب : أن معنى الإيمان في اللغة ليس مرادفًا للتصديق ، بل التصديق وزيادة ، من الإقرار والإذعان والتسليم ونحوها ، لعدة اعتبارات .

أن معنى الآية في الحقيقة : ما أنت بمُقرٍّ لنا ولا تطمئن إلى قولنا ولا تثق به ولا تتأكد منه ولو كناّ صادقين ، فإنهم لو كانوا كذلك فصدقهم ، لكنه لم يتأكد ولم يطمئن إلى قولهم . وهذه بلاغة في اللغة . وأن لفظة الإيمان يقابلها الكفر ، وهو ليس التكذيب فقط بل قدر زائد عليه ، وإنما الكذب يقابل لفظة التصديق .

فلما كان الكفر في اللغة ليس مقصورًا على التكذيب ، فكذلك ما يقابل الكفر وهو الإيمان لا يقابل التصديق ، وليس مقصورًا عليه . أن لفظ الإيمان لا يستعمل في جميع الأخبار المشاهدة وغيرها ، وإنما يُستعمل في الأمور الغائبة مما يدخلها الريب والشك ، فإذا أقر بها المستمع قيل آمن ، بخلاف التصديق ، فإنه يتناول الإخبار عن الغائب والشاهد ، وإخوة يوسف أخبروا أباهم عن غائب غير مشاهد فصح أن الإيمان أخص من التصديق . أن لفظ الإيمان تكرر في الكتاب والسنة كثيرًا جدًا ، وهو أصل الدين الذي لا بد لكل مسلم من معرفته ، فلابد أن يؤخذ معناه من جميع موارده التي ورد فيها

في الوحيين لا من آية واحدة ؛ الاحتمالُ مُتطرق إلى دلالتها ! أن الإيمان مخالف للتصديق في الاستعمال اللغوي وفي المعنى : فأما اللغة فقد مضت في الجواب الثالث ؛ فالاستعمال اللغوي للإيمان يُتعدى فيه إلى المُخبِر باللام وإلى المُخبَر عنه بالباء كقوله تعالى : (فَئَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ) .

أما المعنى : فإن الإيمان مأخوذ من الأمن وهو الطمأنينة ،كما أن لفظ الإقرار مأخوذ من قرَّ يقُر ، وهو قريب من آمن يأمن ، وأما الصدق فهو عدم الكذب ، ولا يلزم أن يوافقه طمأنينة إلا إذاكان المُخبر الصادق يُطمئن إلى خبره وحاله . أن لفظ الإيمان يتعدى إلى غيره باللام دائمًا نحو قوله تعالى :

(فَئَامَنَ لَهُ لُوطٌ) (العنكبوت / ٢٦) ، وقول فرعون في الشعراء : (ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ) (الشعراء / ٤٩) ، وقوله تعالى في يونس :

(فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ) (يونس / ٨٣) ، وقوله : (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ) (المؤمنون / ٤٧) . وقوله :

(أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ) (الشعراء / ١١١) ، وآيات عديدة . أما لفظ التصديق وصدق ليصدق فإنه يتعدى بنفسه نحو : قوله تعالى في الصافات :

(قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّاَ كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ) (الصافات / ١٠٥) . وفي أولها : (بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ) (الصافات / ٣٧) .

وفي سورة الزمر : (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ) (الزمر / ٧٤) فكلها بمقابل الكذب ، لو فرضنا أن معنى الإيمان لغة التصديق ، لوجب أن لا يختص بالقلب فقط بل يكون تصديقًا باللسان ، وتصديقًا بالجوارح كما في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – " العينان تزنيان .. " الحديث .

كذلك لو قلنا : إن الإيمان أصله التصديق ، فإنه تصديق مخصوص ، كما أن الصلاة دعاء مخصوص ، والصوم إمساك مخصوص يتبيّن بالمعنى الشرعي حيث يكون للتصديق لوازم شرعية دخلت في مسماه .

س : الوارد في الحديث : (ناقصات دين) ولم يقل ناقصات إيمان فهل الدين هو الإيمان ؟ وما الدليل ؟

ج : (الإسلام ، الإيمان ، الإحسان ، الدين ، البرّ) إذا أطلق إحدى هذه الألفاظ فيشمل جميع معانيها ، وإذا اجتمعت كان لكل منها معنى مستقل (إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت) .

فإذا اجتمعا في نص كان لكل منها كلمة بمعنى مستقل ، وإذا افترقا في النص بأن تأتي إحدى هذه الألفاظ وحدها (فتجتمع في المعنى) .

دليل ذلك : حديث جبريل لما سأل النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن الإسلام والإيمان والإحسان قال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في آخره : (هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ) (خ / ٥٠)

قال البخاري : جَعَلَ ذَلِك كُلَّهُ مِنْ الْإِيمَانِ .

س : إذا سُئلتَ هل أنت مؤمن فهل تقول : (أنا مؤمن إن شاء الله) وبماذا تُعرف هذه المسألة ؟

ج : تعرف هذه المسألة بـ (**الاستثناء في الإيمان**) واختلف الناس فيها على ثلاثة أقوال :

١ – تحريم الاستثناء : وهو قول المرجئة والجهمية وغيرهم ، لأن الإيمان عندهم شيء واحد فإن استثنى منه كان دليلًا على شَكِّه فيسمون الذين يستثنون (شَكَّاكة) .

٢ – وجوب الاستثناء : وله مأخذان : أ – أن الإيمان هو الذي يموت الإنسان عليه (بحسب الموافاة) وهذا شيء مستقبل غير معلوم فلا يجوز الجزم به .

ب – أن الإيمان المطلق يتضمن فعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات وهذا لا يجزم به الإنسان من نفسه ولو جزم به كان قد زَكَّى نفسه وشهد لها أنها من المتقين الابرار .

٣ – التفصيل : فإن كان الاستثناء صادرًا عن شك في وجود أصل الإيمان فهذا محرم بل كفر لأن الإيمان جزم والشك ينافيه ، وإن كان صادرًا عن خوف تزكية النفس والشهادة لها بتحقيق الإيمان قولاً وعملاً واعتقاد فهذا (واجب) خوفًا من المحظور .

(أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ) : أنه متصف بصفات الكمال ، منزه عن صفات النقائص . لا شريك له .

س : الإيمان بالله ماذا يشمل ؟

ج : يشمل أربعة أمور : ١ – بوجوده . ٢ – بربوبيته . ٣ – بألوهيته . ٤ – بأسمائه وصفاته .

س : ما معنى الإيمان بربوبيته ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين – يرحمه الله – في (شرحه / ٨٠) : (أي بأنه وحده الرب لا شريك له ولا معين) .
والرب : من له الخلق والملك ، والأمر ، فلا خالق إلا الله ، ولا مالك إلا هو ، ولا أمر إلا له ، قال تعالى :
(أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) (الأعراف / ٥٤) وقال : (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) (فاطر / ١٣) . ولم يعلم أن أحدًا من الخلق أنكر ربوبية الله سبحانه ، إلا أن يكون مكابرًا غير معتقد بما يقول ، كما حصل من – فرعون – حين قال لقومه : (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) (النازعات / ٢٤) وقال : (يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي) (القصص / ٣٨) لكن ذلك ليس عن عقيدة ، قال الله تعالى :
(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (النمل / ١٤) وقال موسى لفرعون فيما حكى الله عنه : (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا) (الإسراء / ١٠٢) .
ولهذا كان المشركون يقرون بربوبية الله تعالى ، مع إشراكهم به في الألوهية ، قال الله تعالى :
(قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) (المؤمنون / ٨٤ – ٨٩) .
وقال الله تعالى : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) (الزخرف / ٩) وقال :
(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (الزخرف / ٨٧) .
وأمر الرب سبحانه شامل للأمر الكوني والشرعي فكما أنه مدبر الكون القاضي فيه بما يريد حسب ما تقتضيه حكمته ، فهو كذلك الحاكم فيه بشرع العبادت وأحكام المعاملات حسبما تقتضيه حكمته ، فمن اتخذ مع الله تعالى مشرعًا في العبادات أو حاكمًا في المعاملات فقد أشرك به ولم يحقق الإيمان .

س : ما معنى الإيمان بألوهيته ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين في (شرحه / ٨٢) : (أي (بأنه وحده الإله الحق لا شريك له) و " الإله " بمعنى المألوه " أي " المعبود حبًا وتعظيمًا ، وقال الله تعالى : (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) (البقرة / ١٦٣) وقال تعالى : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (آل عمران / ١٨) . وكل ما اتخذ إلها مع الله يعبد من دونه فألوهيته باطلة ، قال الله تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) (الحج / ٦٢) وتسميتها آلهة لا يعطيها حق الألوهية قال الله تعالى في اللات والعزى ومناة : (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ) (النجم / ٢٣) وقال عن هود أنه قال لقومه : (أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ) (الأعراف / ٧١) وقال عن يوسف أنه قال لصاحبي السجن : (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ) (يوسف / ٣٩ – ٤٠) ولهذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام يقولون لأقوامهم (اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) (الأعراف / ٥٩) ولكن أبى ذلك المشركون ، واتخذوا من دون الله آلهة ، يعبدونهم مع الله سبحانه وتعالى، ويستنصرون بهم ، ويستغيثون .

وقد أبطل الله تعالى اتخاذ المشركين هذه الآلهة ببرهانين عقليين :

الأول : أنه ليس في هذه الآلهة التي اتخذوها شيء من خصائص الألوهية ، فهي مخلوقة لا تخلق ، ولا تجلب نفعًا لعابديها ، ولا تدفع عنهم ضررًا ، ولا تملك لهم حياة ولا موتًا ، ولا يملكون شيئًا من السماوات ولا يشاركون فيه .

قال الله تعالى : (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا) (الفرقان/ ٣) .

وقال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) (سبأ / ٢٢- ٢٣) .

وقال : (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ) (الأعراف / ١٩١- ١٩٢) .

وإذا كانت هذه حال تلك الآلهة ، فإن اتخاذها آلهة من أسفه السفه ، وأبطل الباطل .

الثاني : أن هؤلاء المشركين كانوا يقرون بأن الله تعالى وحده الرب الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وهذا يستلزم أن يوحدوه بالألوهية كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة / ٢١ – ٢٢) وقال :

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (الزخرف / ٨٧) وقال : (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) (يونس / ٣١ – ٣٢) .

س : ما معنى الإيمان بأسمائه وصفاته ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين في (شرحه / ٨٥) : أي ما أثبته الله لنفسه في كتابه ، أو سنة رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل ، قال الله تعالى : (وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (الأعراف / ١٨٠)

وقال : (وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم / ٢٧) وقال :

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) (الشورى / ١١) .

س : ما ثمرات الإيمان بالله تعالى ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين في (شرحه / ٨٦) : (الإيمان بالله تعالى على ما وصفنا يثمر للمؤمنين ثمرات جليلة منها :

الأولى : تحقيق توحيد الله تعالى بحيث لا يتعلق بغيره رجاء ، ولا خوفًا ، ولا يعبد غيره .

الثانية : كمال محبة الله تعالى ، وتعظيمه بمقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا .

الثالثة : تحقيق عبادته بفعل ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه) .

(وَمَلائِكَتِهِ) : وقد خلق الله الملائكة من نورٍ ، كما ثبت عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إذ قال :

" خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ " (م / ٢٩٩٦) ، وهم لا يحتاجون إلى أكل وشرب ، فنؤمن أن هناك عالَمًا غيبيًا هم الملائكة وأنهم كما وصفهم الله : عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

س : مَنْ هم الملائكة ، وما معنى ملائكة ، كيف نؤمن بالملائكة ؟

ج : **قلت : (والقائل / عماد)** : فائدة في الملائكة :

والملك : أَصله مألك ، من الألوكة ثمَّ تصرفوا فِي لَفظه لتخفيفه فَقَالُوا ملأك ثمَّ نقلوا حَرَكَة الْهمزَة إِلَى اللَّام وحذفوا الْهمزَة فَقَالُوا ملك ، وهو مشتق من كلمة (الألوكة) التي هي الرسالة ، قَالَ اللّيثُ : سُمِّيَت الرّسالَةُ ألوكًا ، لأنَّها تُؤْلَكُ فِي الفَمِ . فإذًا الملائكة – معناه اللغوي – هم المُرْسَلُونَ ؛ لكن رسالة خاصّة على وجه التّعظيم لها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله تعالى – : "والملك في اللغة : حامل الألوكة وهي الرسالة " .

والذي نستفيده من التعريف اللغوي : أن الملائكة هم سفراء الله إلى أنبيائه ورسله في تبليغ الوحي والشرائع .

أما التعريف الاصطلاحي :

فالملائكة : أجسام نورانية لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة ومسكنها السموات ، وهم عالم غيبي خلقهم الله من نور لحديث عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ " (م / ٢٩٩٦) ، وجعلهم قائمين بطاعة الله ، خاضعين له ، لا يأكلون ، ولا يشربون ، يُسبّحون الليل والنهار لا يفترون ، ولكل أشكال وأعمال ووظائف خَصَّه الله بها مذكورة في الكتاب والسنة ، فجبريل وُكِّل بالوحي ، ومنهم مَنْ وُكِّل بقبض أرواح بني آدم وكل ذي روح وهو ملك الموت وأعوانه ، ومنهم مُوكَّل بالسحاب وهو الملك (الرعد) ؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فَقَالُوا : يَا أَبَا القَاسِمِ ، أَخْبِرْنَا عَنِ الرَّعْدِ مَا هُوَ ؟ قَالَ :

" مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ ، مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ " فَقَالُوا : فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ ؟ قَالَ : " زَجْرَةٌ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ " قَالُوا : صَدَقْتَ . فَقَالُوا : فَأَخْبِرْنَا عَمَّا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ؟ قَالَ : اشْتَكَى عِرْقَ النَّسَا فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَائِمُهُ إِلَّا لُحُومَ الإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا فَلِذَلِكَ حَرَّمَهَا قَالُوا : صَدَقْتَ (صحيح التِّرْمِذِيّ / ٣١١٧) ، ومنهم (مالك) خازن النار (وَنَادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ) (الزخرف / ٧٧) ، ومنهم ميكال ، وغير هؤلاء ممن علمنا أسمائهم وأعمالهم ووظائفهم ،

ويجب الإيمان بهم ، وهو أحد أركان الإيمان الستة .

– قلت : (والقائل / عماد) :

اشتُهِرَ بين الناس وجاء في كتب التفاسير وكتب العقيدة أن الملك المُوكَّل بالقطر أي المطر ، والنبات هو (ميكائيل) وبالنفخ في الصور هو (إسرافيل) ، ولم أقف على حديث صحيح يذكر اسم الملك المُوكَّل بالقطر ، ولا الملك الذي ينفخ في الصور ، وأصح ما ورد في الذي ينفخ في الصور ، حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ " فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فَقَالَ لَهُمْ : " قُولُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا "

(صحيح التِّرْمِذِيّ / ٢٤٣١) ، فَلَمْ يُسَمِّه ، وإنما قال : " وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ " ، ثم لو قلتم بصحة حديث عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ لِي النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلأَبِي بَكْرٍ : " مَعَ أَحَدِكُمَا جِبْرِيلُ ، وَمَعَ الآخَرِ مِيكَائِيلُ ، وَإِسْرَافِيلُ مَلَكٌ عَظِيمٌ يَشْهَدُ الْقِتَالَ وَيَكُونُ فِي الصَّفِّ " (وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة / ٣٢٤١ ، أخرجه ابن أبي شيبة في " المصنف " ، وأحمد ، وابن سعد في " الطبقات " ، والبزَّار ، وأبو يَعلَى ، وابن أبي عاصم في " السنة " ، والحاكم واللفظ له) . فهنا (إِسْرَافِيلُ مَلَكٌ عَظِيمٌ يَشْهَدُ الْقِتَالَ) ؛ فهل ترك الصور الذي ينتظر الأمر بالنفخ فيه ، أم أخذه معه ، أم هناك غيره يقوم بالنفخ ؟ .

– أما الإيمان بهم فيتضمن :

١ – بوجودهم وأنهم جنس مخلوق . ٢ – بوظائفهم المعزوة إليهم .

٣ – بأسمائهم (كجبريل وميكائيل وإسرافيل) .

٤ – بصفاتهم كما رأى النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – (جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ) (م / ٤٥٠) .

س : ما ثمرات الإيمان بالملائكة ؟

ج : والإيمان بالملائكة يثمر ثمرات جليلة منها :

الأولى : العلم بعظمة الله تعالى ، وقوته ، وسلطانه ، فإن عظمة المخلوق من عظمة الخالق .

الثانية : شكر الله تعالى على عنايته ببني آدم ، حيث وكل من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم ، وكتابة أعمالهم ، وغير ذلك من مصالحهم .

الثالثة : محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى .

(وَكُتُبِهِ) : جمع كتاب بمعنى : مكتوب والمراد بها الكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله وأنها كلام الله ، وأن ما تضمنته حق ، و كل الكتب السابقة منسوخة بالقرآن ، فلا يُعمل بها شرعًا .

س : وماذا يشمل الإيمان بالكتب ؟

ج : ١ – بكونها مُنَزَّلة من عند الله . ٢ – الإيمان بما جاء بها من أخبار .

٣ – العمل بما أُمر العبد فيها من مأمورات . ٤ – الانتهاء عما نُهِي العبد عنه فيها .

س : ما معنى الإيمان بالكتب السماوية ؟

ج : قال الشيخ ابن عثيمين في (شرحه / ٩١) : الكتب : جمع (كتاب) بمعنى (مكتوب) .

والمراد بها هنا : الكتب التي أنزلها تعالى على رسله رحمة للخلق ، وهداية لهم ، ليصلوا بها إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة .

س : ماذا يتضمن الإيمان بالكتب ؟

ج : قال الشيخ ابن عثيمين في (شرحه / ٩١) : (الإيمان بالكتب يتضمن أربعة أمور :

الأول : الإيمان بأن نزولها من عند الله حقًا .

الثاني : الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه كالقرآن الذي نزل على محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، والتوراة التي أنزلت على موسى – عليه السلام – ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى – عليه السلام – ، والزبور الذي أوتيه داود – عليه السلام – ، وأما ما لم نعلم اسمه فتؤمن به إجمالًا .

الثالث : تصديق ما صح من أخبارها ، كأخبار القرآن ، وأخبار ما لم يبدل أو يحرف من الكتب السابقة .

الرابع : العمل بأحكام ما لم ينسخ منها ، والرضا والتسليم به سواء أفهمنا حكمته أم لم نفهمها ، وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم قال الله تعالى : (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) (المائدة / ٤٨) أي (حاكمًا عليه) وعلى هذا فلا يجوز العمل بأي حكم من أحكام الكتب السابقة إلا ما صح منها وأقرَّه القرآن) .

س : ما ثمرات الإيمان بالكتب ؟

ج : قال الشيخ ابن عثيمين في (شرحه / ٩٢) : (والإيمان بالكتب يثمر ثمرات جليلة منها :

الأولى : العلم بعناية الله تعالى بعباده حيث أنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به .

الثانية : العلم بحكمة الله تعالى في شرعه حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم ، كما قال الله تعالى :
(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) (المائدة / ٤٨) .

الثالثة : شكر نعمة الله في ذلك .

(وَرُسُلِهِ) : أي أن تؤمن برسل الله ، والمراد بالرسل من البشر ، وليُعلم بأنه يُعبَّر برسول ويُعبَّر بنبي وأنهم صادقون ، وأنهم بلَّغوا كل ما أمرهم الله بتبليغه .

س : ما تعريف الرسول وما حقيقة الإيمان بالرسل ؟

ج : تعريف الرسول لغةً واصطلاحًا ، للرسول في اللغة ثلاثة تعريفات :

١- أنه مشتق من الإرسال بمعنى التوجيه ، فالرسول هو المرسل من الله إلى البشر . انظر " لسان العرب " ، " معجم مقاييس اللغة " .

٢- أنه بمعنى ذو رسول ، أي : ذو رسالة ، كما في " الصحاح " للجوهري .

٣- أن معناه المتابع للأخبار التي بعثه الله بها .

فخلاصة تعريف الرسول :

أنه المرسل من عند الله برسالة إلى البشر .

وأما اصطلاحًا : فهو عبدٌ اصطفاه الله بالوحي إليه وإرساله إلى قوم كافرين .

الرسول في الشرع : هو الذي يُنبئه الله ثم يأمره أن يبلغ رسالته إلى مَنْ خالف أمره أي إلى قوم كافرين .

وأما حقيقة الإيمان بالرسل فيشمل أربعة أمور :

١ – الإيمان بأنهم مُرْسَلون من عند الله . ٢ – الإيمان بالأخبار التي يأتون بها تصديقًا .

٣ – الائتمار بما أَمروا به . ٤ – الانزجار عما زَجروا عنه .

س : ما معنى الإيمان بالرسل ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين في (شرحه / ٩٣) : الرسل : جمع رسول بمعنى (مُرسَل) أي مبعوث بإبلاغ شيء .
والمراد هنا : مَنْ أُوحى إليه من البشر بشرع وأُمر بتبليغه .
وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – في حديث الشفاعة أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – (ذكر أن الناس يأتون إلى آدم ليشفع لهم فيعتذر ، إليهم ويقول :
" ائْتُوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ " (خ / ٤٤٧٦) – وذكر تمام الحديث .
وقال الله تعالى في محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) (الأحزاب / ٤٠) . ولم تَخْل أمة من رسول يبعثه الله تعالى بشريعة مستقلة إلى قومه ، أو نبي يوحي إليه بشريعة من قبله ليجددها ، قال الله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) (النحل / ٣٦) . والرسل بشر مخلوقون ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، قال الله تعالى عن نبيه محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وهو سيد المرسلين وأعظمهم جاهًا عند الله : (قُل لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف / ١٨٨) . وتلحقهم خصائص البشرية من المرض ، والموت ، والحاجة إلى الطعام والشراب ، وغير ذلك ، قال الله تعالى عن إبراهيم – عليه السلام – في وصفه لربه تعالى : (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) (الشعراء / ٧٨ – ٧٩) .

س : ما ثمرات الإيمان بالرسل ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين في (شرحه / ٩٦) : (وللإيمان بالرسل ثمرات جليلة منها :
الأولى : العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى ، ويبينوا لهم كيف يعبدون الله ، لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك .
الثانية : شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى .
الثالثة : محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم ، والثناء عليهم بما يليق بهم ، لأنهم رسل الله تعالى ، ولأنهم قاموا بعبادته ، وتبليغ رسالته ، والنصح لعباده .
وقد كذب المعاندون رسلهم زاعمين أن رسل الله تعالى لا يكونون من البشر وقد ذكر الله تعالى هذا الزعم وأبطله بقوله (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولًا) (الإسراء / ٩٤ – ٩٥) فأبطل الله تعالى هذا الزعم بأنه لا بدَّ أن يكون الرسول بشرًا لأنه مرسل إلى أهل الأرض ، وهم بشر ، ولو كان أهل الأرض ملائكة لنزَّل الله عليهم من السماء ملكًا رسولًا ، ليكون مثلهم ، وهكذا حكى الله تعالى عن المكذبين للرسل أنهم قالوا : (إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) (إبراهيم / ١٠– ١١) .
(وَالْيَوْمِ الآخِرِ) : هو يوم القيامة ، بما اشتمل عليه من البعث والحساب والميزان والصراط والجنة والنار ،

إلى غير ذلك مما صحت فيه النصوص ، وسمي آخِرًا لأنه آخِرُ مراحلِ بني آدم وغيرِهم أيضًا ، فالإنسان له أربع دور ،
في بطن أمه ، وفي الدنيا ، وفي البرزخ ، ويوم القيامة وهو آخِرها .

(وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ) : أن الله عَلِمَ مقاديرَ الأشياءِ وأزمانَها قبل إيجادِها ، ثم أوجد ما سبق في علمه أن يوجد ، فكل مُحدَث صادر عن علمه وقدرته وإرادته ، خيرًا كان أو شرًا ، وتَعلمُ أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك .

س : ما معنى الإيمان باليوم الآخر ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين في (شرحه / ٩٨) : (اليوم الآخر : يوم القيامة الذي يبعث الناس فيه للحساب والجزاء . وسمي بذلك لأنه لا يوم بعده ، حيث يستقر أهل الجنة في منازلهم ، وأهل النار في منازلهم) والإيمان به يعني الإيمان بكل ما سيقع بعد الموت .

س : ماذا يتضمن الإيمان باليوم الآخر ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين في (شرحه / ٩٨) : الإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور :

الأول : الإيمان بالبعث : وهو إحياء الموتى حين ينفخ في الصور النفخة الثانية ، فيقوم الناس لرب العالمين ، حفاة غير منتعلين ، عراة غير مستترين ، غرلًا غير مختتنين ، قال الله تعالى : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) (الأنبياء / ١٠٤) . والبعث : حق ثابت دل عليه الكتاب ، والسنة ، وإجماع المسلمين . قال الله تعالى : (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) (المؤمنون / ١٥- ١٦) . وقال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (خ / ٨٠٦ ، م ٧٢٣٣) .

وأجمع المسلمون على ثبوته ، وهو مقتضى الحكمة حيث تقتضي أن يجعل الله تعالى لهذه الخليقة معادًا يجازيهم فيه على ما كلفهم به على ألسنة رسله ، قال الله تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون / ١١٥) وقال لنبيه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ) (القصص / ٨٥) .

الثاني : الإيمان بالحساب والجزاء : يحاسب العبد على عمله ، ويجازى عليه ، وقد دل على ذلك الكتاب ، والسنة ، وإجماع المسلمين ، قال الله تعالى : (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) (الغاشية / ٢٥ – ٢٦) وقال : (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) (الأنعام / ١٦٠) وقال : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) (الأنبياء : ٤٧) ، وقد أجمع المسلمون على إثبات الحساب والجزاء على الأعمال ، وهو مقتضى الحكمة فإن الله تعالى أنزل الكتب ، وأرسل الرسل ، وفرض على العباد قبول ما جاءوا به ، والعمل بما يجب العمل به منه ، وأوجب قتال المعارضين له وأحل دماءهم ، وذرياتهم ، ونسائهم ، وأموالهم . فلو لم يكن حساب ، ولا جزاء لكان هذا من العبث الذي ينزه الرب الحكيم عنه ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله : (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ) (الأعراف / ٦ – ٧) .

الثالث : الإيمان بالجنة والنار ، وأنهما المآل الأبدي للخلق ، فالجنة دار النعيم التي أعدها الله تعالى للمؤمنين المتقين ، الذين ءامنوا بما أوجب الله عليهم الإيمان به ، وقاموا بطاعة الله ورسوله ، مخلصين لله متبعين لرسوله . فيها من أنواع النعيم مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " .

قال الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) (البينة / ٧ – ٨) .

س : ما يلحق الإيمان باليوم الآخر ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين في (شرحه / ١٠١) : (ويلتحق بالإيمان باليوم الآخر : الإيمان بكل ما يكون بعد الموت مثل :

(أ) فتنة القبر : وهي سؤال الميت بعد دفنه عن ربه ، ودينه ، ونبيه ، فيثبت الله الذين ءامنوا بالقول الثابت ، فيقول : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبي محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – . ويضل الله الظالمين فيقول الكافر هاه ، هاه ، لا أدري . ويقول المنافق أو المرتاب لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته .

(ب) عذاب القبر ونعيمه : فيكون العذاب للظالمين من المنافقين والكافرين قال الله تعالى : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُوْاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) (الأنعام / ٢٣) .

وقال تعال في آل فرعون – : (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) (غافر / ٤٤) . وفي صحيح مسلم من حديث زيد بن ثابت – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِى قُبُورِهَا فَلَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِى أَسْمَعُ مِنْهُ " . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ : " تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ " . قَالُوا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ فَقَالَ : " تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ " . قَالُوا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ . قَالَ : " تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ " . قَالُوا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ قَالَ : " تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ " . قَالُوا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ . (م / ٧٣٩٢) .

س : كيف يُرَدُّ على مَنْ أنكر عذاب القبر ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين في (شرحه / ١٠٦) : (لقد ضل قوم من أهل الزيغ فأنكروا عذاب القبر ، ونعيمه ، زاعمين أن ذلك غير ممكن لمخالفة الواقع ، قالوا فإنه لو كشف عن الميت في قبره لوجد كما كان عليه ، والقبر لم يتغير بسعة ولا ضيق . وهذا الزعم باطل بالشرع ، والحس ، والعقل .

أما الشرع : فقد سبقت النصوص الدالة على ثبوت عذاب القبر ، ونعيمه في فقرة (ب) مما يلتحق بالإيمان باليوم الآخر . وفي صحيح البخاري – من حديث – ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قال : " مَرَّ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِحَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ ، أَوْ مَكَّةَ فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ثُمَّ قَالَ بَلَى كَانَ أَحَدُهُمَا لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ " (خ / ٢١٦) .

وأما الحس : فإن النائم يرى في منامه أنه كان في مكان فسيح بهيج يتنعم فيه ، أو أنه كان في مكان ضيق موحش يتألم منه ، وربما يستيقظ أحيانًا مما رأى ، ومع ذلك فهو على فراشه في حجرته على ما هو عليه ، والنوم أخو الموت ولهذا سماه الله تعالى " وفاة " قال الله تعالى : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) (الزمر / ٤٢) .

وأما العقل : فإن النائم في منامه يرى الرؤيا الحق المطابقة للواقع ، وربما رأى النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على صفته ، ومن رآه على صفته فقد رآه حقًا ومع ذلك فالنائم في حجرته على فراشه بعيدًا عما رأى ، فإن كان هذا ممكنًا في أحوال الدنيا ، أفلا يكون ممكنًا في أحوال الآخرة ؟!

وأما اعتمادهم فيما زعموه على أنه لو كشف عن الميت في قبره لوجد كما كان عليه ، والقبر لم يتغير بسعة ولا ضيق ، فجوابه من وجوه منها :

الأول : أنه لا تجوز معارضة ما جاء به الشرع بمثل هذه الشبهات الداحضة التي لو تأمل المعارض بها ما جاء به الشرع حق التأمل لعلم بطلان هذه الشبهات قال المتنبي :

وكَمْ مِنْ عائِبٍ قَوْلًا صَحيحًا ... وَأفَتُهُ منَ الفَهمِ السَّقيمِ

الثاني : أن أحوال البرزخ من أمور الغيب التي لا يدركها الحس ، ولو كانت تدرك بالحس لفاتت فائدة الإيمان بالغيب ، ولتساوى المؤمنون بالغيب ، والجاحدون في التصديق بها .

الثالث : أن العذاب والنعيم وسعة القبر وضيقه إنما يدركها الميت دون غيره ، وهذا كما يرى النائم في منامه أنه في مكان ضيق موحش ، أو في مكان واسع بهيج ، وهو بالنسبة لغيره لم يتغير منامه هو في حجرته وبين فراشه غطائه ، ولقد كان النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُوحَى إليه وهو بين أصحابه فيسمع الوحي ، ولا يسمعه الصحابة ، وربما يتمثل له الملك رجلًا فيكلمه ، والصحابة لا يرون الملك ، ولا يسمعونه .

س : ما ثمرات الإيمان باليوم الآخر ؟

ج : للإيمان بالبعث واليوم الآخر ثمرات منها :

١) الإيمان بالبعث واليوم الآخر يحمل الإنسان على العمل والاستعداد له : قال تعالى :

(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (الكهف / ١١٠) .

وقال تعالى : (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) (الإنسان / ٧) .

٢) الإيمان بالبعث واليوم الآخر يحمل الإنسان على الثبات عند لقاء العدو والصبر على الشدائد ، كما قال تعالى في طالوت وجنوده حينما لقوا عدوهم الذي يفوقهم في الكثرة والعُدد كما قال تعالى :

(لَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُو اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (البقرة / ٢٤٩) .

٣) إنَّ عدم الإيمان باليوم الآخر يحمل الإنسان على الكفر والمعاصي والظلم والعدوان والبغي والفساد :

١ – قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُون * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) (يونس / ٨) .

٢ – قال تعالى : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّين * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيم * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِين) (الماعون / ٣) . ولهذا أمر الله تعالى بإتقاء ذلك اليوم والاستعداد له بالأعمال الصالحة التي تنجي من أهواله كما قال تعالى : (وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) (البقرة / ٢٨١) .

وقال تعالى : (وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ) (البقرة / ٤٨) .

الركن السادس : الإيمان بالقدر خيره وشره .

س : ما معنى الإيمان بالقدر ؟

ج : الإيمان بالقدر هو : إن الله تعالى قدَّر الأشياء في القِدم وعَلِم أنها ستقع في أوقات معلومة عنده وفي أمكنة معلومة وهي تقع على حسب ما قدَّره وقضاه .

والدليل كما قال المصنف – يرحمه الله – : قوله تعالى : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر / ٤٩) .

س : ما مراتب الإيمان بالقدر ؟

ج : قال الشيخ صالح آل الشيخ في (شرحه / ٨٠) : (الإيمان بالقدر ، تحقيق هذا الركن أن يعلم ويعتقد ؛ يؤمن بأن كل شيء يحدث في هذا الملكوت بخلق الله ، قد سبق به قدر ، وأن الله جل وعلا عالم بهذه الأحوال وتفصيلاتها بخلقه قبل أن يخلقهم ، وكتب ذلك ، وإذا آمن أن كل شيء قد سبق به قدر الله فيكون حقق هذا الركن ، والإيمان بالقدر ؛ الإيمان الواجب يكون على مرتبتين :

المرتبة الأولى : الإيمان بالقدر السابق لوقوع المقدر : وهذا يشمل درجتين :

الأولى العلم السابق : فإن الله جل وعلا يعلم ما كان وما سيكون وما يكون وما هو كائن وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، علم الله السابق بكل شيء بالكليات و بالجزئيات ، بجلائل الأمور وبتفصيلات الأمور ، هذا العلم السابق كما قال جل وعلا : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) (الحج / ٧٠) ، وقال جل وعلا : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (الأنعام / ٥٩) ، فبيَّن الله جل وعلا أن علمه بالأشياء سابق ، وأنه يعلم كل شيء ؛ الكليات والجزئيات ، الأمور الجلية وتفاصيل الأمور ، هذا العلم الأول ، وهذا العلم لم يزل الله جل وعلا عالمًا به ، علمه جل وعلا بهذه الأشياء بجميع تفاصيل خلقه ، عِلْمُه بها أَوَّل يعني ليس له بداية .

الدرجة الثانية الكتابة : أن يؤمن العبد أن الله جل وعلا كتب ما الخلق عاملون ، كتب أحوال الخلق وتفصيلات ذلك قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وذلك عنده في كتاب جعله في اللوح المحفوظ ، كما قال جل وعلا

(وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (الأنعام / ٥٩) فأثبت أنه في كتاب وقال جل وعلا (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ) (القمر : ٥٣) ، يعني قد سُطِّر وكُتِب في اللوح المحفوظ ، وقال جل وعلا (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (الحج / ٧٠) ، بيّن أن كل شيء إنما هو في كتاب ، وهذا قد جاء أيضًا في صحيح الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمر أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : "كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ " (م / ٦٩١٩) .

هاتان الدرجتان في المرتبة الأولى ؛ المرتبة الأولى تسبق وقوع المقدر ، هذه المرتبة الأولى تحوي درجتين .

المرتبة الثانية : أيضًا تحوي درجتين وهي تواكب أو تقارن وقوع المقدر :

أولى الدرجتين : الإيمان بأن مشيئة الله جل وعلا نافذة : وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون ، فليس ثَمَّ شيء يحدث ويحصل في ملكوت الله جل وعلا إلا وقد شاءه الله جل وعلا ، وقد أراده الله جل وعلا كونًا ، سواء أكان في طاعات المطيعين أم عصيان العاصين ، سواء أكان في إيمان المؤمنين أم كفر الكافرين ، فكل شيء يحصل في ملكوت الله إنما هو بإذنه ومشيئته وإرادته الكونية ؛ لأن المشيئة ما تنقسم ، التي تنقسم الإرادة ، ومشيئة الله إذا أطلقت يُعنى بها الإرادة الكونية ، الإرادة تنقسم إلى إرادة كونية وإرادة شرعية ، فأما المشيئة فهي مشيئة الله جل وعلا في كونه ، هذه الدرجة الأولى هذه تواكب وقوع المقدر ، فلا يمكن أن يعمل العبد شيء يكون مقدرًا من الله جل وعلا إلا وهذا الشيء قد شاءه الله جل وعلا .

الدرجة الثانية : أن يؤمن بأن الله جل وعلا خالق كل شيء : كل شيء مخلوق ، فالله جل وعلا خالقه ؛ أعمال العباد ، أحوال العباد ، السماوات ، الأرض ، من في السماوات ومن في الأرض ، ما في السماوات وما في الأرض ، الجميع الذي خلقه هو الله جل وعلا ، فإذا أراد العبد أن يعمل شيئًا فإنه لا يكون إلا إذا شاءه الله جل وعلا ، وخلق الله جل وعلا ذلك الشيء ، طاعات المطيعين خلقها الله جل وعلا ، عصيان العاصين خلقه الله جل وعلا ، إذا توجه العبد بإرادته إلى أن يفعل شيء إذا شاءه الله كونًا وقع بعد خلقه له ، إذا لم يشأه ولو أراده العبد لم يقع ، كما قال جل وعلا :

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (التكوير / ٢٩) ، قال :

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) (الإنسان / ٣٠) ، مرتبة الخلق عامة .

إذن هذا الإيمان الواجب يصح أن نقول إنه إيمان تفصيلي ، مرتبة قبل وقوع المقدر ، العلم الأزلي ؛ العلم الأول ، والكتابة التي هي قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، ثم ما يواكب وقوع المقدر وهو أنّ العبد عنده إرادة وعنده قدرة ؛ إذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقدرة التامة حصل منك الفعل ، توجهت إلى الفعل حصل منك الفعل لكن لا يحصل منك إلا بعد أن يشاء الله جل وعلا ذلك منك ، وإلا بعد أن يخلق الله جل وعلا ذلك الفعل منك ، الفعل فعل العبد حقيقة ، لكن الخالق لهذا الفعل هو الله جل وعلا ، لِمَ ؟ لأن الذي يكون من العبد لا يكون إلا بإرادة جازمة وبقدرة تامة ، والإرادة والقدرة قد خلقها الله ، الله جل وعلا خلق ما به يكون الفعل ويخلق الفعل نفسه إذا توجه إليه العبد .

(فحصل بهذا الإيمان التفصيلي الواجب بالقدر) .

س : ما معنى قوله (خيره وشره) ؟

ج : الشر في القدر هو ما لا يلائم طبيعة الإنسان بحيث يحصل له به أذى وضرر ، والخير في القدر هو ما يلائم طبيعة الإنسان بحيث يحصل له به ارتياح وسرور وكل ذلك من الله تعالى .

والتوفيق بينهما : أن هناك قدر وتقدير وهناك مقدور فالتقدير ليس فيه شر بوجه من الوجوه بل كله خير ، أما المقدور ففيه شر من جهة عدم ملائمته للإنسان أما إن نظرنا من جهة الحكمة الإلهية ففيه خير كما قال تعالى :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم / ٤١) .

قال الأسمري في (شرحه / ١٠٧) : ((خيره وشره) : أي خير القدر وشر القدر ؛ لأن القدر نوعان : منه ما هو خير وهذا بيّن ، ومنه ما هو شر وهو ظاهر . ومن ثَمَّ فإن القدر منه ما هو خير وما هو شر إلا أن الشر لا يضاف إلى الله سبحانه وتعالى وإنما يضاف إلى مفعولات الله . وإذا أضيف الشر إلى الله – سبحانه وتعالى – فتأتي إضافته على ما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : – إما بنزع الفاعل : كقوله سبحانه حكاية

(أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ) (الجن / ١٠) ، فنزع الفاعل وأضيف الشر إلى المفعول . وإما بإضافته إلى السبب : كقوله تعالى : (مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) (الفلق / ٢) فأضيف إلى السبب وهكذا . وبهذا يتبين أن إضافة الشر إلى الله مباشرة لم تأتِ به النصوص في عمومها وجملتها كما قرره ابن تيمية – يرحمه الله – .

س : هل الإيمان بالقدر ينافي أن يكون للعبد مشيئة وقدرة ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين – يرحمه الله – في (شرحه / ١١٠) : (الإيمان بالقدر على ما وصفنا لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية وقدرة عليها ، لأن الشرع والواقع دالان على إثبات ذلك له .

أما الشرع : فقد قال الله تعالى في المشيئة : (فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا) (النبأ / ٣٩) وقال :

(فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ) (البقرة / ٢٢٣) وقال في القدرة : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا)

(التغابن / ١٦) وقال : (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) (البقرة / ٢٨٦) .

وأما الواقع : فإن كل إنسان يعلم أن له مشيئة وقدرة بهما يفعل وبهما يترك ، ويفرق بين ما يقع : بإرادته كالمشي ، وما يقع بغير إرادته كالإرتعاش ، لكن مشيئة العبد وقدرته واقعتان بمشيئة الله تعالى ، وقدرته لقول الله تعالى :

(لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (التكوير / ٢٨ – ٢٩) ولأن الكون كله ملك لله تعالى فلا يكون في ملكه شيء بدون علمه ومشيئته) .

س : هل الإيمان بالقدر يمنح العبد الحجة على ترك الواجبات وفعل المعاصي ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين – يرحمه الله – في (شرحه / ١١٠) : (الإيمان بالقدر على ما وصفنا لا يمنح العبد حجة على ما ترك من الواجبات أو فعل من المعاصي ، وعلى هذا فاحتجاجه به باطل من وجوه :

الأول : قوله تعالى : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا ءَابَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(الأنعام / ١٤٨) ولو كان لهم حجة بالقدر ما أذاقهم الله بأسه .

الثاني : قوله تعالى : (رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

(النساء / ١٦٥) ولو كان القدر حجة للمخالفين لم تنتف بإرسال الرسل ، لأن المخالفة بعد إرسالهم واقعة بقدر الله .

الثالث : لقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلا نَتَّكِلُ قَالَ : لا اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ ثُمَّ قَرَأَ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى) الآية . (خ / ٤٩٤٧) ،

وفي لفظ لمسلم : " فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ " (م / ٦٩٠٣)

فأمر النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بالعمل ونهى عن الإتكال على القدر .

الرابع : أن الله تعالى أمر العبد ونهاه ، ولم يكلفه إلا ما يستطيع ، قال الله تعالى :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) (التغابن / ١٦) وقال : (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة / ٢٨٦) ولو كان العبد مجبرًا على الفعل لكان مكلفًا بما لا يستطيع الخلاص منه ، وهذا باطل ولذلك إذا وقعت منه المعصية بجهل ، أو نسيان ، أو إكراه ، فلا إثم عليه لأنه معذور .

الخامس : إن قدر الله تعالى سر مكتوم لا يعلم به إلا بعد وقوع المقدور ، وإرادة العبد لما يفعله سابقة على فعله فتكون إرادته الفعل غير مبنية على علم منه بقدر الله ، وحينئذ تنفى حجته إذ لا حجة للمرء فيما لا يعلمه .

السادس : أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه ثم يحتج على عدوله بالقدر ، فلماذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر ؟ أفليس شأن الأمرين واحدًا ؟

وإليك مثالًا يُوضِّح ذلك : لو كان بين يدي الإنسان طريقان : أحدهما : ينتهي به إلى بلد كلها فوضى ، خوف على الأعراض والأموال وعدم احترام للنفوس ، وثانيهما : كلها نظام ، وأمن مستتب ، وعيش رغيد ، واحترام للنفوس والأعراض والأموال ، فأي الطريقين يسلك ؟ إنه سيسلك الطريق الثاني الذي ينتهي به إلى بلد النظام والأمن ، ولا يمكن لأي عاقل أبدًا أن يسلك طريق بلد الفوضى ، والخوف ، ويحتج بالقدر ، فلماذا يسلك في أمر الآخرة طريق النار دون الجنة ويحتج بالقدر ؟

مثال آخر : نرى المريض يُؤمَر بالدواء فيشربه ونفسه لا تشتهيه ، ويُنهَى عن الطعام الذي يضره فيتركه ونفسه تشتهيه ، كل ذلك طلبًا للشفاء والسلامة ، ولا يمكن أن يمتنع عن شرب الدواء أو يأكل الطعام الذي يضره ويحتج بالقدر فلماذا يترك الإنسان ما أمر الله ورسوله ، أو يفعل ما نهى الله ورسوله ثم يحتج بالقدر ؟ .

(المستفاد)

٥٢– أن الإسلام عند جبريل عليه السلام غيرُ الإيمان ، لأن جبريل عليه السلام قال :

" أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ " وقال : " أَخْبِرِنِيْ عَنِ الإِيْمَانِ " وهذا يدل على التغاير .

٥٣– التفرقة بين مسمى الإسلام ، ومسمى الإيمان ، حيث جعل الإسلام في الحديث اسمًا لما ظهر من الأعمال ، فهو أخص بالأعمال الظاهرة ، والإيمان اسمًا لما بطن منها ، وهو أخص باعتقاد القلب ، وقد جمع العلماء بين هذا وبين ما دلت عليه النصوص المتواترة من كون الإيمان قولًا وعملًا ، بأن هذين الاسمين إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، ودل بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده ، وإذا قرن بينهما دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده ودل الآخر على الباقي [1] .

(١) ومعنى ذلك أنهما إذا ذُكرا جميعًا فلكل واحدٍ منهما تفسير ، وإذا ذُكر أحدُهما أغنى عن الآخر ، فيفسر الإيمان بأنه الأعمال الباطنة والإسلام بأنه الأعمال الظاهرة ، وذلك بناءً على الأصل ، فإن أصل الإيمان هو التصديق والإقرار بالقلب الذي هو يقينه وتصديقه ، وأصل الإسلام هو الإذعان والانقياد ، يقال : استسلم فلان للأمير ، بمعنى : انقاد له وأذعن ولم يعص ولم يتخلف ولم يتبرم .

قال فضيلة الشيخ / عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن جبرين في (اعتقاد أهل السنة) (باختصار) :

فلذلك يقال : المسلم هو الذي استسلم لأمر الله وانقاد له ، وأذعن وخضع له وتواضع ، وأطاعه طوعًا وكرهًا ، أطاع الله تعالى مختارًا دون أن يتردد في أمر من أمور الدين ، إذا أُمِر بأمر بادر إليه ، وإذا نُهِي عن شيء في الإسلام تركه وابتعد عنه ، يعتقد أن ما أَمَر الله به فإنه عين المصلحة ، وما نهى عنه فإنه عين المفسدة ، متى سمع بأن لله طاعة في كذا سارع إليها وأتى إليها محبًا لها مندفعًا إليها اندفاعًا قويًا كأنه يقاد باختياره دون أن يكون مكرهًا ، فمِثل هذا يُسمى مسلمًا ، ويقال مثلاً في الإبل : استسلم البعير لقائده . أي : أذعن وانقاد له .

فمثلاً : إذا رأيت اثنان يقودان جملين ، أحد الجملين مطاوع لمن يقوده ، عندما يقوده يتبع قائده ولا يتردد ولا يستعصي ولا يعاند ، بل هو مذعن منقاد لا يلتوي ولا يمتنع ، فيسمى هذا مستسلمًا ، بينما الجمل الثاني دائمًا ينفر ممن يقوده ويستعصي عليه ويجر رأسه إذا قاده بخطامه ، وربما تفلت من الذي يقوده وشرد وهرب منه ، فيقال : هذا الجمل غير مستسلم .

وفسره الشيخ محمد بن عبد الوهاب – يرحمه الله – بأنه الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك وأهله . =

٥٤ – أصول الإيمان ستة ، وهي أصول الاعتقاد

٥٥ – أنَّ الإيمان بأصول الإيمان الستة من جملة الإيمان بالغيب .

٥٦ – أن أركان الإيمان ستة كما سبق ، وهذه الأركان تُورِث للإنسان قوة الطلب في الطاعة والخوف من الله .

٥٧ – أن من أنكر واحدًا من هذه الأركان الستة فهو كافر ، لأنه مكذب لما أخبر به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

٥٨ – البدء بالأهمِّ فالأهمّ ؛ لأنَّه بُدىء بالشهادَتين في تفسير الإسلام ، وبدىء بالإيمان بالله في تفسير الإيمان .

٥٩ – أن الأصل الجامع لهذه الأصول هو الإيمان بالله .

٦٠ – إثبات الملائكة ، ووجوب الإيمان بهم وأنه من أصول الإيمان .

٦١ – إثبات الكتب ، ووجوب الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله وأنه من أصول الإيمان .

٦٢ – إثبات الرسل ، ووجوب الإيمان بهم وأنه من أصول الإيمان .

٦٣ – أنه لا بدَّ من الإيمان بجميع الرسل ، فلو آمن أحد برسوله وأنكر مَنْ سواه فإنه لم يؤمن برسوله ، بل هو كافر ، واقرأ قول الله تعالى : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) (الشعراء / ١٠٥) مع أنهم إنما كذبوا نوحًا ولم يكن قبله رسول ، لكن تكذيب واحد من الرسل تكذيب للجميع .

٦٤ – إثبات اليوم الآخر ، ووجوب الإيمان باليوم الآخر وأنه من أصول الإيمان ، واليوم الآخر الذي هو يوم القيامة الذي يبعث الناس فيه للحساب والجزاء ، حيث يستقر أهل الجنة في منازلهم ، وأهل النار في منازلهم ، ويدخل في الإيمان به الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله مما يكون بعد الموت .

= فالاستسلام هو ما ذكرنا ، يقول الله تعالى : (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) (آل عمران / ٨٣) يعني : له أسلموا واستسلموا ، وأنابوا وأذعنوا ، فجميع المخلوقات مستسلمة له تحت تصرفه وتقديره .

فهذه حقيقة الإسلام ، فعرفنا أن كلاً من الإسلام والإيمان له معنى في اللغة وله معنى في الشرع ، ولكن يظهر أن الشرع يستعمل الإسلام فيما يستعمل فيه الإيمان ، ففي حديث جبريل المشهور فرَّق بينهما ، قال : " فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ ؟ قَالَ : " أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلاَئِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ " ، ففسر الإيمان بالأعمال الباطنة ، وذلك دليل على أنه هو في الأصل اليقين أو عمل القلب ، وفي تعريف الإسلام قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا " ، ففسَّر الإسلام بالأعمال الظاهرة ، فالشهادتان ولو كانتا قولًا ، لكنها ظاهرتان ، فيظهر أثرهما بأن يعبد الله وحده ويطيعه ، والصلاة أمر ظاهر مشاهد ، والصوم كذلك أيضًا أمر ظاهر مشاهد ، والزكاة إيتاؤها أيضًا أمر ظاهر ، والحج أمر ظاهر ، فهذه هي الأعمال الظاهرة ، لكن جاء في حديث ابن عباس في وفد عبد القيس أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ الإِيمَانِ بِاللَّهِ ، ثُمَّ فَسَّرَهَا لَهُمْ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَأَنْ تُؤَدُّوا إِلَيَّ خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ " (خ / ٥٢٣) ، فجعل هذا هو الإيمان ، فذكر فيه الشهادتين والصلاة والزكاة ، فدل على أنه قد يفسر الإسلام بما يفسر به الإيمان ، وبالعكس فإن كلًا منهما يدخل في الآخر ، فإذا ذُكرا جميعًا فالإسلام هو الأعمال الظاهرة والإيمان هو أعمال القلب ، وإذا اقتصر على الإسلام فإنه يستلزم دخول أعمال القلب فيه ، وإن اقتصر على الإيمان كذلك دخلت فيه الأعمال الظاهرة لأنها من تعريفه ، وقد كتب فيه شيخ الإسلام أبو العباس بن تيمية – يرحمه الله – ، وهو أوسع من كتب فيه ، وإذا تأملنا كتاب الإيمان الكبير ظهر لنا أنه – يرحمه الله – كأنه لا يوافق على أن الإسلام يدخل فيه الإيمان ، بل يرى أن الإسلام يختص بالأعمال الظاهرة ، وأن من وصف بأنه مسلم لا يوصف بالإيمان ، فهذا هو الذي يميل إليه ، فالحاصل أن الإسلام يفسر عند الإطلاق بالأعمال الظاهرة ، وهي الشهادتان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وتدخل فيه بقية الأعمال الظاهرة ، وتكون الأركان الخمسة بمنزلة الدعائم التي يقوم عليها ولا يتم إلا بها ، كما إذا فرضنا مثلاً أن بيتًا قائمًا على أربعة أركان فإننا نسمي كل ركن دعيمة ، وجمعها دعائم ، أي : أسس يقوم عليها ولا يتم إلا بها ، فلو انهدَّ جانب من جوانبه أصبح مفتوحًا تدخله السباع والدواب ، ويدخله اللصوص ، ولا يصلح أن يسكن ، سواء انهدَّ الجانب الأيمن أو الأيسر أو الأمامي أو الخلفي فلا يصلح للسكنى ، فيقولون : كذلك الإسلام إذا ترك ركن من أركانه فإنه لا يتم ولا ينتفع به صاحبه ، وجعلوا الركن الأساسي الشهادتين اللتين يُعتمد عليهما ، فقالوا : الشهادتان بمنزلة الأساس أو بمنزلة الأرض التي يعتمد عليها والسقف الذي يظله ، فإذا عدمت الشهادتان أو إحداهما فإنه لا ينتفع به ، ولا يمكن أن يكون .

٦٥ – إثبات ووجوب الإيمان بالقدر وأنه من أصول الإيمان ، وأنه شامل لكل ما يكون من خير وشر .

٦٦ – وجوب الإيمان بهذه الأصول إجمالًا على كل مكلَّف .

٦٧ – فضل الملائكة والرسل لإضافتهم إلى الله ، وهي من إضافة المخلوق إلى خالقه سبحانه إضافة تخصيص وتشريف .

٦٨– فضل كتب الله المنزلة على رسله لأنها كلامه ، وكلامه صفته سبحانه .

(المعنى)

(فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ) : الإحسان : مصدر أحسن يُحسن ، وهو بذل الخير والإحسان في حق الخالق ، بأن تبني عبادتك على الإخلاص لله تعالى والمتابعة لرسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وأما الإحسان للخلق ، فهو بذل الخير لهم من مال أو جاه أو غير ذلك .

(فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) : أي فاستمِرّ على إحسان العبادة فإنه يراك .

(المستفاد)

٦٩– بيان التفاوت بين الإسلام والإيمان والإحسان .

٧٠– بيان علوِّ درجة الإحسان .

٧١– ذكر مراتب الدين والترقي في ذكرها من العام إلى الخاص إلى الأخص ؛ الإسلام فالإيمان فالإحسان ، فكل محسن مؤمن وكل مؤمن مسلم وليس العكس .

٧٢– بيان حقيقة الإحسان في العمل وهي أن تعبد الله كأنك تراه . وهذا مقام المراقبة .

٧٣– أن العبد لا يرى ربه في الدنيا .

٧٤– إثبات الرؤية لله تعالى .

٧٥– أن استحضار اطلاع الله يبعث على المراقبة وإحسان العمل .

(المعنى)

(فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ ؟)

(عَنِ السَّاعَةِ) : متى تقوم : أخبرني عن وقت مجيء يوم القيامة . والساعة هي : قيام الناس من قبورهم لرب العالمين ، يعني البعث ، وسميت ساعة لأنها داهية عظيمة .

(مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ) : لا أعلم وقتها أنا ولا أنت ، بل هو مما استأثر الله بعلمه .

(المستفاد)

٧٦– أن العالِم إذا سُئل عما لا يعلم ، يُصرّح بأنه لا يعلمه . ولا يُعبِّر بعبارات مترددة بين الجواب والاعتراف بعدم العلم ، وأن ذلك لا يُنقِص قَدْرَه ، بل هو دليل على ورعه وتقواه ، وعدم تَكَثُّره بما ليس عنده .

٧٧– وفيه إجابة السائل بأكثر مما سأل .

٧٨– أن الساعة وهي القيامة لا يعلم موعدها إلا الله تعالى ، لا مَلَكٌ مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل ، فأفضل الرسل من الملائكة سأل أفضل الرسل من البشر عنها ، فقال : " مَا الْمَسْئُوْلُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ " .

(المعنى)

(فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا): أي علامات قربها ، لأن الأمارة بمعنى العلامة ، والمراد أمارات قربها وهو ما يعرف بالأشراط .

(أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا) (الأَمَة) : المملوكة أو الرقيقة .

(أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا) : (رَبَّتَهَا) سيدتها ، فُسِّر هذا باتساع الإسلام واستيلاء أهله على بلاد الشرك فيكثر التسرى ، فيكون ولد الأمة من سيدها بمنزلة سيدها لشرفه بأبيه ، وفُسِّر أيضًا بكثرة العقوق : حتى يعامِلَ الولدُ أُمَّه معاملة السيد أَمَتَه من الإهانة بالسب والضرب والاستخدام . واختاره الحافظ ابن حجر قال : لأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الأحوال مستغربة ، وذكر أن التسرِّى كان موجودًا حين المقالة ، فحَمْل الحديث عليه فيه نظر .

(الْحُفَاةَ) : جمع حافٍ . وهو غير المنتعل .

(الْعُرَاةَ) : جمع عارٍ ، وهو من لا شيء على جسده . أي ليس لهم ثياب تكسوهم وتكفيهم .

(الْعَالَةَ) : الفقراء ، جمع عائل ، وهو الفقير .

(رِعَاءَ الشَّاءِ) : بكسر الراء . جمع راعٍ أي : حراسها ، و (الشاء) : جمع شاة ، وتطلق على الضأن والمَعْز .

(يَتَطَاوَلُوْنَ فِي الْبُنْيَانِ) : أي يكونون أغنياء حتى يتطاولون في البنيان أيهم أطول ، و يتفاخرون في تطويل البنيان ويتكاثرون به .

(المستفاد)

٧٩- عِظَم الساعة ، ولهذا جاءت لها أمارات حتى يستعدَّ الناسُ لها - رزقنا الله وإياكم الاستعداد لها - .

٨٠- أن للساعة أمارات ، أي علامات ، وهي أشراطُها .

٨١- ذكر علامتين من علامات قُرب الساعة ، وهي أن تلد الأمةُ ربتها ، وأن يتطاول البدو في البنيان ، وهذا كناية عن تحضرهم وسكناهم القرى والأمصار ، وغناهم بعد الفقر .

٨٢- أن من أشراط الساعة انعكاس الأمور بحيث يصير المربِّي مُربًا . والسافلُ عاليًا .

٨٣- أنه عند كثرة الرقيق قد يملك الولدُ أمَّه وهو لا يدري ويكون ربًا لها ، أي سَيدًا .

٨٤- كراهة ما لا تدعو الحاجة إليه من البناء و من تطويل البناء وتشييده ، ويشهد لذلك الآتي :

١ - عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لَهُ :
" فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ وَفِرَاشٌ لاِمْرَأَتِهِ وَالثَّالِثُ لِلضَّيْفِ وَالرَّابِعُ لِلشَّيْطَانِ " . (م / ٥٥٧٣) .

٢ - عَنْ خَبَّابِ بن الأَرَتِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ :
" كُلُّ نَفَقَةٍ يُنْفِقُهَا الْعَبْدُ يُؤْجَرُ فِيهَا إِلا الْبُنْيَانُ " قال الألباني (صحيح) انظر حديث رقم : ٤٥٦٦ في صحيح الجامع .

وحديث : " أَمَا إِنَّ كُلَّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ إِلَّا مَا لا ، إِلَّا مَا لا ، يَعْنِي مَا لا بُدَّ مِنْهُ " . رواه أبو داود ، ذكره الشيخ الألباني في " السلسلة الصحيحة " ٦ / ٧٩٤ . (١)

٨٥- التنبيه بالأدنى على الأعلى ، حيث ذكر الطبقة الفقيرة من البدو مما يدل على أن الأغنياء منهم أحرى بذلك

٨٦- أن بسط الدنيا يَحمِلُ على التنافس في متاعها .

(المعنى)

(فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي : " يَا عُمَرُ أَتَدْرِى مَنِ السَّائِلُ " . قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) .

(فَلَبِثْتُ) : أقمت بعد انصرافه .

(مَلِيًّا) : بتشديد الياء . مدة طويلة .

(المستفاد)

٨٧- أن يسألَ العالِمُ أصحابَه عن الأمر ليُعلِمهم به .

٨٨- يُندَب للعالِمِ أن ينبِّه أكبر تلامذته على فوائد العلم والغرائب ، وذلك لتفهمهم وتيقظهم .

٨٩- فضيلة عمر – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – حيث خصه الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بإخباره عن السائل .

٩٠- إلقاء العالِمِ على طلبته ما يخفى عليهم ، لقول النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ ؟ "

٩١- تفويض العلم إلى الله فيما لا يعلم العبد وقول المسئول لِمَا لا يعلم : الله أعلم .

(المعنى)

(قَالَ : " فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ ") .

(يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ) : يعلمكم كلياتِ دينِكم .

---

(١) قال الشيخ الألباني في " السلسلة الصحيحة " ٦ / ٧٩٤ : " كل بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ ... " – وكان ذكره في الضعيفة – .

قال : فرفعته إلى " الصحيحة " (٢٨٣٠) ، والسبب في ذلك أنني كنت قلت في راويه أبي طلحة الأسدي :

" لم يُوثِّقه أحد ... ". وذلك ثقة مني بالحافظ ابن حجر ؛ فإنه لم يَحْكِ توثيقه عن أحد ، ولقوله عنه في" التقريب " : " مقبول " !

فكتب أحد إخواني المكلَّفين بالنظر في الكتاب لإعداده لهذه الطبعة : أن الهيثمي قد أورده في كتابه : " ترتيب ثقات ابن حبان " ، فرجعت إلى أصله : " الثقات " ، فوجدته فيه ، وتابعت البحث والتحقيق ، فتبيَّن لي أنه صدوق ، وأن الحافظ كان في قوله المذكور غير مصيب .كما فصَّلت ذلك في المجلد السادس من " الصحيحة " .

(المستفاد)

٩٢- علمُ النبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بأن السائلَ جبريلُ عليه السلام ، إمَّا من أول مجيئه أو بعد ذلك .

٩٣- إخبارُ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لأصحابه بالسائل وبمقصوده .

٩٤- استعمالُ أسلوب التعزيز في التعليم والتربية ، والمقصود بأسلوب التعزيز هو دعم وتأكيد المعاني الموجودة مُسبَقًا لدى المتلقين ، فمعاني الحديث ليست جديدة على الصحابة الكرام ، فجاءت تلك الحادثة تعزيزًا لها .

٩٥- أن من الدِّين ، الإيمانُ بأنه لا يعلم وقت الساعة إلا الله وأن من الدِّين ، العلم بأماراتها .

٩٦- إضافة الدِّينِ إلى العباد لأنهم المأمورون به والقائمون به ، ويضاف إلى الله لأنه الذي شرعه كما قال سبحانه : (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ) (آل عمران / ٨٣) .

٩٧- بيان الإسلام والإيمان والإحسان ، وتسميتها كلها دينًا .

٩٨- أن السؤال الحسن يسمى علمًا وتعليمًا ، لقول النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في جبريل : " يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ " ، مع أنه لم يصدر منه سوى السؤال .

الأسئلة والأجوبة التدبرية على الأربعين النووية

الحديث الثاني

س : (الملائكة عليهم السلام يمكن أن يتشكلوا بأشكال غير أشكال الملائكة ، لأن جبريل أتى بصورة رجل كما جاء في الحديث) ، فهل هذا إليهم ، أو إلى الله ؟

ج : هذا إلى الله تعالى بمعنى : أنه لا يستطيع المَلَك أن يتزيَّى بزيّ الغير إلا بإذن الله .

س : لماذا قَالَ : يَا مُحَمَّدُ " ولم يقل : يا رسول الله ؟

ج : ليوهم أنه أعرابي ، لأن الأعراب ينادون النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – باسمه العلم ، وأما أهل الحضر فينادونه بوصف النبوة أو الرسالة عليه الصلاة والسلام .

س : لماذا لم يقل : أني رسول الله مع أن السياق يقتضيه ؟

ج : لأنه يخاطبه ، لكن إظهاره باسمه العلم أوكد وأشد تعظيمًا .

س : في قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ " لماذا جُعِلَ هذان الركنان ركنًا واحدًا ، ولم يجعل ركنين ؟

ج : أن الشهادة بهذين تُبنَى عليها صحة الأعمال كلِّها ، لأن شهادة ألا إله إلا الله تستلزم الإخلاص ، وشهادة أن محمدًا رسول الله تستلزم الإتباع ، وكل عمل يُتقرَّب به إلى الله لا يُقبل إلا بهذين الشرطين : الإخلاص لله ، والمتابعة لرسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

س : وما معنى هذه الشهادة ؟

ج : معنى أن تشهد أن لا إله إلا الله ، أي : أن يَعتقد الإنسان بلسانه وقلبه بأنه لا معبود حق إلا الله تعالى .

و" أَشْهَدُ " بمعنى أُقرُّ بقلبي ناطقًا بلساني ؛ لأن الشهادة نُطْقٌ وإخبار عما في القلب .

وإذا كان الشاهد بقلبه أخرس لا يستطيع النطق فإنه يكفي إقراره بقلبه للعجز .

والشهادة باللسان لا تكفي ، بدليل أن المنافقين يشهدون لله تعالى بالوحدانية ولكنهم يشهدون بألسنتهم ، فيقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، فلا ينفعهم .

س : كيف يقول : صدقت وهو السائل ؟

ج : لأن الذي يقول : صدقت للمتكلم يعني أن عنده علمًا سابقًا علم بأن هذا الرجل أصابه ، وهو مَحِل عَجَب ، ولهذا تعجب الصحابة كيف يسأله ويصدقه ، لكن سيأتي إن شاء الله بيان هذا .

س : كيف يُقال : " لَا إِلَه إِلَّا اللهُ " مع أن هناك آلهة تعبد من دون الله ، وقد سمَّاها الله آلهة وسمَّاها عابدوها آلهة ، قال الله تعالى : (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ) (هود / ١٠١) .

ج : بتقدير الخبر في " لا إِلَه إِلَّا اللهُ " نقول : هذه الآلهة التي تعبد من دون الله هي آلهة لكنها باطلة ، وليست آلهة حقّة ، وليس لها حق الألوهية من شيء .

س : في قوله : " وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا " هذا الشرط في جميع العبادات لقول الله تعالى : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) فلماذا خص الحج ؟

ج : خص الحج لأن الغالب فيه المشقة والتعب وعدم القدرة ، فلذلك نص عليه وإلا فجميع العبادات لا بد فيها من الاستطاعة .

س : هل الملائكة أجسام ، أم أرواح ، أم قُوى ؟

ج : الملائكة أجسام بلا شك ، قال الله عز وجل : (جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى) (فاطر / ١) وقال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " أطَّت السماء " والأطيط : صرير الرحل ، أي إذا كان على البعير حِمْل ثقيل ، تسمع له صريرًا من ثقل الحمل ، فيقول عليه الصلاة والسلام "وحُقَّ لها أن تئط ، ما من موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد " ويدل لهذا حديث جبريل عليه السلام : أنه له سِتمِائة جناح قد سد الأفق " ، والأدلة على هذا كثيرة .

س : (وَمَلائكَتِه) لماذا بدأ بالملائكة قبل الرسل والكتب ؟

ج : لأنهم عالَم غيبي ، أما الرسل والكتب فعالَم محسوس ، فالملائكة لا يظهرون بالحس إلا بإذن الله تعالى ، وقد خلق الله الملائكة من نورٍ ، كما ثبت عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وهم لا يحتاجون إلى أكل وشرب ، فنؤمن أن هناك عالَمًا غيبيًا هم الملائكة .

س : (ورسله) هل نؤمن بالرسل ولا نؤمن بالأنبياء وهل بينهما فرق ؟

ج : أما في القرآن فكل من ذُكِر من الأنبياء فهو رسول ، فكلما وجدت في القرآن من نبي فهو رسول ، لكن معنى النبي والرسول يختلف .

والصواب فيه : أن النبي : هو من أُوحي إليه بشرع وأُمر بالعمل به ولكن لم يؤمر بتبليغه ، فهو نبي بمعنى مُخْبَر ، مثاله : آدم عليه السلام أبو البشر نبي مكلَّف لكنه ليس برسول .

س : لماذا أعاد النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الفعل : (تؤمن) ؟

ج : لأهمية الإيمان بالقدر ، لأن الإيمان بالقدر ، لأن الإيمان بالقدر مهم جدًا ، وخطير جدًا .

س : في قوله : " وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ " هل في القدر شر ؟

ج : القدر ليس فيه شر ، وإنما الشر في المقدور ، وتوضيح ذلك بأن القدر بالنسبة لفعل الله كله خير ، ويدل لهذا : قول النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " وَالشَّرَّ لَيْسَ إِلَيْكَ " (م / ٧٧١) أي لا ينسب إليك ، فنفس قضاء الله تعالى ليس فيه شرٌ أبدًا ، لأنه صادر عن رحمة وحكمة ، لأن الشر المحض لا يقع إلا من الشرير ، والله تعالى خير وأبقى .

س : إذًا كيف نُوجّه " وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ " ؟

ج : المفعولات والمخلوقات هي التي فيها الخير والشر ، أما أصل فعل الله تعالى وهو القدر فلا شر فيه ، مثال ذلك قول الله عز وجل : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) (الروم / ٤١) هذا بيان سبب فساد الأرض ، وأما الحكمة فقال : (لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم / ٤١) إذن هذه مصائب ، من جدب الأرض ومرض أو فقر ، ولكن مآلها إلى خير ، فصار الشر لا يضاف إلى الرب ، لكن يضاف إلى المفعولات والمخلوقات مع أنها شرٌ من وجه ، وخيرٌ من وجه آخر ، فتكون شرًا بالنظر إلى مايحصل منها من الأذية ، ولكنها خير بما يحصل منها من العاقبة الحميدة (لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم / ٤١) ، ومن الحكمة أن يكون في المخلوق خير وشر ، لأنه لولا الشر ما عرف الخير ، كما قيل : (وبضدها تتبين الأشياء) فلو كان الناس كلُّهم على خير ما عرفنا الشر ، ولو كانوا كلُّهم على الشر ماعرفنا الخير ، إذًا إيجاد الشر لنعرفَ به الخير ، لكن كون الله تعالى يُوجِد هذا الشر ليس شرًا ، فهنا فرق بين الفعل والمفعول ، ففعل الله الذي هو تقديره لا شر فيه ، ومفعوله الذي هو مقدَّره ينقسم إلى خير وشر ، وهذا الشر الموجود في المخلوق لحكمة عظيمة .

– فائدة في (تقدير الشر أو خلقه) – إشكال وشُبْهَة ، والردّ عليها :

س : هل في مخلوقات الله شر ؟ أو هل يخلق الله الشر ؟ وهل يضاف الشر إلى الله ، وهل يجوز أن يقال عن الله (بيده الخير والشر) ، وهل من الأسماء الحسنى ما يتضمن الشر ، وكيف نجمع بين (من شر ما خلق) وبين (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) (م / ٧٧١) .

ج : لَا يَخْلُقُ اللَّهُ شَرًّا مَحْضًا وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ فِي الِاسْتِفْتَاحِ : " وَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ " (م / ٧٧١) . أَيْ : فَإِنَّكَ لَا تَخْلُقُ شَرًّا مَحْضًا ، بَلْ كُلُّ مَا يَخْلُقُهُ فَفِيهِ حِكْمَةٌ ، هُوَ بِاعْتِبَارِهَا خَيْرٌ ، وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ فِيهِ شَرٌّ لِبَعْضِ النَّاسِ ، فَهَذَا شَرٌّ جُزْئِيٌّ إِضَافِيٌّ ، فَأَمَّا شَرٌّ كُلِّيٌّ ، أَوْ شَرٌّ مُطْلَقٌ : فَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْهُ . وَهَذَا هُوَ الشَّرُّ الَّذِي لَيْسَ إِلَيْهِ .

وَلِهَذَا لَا يُضَافُ الشَّرُّ إِلَيْهِ مُفْرَدًا قَطُّ ، بَلْ إِمَّا أَنْ يَدْخُلَ فِي عُمُومِ الْمَخْلُوقَاتِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) (الزُّمَرِ / ٦٢) (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) (النِّسَاءِ / ٧٨) ، وَإِمَّا أَنْ يُضَافَ إِلَى السَّبَبِ ، كَقَوْلِهِ : (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) (الْفَلَقِ / ٢) وَإِمَّا أَنْ يُحْذَفَ فَاعِلُهُ ، كَقَوْلِ الْجِنِّ : (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) (الْجِنِّ / ١٠) وَلَيْسَ إِذَا خَلَقَ مَا يَتَأَذَّى بِهِ بَعْضُ الْحَيَوَانِ لَا يَكُونُ فِيهِ حِكْمَةٌ ، بَلْ لِلَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ مَا لَا يُقَدِّرُ قَدْرَهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَيْسَ إِذَا وَقَعَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مَا هُوَ شَرٌّ جُزْئِيٌّ بِالْإِضَافَةِ يَكُونُ شَرًّا كُلِّيًّا عَامًّا ، بَلِ الْأُمُورُ الْعَامَّةُ الْكُلِّيَّةُ لَا تَكُونُ إِلَّا خَيْرًا أَوْ مَصْلَحَةً لِلْعِبَادِ ، كَالْمَطَرِ الْعَامِّ ، وَكَإِرْسَالِ رَسُولٍ عَامٍّ .

وَهَذَا مِمَّا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُؤَيِّدَ كَذَّابًا عَلَيْهِ بِالْمُعْجِزَاتِ الَّتِي أَيَّدَ بِهَا الصَّادِقِينَ ، فَإِنَّ هَذَا شَرٌّ عَامٌّ لِلنَّاسِ ، يُضِلُّهُمْ ، فَيُفْسِدُ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ .

فمثلًا ، نحن نجد في المخلوقات المقدورات شرًا ، ففيها الحيات والعقارب والسباع والأمراض والفقر والجدب وما أشبه ذلك ، وكل هذه بالنسبة للإنسان شر ، لأنها لا تلائمه ، وفيها أيضًا المعاصي والفجور والكفر والفسوق والقتل وغير ذلك ، وكل هذه شر ، لكن باعتبار نسبتها إلى الله هي خير ، لأن الله عز وجل لم يقدرها إلا لحكمة بالغة عظيمة ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها .

وعلى هذا يجب أن تعرف أن الشر الذي وصف به القدر إنما هو باعتبار المقدورات والمفعولات ، لا باعتبار التقدير الذي هو تقدير الله وفعله .

ثم اعلم أيضًا أن هذا المفعول الذي هو شر قد يكون شرًا في نفسه ، لكنه خير من جهة أخرى ، قال الله تعالى :
(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم / ٤١) ، النتيجة طيبة ، وعلى هذا فيكون الشر في هذا المقدور شرًا إضافيًا يعني : لا شرًا حقيقيًا ، لأن هذا ستكون نتيجته خيرًا.

ولنفض حد الزاني مثلًا إذا كان غير محصن أن يجلد مئة جلدة ويسفر عن البلد لمدة عام ، هذا لا شك أنه شر بالنسبة إليه ، لأنه لا يلائمه ، لكنه خير من وجه آخر لأنه يكون كفارة له ، فهذا خير ، لأن عقوبة الدنيا أهون
من عقوبة الآخرة ، فهو خير له ، ومن خيره أنه ردع لغيره ونكال لغيره ، فإن غيره لو هَمَّ أن يزني وهو يعلم أنه سَيُفعَل به مثل ما فُعِل بهذا ، ارتدع ، بل قد يكون خيرًا له هو أيضًا ، باعتبار أنه لن يعود إلى مثل هذا العمل الذي سبب له هذا الشيء .

كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليه ، لكنه خير بالنسبة له وبالنسبة لغيره ، أما بالنسبة له ؛ فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة في الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وهو أيضًا خير في غير السارق ؛ فإن فيه ردعًا لمن أراد أن يسرق ، وفيه أيضًا حفظ للأموال ؛ لأن السارق إذا عرف أنه إذا سرق ستقطع يده ؛ امتنع من السرقة ،
فصار في ذلك حفظ لأموال الناس ، ولهذا قال – أبو العلاء المعرّي – :

يدٌ بِخمْس مِئِينَ عَسْجدٍ وُدِيَتْ ... مَا بالُهَا قُطعتْ فِي رُبعِ دِينارِ
تَناقضٌ مَا لنا إِلَّا السُّكوتُ لهُ ... وَأنْ نَعُوذَ بِمولانا منَ النَّار

لكنه أجيب في الرد عليه ردًّا مفحمًا ؛ فقيل فيه :

قل للمعري عار أيما عاري ... جهل الفتى وهو من ثوب التُّقَى عاري
يد بخمس مئين عسجدا وديت ... لكنها قطعت في ربع دينار
حماية النفس أغلاها ، وأرخصها ... حماية المال فافهم حكمة الباري

وأجاب أيضًا شمس الأئمة الكردري :

قل للمعرّي عار أيّما عار ... جهل الفتى وهو عن ثوب التّقى عاري
لا تقدحنّ زناد الشعر من حِكَم ... شعائر الشرع لم تقدح بأشعار
فقيمة اليد نصف الألف من ذهب ... ولو تعدّت فلا تسوى بدينار

وأَجَابَهُ علم الدّين السخاوي بقوله

(عِزُّ الأمانةِ أغْلاها ، وَأرْخصها ... ذُلُّ الخِيانةِ فافْهمْ حِكمةَ الْباري)

وأجيب عنه : هناك مظلومة عزّت بقيمتها ... وهنا ظَلَمت هانت على الباري

أما بالنسبة للأمور الكونية القدرية ، فهناك شيء يكون شرًا باعتباره مقدورًا ، كالمرض مثلًا ، فالإنسان إذا مرض ، فلا شك أن المرض شر بالنسبة له ، لكن فيه خير له في الواقع ، وخيره تكفير الذنوب ، قد يكون الإنسان عليه ذنوب ما كفَّرها الاستغفار والتوبة ، لوجود مانع ، مثلًا لعدم صدق نيته مع الله عز وجل فتأتي هذه الأمراض والعقوبات ، فتكفر هذه الذنوب .

ومن خيره أن الإنسان لا يعرف قدر نعمة الله عليه بالصحة ، إلا إذا مرض ، نحن الآن أصحاء ولا ندري ما قدر الصحة لكن إذا حصل المرض ، عرفنا قدر الصحة فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفها إلا المرضى .. هذا أيضًا خير ، وهو أنك تعرف قدر النعمة .

ومن خيره أنه قد يكون في هذا المرض أشياء تقتل جراثيم في البدن لا يقتلها إلا المرض ، يقول الأطباء : بعض الأمراض المعينة تقتل هذه الجراثيم التي في الجسد وأنك لا تدري .

فالحاصل أننا نقول :

أولًا : الشر الذي وصف به القدر هو شر بالنسبة لمقدور الله ، أما تقدير الله ، فكله خير والدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم " والشر ليس إليك " .

ثانيًا : أن الشر الذي في المقدور ليس شرًا محضًا بل هذا الشر قد ينتج عنه أمور هي خير ، فتكون الشرية بالنسبة إليه أمرًا إضافيًا .

قال ابن القيم : فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه ، بل كلُّ ما نسب إليه فهو خير ، والشر إنما صار شرًا لانقطاع نسبته وإضافته إليه ؛ فلو أضيف إليه لم يكن شرًا ، وهو – سبحانه – خالق الخير والشر ؛ فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقِه وفِعْلِه .

وخلقُه وفعلُه ، وقضاؤه وقدره خير كله ؛ ولهذا تنزه – سبحانه – عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه ؛ فلا يضع الشيء في غير محلّه ؛ فإذا وُضِع في محله لم يكن شرًا ؛ فعُلِم أن الشر ليس إليه ، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك .

(للمزيد يراجع / شفاء العليل ، وبدائع الفوائد ، والتفسير القيّم) .

– والقدرية تقول ما خلق الله شرًا كما يقول المجوس ولهذا جاء في حديث ابْنِ عُمَرَ ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ " (صحيح أبي داود / ٤٦٩١) وذلك أن من المجوس من يقول بالتثنية فيقولون للعالَم إلاهان أحدهما يَخلُق الخير والأنوار وهو الرحمن ، والآخر يَخلق الشر والظلمة وهو الشيطان ، وأنهما اختلفا ثم تهادنا إلى وقت مخصوص معلوم يعبرون عنه بالقيامة ، ويُسمُّون بالثنوية والمانوية ، يُنسَبون إلى ماني المجوسي الذي كان في زمان كسرى ، وهم الذين عناهم المتنبي بقوله

وكمْ لِظَلامِ اللّيلِ عِندَكَ مِن يَدٍ ... تُخَبّرُ أنَّ المَانَوِيَّةَ تَكذِبُ

وَقَاكَ رَدَى الأعداءِ تَسْري إلَيْهِمُ وَزَارَكَ فيهِ ذو الدّلالِ المُحَجَّبُ

فالمتنبي يقول : إنك تعطي في الليل العطايا الكثيرة التي تدل على أن المانوية تكذب ، لأن ليلك يأتي بخير .

و تفعل الخيرات في ظلام الليل وتنال الظفر بأعدائك في الليل ومن مذهب الثنوية أن الظلام ليس فيه ولا عنده خير وأنت أيها الممدوح قد نُصرت على أعدائك ونلت المطلوب من مرادك في ظلام الليل وهذه الأحوال تكذب المانوية الذين يقلون تلك المقالة ، وشر الشرور إبليس اللعين والله خالقه وبث الشر منه وقيل لقدري كيف يقول ما خلق الله شرا وهو سبحانه يقول (من شر ما خلق) فقال لست أقرؤها هكذا قيل له فكيف تقرؤها فقال (من شرٍ ما خلق) فينون شرا ويجعل ما نفيًا ، فتعجبوا يا أولي الألباب من هذا العجب العجاب يُفسدون القرآن ويُخالفون ربهم حتى يُصلحوا اعتقادهم ومذهبهم .

والشر الذي في المخلوقات لا يضاف إلى الله مفردًا أبدًا ؛ بل إما يدخل في عموم المخلوقات كقوله تعالى :
(قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) (النساء / ٧٨) ، وكقوله : (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) (الرعد / ١٦) ، يعني : الخير والشر .
وإما بصيغة البناء للمفعول ، كقوله تعالى عن الجن : (وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ) (الجن / ١٠) ،
وإما أن يضاف إلى خلقه سبحانه ، كقوله تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) (الفلق / ٢) .
هذه الوجوه التي يعبر بها في إضافة الشر المخلوق .

وعلى هذا فلا ينبغي أن تقول : الله خالق الشر ، لكن قل : الله خالق كل شيء ، وهذا معنى التعبير بالعموم ، وقل : فلان أريد به السوء ، ولا تقل : أراد الله به .

وكذلك إذا أردت أن تخبر عن خلق الله للمخلوقات ، قل : الله خالق كل شيء ، الله خالق السماوات والأرض ومن فيهن ، ولا تقل : الله خالق الحشرات وخالق الكلاب ، أو : الله رب الكلاب ، هذا منكر ؛ بل قل :
رب السماوات والأرض وما فيهن ، رب كل شيء ، هذا الذي فيه التعظيم ، كما تَمَدَّح سبحانه وتعالى بذلك
(رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (المؤمنون / ٨٦) .

وهكذا في النفع والضر فلا تقل : الله هو الضار ؛ بل قل : الله هو النافع الضار ، وهذا من جنس الأول في التعبير بالعموم . ومن هذا ما ذكَر الله من قول إبراهيم عليه السلام : (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) (الشعراء / ٧٧ – ٨٠) ولم يقل : وإذا أمرضني شفاني ، وهذا من الأدب في الإخبار عن الله سبحانه وتعالى .

ومما يتعلق بهذا الجمعُ بين آيتي سورة النساء ، وهي قوله سبحانه وتعالى : (وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) (النساء / ٧٨) وقوله تعالى في الآية التي تليها :
(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (النساء / ٧٩) فظاهر الآية الأولى
أن الحسنة والسيئة كلها من عند الله ، ومعنى أن الحسنة والسيئة من عند الله أنهما بمشيئته وتقديره وتدبيره ، وليس في تقديره شر سبحانه وتعالى ؛ بل حكمة وعدل .

وأما قوله تعالى : (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (النساء / ٧٩)
فالمعنى : بسبب نفسك ، والحسنة والسيئة تطلق في القرآن إطلاقين :
١ – حسناتُ وسيئات الجزاء ، وهي : النعم والمصائب ، ومنه قوله تعالى :
(وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ) (الأعراف / ١٦٨) .
٢ – حسناتُ وسيئات الأعمال ، ومنه قوله تعالى : (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) (هود / ١١٤) .

وأما الحسنة والسيئة في الآيتين :

ففي الآية الأولى : النعمة والمصيبة .

وفي الثانية : كذلك على الصحيح ، وفسرت الحسنة بالنصر والخصب ، والسيئة بالهزيمة أو بالمصيبة وبالجدب وما أشبه ذلك ، فتكون الآية : (وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (النساء / ٧٩) من جنس (أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) (آل عمران / ١٦٥) وقوله تعالى : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) (الشورى / ٣٠) .

وكل ما وقع للإنسان من خير أو شر فهو مقدر من الله ، وإضافة الشر إلى القدر ليس معنى ذلك أن الشر يضاف إلى الله جل وعلا ولكنه يضاف إلى المفعولات وإلى المخلوقات ، وليست المفعولات أفعاله بل المفعول غير الفعل ، ففعل الله يوصف به ، ولكن المفعول هو المخلوق المحدث ، كما قال الله جل وعلا : (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) (الفلق / ٢) يعني : من شر الذي خلقه ، فالشر في المخلوق ؛ لأن الشر يكون من مخالفة أمر الله وعدم امتثاله هذا هو مصدره ، أما الشيء الذي يفعله الله : خلقًا وإيجادًا وأمرًا فليس فيه شر وإنما فيه خير ، وله فيه حكمة وعدل ، ولهذا لا يكون شرًا ، والشر يكون إضافيًا ؛ ولهذا لم تأت إضافة الشر إلى الله جل وعلا في شيء من النصوص ، بل جاء نفي ذلك كما قال أعلم الخلق به صلوات الله وسلامه عليه : (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) (م / ٧٧١) ، يعني : لا نسبة ولا فعلًا فلا ينسب إليه ، وليس هو من أفعاله ، فأفعاله كلها خير ، وإنما الشر يكون بسبب فعل المخلوق ، ويكون ذلك داخلًا في تقديره تعالى وتقدس ؛ لأن كل شيء ملك له وتحت تصرفه .

– أقسام الشر في القرآن :

والشر في كتاب الله جل وعلا جاء على ثلاثة أقسام : القسم الأول : دخول الشر في عموم خلق الله جل وعلا : (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) (الرعد / ١٦) ، يعني : الخير والشر .

فلم يأت أن الله خلق الشر أبدًا ، وإنما دخل في العموم : (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) .

القسم الثاني : أن الشر إذا جاء في كتاب الله حذف فاعله كما قال مؤمن الجن :

(وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) (الجن / ١٠) ، ولما جاء الرَّشَد والخير أضافه إلى الله والشر حذف فاعله ؛ لأنه من المخلوق .

القسم الثالث : أن يضاف إلى المخلوق كقوله جل وعلا : (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) (الفلق / ٢) . وهذا هو الأدب الذي يجب أن يُسلك ؛ ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) (م / ٧٧١) ، ينزه ربه أن يكون الشر مضافًا إليه لا وصفًا ولا فعلًا .

قال ابن القيم – يرحمه الله – : قوله : (من شر ما خلق) ، أي : من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره ، إنسيًا كان أو جنيًا أو هامة أو دابة أو ريحًا أو صاعقة ، أو أي نوع من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة .

و(ما) هنا موصولة وليس المراد بها العموم الإطلاقي ، بل المراد التقييدي الوصفي ، والمعنى : من شر كل مخلوق فيه شر ، لا من شر كل ما خلقه الله ، فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر ، والشر يقال على شيئين : على الألم ، وعلى ما يفضى إليه .

فجعل الشر للمخلوق ، ولا يضاف إلى الله جل وعلا ؛ وذلك أن أوصاف الله جل وعلا وأفعاله ليس فيها شر ، والشر إضافي بمخلوقاته ، بمعنى أنه ما كان شرًا لقوم يكون خيرًا للآخرين ، فمثلا : المطر إذا جاء قد يَغرق مَنْ يَغرق فيه ، ويَهلك مالُه ، فيكون بالنسبة إليه فيه شر ، ولكن أكثر الناس هو خير لهم وللأرض ، ومثل ذلك الشمس والليل والنهار وغير ذلك .

فالمقصود أن الشر يكون في مخلوقات الله ، ولا يكون في فعل الله جل وعلا ولا في وصفه ، وليس الشر إليه ؛ ولهذا قال : (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) يعني : لما أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق فهو الشر الذي يكون في المخلوق .

والشر أصله الخلو من الخير ، فإذا وجد الخير يكون هذا الخير الذي وجد أصله من الله ، فهو الذي أوجد الخير ، وهو الذي وضعه في هذا المحل ، وإذا أخلى الله جل وعلا فضله من هذا المكان جاء الشر من قبل المخلوق ، فلهذا ما يصيب الإنسان شيء إلا من جراء فعله ومن جراء ذنبه الذي يفعله ، (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (النساء / ٧٩) فكل الخير يكون من الله ، أما المصائب والشرور وما يترتب على ذلك فهو من أفعال الإنسان ومعاصيه ومخالفاته ، وكون الله جل وعلا يخلق هذا وهذا لا يدل على أنه يتصف به تعالى وتقدس ؛ لأن كونه قدر هذا الشيء ودخل في مخلوقاته هو وصف لمن قام به ، فالشر وصف لمن قام به وهو المخلوق .

ومنه قول الله تعالى : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) (الفاتحة / ٦-٧) ، ثم قال في المغضوب عليهم والضالين : (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) (الفاتحة / ٧) ، فلم يذكر فاعل ذلك وذكر المفعول والواقع ، وهو الغضب والضلال .

إذًا : ليس في كلام الله ولا كلام الرسول صلى الله عليه وسلم إضافة الشر إلى الرب جل وعلا ، وإنما يرد على هذه الصيغ أو الصور التي ذكرناها قبل قليل ، فالشر ليس من فعله ، إنما يكون في المقضي المقدر ، وإنما أضفناه للمقضي المقدر لأنه شر ، فالمرض شر ، والمعصية شر ، ولكنها شر نسبي وليس شرًا محضًا ، فهي شر من جهة وخير من جهة : شر من جهة المخالفة أو من جهة ما يلحق الإنسان من ضرر ، وأما ما يترتب على وجود هذه الأشياء ، فإنه يترتب على وجودها الحكمة البالغة والرحمة الواسعة .

ومن مذهب أهل السنة وطريقتهم مع قولهم إن الخير والشر من الله وبقضائه ، لا يضاف إلى الله ما يتوهم منه نقص على الانفراد ، فلا يقال : يا خالق القردة والخنازير والخنافس والجعلان ، وإن كان لا مخلوق إلا والرب خالقه ، وفي ذلك ورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستفتاح : (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) (م / ٧٧١) ، ومعناه – والله أعلم – والشر ليس مما يضاف إليك إفرادًا وقصدًا حتى يقال لك في المناداة : يا خالق الشر أو يا مقدر الشر ، وإن كان هو الخالق والمقدر لهما جميعًا ، ولذلك أضاف الخضر عليه السلام إرادة العيب إلى نفسه فقال فيما أخبر الله تعالى عنه في قوله : (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) ولما ذكر الخير والبر والرحمة أضاف إرادتها إلى الله عز وجل فقال : (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) ولذلك قال مخبرًا عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى ربه ، وإن كان الجميع منه جل جلاله .

– قلت : والقائل / (عماد) : قد مَنَّ الله عليَّ وكَتَبْتُ رسالةً بعنوان :

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِيمَا تَعَوَّذ مِنْه خَيرُ البَرِيَّة) وفيها عِدَّة أحاديث للتعوذ من الشرور ومنها :

(شَرّ بَصَرِي ، شر جار السوء ، شر جار المقام ، شر الريح ، شر الرُّؤْيَا وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا ، شر الزواج ، من شَرّ سَمْعِي ، شر الشيطان ، شر عباده ، شَرّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمِنْ شَرّ فِتْنَةِ الْغِنَى ، شَرّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ ، ومن شَرّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ، وَشَرّ قَلْبِي ، شَرّ كُلّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ ، مِنَ الشَّرّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ ، وَشَرّ لِسَانِي ، شر الليلة (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا ، وَشَرّ مَا فِيهَا) ، مِنْ شَرّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بناصيتهِ ، من شرّ ما تَعْلَم يا الله ، شَرِّ مَا خَلَقَ ، وَذَرَأَ وَبَرَأَ ، شَرّ مَا ذَرَأَ فِي الأَرْضِ ، مِنْ شَرّ مَا صَنَعْتُ ، مِنْ شَرّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ ، مِنْ شَرّ مَا عَمِلْتُ ، وَشَرّ مَا لَمْ أَعْمَلْ ، شَرّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمِنْ شَرّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَمِنْ شَرّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، شَرّ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ ، وَشَرّ مَنِيِّي – يعني فَرْجه – ، شَرّ نَفْسِي) . فليراجعها مَنْ شاء .

– ليس من أسماء الله الحسنى اسم يتضمّن الشرّ :

من الأحكام المستفادة من كون أسماء الله عز وجل كلها حسنى أنه ليس في أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : " وليس من أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر ، وإنما يذكر الشر في مفعولاته " ، كقوله تعالى : (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ) (الحجر / ٤٩ ، ٥٠) ، وقوله تعالى : (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة / ٩٨) ، وقوله تعالى :
(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) (البروج) ، فبيَّن سبحانه أن بطشه شديدٌ وأنه هو الغفور الودود " .

وقال أيضًا : " وليس في أسمائه الحسنى إلا اسم يمدح به ، ولهذا كانت كلها حسنى " .

والحسنى خلاف السُّوآى ، فكلها حسنة ، والحسن محبوب ممدوح ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح حديث الاستفتاح : " والخير كله بيديك ، والشر ليس إليك " .

وقد قيل في تفسيره : لا يتقرب به إليك بناء على أنه الأعمال المنهيُّ عنها . وقد قيل : لايضاف إليك بناء على أنه المخلوق .

ولهذا إذا ذُكر باسمه الخاص قُرن بالخير ، كقوله في أسمائه الحسنى : الضارُّ النافع – المعطي المانع – الخافض الرافع – المعزُّ المُذلُّ .

فجمع بين الاسمين لما فيه من العموم والشمول الدَّال على وحدانيته ، وأنه وحده يفعل جميع الأشياء .

ولهذا لا يدعى بأحد الاسمين : كالضار والنافع ، والخافض والرافع ، بل يذكران جميعًا . ولهذا كان كل نعمة منه فضلا ، وكل نقمة منه عدلا " .

وقال ابن القيم : إن أسماءه كلها حُسنى ليس فيها اسم غير ذلك أصلا ؛ ومن أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل نحو الخالق الرازق المحيي المميت .

وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محض لا شر فيها ؛ لأنه لو فعل الشر لاشتُق له منه اسم ولم تكن أسماؤه كلها حُسنى ، وهذا باطل ، فالشرُّ ليس إليه ، فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته لا يدخل ، في أفعاله ، فالشر ليس إليه ، لا يضاف إليه فعلا ولا وصفا وإنما يدخل في مفعولاته .

وفرق بين الفعل والمفعول : فالشر قائم بمفعوله المباين له ، لا بفعله الذي هو فعله .

فتأمل هذا فإنه خَفيَ على كثير من المتكلمين وزلَّت فيه أقدام وضلت فيه أفهام ، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " .

وقال ابن القيم : " إن النعيم والثواب من مقتضى رحمته ومغفرته وبرِّه وكرمه ، ولذلك يضيف ذلك إلى نفسه ، وأما العذاب والعقوبة فإنما هو من مخلوقاته ، ولذلك لا يسمَّى بالمعاقِب والمعذِّب ، بل يُفرِّقُ بينهما ، فيجعل ذلك من أوصافه ، وهذا من مفعولاته حتى في الآية الواحدة كقوله تعالى :(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ) (الحجر / ٤٩ – ٥٠) ، وقال تعالى : (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ، وقال تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) ومثلها في آخر الأنعام ، فما كان من مقتضى أسمائه وصفاته ، فإنه يدوم بدوامها ، ولا سيما إذا كان محبوبًا له ، وهو غاية مطلوبة في نفسها ، وأما الشر الذي هو العذاب ، فلا يدخل في أسمائه وصفاته ، وإن دخل في مفعولاته لحكمة إذا حصلت زال وفنى ؛ بخلاف الخير ، فإنه سبحانه دائم المعروف لا ينقطع معروفه أبدًا ، وهو قديم الإحسان أبديُّ الإحسان ، فلم يزل ولا يزال محسنًا على الدوام .

فلو قلت : يا مُذل ، يا ضار ، يا مانع ، وأخبرت بذلك لم تكن مثنيًا عليه ولا حامدًا له حتى تذكرمقابلها .

– ويستفاد من كلام ابن القيم السابق أن الأسماء الحسنى تنقسم باعتبار إطلاقها على الله إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الأسماء المفردة :

وضابطها : ما يسوغ أن يطلق عليه مفردًا .

وهذا يقع في غالب الأسماء . مثالها : الرحمن ، السميع ، الرحيم ، القدير ، الملك .

القسم الثاني : الأسماء المقترنة :

وضابطها : ما يُطلق عليه مقترنًا بغيره من الأسماء .

وهذا أيضًا يقع في غالب الأسماء .

مثالها : العزيز الحكيم ، الغفور الرحيم ، الرحمن الرحيم ، السميع البصير .

وكل من القسم الأول والثاني يسوغ أن يُدعى به مفردًا ، ومقترنًا بغيره ، فتقول : يا عزيز ، أو يا حكيم ، أو يا غفور ، أو يا رحيم .

وهكذا في حال الثناء عليه أو الخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد أو الجمع .

القسم الثالث : الأسماء المزدوجة :

وضابطها : ما لا يُطلق عليه بمفرده بل مقرونًا بمقابله ؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم منها بما يقابله .

مثالها : الضار النافع ، المعز المذل ، المعطي المانع .

فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض ، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد ، ولذلك لم تجيء مفردة ، ولم تطلق عليه إلا مقترنة .

والسبب في ذلك ؛ أن الكمال إنما يحصل في الجمع بين الاسمين لما فيه من العموم والشمول الدال على وحدانيته ، وأنه وحده يفعل جميع الأشياء . فهو سبحانه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاء ومنعًا ، ونفعًا وضرًا . ولذلك لو قلت : يا مذلُّ ، يا ضار ، يا مانع ، وأخبرت بذلك لم تكن مثنيًا عليه ولا حامدًا له حتى تذكر مقابلها .

قال ابن القيم في نونيته :

هذا ومن أسمائه ما ليس يُفْ ... ـرد بل يقال إذا أتى بِقِران
وهي التي تُدعى بمزدوجاتها ... إفرادها خطر على الإنسان
إذ ذاك موهم نوع نقص جل رب ... العرش عن عيب وعن نقصان
كالمانع المعطي وكالضار الذي ... هو نافع وكماله الأمران
ونظير هذا القابض المقرون با ... سم الباسط اللفظان مقترنان
وكذا المعزّ مع المذل وخافض ... مع رافع لفظان مزدوجان

– إذا قال قائل : ما الجمع بين قوله تعالى : (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) (الفلق / ٢) ، وبين قوله الله صلى الله عليه وسلم : (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) (م / ٧٧١) ؟

– الفرق بينهما ظاهر ، لأن (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) أضاف الشر إلى مَنْ ؟ إلى المخلوق أما إلى الله فلا يضاف الشر ، كيف يُتَصَوَّرُ هذا ؟ يُتَصَوَّرُ لا شك أن الله هو الذي قَدَّرَ الشر لكن قَدَّرَ الشر في مفعولاته أما تقديره لهذا الشر خير حكمة حكمة عظيمة يترتب عليها من المصالح ما يجعلها غير مكروهة ، لكن فرق بين المفعول وبين الفعل والفاعل ، الفاعل هو الله عز وجل والمقدّر هذا لا شك نحبه على كل حال ، وفعله أيضًا خيرٌ على كل حال ومفعوله فيه خير وفيه شر .

– هل يقال : (إن الله بيده الخير والشر) ؟

لا يُعرف الجمع بينهما في كتاب ، ولا سنة ، بل القصر على الخير ، كما في قول الله تعالى :
(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران / ٢٦) .

وفي دعاء التوجه إلى الصلاة والتلبية : (لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك) .

فلنقصر الثناء على الله بما أثنى به على نفسه (بيده الخير) سبحانه ، مع إيماننا بأنه لا يخرج عن قدر الله شيء ، وأن جميع ما يقدره – سبحانه – من خير وشر ، كله حكمة وخير ، وإن كان الشَّرُّ شرًّا بالنسبة إلى المحل الوارد عليه ، وهذا معنى : (والشر ليس إليك) . والله أعلم .

س : لماذا قدَّر الله الشر ؟

ج : أولًا : ليُعرف به الخير .

ثانيًا : من أجل أن يلجأ الناس إلى الله عز وجل .

ثالثًا : من أجل أن يتوبوا إلى الله .

فكم من إنسان لا يحمله على الوِرد ليلاً أو نهارًا إلا مخافة شرور الخلق ، فتجده يحافظ على الأوراد لتحفظه من الشرور ، فهذه الشرور في المخلوقات لتحمل الإنسان على الأذكار والأوراد وما أشبهها ، فهي خير ، فالمهم أن الشر لا يُنسب إلى الله تعالى ، لأن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " وَالشَرَّ لَيْسَ إِلَيْكَ " (م / ٧٧١) فالشر ينسب إلى المخلوقات قال الله تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) (الفلق ١– ٢) .

وقال تعالى : (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) (الجن / ١٠) ، فلما ذُكر الشر ، جاء بصيغة ما لم يُسم فاعله (أُرِيدَ) ، ولما ذُكر الخير ، أظهر الفاعل وذكره (رَبُّهُمْ) .

س : هل في تقدير إيجاد المخلوقات الشريرة حكمة ؟

ج : نعم ، حكمة عظيمة ولولا هذه المخلوقات الشريرة ماعرفنا قدر المخلوقات الخيّرة .

س : في قوله عن أمارات الساعة : " يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ " هل المراد بالتطاول ارتفاعًا ، أم جمالًا ، أم كلاهما ؟

ج : كلاهما ، أي يتطاولون في البنيان أيهم أعلى ، ويتطاولون في البنيان أيهم أحسن ، وهو في الأول فقراء لا يجدون شيئًا ، لكن تغير الحال بسرعة مما يدل على قرب قيام الساعة .

س : هل وُجِدَ التطاول في البنيان أم لا ؟

ج : والله أعلم ، فإنه قد يوجد ما هو أعظم مما في هذا الزمان ، لأن كلَّ أُناسٍ وكلَّ جيلٍ يحدث فيه من التطاول والتعالي في البنيان ، وكلَّ زمن يقول أهله : هذا من أشراط الساعة ، والله أعلم ، لكن هذه علامة واضحة .

س : لِمَ لَمْ يذكر النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أمارات أخرى أوضح من هذا ؟

ج : أن العلامات بيّنة واضحة لايحتاج السؤال عنها ، ولذلك عدل النبي عنها إلى ذكر هذه الصورة .

س : كيف يكون جبريل أتى ليعلِّمَهم مع أنه جاء ليسأل ؟

ج : أن السائل عن العلم يكون معلمًا لمن سمع الجواب ، لأن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال :
" فَإِنَّهُ جِبْرِيْلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِيْنَكُمْ " .
مع أن الذي عَلَّمهم النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لكن لما كان جبريل هو السبب جعله هو المعلِّم .
ويتفرع على هذا أنه ينبغي لطالب العلم إذا كان يعلم المسألة وكان من المهم معرفتها أن يسأل عنها وإن كان يعلمها ، وإذا سأل عنها وأجيب صار هو المعلِّم .

الحديث الثالث

عَنْ أَبِيْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ : سَمِعْتُ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُوْلُ : " بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُوْلُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ ، وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحَجِّ البَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ " . رواهُ البخاريُّ ومسلمُ (١) .

المعنى الإجمالي

تمثيل الإسلام ببنيان ، ودعائم البنيان هذه الخمس ، فلا يثبت البنيان بدونها ، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان ، فإذا فقد منها شيء نقص البنيان ، وهو قائم لا ينتقض بنقضها ، بخلاف نقض هذه الدعائم الخمس ، فإن الإسلام يزول بفقدها جميعها بغير إشكال ، وكذلك يزول بفقد الشهادتين " .

وهذه الدعائم الخمس هي : الإقرار لله تعالى بالوحدانية ولنبيه بالرسالة ، والمحافظة على الصلوات الخمس مع القيام بشروطها وأركانها وواجباتها ، وإعطاء الزكاة لمستحقيها عند وجوبها ، وصيام رمضان بنية صادقة ، وأداء فريضة الحج لمن استطاع إليه سبيلًا من زادٍ وراحلةٍ وغيرِ ذلك ، و هذه الفروض الخمسة من فروض الأعيان ، لا تسقط بإقامة البعض عن الباقين ، وهذه الأركان مرتبطة ببعضها ، فمن أنكر شيئًا منها كان غير مسلم بالإجماع ، و الإسلام عقيدة وعمل ، فلا ينفع عمل بدون إيمان ، وكذلك لاينفع إيمان بدون عمل .

وما سوى هذه الخمس فهي من التكميل والتزيين ، إلا ما خصه دليل بالوجوب فلِزَامٌ علينا فعله .

توضيح الحديث

(المعنى)

" بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ "

(بُنِيَ) : أُسِّسَ .

(الإِسْلامُ) : الاستسلام والخضوع والانقياد . والمقصود بالإسلام هنا الإسلام العام الذي يُفسَّر بأنه : الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله .

(بُنِيَ الإِسْلامُ) : الذي بناه هو الله عزّ وجل ، وأبهم الفاعل للعلم به .

(عَلَى خَمْسٍ) : أي على خمسِ دعائم ، أو خمسة أركان .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٢٢)

١– تشبيه الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الإسلام بالبناء المحكم القائم على أسس وقواعد ثابتة .

٢– الإسلام دين كامل لا يقبل الزيادة ولا النقصان لقوله : " بُنِيَ الإِسْلامُ " فقد بُنِي واكتمل البناء .

---

(١) (خ / ٨ ، م / ٢١) (هذه أقرب الروايات وقد رواها مسلم برقم / ٢١) " بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ ، شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ " ، وبعض الروايات تقدم فيها الصوم على الحج ، وبعضها قال فيها : " والحج " بدلًا من " وحج البيت " . (وقد رواه الترمذي بحروفه برقم / ٢٦٠٩) .

٣- أهمية هذه الأركان الخمسة حيث بُني عليها دينُ الإسلام .

٤- الخطورة التي عليها مَنْ فرَّط فيها .

٥- خصال الإسلام تختلف من حيث الأهمية الشرعية ، فبعضها أركان للبناء وهي الخمس وبعضها مستحبات تتم البناء وهكذا .

(المعنى)

" شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُوْلُ اللهِ "

(الشهادة) : قولٌ صادرٌ عن علمٍ حاصل بمشاهدةِ بصرًا وبصيرة ، أو الإقرار والتصديق .

و الشهادتان : نطقٌ باللسان ، واعتقادٌ بالجنان .

(لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) : إله : أي معبود ، والمقصود : لا معبود حقٌ إلا الله .

(المستفاد)

٦- الإقرار بوحدانية الله ووجوده والتصديق بنبوة محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وهذا الركن يعتبر الأساس بالنسبة لبقية الأركان .

٧- أن الشهادتين أهم أركان الإسلام .

٨- معنى شهادة أن لا إله إلا الله : أي لا معبود حقٌ إلا الله .

ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله : طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما نهى عنه وزجر ، وألا يعبد الله إلا بما شرع .

٩- أن الإنسان لا يدخل الإسلام إلا بالشهادتين .

١٠- الشهادتان مرتبطتان مع بعضهما البعض لا تكفي إحداهما عن الأخرى فأصبحا ركنًا واحدًا .

١١- تشريف النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حيث جمع بين مقامي العبودية والرسالة " عبده ورسوله " ، كما في الرواية الأخرى .

(المعنى)

" وَإِقَامِ الصَّلاَةِ "

(وَإِقَامِ الصَّلاَةِ) : إقام الصلاة : أداؤها كاملةِ الشروط والأركان والسنن والأداب ، وتقويمُها بالخشوع والتفكير فى معانيها والمداومةُ عليها .

(الصلاة) : لغة : الدعاء ، وشرعًا : أقوال وأفعال مخصوصة تبدأ بالتكبير وتنتهي بالتسليم .

(المستفاد)

١٢- وجوب إقامة الصلاة وأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين .

١٣- المحافظة على إقامة الصلاة وأدائِها كاملة بشروطها وأركانها وأدابها ، وسننها لتؤتي ثمارَها في نفس المسلم ليترك الفحشاء والمنكر لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

(المعنى)

" وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ "

(وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ) : ما ينفقه صاحب المال من حق الله فى ماله ليُصرف للمحتاجين الذين ذكرهم الله في كتابه العزيز .

(الزَّكَاة) : لغة : الطهر والنماء ، وشرعًا : جزء من مالِكِ النصاب المسلم ، يُعطى للمستحِق .

(المستفاد)

١٤- وجوب إيتاء الزكاة لمستحقها ، وأن ذلك من أركان الإسلام .

(المعنى)

" وَحَجِّ الْبَيْتِ "

(وَالحَجِّ) : لغة : القصد ، شرعًا : قصد بيت الله الحرام للنسك المعدود من أركان الإسلام في زمن مخصوص على وجه مخصوص .

(المستفاد)

١٥- وجوب حج بيت الله الحرام لمن كان مستطيعًا ، وأن ذلك من أركان الإسلام .

(المعنى)

" وَصَوْمِ رَمَضَانَ "

(وَالصَوْمِ) : لغة : الإمساك . شرعًا : إمساك مخصوص عن المفطرات بُغية الامتثال لأوامر الله عز وجل من الفجر حتى غروب الشمس .

(المستفاد)

١٦- وجوب صوم رمضان وأنه ركن من أركان الإسلام .

١٧- جواز إطلاق رمضان من غير لفظ شهر .

ويستفاد من الحديث إجمالًا :

١٨- ارتباط أركان الإسلام ببعضها ، فمن أنكر شيئًا منها كان غير مسلم بالإجماع .

١٩- يدل النص على أن أركان الإسلام خمسة وهناك أمور كثيرة مهمة في الإسلام لم تذكر في الحديث .

٢٠- الإسلام عقيدة وعمل ، فلا ينفع عمل بدون إيمان ، وكذلك لاينفع إيمان بدون عمل .

٢١- معرفة أركان الدين ، وهو داخل في ضمن حديث جبريل المتقدم .

٢٢- أن هذه الفروض الخمسة من فروض الأعيان ، لا تسقط بإقامة البعض عن الباقين .

الأسئلة والأجوبة التدبرية على الأربعين النووية

الحديث الثالث

س : فِي قَوْلِهِ : " بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ " ، إذا كان الْإِسْلَامُ هو البناء ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْإِسْلَامُ مَبْنِيًّا عَلَيْهَا وَالْمَبْنِيُّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ الْمَبْنِيِّ عَلَيْهِ ؟

ج : قَالَ الْقَسْطَلَّانِيُّ (عَلَى) فِي قَوْلِهِ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ بِمَعْنَى (مِنْ) وَبِهَذَا يَحْصُلُ الْجَوَابُ عَمَّا يُقَالُ إِنَّ هَذِهِ الْخَمْسَ هِيَ الْإِسْلَامُ فَكَيْفَ يَكُونُ الْإِسْلَامُ مَبْنِيًّا عَلَيْهَا وَالْمَبْنِيُّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ الْمَبْنِيِّ عَلَيْهِ .

س : لماذا تقدَّم الحجّ على الصوم ؟

ج : هذا ترتيب ذِكري ، والترتيب الذِّكري يجوز فيه أن يقدم المؤخر كقول الشاعر :

إِنَّ مَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ... ثُمَّ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

فالترتيب هنا ترتيب ذكري . وقد سبق في حديث جبريل تقديم الصيام على الحج ، وأقول في شرح الحديث :

إن الله عزّ وجل حكيم ، حيث بنى الإسلام العظيم على هذه الدعائم الخمس من أجل امتحان العباد .

س : لماذا لم يذكر الجهاد مع أن الجهاد من أفضل الأعمال ؟

ج : لأنه فرض كفاية ولا يتعين إلّا في بعض الأحوال .

الحديث الرابع

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُوْدْ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : حَدَّثَنَا رَسُوْلُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوْقُ : " إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِيْ بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِيْنَ يَوْمًا نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُوْنُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُوْنُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيَنفُخُ فِيْهِ الرُّوْحَ ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيْدٌ .

فَوَاللهِ الَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُوْنُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَايَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا " رواهُ البخاريُّ ومسلمُ (١) .

المعنى الإجمالي

في هذا الحديث بيان مبدأ الإنسان في بطن أمه ، وتنقُّله من طور إلى طور آخر ، من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، ثم يُرسَل إليه المَلك ، فينفخ فيه الروح ، فتسري في جسمه ، فيبتدئ بالحركة ، ويَكتُبُ المَلكُ ما له من رزق في دار الدنيا – قليلًا أو كثيرًا – حتى يموت ، ويكتب مقدار عمره ومُنتهاه ، وكما يكتب ما يعمل ذلك الإنسان من خير وشر ، وهل هو من أهل السعادة أم من أهل الشقاوة .

ثم إن الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَيّن مآل الإنسان بأنه إما إلى جنة أو نار ، وجاء – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بمثل يخوف من سوء الخاتمة معناه أن مِن بني آدم مَن يعمل في طاعة الله – فيما يبدو للناس من ظاهره – فإذا حان قبض روحه أشرك بالله أو كفر فمات ، فكان من أهل النار .

وفي المقابل : هناك من يعمل بأعمال الكفر والمعاصي – فيما يبدو للناس من ظاهره – ولكنه عند قُرب أجله يسلم ويتوب وينيب إلى الله تعالى فيموت ، فيكون من أهل الجنة .

فعلى كل مسلم أن يخشى من سوء الخاتمة ، وأن يسأل الله حُسْنَهَا .

---

(١) (خ / ٣٢٠٨ ، م / ٢٦٤٣) وهذه الرواية أقرب لرواية مسلم وتختلف عنها في الآتي :

١ –كلمة : نطفة (أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً) لم ترد لا عند البخاري ولا عند مسلم ، وقد وردت في معجم الإسماعيلي / ١٣٠ ، والبغوي / ٧٠ .

٢ – كلمة : في ذلك (فِى ذَلِكَ عَلَقَةً) ليست عند البخاري .

٣ – كلمة : في ذلك (فِى ذَلِكَ مُضْغَةً) ليست عند البخاري .

٤ – كلمة : إليه (يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ) ليست عند البخاري ولا مسلم ، وقد وردت في المسند برقم ٣٦٢٤ .

٥ – كلمة : فوالله (فَوَاللهِ الَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ) ليست عند البخاري ولا مسلم ، ولم أجدها أبدًا .

ونص مسلم : " إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِى بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ فِى ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ فِى ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِىٌّ أَوْ سَعِيدٌ فَوَالَّذِى لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا " .

توضيح الحديث

(المعنى)

(حَدَّثَنَا رَسُوْلُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوْقُ)

(وَهُوَ الصَّادِقُ) : المخبِر بالحق والصدق المطابق للواقع في جميع أقواله فهو صادق فيما أخبَر به .

(المَصْدُوْق) المَصْدُوْقُ فيما أُخبِر به ، وفيما أوحي إليه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، والذي صدقه الله وعده .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٥٢)

١– أنه ينبغي للإنسان أن يؤكد الخبر الذي يحتاج الناس إلى تأكيده بأي نوع من أنواع التأكيدات .

٢– تأكيد الخبر بما يدل على صدقه، لقول عبد الله بن مسعود – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – : وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوْقُ .

٣– أن خلق الإنسان أطوار .

٤– منزلة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في قلوب أصحابه حيث يمدحونه بعبارات الثناء التي تدل على المحبة " الصادق والمصدوق " .

(المعنى)

" إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِيْ بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِيْنَ يَوْمًا نُطْفَةً "

(يُجْمَعُ) : بضم بعضه إلى بعض بعد الانتشار . أي تُضَمُّ مادة خلقه ، وتُحْفَظ في الرحم ، أو يُجْمَع بين مَنِيّ الرجل وماء المرأة .

(خَلْقُهُ) : تكوينه ، والمراد بالخلق مادته ، وهو الماء الذي يخلق منه .

(فِيْ بَطْنِ أُمِّهِ) : في رحمها .

(أَرْبَعِيْنَ يَوْمَاً نُطْفَة) : أي قطرة من المَنِي ، وأصل النطفة : الماء القليل ، أو الصافي .

(المستفاد)

٥– الحث على بر الوالدين خاصة الأم فكل قضايا حديث الباب من النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم إرسال الملك وكتابته ، كل ذلك يكون في بطن الأم " يجمع في بطن أمه " .

٦– أن أطوار الجنين – قبل نفخ الروح – ثلاثة : نطفة فعلقة فمضغة ، وقد ذكر الله هذه الأطوار مجتمعة في آيتين في سورة الحج والمؤمنون ، وذَكَرها متفرقة في مواضع .

٧– أن مدة كل طور أربعون يومًا .

٨– عَلَم من أعلام نبوة رَسُوْلِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، لأن هذه الأطوار وهذه المقادير لم يكن في العادة الاطلاع عليها .

(المعنى)

(ثُمَّ يَكُوْنُ عَلَقَةً) : والعلقة هي الدم الجامد الغليظ ، وهذا هو الطور الثاني الذي يمر به الجنين .

(مِثْلَ ذَلِك) : الزمن ، أي أربعين يومًا .

(المستفاد)

٩- حكمة الله عزّ وجل في أطوار الجنين من النطفة إلى العلقة .

١٠- أهمية الدمّ في بقاء حياة الإنسان ، وجهه : أن أصل بني آدم بعد النطفة العلقة ، والعلقة دم ، ولذلك إذا نزف دم الإنسان هلك .

(المعنى)

(ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِك) : أي أربعين يومًا ، والمضغة هي قطعة لحم ، وسميت بذلك لأنها قدر ما يمضغ الماضغ ، فالجميع يكون مائة وعشرين يومًا ، أي أربعة أشهر .

(المستفاد)

١١- أن الطور الثالث هي المضغة ، هذه المضغة تكون مخلقة وغير مخلقة .

(المعنى)

" ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيَنفُخُ فِيْهِ الرُّوحَ ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيْدٌ "

(ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ) : والمرسِل هو الله رب العالمين عزّ وجل ، فيُرسِل الملَك إلى هذا الجنين ، وهو واحد الملائكة ، والمراد به الجنس لا ملك معين .

(فَيَنْفُخُ فِيْهِ الرُّوْحَ) : الروح ما به يحيا الجسم ، وكيفية النفخ الله أعلم بها ، ولكنه ينفخ في هذا الجنين الروح ويتقبلها الجسم .

(وَيُؤْمَرُ) : أي الملك ، والآمر هو الله عزّ وجل .

(بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ) : بأربع قضايا مقدَّرة .

(رِزْقه) : الرزق هنا : ما ينتفع به الإنسان وهو نوعان : رزق يقوم به البدن ، ورزق يقوم به الدين .

والرزق الذي يقوم به البدن : هو الأكل والشرب واللباس والمسكن والمركوب وما أشبه ذلك .

والرزق الذي يقوم به الدين : هو العلم والإيمان ، وكلاهما مراد بهذا الحديث .

(وَأَجَلِه) : أي مدة بقائه في هذه الدنيا .

(وَعَمَلِه) : أي ما يكتسبه من الأعمال القولية والفعلية والقلبية ، فمكتوب على الإنسان العمل .

(وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيْدٌ) : هذه النهاية ، والسعيد هو الذي تم له الفرح والسرور ، والشقي بالعكس .

(المستفاد)

١٢– أن للأرحام ملَكًا مُعينًا أو جِنسًا يتولى تصويرَ الجنين ونفخَ الروحِ فيه وكتابةَ قدره .

١٣– أن خلق جسد الإنسان قبل خلق روحه .

١٤– أن نفخ الروح يكون بعد تمام أربعة أشهر مئة وعشرين يومًا من ابتداء الحمل ، لقوله :
" ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيْهِ الرُّوْحَ ".

١٥– عناية الله تعالى بالخلق حيث وكَّل بهم وَهُم في بطون أمهاتهم ملائكة يعتنون بهم ، ووكَّل بهم ملائكة إذا خرجوا إلى الدنيا ، وملائكة إذا ماتوا ، كل هذا دليل على عناية الله تعالى بنا .

١٦– أن الروح في الجسد تنفخ نفخًا ولكن لا نعلم الكيفية .

١٧– أن الروح جسم ، لأنه ينفخ فيحل في البدن .

١٨– الذي يعلم كيفية خلقه وإيجاده عليه أن يشكر الذي أوجده وخلقه في أحسن صورة وأن يطيعه فيما أمر وينتهي عما نهى عنه وزجر .

١٩– الإيمان بالغيب .

٢٠– أن الملائكة عليهم السلام عبيد يؤمرون وينهون ، لقوله :" فَيُؤمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ " والآمرُ له هو الله عزّ وجل .

٢١– أن هذه الأربع مكتوبة على الإنسان : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد .

٢٢– أن الملائكة يكتبون .

٢٣– أن الملَك لا يعلم ذلك ولا يكتبه إلا بأمر الله وإعلامه ذلك وهذا التقدير .

٢٤– وجوب الإيمان بالقضاء والقدر ، لقوله : " ويؤمر بكتب أربع كلمات : بكتب رزقه ... " .

٢٥– الردّ على القدرية من قوله : " أُمِر بكتب أربع كلمات " (١) .

٢٦– أن خلق الإنسان يكون بأسباب ظاهرة وأسباب خفية ، والله هو خالق الأسباب والمسبَّبات فهو الخالق حقيقة .

٢٧– عِلْم الله عز وجل بأحوال خلقه قبل أن يخلقهم وما يكون منهم من الشقاوة أو السعادة .

---

(١) هذه الكتابة تُسمَّى القَدَر العمري أو التقدير العمري ، والتقديرات أنواع : منها القدر اليومي ، ومنها القدر السنوي ، أرفع منه ، ومنها القدر والتقدير العمري ، ومنها التقدير أو القدر السابق الذي في اللوح المحفوظ .

قال فضيلة الشيخ / صالح بن فوزان بن عبد الله آل فوزان في كتابه : (الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد) :

التقدير نوعان :

١ – تقدير عام شامل لكل كائن ، وهو المكتوب في اللوح المحفوظ ؛ فقد كتب الله فيه مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة ، كما في حديث " إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ . قَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : " اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ " . (صحيح أبي دواد / ٤٧٠٠) ، وهذا التقدير يعم جميع المخلوقات .

٢ – وتقدير مفصل للتقدير العام ، وهو أنواع :

النوع الأول : التقدير العمري ؛ كما في حديث ابن مسعود في شأن ما يكتب على الجنين وهو في بطن أمه من كتابة أجله ورزقه وعمله وشقاوته أو سعادته .

النوع الثاني : التقدير الحولي ، وهو ما يقدر في ليلة القدر من وقائع العام ؛ كما قال تعالى : (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) . =

٢٨- تقدير أمر الإنسان رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد وهو في بطن أمه ، وهذا تقدير خاص لا يُنافي القدر العام الأول في اللوح المحفوظ ، ولا ينافي وقوع هذه الأمور بأسباب .

٢٩- التوكل على الله ، وعدم الخوف من الفقر ، لأن الرزق مكتوب .

٣٠- أن الإنسان لا يدري ماذا كتب له ، ولذلك أمر بالسعي لتحصيل ما ينفعه ، وهذا أمر مُسَلَّم .

٣١- الحث على القناعة ، والزجر على الحرص الشديد ، لأن الرزق قد سبق تقديره ،
وإنما شرع الاكتساب لأنه من جملة الأسباب التي اقتضتها الحكمة في دار الدنيا .

٣٢- الحياة بيد الله , ولن يموت عبد حتى يستكمل عمره .

٣٣- الإشارة إلى علم المبدأ والمعاد ، وما يتعلق ببدن الإنسان وحاله في الشقاوة والسعادة .

= النوع الثالث : التقدير اليومي ، وهو ما يقدر من حوادث اليوم من حياة وموت وعز وذل . . . إلى غير ذلك ؛ كما في قوله تعالى :
(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

ولا بد للمسلم من الإيمان بالقدر العام وتفاصيله ؛ فمن جحد شيئا منهما ؛ لم يكن مؤمنًا بالقدر ، ومن لم يؤمن بالقدر ؛ فقد جحد ركنًا من أركان الإيمان ؛ كما عليه الفرقة القدرية الضالة التي تنكر القدر ، وهم في هذا الإنكار على قسمين :

القسم الأول :

القدرية الغلاة الذين ينكرون علم الله بالأشياء قبل كونها ، وينكرون كتابته لها في اللوح المحفوظ ، ويقولون : إن الله أمر ونهى ، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ؛ فالأمر أنف (أي : مستأنف) ، لم يسبق في علم الله وتقديره . وهذه الفرقة قد انقرضت أو كادت .

القسم الثاني :

تقر بالعلم ، ولكنها تنفي دخول أفعال العباد في القدر ، وتزعم أنها مخلوقة لهم استقلالا ، لم يخلقها الله ولم يردها ، وهذا مذهب المعتزلة .

وقابلتهم طائفة غلت في إثبات القدر حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ، وقالوا : إن العبد مجبر على فعله ، ولذلك سموا بالجبرية .

وكلا المذهبين باطل لأدلة كثيرة ؛ منها : قوله تعالى : (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) لأن قوله تعالى : (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) : يرد على الجبرية ؛ لأن الله تعالى أثبت للعباد مشيئة ، وهم يقولون : إنهم مجبورون لا مشيئة لهم . وقوله تعالى : (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) : فيه الرد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله ، وهذا قول باطل ؛ لأن الله علق مشيئة العبد على مشيئته سبحانه ، ربطها بها .

وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة في هذه القضية ، فلم يُفَرِّطوا تفريط القدرية النفاة ، ولم يُفْرِطوا إفراط الجبرية الغلاة .

فمذهب سلف الأمة وأئمتها أن جميع أنواع الطاعات والمعاصي والكفر والفساد واقع بقضاء الله وقدره ، لا خالق سواه ؛ فأفعال العباد كلها مخلوقة لله ؛ خيرها وشرها ، حسنها وقبيحها ، والعبد غير مجبور على أفعاله ، بل هو قادر عليها وقاصد لها وفاعل لها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله – : " الأعمال والأقوال والطاعات والمعاصي هي من العبد ، بمعنى أنها قائمة بالعبد وحاصلة بمشيئته وقدرته ، وهو المتصف بها والمتحرك بها الذي يعود حكمها عليه ، وهي من الله ، بمعنى أنه خلقها قائمة بالعبد ، وجعلها عملا له وكسبًا ؛ كما يخلق المسببات بأسبابها ؛ فهي من الله مخلوقة له ، ومن العبد صفة قائمة به واقعة بقدرته وكسبه ؛ كما إذا قلنا : هذه الثمرة من الشجرة ، وهذا الزرع من الأرض ؛ بمعنى أنه حدث منها ، ومن الله بمعنى أنه خلقه منها ، لم يكن بينهما تناقض . . . " انتهى .

وقال السفاريني : " والحاصل أن مذهب أهل السلف ومحققي أهل السنة أن الله تعالى خلق قدرة العبد وإرادته وفعله ، وأن العبد فاعل لفعله حقيقة ومحدث لفعله ، والله سبحانه جعله فاعلا له محدثًا له ؛ قال تعالى : (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) . . . ؛ فأثبت مشيئة العبد ، وأخبر أنها لا تكون إلا بمشيئة الله ، وهذا صريح قول أهل السنة في إثبات مشيئة العبد ، وأنها لا تكون إلا بمشيئة الله . . . " انتهى .

وأقول : إن مما يؤيد هذا أن الله أعطى الإنسان عقلا وقدرة واختيارًا ، ولا يحتسب فعله له أو عليه ؛ إلا إذا توفرت فيه هذه القوى .
فالمجنون والمعتوه أو المكره لا اعتبار لما يصدر منهم من الأقوال والأفعال ، ولا يؤاخذون عليها ، مما يدل على أنه ليس بمجبر ولا مستقل بنفسه . والله المستعان .

(المعنى)

" فَوَاللهِ الَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُوْنُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ..... "

(فَوَاللهِ الَّذِيْ لا إِلَهَ غَيْرُهُ) : هذا قسم مؤكد بالتوحيد ، القسم : (فَوَاللهِ) والتوكيد بالتوحيد : (الَّذِيْ لا إِلَهَ غَيْرُهُ) أي لا إله حق غير الله ، وإن كان توجد آلهة تعبد من دون الله لكنها ليست حقًا ، كما قال الله عزّ وجل :

(أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) وقال عزّ وجل :

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلِ) (لقمان / ٣٠) .

(إِنَّ أَحَدَكم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ) : من الطاعات .

(حَتَّى مَا يَكُوْنُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ) : أي حتى يقرب أجله تمامًا .

(فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ) : الذي سبق في علم الله أو اللوح المحفوظ . أي : يغلب عليه ما تضمنه .

(فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ) : من المعاصي ، فيدع العمل الأول الذي كان يعمله ، وذلك لوجود دسيسة في قلبه – والعياذ بالله – هوت به إلى هاوية .

(المستفاد)

٣٤– جواز الحلف من غير استحلاف .

٣٥– القسم على الخبر الصادق لتأكيده في نفس السامع .

٣٦– أنه لا ينبغي لأحد أن يغتر بظاهر الحال لجهالة العاقبة ، ومن ثم شرع الدعاء بالثبات على الدين وحسن الخاتمة .

٣٧– الشقاوة والسعادة قد سبق الكتاب بهما ، وأنهما مقدرتان بحسب خواتم الأعمال ولا يعلمها أحد إلا الله .

٣٨– الحرص على أعمال أهل السعادة والثبات عليها والصبر والمجاهدة إلى أن يموت على ذلك فإن االإنسان ميسر لما خلق له .

٣٩– أن كلًّا مُيَسَّر لما جرى به القدر .

٤٠– الرد على الجبرية من قوله : " فيعمل بعمل أهل الجنة ويعمل بعمل أهل النار " (١) .

---

(١) قال شيخ الإسلام في قوله تعالى : (وَاللَّهُ خَالِقٌ أَفْعَالَهُم) ؛ فإذن اجتمع أن يكون العبد هو الذي فعل على الحقيقة ليس فعلًا مجازيًا كما يقوله الأشاعرة والماتريدية وطوائف ، وليس هو الذي يخلق فعل نفسه كما يقوله المعتزلة يعني القدرية ، وإنما هو يفعل حقيقة والله هو الذي خلق فعله ، وذلك لمجيء هذه في النصوص ، أما الفعل حقيقة فلأنه جاء في النصوص نسبة الفعل إلى العبد قال جل وعلا (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) فالعبد هو التواب وإذا كان هو التواب فالتواب صيغة مبالغة من اسم الفاعل تائب ، وتائب اسم فاعل التوبة ، المتطهر هذا اسم فاعل التطهر . فإذن العبد هو الذي فعل التوبة وهو الذي فعل التطهر بدِلالة اللغة . وإذا كان كذلك فهذه الدِلالة حقيقية ، فهو الذي فعل التوبة حقيقة لأن الله جل وعلا جعله توَّابًا وجعله مُتطهرًا . والأصل كما هو معلوم أن ما أُسْنِدَ إلى العبد فهو الحقيقة باتفاق الناس ، الأصل هو الحقيقة باتفاق الناس ، سواء الذين قسموا لغة العرب إلى حقيقة ومجاز أو الذين لم يقسموا ، بالاتفاق أن الأصل هو الحقيقة . فإذن عند الجميع ما أسنده الله جل وعلا من الأفعال للعبد هو الذي فعلها حقيقة لأنه هو الأصل . ولهذا في الأدلة جميعًا : صلى ، صام ، تصدق ، إلى آخره ، أمر الله جل وعلا بالصلاة بالصوم بالتصدق ، فَعَلَ العبد هذه الأشياء فهو إذن يفعلها حقيقة ، لكن كيف فعلها ؟

٤١- لايمكن أن يقطع الإنسان في الدنيا بدخول الجنة أو النار ، ولكن الأعمال سبب لدخولهما .

٤٢- أنَّ الأعمال بالخواتيم .

٤٣- أنَّ من كُتب شقيًا لابد أن يُختم له بسبب ذلك وإن كان يعمل بطاعة الله قبل ذلك .

٤٤- أنَّ من كُتب سعيدًا لابد أن يختم له بسبب ذلك وإن عمل بمعصية الله قبل ذلك .

٤٥- أنَّ الأعمالَ سببُ دخول الجنة أو النار .

٤٦- أنَّ مَن كُتب شقيًّا لا يُعلم حاله في الدنيا ، وكذا عكسه .

٤٧- أحكام الدنيا معلقة بالأعمال الظاهرة دون الدخول في النيات ، فمن كان ظاهره الإسلام حكم له به فقد قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة " وقال : " وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار" .

٤٨- الجمع بين الخوف والرجاء ، وأنَّ على من أحسن أن يخاف سوء الخاتمة ، وأنَّ مَن أساء لا يقنط من رحمة الله .

٤٩- وجوب الأخذ بأسباب حسن الخاتمة .

٥٠- أن نهاية بني آدم أحد أمرين : إما الشقاء وإما السعادة، قال الله تعالى : (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) (هود / ١٠٥) . وقال تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) (التغابن / ٢) .

٥١- هذا الحديث يُربي في النفس خوفها من النفاق الأصغر والأكبر ومن الكفر .

٥٢- يزرع المحاسبة والعناية بأمور النفس الباطنة خوفًا من أن تبتلى بمعصية خفية تقود إلى سوء الخاتمة

قال ابن رجب – يرحمه الله – : دسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة ا. هـ .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعًا من أهل السعادة إنه سميع قريب .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

الحديث الرابع

س : في قوله : (ثُمَّ يَكُوْنُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ) هل ينتقل فجأة من النطفة إلى العلقة ؟

ج : لا ، بل يتكون شيئًا فشيئًا ،فيحمّرُ حتى يصل إلى الغاية في الحُمرةِ فيكون علقة .

س : هل الأجل وراثي ؟

ج : الأجل ليس وراثيًا ، فكم من شاب مات من قبيلة أعمارهم طويلة ، وكم من شاب عمَّر في قبيلة أعمارها قصيرة .

س : كيف نجمع بين قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أَرْبَعِيْنَ يَوْمًا نُطْفَةً " ، وقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا " (م / ٢٦٤٥) ، وقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِى الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً " (م / ٢٦٤٤) ،

فهل (أربعون) ، أم (ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ) ، أم (بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ) ؟

ج : قال الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢ / ١٨٣)

فالحديث يدل على أن خلق الإنسان يتقلب في مِئة وعشرين يومًا في ثلاثة أطوار ، في كل أربعين يومًا منها يكون في طور ، فهو في الأربعين الأولى نطفة ، وفي الثانية علقة ، وفي الثالثة مضغة ، وبعد ذلك يأتيه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بكتابة رزقه وأجله ، وشقاوته أو سعادته .

" ثم يبعث إليه الملك " جاء في الحديث الذي رواه مسلم ، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ « يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِى الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَشَقِىٌّ أَوْ سَعِيدٌ فَيُكْتَبَانِ فَيَقُولُ أَىْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى فَيُكْتَبَانِ وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ فَلاَ يُزَادُ فِيهَا وَلاَ يُنْقَصُ " . (م / ٢٦٤٤)

وفيه أيضًا عنه قال : " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ " إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا ثُمَّ . قَالَ يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى فَيَقْضِى رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ أَجَلُهُ . فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ رِزْقُهُ . فَيَقْضِى رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِى يَدِهِ فَلاَ يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلاَ يَنْقُصُ " (م / ٢٦٤٥) .

وقد يبدو أن هذا يخالف حديث عبد الله بن مسعود ؛ لأن ظاهر حديث عبد الله –كما تقدم – أنه يبقى أربعين يومًا نطفة ، ثم أربعين أخرى علقة ، ثم أربعين مضغة ، ثم يبعث إليه الملك بعد الأربعين الثالثة .

قال ابن رجب : (ظاهر حديث حذيفة يدل على أن تصوير الجنين ، وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظامه يكون في الأربعين الثانية ، فيلزم أن يكون في الأربعين الثانية لحمًا وعظامًا ، وهذا خلاف ظاهر حديث عبد الله ، وظاهره أنه يصورها ، ويخلق هذه الأجزاء كلها ، وقد يكون خلق ذلك بتصويره وتقسيمه قبل وجود اللحم والعظام ،

فلا يكون بين الحديثين اختلاف .

وقال الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢ / ٢١١)

قوله : " إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا وأربعين ليلة " يعني :

– أنه في هذه المدة يكون نطفة داخل بويضة المرأة ، فيستمر هذه المدة ، وتغلب عليه هذه الصفة في الأربعين الأولى يعني : وصف النطفة ، وفي الثانية : وصف العلقة ، وفي الثالثة : وصف المضغة ، وإن كانت خلقته قد تمت وتم تصويره .

قوله : " ثم يكون علقة مثله " يعني : بعد مضى أربعين على النطفة في الرحم ، تصير علقة ، وهي قطعة دم جامد ، فتنقلب النطفة بعد دخولها بويضة المرأة ، ومرور أربعين يومًا ، إلى علقة ، بدون تخطيط ولا روح .

" ثم يكون مضغة مثله " يعني : بعد تمام الأربعين الثانية تصير العلقة مضغة .

والمضغة : قطعة لحم على قدر ما يمضغ الإنسان في فمه ، وفي هذا الدور يبدأ تخطيط خلقه .

فالحديث يدل على أن خلق الإنسان يتقلب في مِئَة وعشرين يومًا في ثلاثة أطوار ، في كل أربعين يومًا منها يكون في طَور ، فهو في الأربعين الأولى نطفة ، وفي الثانية علقة ، وفي الثالثة مضغة ، وبعد ذلك يأتيه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بكتابة رزقه وأجله ، وشقاوته أو سعادته .

" ثم يبعث إليه الملك " جاء في الحديث الذي رواه مسلم ، عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وقال : " يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ، أو خمسة وأربعين ليلة ، فيقول : يا رب ، أشقي أو سعيد ؟ فيكتبان ، فيقول : أي : رب ، أذكر أو أنثى ؟ فيكتبان ، ويكتب عمله ، وأثره ، وأجله ، ورزقه ، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص " . (م / ٢٦٤٤) .

وفيه أيضًا عنه قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكًا ، فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : يا رب ، أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما يشاء ، ويكتب الملك ، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده ، فلا يزيد على ما أمر ، ولا ينقص "

وقد يبدو أن هذا يخالف حديث عبد الله بن مسعود ؛ لأن ظاهر حديث عبد الله –كما تقدم – أنه يبقى أربعين يومًا نطفة ، ثم أربعين أخرى علقة ، ثم أربعين مضغة ، ثم يبعث إليه الملك بعد الأربعين الثالثة .

قال ابن رجب : ظاهر حديث حذيفة يدل على أن تصوير الجنين ، وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظامه يكون في الأربعين الثانية ، فيلزم أن يكون في الأربعين الثانية لحمًا وعظامًا ، وهذا خلاف ظاهر حديث عبد الله ، وظاهره أنه يصورها ، ويخلق هذه الأجزاء كلها ، وقد يكون خلق ذلك بتصويره وتقسيمه قبل وجود اللحم والعظام ، فلا يكون بين الحديثين اختلاف .

وتأوَّل بعضهم على أن الملك يُقسِّم النطفة إذا صارت علقة إلى أجزاء ، فيجعل بعضها للجلد ، وبعضها للحم ، وبعضها للعظام ، فيقدر ذلك كله قبل وجوده ، وهذا خلاف ظاهر الحديث .

قال ابن رجب : وقد ذكر علماء الطب ما يوافق الحديث ، قالوا : إن المني إذا وقع في الرحم حصل له زبدة ورغوة ستة أيام ، أو سبعة أيام ، وفي هذه الأيام تصور النطفة من غير استمداد من الرحم ، ثم بعد ذلك تستمد منه .

وابتداء الخطوط والنقط بعد هذا بثلاثة أيام ، وقد يتقدم ويتأخر يومًا ، ثم بعد ستة أيام ، وهو الخامس عشر

من وقت العلوق ، ينفذ الدم إلى الجميع ، فيصير علقة ، ثم تتميز الأعضاء تميزًا ظاهرًا ، ويتنحى بعضها عن مماسة بعض ، وتمتد رطوبة النخاع ، ثم بعد تسعة أيام ينفصل الرأس عن المنكبين ، والأطراف عن الأصابع ويتميز تميزًا يستبين في بعض ، ويخفى في بعض .

قالوا : وأقل مدة يتصور فيها الذكر ثلاثون يومًا ، والزمان المعتدل في تصوير الجنين خمسة وثلاثون يومًا ، وقد يتصور في خمسة وأربعين يومًا ، ولم يوجد في الإسقاط ذكر تم قبل ثلاثون يومًا ، ولا أنثى قبل أربعين يومًا .

فهذا يوافق ما دل عليه حديث حذيفة في التخليق في الأربعين الثانية ، ومصيره لحمًا فيها أيضًا .

وقال ابن القيم : إذا اشتمل الرَّحِم على المنِيّ ، ولم يقذف به إلى الخارج ، استدار على نفسه وصار كالكرة ، وأخذ بالشدة إلى تمام ستة أيام ، فإذا اشتد نقط فيه نقطة في الوسط ، وهو موضع القلب ، ونقطة في أعلاه ، وهي نقطة الدماغ ، وفي اليمين ، وهي نقطة الكبد ، ثم تتباعد تلك النقط ، ويظهر بينها خطوط حمر ، إلى تمام ثلاثة أيام أخر ،

ثم تنفذ الدموية في الجميع بعد ستة أيام أخر ، فيصير المجموع سبعة وعشرين يومًا ، ثم ينفصل الرأس عن المنكبين ، والأطراف عن الضلوع ، والبطن عن الجنبين ، وذلك في تسعة أيام ، فتصير ستة وثلاثين يوما ، ثم يتم هذا التمييز بحيث يظهر للحس ظهورًا بينًا في تمام أربعة أيام ، فيصير المجموع أربعين يومًا تجمع خلقه .

وهذا مطابق لقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا " واكتفى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بهذا الإجمال عن التفصيل ، وهذا يقتضي أن الله قد جمع خلقه فيها جمعًا خفيًا .

وهذا الذي ذكره ابن رجب وشيخه ابن القيم – يرحمهما الله تعالى – يكاد يكون متفقًا مع ما يقرره الأطباء حديثًا ، وقد أصبحت الأَجِنَّة مشاهدة بواسطة آلات التصوير والمناظير ، فصارت عند علماء الأجنة من الأطباء من الأمور الظاهرة ، وعندهم التخليق يبدأ مبكرًا من أيام الأربعين الأولى ، وأحاديث رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لا تخالف الواقع ، وإنما يأتي الغلط من عدم فهم مراده – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

وقد ذكر خلق الإنسان في مواضع عديدة من القرآن ، كما قال تعالى : (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) ، وقال تعالى :
(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

وحديث عبد الله يتفق مع هذه الآية الكريمة .

ولدلالة خلق الإنسان على خالقه ، وعظيم قدرته ، وعلى إعادته بعد موته ، وعلى وجوب عبادة الله وحده ، أكثر الله – تعالى – من ذكره في كتابه ، وأمر عباده بالاعتبار به .

والملَك الذي يُرسَل إلى النطفة في الرحم خلقه الله لذلك ، وجعل ذلك وظيفته ، وقد جعل الله – تعالى – لملائكته أعمالًا يختص بها كل فريق منهم .

قال الشيخ / صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في شرح عدة متون في العقيدة ١٦ / ٥٦ :
في قوله : (يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً) ،
وحديث عبد الله بن مسعود : أن البعث يكون بعد مائة وعشرين ليلة ، كيف يوفق بين هذا وهذا ؟
أجاب أهل العلم عن هذا بأجوبة من أحسنها : أن هذا مختلف باختلاف الأحوال ، وأن الغالب أن يتأخر وقد يتقدم ، ولهذا قد توجد الحركة في الجنين قبل الأربعة أشهر قد توجد بعد شهرين ونصف أو ثلاثة توجد الحركة وأحيانًا قبل ذلك ، لهذا هنا لم يُذكر في هذا الحديث أنه تنفخ فيه الروح بعد الأربعين وإنما ذكرت الكتابة ، وهناك في حديث
ابن مسعود ذكرت الكتابة ، وذكر أن نفخ الروح يكون بعد الكتابة لأنه قال : (ثم يبعث الله إليه ملكًا بأربع كلمات ثم ينفخ فيه الروح) وهذا يدل على أن نفخ الروح متأخر بعد الكتابة التي هي بعد عشرين ومائة من الليالي ، ونفخ الروح دليله الحركة ، وحركة الجنين قد تكون قبل ذلك لهذا قالوا : هذا الحديث يدل على أن الروح قد تنفخ بعد زمن وجيز لأنه بعد ما كتب يكون النفخ والله أعلم متى يكون نفخه .
المقصود : أن من أحسن أوجه الجمع بين هذين الحديثين أنه يُحمل على الاختلاف ، اختلاف ما يقدره الله جل وعلا تارة تكون الكتابة مبكرة وتارة تكون الكتابة متأخرة وهو الغالب لما دلَّ عليه حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – .

س : هل معنى أن هذه الأشياء مكتوبة فلا نعمل ؟ و هل معنى ذلك أن لا نفعل الأسباب التي يحصل بها الرزق ؟

ج : بل نفعل ، وما نفعله من أسباب تابع للرزق .

س : بأي حرف يكتبون ، هل يكتبون باللغة العربية ، أم باللغة السريانية ، أو العبرية ، أو ما أشبه ذلك ؟

ج : السؤال عن هذا بدعة ، علينا أن نؤمن بأنهم يكتبون ، أما بأي لغة فلا نقول شيئًا .

س هذه الكتابة هل هي في صحيفة ، أو تكتب على جبين الجنين ؟

ج : هناك آثار تدل على أنها تكتب على جبين الجنين ، وآثار على أنها تكتب في صحيفة ، والجمع بينهما سهل إذ يمكن أن تكتب في صحيفة ويأخذها الملك إلى ما شاء الله ، ويمكن أن تكتب على جبين الإنسان .

س : لماذا هذه الأطوار ؟

ج : قال بعض العلماء : والحكمة في هذه الأطوار رفقًا بالأمّ لأنه قادر على خلقه مرة واحدة .

س : قوله : " حَتَّى مَايَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلا ذِرَاعٌ " هل هذا يكون في مرتبة العمل ؟

ج : ليس المعنى " حَتَّى مَايَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلا ذِرَاعٌ " في مرتبة العمل ، لأن عمله الذي عمله ليس عملاً صالحًا ، كما جاء في الحديث : " إِنَّ أَحَدَكم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ "
(خ / ٢٨٩٨) لأنه أُشكل على بعض الناس : كيف يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يبقى بينه وبينها إلا ذراع ثم يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ؟ .

فنقول : عمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، ولم يتقدم ولم يسبق ، ولكن حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أي بدنو أجله ، أي أنه قريب من الموت .

أقول هذا لئلاّ يظن بالله ظن السوء : فوالله ما من أحد يُقبل على الله بصدق وإخلاص ، ويعمل بعمل أهل الجنة إلا لم يخذله الله أبدًا . فالله عزّ وجل أكرم من عبده ، لكن لا بد من بلاء في القلب .

الحديث الخامس

عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللهِ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – قَالَتْ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" مَنْ أَحْدَثَ فِيْ أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ " رواهُ البخاريُّ ومسلمُ (١) ، وفي روايةٍ لمسلم :
" مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ "

المعنى الإجمالي

هذا الحديث أصلٌ من أصول الإسلام وقاعدة من قواعده ، لكثرة ما يدخل تحته من الأحكام ، فقد جمع بين وجوه المخالفة للدين بما في ذلك البدعة أو المعصية ، ولذلك أوصى العلماء بحفظه ومدارسته ، والعمل به ، والعناية بتبليغه ، لاشتماله على إبطال كل ما خالف الشريعة من قولٍ أو فعلٍ .
فكل عمل أو قول لم يوافق الشريعة في وجوهه كافة فهو مردودٌ على صاحبه غير مقبولٍ منه .

توضيح الحديث

(المعنى)

(مَنْ أَحْدَثَ) : أنشأ واخترع من نفسه وهواه شيئًا لم يكن .
(فِيْ أَمْرِنَا) : أي في ديننا وشريعتنا .
(مَا لَيْسَ مِنْهُ) : أي مالم يشرعه الله ورسوله .
(فَهُوَ رَدٌّ) : فإنه مردود عليه حتى وإن صدر عن إخلاص .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٢٠)

١– هذا الحديث أصل في رد البدع المستحدثة في دين الإسلام .
قال النووي : هذا الحديث مما ينبغي حفظه ، واستعماله في إبطال المنكرات ، وإشاعة الاستدلال به .
وقال الشيخ الألباني : هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام ، وهو من جوامع كلمه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فإنه صريح في ردّ إبطال كل البدع والمحدثات .
٢– تحريم إحداث شيء في دين الله ولو عن حسن قصد ، ولو كان القلب يرق لذلك ويقبل عليه ، لأن هذا من عمل الشيطان .
٣– أن كل ما أُحدث في الدين مما لم يأذن به الله باطل مردود .
٤– ردّ كل محدثة في الدين لا توافق الشرع ، وفي الرواية الثانية التصريح بترك كل محدثة سواء أحدثها فاعلها أو سبق إليها ، فإنه قد يحتج بعض المعاندين إذا فعل البدعة يقول : ما أحدثت شيئًا ، فيحتج عليه بالرواية الثانية " مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ " .
٥– أن الدين مبناه على الشرع وأن كل ما شهد له شيء من أدلة الشرع أو قواعده العامة ليس يرد بل هو مقبول .

---

(١) (خ / ٢٦٩٧ ، م / ١٧١٨) ، وهاتان الروايتان لمسلم ، ورواية البخاري " مَا لَيْسَ فِيهِ " ورواية مسلم " مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ " .

٦- جميع شؤون الحياة يجب أن تكون تحت حكم الشريعة سواءً أكانت عبادات أم معاملات ، لقوله : " في أمرنا " .

٧- البدعة هي إحداث في الدين ما ليس منه بدليل أول الحديث .

٨- الحديث أصل في طلب الدليل واتباعه بعد ثبوته .

٩- المؤمن لا يبتدع لكنه يتبع .

١٠- أن كل ما وافق شرع الله من العبادات والعقود صحيح ، وكل ما خالفه باطل .

١١- الإشارة إلى وقوع البدع .

١٢- ذم مَنْ يُحدث في الدين .

١٣- أن الدين ليس بالرأي والاستحسان .

١٤- الإشارة إلى أن الدين كامل لا نقص فيه .

١٥- دلّ الحديث على أن منشأ جميع البدع الجهل بالأدلة .

١٦- فيه حث ضمني على طلب العلم حتى يعرف أمر الله ودليله .

١٧- أن النَّهي يقتضي الفساد ، لأن المنهيات كلها ليست من أمر الدين فيجب ردها .

١٨- أن حكم الحاكم لا يُغَيِّر ما في باطن الأمر ، لقوله : (ليس عليه أمرنا) والمراد به الدين .

١٩- إبطال العقود والأنكحة والبيوع المخالفة للشريعة الإسلامية بوجهٍ من الوجوه .

٢٠- براءة الذمة من تبعات هذه الأعمال المخالفة للشريعة ، لعدم انعقاد هذه الأعمال أو صحتها في الأصل . ويدخل في ذلك الاعتقاد ، فكل اعتقادٍ مخالف للشريعة فهو باطلٌ ، ويستفاد منه إبطال بدع الاعتقاد القولية والفعلية .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : لو أحدثت شيئًا أصله من الشريعة ولكن جعلته على صفة معينة لم يأتِ بها الدين ، فهل يكون مردودًا أو لا ؟

ج : يكون مردودًا ، مثل ما أحدثه بعض الناس من العبادات والأذكار والأخلاق وما أشبهها ، فهي مردودة .

الحديث السادس

عَنْ أَبِيْ عَبْدِ اللهِ النُّعْمَانِ بْنِ بِشِيْرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُما – قَالَ : سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُوْلُ : " إِنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا أُمُوْرٌ مُشْتَبِهَات لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاس ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِيْنِهِ وعِرْضِه ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيْهِ . أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَىً . أَلا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ ، أَلا وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وإِذَا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلا وَهِيَ القَلْبُ " رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ (١) .

المعنى الإجمالي

يرشدنا هذا الحديث إلى أن ما أحله الله ورسوله وما حرمه الله ورسوله ، كلٌ منها بيّن واضح ، وإنما الخوف على المسلم من الأشياء المشتبِهة ، وهي الأشياء التي ليست واضحة الحِلّ ولا واضحة الحرمة بالنسبة لكثير من الناس ، فمن ترك تلك الأشياء المشتبهة عليه فقد تمَّ له براءة دينه بالبعد عن الوقوع في الحرام ، وتمَّ له كذلك صيانة عِرْضِه عن كلام الناس بما يعيبون عليه بسبب ارتكابه هذا المشتبه . ومن لم يجتنب المشتبهات ، فقد عرَّض نفسه إما إلى الوقوع في الحرام أو اغتياب الناس له ونيْلهم من عِرْضِه . ثم إن الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ضرب مثلًا لمن يرتكب الشبهات كراعٍ يرعى إبله أو غنمه قرب أرض قد حماها صاحبُها ، فتوشك ماشية ذلك الراعي أن ترعى في هذا الحِمَى لقربها منه ، فكذلك مَنْ يفعل ما فيه شُبْهة ، فإنه بذلك يقترب من الحرام الواضح ، فيوشك أن يقع فيه .

وأشار النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى أن الأعمال الباطنة من صلاح أو فساد ، فقال إن في الجسد مضغة (وهي القلب) يصلح الجسدُ بصلاحها ويفسد بفسادها ، فإذا فعل الإنسان بجوارحه الطاعات وعمل الخيرات دلَّ ذلك على صلاح قلبه ، وإذا فعل المعاصي وارتكب المنكرات وتجنب الطاعات دلَّ ذلك على فساد قلبه .

توضيح الحديث

(المعنى)

" إِنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُوْرٌ مُشْتَبِهَات لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاس "

(الحَلال) : وهو ما نص الله ورسوله ، أو أجمع المسلمون على تحليله . أو لم يعلم فيه منع .

---

(١) رواية البخاري (الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ) ، (وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ) .(خ / ٥٢ ، ٢٠٥١)

فهذه رواية مسلم (١٠٧) إلا أنها تختلف في الآتي :

١ – كلمة : (أمور) ليست موجودة (وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ) .

٢ – كلمة : (فقد) ليست موجودة (الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ) .

٣ – كلمة : (يقع) بدلًا منها (يرتع) (يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ) كما في بعض نسخ النووية وأقرب الروايات ما ورد في مستخرج أبي عوانة / ٤٤٣٦.

(بَيِّنٌ) : ظاهر واضح .

(الحَرَام) : وهو ما نص أو أجمع على تحريمه ، أو على أن فيه حدًا أو تعزيرًا ، أو وعيدًا .

(أُمُوْرٌ) : شئون وأحوال .

(مُشْتَبِهَات) : جمع مشتبه وهو المشكل لعدم وضوح الحلال من الحرام .

(لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاس) : إما لقلة علمهم ، وإما لقلة فهمهم ، وإما لتقصيرهم في المعرفة .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٣٨)

١- أن الأشياء تنقسم إلى ثلاثة أقسام : حلال بيّن ، حرام بيّن ، مشتبه .

٢- أن من الحلال ما هو بين تعرفه العامة والخاصة ، ومن الحرام ما هو بين تعرفه العامة والخاصة ، فمن الأول الأكل والشرب مما يخرج من الأرض ، ومن الثاني الزنى وشرب الخمر .

٣- أنه لا يمكن أن يكون في الشريعة مالا يعلمه الناس كلهم ، لقوله : (لا يعْلَمُهُنَّ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ) .

٤- فيه التماس عذر لمن أخطأ من أهل العلم في مسألة من المشتبهات لقوله :

" وَبَيْنَهُمَا أُمُوْرٌ مُشْتَبِهَات لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاس " فمن أخطأ فهو معذور لأن الأمر أصلًا مشتبه .

٥- أن للشبهات حكمًا خاصًا بها ، عليه دليل شرعي يمكن أن يصل إليه بعض الناس وإن خفي على الكثير .

(المعنى)

" فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِيْنِهِ وعِرْضِه "

(اتَّقَى الشُّبُهَاتِ) : تركها وتجنبها وابتعد عنها وجعل بينه وبينها وقاية .

(اسْتَبْرَأَ) : طلب البراءة له من الذم الشرعي وحصلها له .

(لِدِيْنِهِ) : فيما بينه وبين الله تعالى .

(وعِرْضِه) : يصونه عن كلام الناس فيه بما يشينه ويعيبه . وعِرْض الرجل : حَسَبه ، موضع المدح والذم من الإنسان .

(المستفاد)

٦- من ترك الشبهات فقد برَّأ دينه من الهمز وعِرضه من كلام الناس .

٧- الحثّ على أن يبتعد الإنسان عن مواطن التهمة حتى لا يُعَرِّض عِرْضَه للنيل منه .

٨- براءة الدين من الخدش والعِرْض من الكلام أمر مقصود في الشريعة لقوله : " فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِيْنِهِ وعِرْضِه " .

٩- الحرص على براءة الدين أهم من الحرص على براءة العرض ولهذا قدمت في الحديث " فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِيْنِهِ وعِرْضِه " .

١٠- أن من لم يتوق الشُّبْهَة في كسبه ومعاشه فقد عرَّض نفسه للطعن فيه ، ويعتبر هذا الحديث من أصول الجرح والتعديل لما ذكر .

١١- حكمة الله في ذكر المشتبهات حتى يتبين من كان حريصًا على طلب العلم ومن ليس بحريص .

١٢- الحث على اتقاء الشبهات ، لكن هذا مشروط بما إذا قام الدليل على الشبهة ، أما إذا لم يقم الدليل على وجود شبهة اتقاء الشبهات كان ذلك وسواسًا وتعمقًا ، لكن إذا وجد ما يوجب الاشتباه فإن الإنسان مأمور بالورع وترك المشتبه ، أما ما لا أصل له فإن تركه تعمّق .

١٣- من الورع ترك الشبهات .

١٤- الاحتياط للدين والعرض وعدم تعاطي الأمور الموجبة لسوء الظن .

١٥- على المسلم أن يسعى لحفظ عرضه وأن يبتعد عن كل ما يشينه ويعرضه للطعن .

١٦- فضل العلم الذي به الفرقان بين الحق والباطل والحلال والحرام .

١٧- فيه فضل العلم ، حيث إن العالم تصبح الأشياء كلها عنده بينه " الحرام والحلال والمشتبه " .

١٨- تفاضل الناس في العلم فقد يكون الأمر فيه شبهة عند شخص لكنه واضح عند آخر .

١٩- الحث على فعل الحلال .

٢٠- اجتناب الحرام والشبهات .

٢١- الإرشاد إلى اتقاء المشتبهات ، وهي ما حصل فيه التردد في حِلِّه وحُرمته .

٢٢- أن في اجتناب الشبهات احتياطًا للدِّين والعِرض بالسلامة من الوقوع في الحرام .

(المعنى)

" وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيْهِ أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَىً . أَلا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ "

(وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ) : أي إذا اعتادها واستمر عليها ، أدته إلى التجاسر وإلى الوقوع في الحرام .

(كَالرَّاعِي) : أي راعي الإبل أو البقر أو الغنم .

(حَوْلَ الحِمَى) : المحمى المحظور عن غير مالكه .

(يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيْهِ) : أي يقرب أن يقع فيه ، يَرْتَعَ فِيْهِ : بفتح التاء ، تأكل ماشيته منه فيعاقب .

(وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَىً) : من ملوك العرب .

(حِمَىً) : موضعًا يحميه عن الناس ، ويتوعد من دخل إليه أو قرب منه ، بالعقوبة الشديدة .

(مَحَارِمُهُ) : جمع محرم ، وهو فعل المنهي عنه ، أو ترك المأمور به الواجب .

(ألا) : حرف استفتاح ، يدل على تحقق ما بعدها . وفي تكريرها دليل على عظم شأن مدخولها وعظم موقعه .

(أَلا وإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ) : هذه جملة مؤكدة بـ (إن) وأداة الاستفتاح (ألا) والمعنى : ألا وإن حمى الله محارم الله ، فإياك أن تقربها ، لأن محارم الله كالأرض المحمية للملك لا يدخلها أحد .

(المستفاد)

٢٣- أن الإقدام على المشتبهات سبب للوقوع في الحرام .

٢٤- أن الواقع في الشبهات واقع في الحرام ، لقوله : " مَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ " .

٢٥- حسن تعليم النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وذلك بضرب الأمثال المحسوسة لتتبين بها المعاني المعقولة .

٢٦- أن من طرق البيان ضرب الأمثال وتشبيه المعقول بالمحسوس .

٢٧- سد الذرائع ، أي أن كل ذريعة توصل إلى محرم يجب أن تغلق لئلا يقع في المحرّم . وسد الذرائع دليل شرعي ، فقد جاءت به الشريعة .

٢٨- أن الاقتراب من الحمى والمحظور سبب للوقوع فيه .

٢٩- أن من عادة الملوك أن يكون لهم حمى يمنعون الناس منه بحق أو بغير حق .

٣٠- حدود حرمات الله هي محارمه التي حرمها على الناس .

٣١- يدل الحديث على أن دائرة الحلال أوسع من دائرة الحرام في الشريعة الإسلامية فالمحرم فقط الحمى وأما بعده فحلال .

(المعنى)

" أَلا وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وإِذَا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ القَلْبُ "

(مُضْغَةً) : أي قطعة لحم بقدر ما يمضغه الإنسان عند الأكل ، وهي بمقدار الشيء الصغير .

(صَلَحَتْ) : بفتح اللام وضمها ، والفتح أشهر وقيد بعضهم الضم بالصلاح الذي صار سجية .

(المستفاد)

٣٢- دلَّ على أن القلب يصلح ويفسد .

٣٣- الوقوع في الشبهات ثم المحرمات نابع من فساد القلب .

٣٤- اتقاء الشبهات نابع من صلاح القلب ولهذا ذكر القلب في الحديث .

٣٥- أن مدار الصلاح والفساد في الإنسان على القلب ، وسائر الجوارح تابعة له صلاحًا أو فسادًا .

٣٦- أن صلاح الباطن يستلزم صلاح الظاهر ، وفساد الظاهر يستلزم فساد الباطن . وقد يصلح الظاهر مع فساد الباطن كحال المنافق والمرائي .

٣٧- التنبيه على تعظيم قدر القلب والحث على إصلاحه ، فإنه أمير البدن بصلاحه يصلح ، وبفساده يفسد

٣٨- أكل الحلال الخالص والحرص على ذلك له أثر على الإيمان والقلب . ومن تأمل الحديث وجد في أوله الحلال والحرام وفي آخره صلاح القلب وفساده .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : هل يؤخذ من قوله : (يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى) إقراره بالحمى ؟

ج : هذا من باب الإخبار والوقوع ، ولا يدل على حكم شرعي . والنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قد يذكر الأشياء لوقوعها لا لبيان حكمها . إذًا هذا الحديث لا يدل على جواز الحمى لأنه ضرب مثل لواقع . ولكن لا بأس أن نقول الحمى نوعان :

الأول : حمى لمصالح المسلمين ، فهذا جائز .

الثاني : حمى يختصّ به الحامي ، فهذا حرام ، لأنه ليس له أن يختص فيما كان عامًا .

س : هل تدبير أفعال الإنسان عائد إلى القلب ، وما الدليل ؟

ج : تدبير أفعال الإنسان عائد إلى القلب ، لقوله :
" إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ " .

س : هل في هذا دليل على أن العقل في القلب ؟

ج : نعم ، فيه إشارة إلى أن العقل في القلب ، وأن المدبر هو القلب مع أن القرآن شاهد بهذا .
قال الله تعالى : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (الحج / ٤٦) .

س : كيف تعلقه بالقلب ؟

ج : هذا شيء لا يُعلم ، إنما نحن نؤمن بأن العقل في القلب كما جاء في القرآن ، لكننا لا نعلم كيف ارتباطه به ، فلا يرد علينا لو رُكِب قلب كافر برجل مسلم ، أيكون هذا المسلم كافرًا أولا ، لأننا لا ندري كيف تعلق العقل بالقلب والله أعلم
.

الحديث السابع

عَنْ أَبِيْ رُقَيَّةَ تَمِيْم بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ " قُلْنَا : لِمَنْ يَارَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : " للهِ ، ولكتابه ، ولِرَسُوْلِهِ ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِيْنَ ، وَعَامَّتِهِمْ " .

رواهُ مسلمُ / ٩٥

المعنى الإجمالي

يحثنا النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على تقديم النصح لكل الأمة ، فلم يستثن أحدًا ، وبدأ بالأهم ، فالمهم ، مما يدل على أهمية النصيحة في صلاح المجتمع الإسلامي ، وهذه النصيحة تشمل شتى مناحي الحياة سواءً أكانت دينية ، أم دنيوية .

توضيح الحديث

(المعنى)

" الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ "

(الدِّيْنُ) : الملة ، والمقصود به هنا الإسلام .

(النَّصِيْحَةُ) : أصل النصح لغة الخلوص والتصفية . و شرعًا : إخلاص الرأي من الغش للمنصوح وإيثار مصلحته .

(الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ) : أي : عليها مداره وقوامه .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٢٨)

١– أهمية النصيحة وخاصة في هذه المواضع ، وقد سماها النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – دينًا وإسلامًا .

٢– الأمر بالنصيحة .

٣– أن الدين كله نصيحة ، وأن النصيحة كلها من الدين .

٤– أن الدين يقع على العمل كما يقع على القول .

٥– أن الدين عبادة ومعاملة .

٦– أن للعالِم أن يَكِل فهم ما يلقيه إلى السامع ، ولا يزيد له في البيان حتى يسأله السامع لتشوق نفسه حينئذ إليه ، فيكون أوقع في نفسه مما إذا هجمه به من أول وهلة .

(المعنى)

(قُلْنَا : لِمَنْ يَارَسُولَ اللهِ ؟)

(قُلْنَا) : معشر السامعين .

(المستفاد)

٧- حرص الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – على العلم ، وأنهم لم يدعوا شيئًا يحتاج الناس إلى فهمه إلا سألوا عنه .

(المعنى)

" قَالَ : للهِ ، ولكتابه ، ولِرَسُوْلِهِ ، وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ ، وَعَامَّتِهِمْ "

(للهِ) : بالإيمان به ونفي الشريك عنه ، وترك الإلحاد في صفاته ، ووصفه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، وتنزيهه عن جميع النقائص ، والرغبة في محابه بفعل طاعته ، الرهبة من مساخطه بترك معصيته ، والاجتهاد في رد العصاة إليه .

(ولِكِتَابِهِ) : بالإيمان ، بأنه كلامه وتنزيله ، وتلاوته حق تلاوته وتعظيمه ، وتَفَهُّم معانيه ، والعمل بما فيه والدعاء إليه .

(ولِرَسُوْلِهِ) : بتصديق رسالته ، والإيمان بجميع ما جاء به وطاعته ، وإحياء سنته بتعلمها وتعليمها ، والاقتداء به في أقواله و أفعاله ، ومحبته ومحبة أتباعه .

(وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ) : حكامهم أو الولاة ، بإعانتهم على ما حملوا القيام به وطاعتهم وجمع الكلمة عليهم ، وأمرهم بالحق ورد القلوب النافرة إليهم ، وتبليغهم حاجات المسلمين ، والجهاد معهم والصلاة خلفهم ، وأداء الزكاة إليهم وترك الخروج عليهم بالسيف إذا ظهر منهم حيف ، والدعاء لهم بالصلاح . وأما أئمة العلم فالنصيحة لهم بث علومهم ونشر مناقبهم ، وتحسين الظن بهم .

(وَعَامَّتِهِمْ) : سائر أفراد المسلمين غير الحكام . بالشفقة عليهم ، وإرشادهم إلى مصالحهم ، والسعي فيما يعود نفعه عليهم ، وكف الأذى عنهم ، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ، و يكره لهم ما يكره لنفسه .

(المستفاد)

٨- حسن تعليم الرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حيث يذكر الشيء مجملًا ثم يفصّله ، لقوله :" الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ ".

٩- البداءة بالأهم فالأهم ، حيث بدأ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وسلم بالنصيحة لله ، ثم للكتاب ، ثم للرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ثم لأئمة المسلمين ، ثم عامتهم .

١٠- ينشر الأخوة بين المجتمع الإسلامي حيث يقوم على التناصح وعدم الغش .

١١- بَيَّن الحديث أن النصيحة في الدين عامة ولا تقتصر على بيان العيوب فقط .

١٢- وجوب النصيحة لأئمة المسلمين ، وذلك بما ذكرناه من الوجوه بالنسبة للأمراء ، وبالنسبة للعلماء .

١٣- الإشارة إلى أن المجتمع الإسلامي لا بد له من إمام ، والإمامة قد تكون عامة ، وقد تكون خاصة .

١٤- شمل الحديث جميع ما يحيط بالشخص من علاقات :

أولًا : مع ربه : وتشمل علاقته مع الله ، ومع كتابه ، ومع رسوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

ثانيًا : مع المخلوقين : وتشمل علاقته مع ولاة أمره ومع عامة المسلمين .

١٥- النصيحة بالمفهوم الشرعي يجب أن تشمل جميع شؤون الحياة سواءً أكان العبادات أم العادات " لله ولرسوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ولأئمة المسلمين وعامتهم " .

١٦- يوجب الصدق في تعامل المسلم مع ربه ، والصدق في تعامله مع المخلوقين .

١٧- يربي المسلم على إعطاء كل ذي حق حقه من غير أن يطغى جانب على آخر ، فحق لله ، وحق لكتابه ، وحق لرسوله ، وحق لولاة الأمور ، وحق لإخوانه من المسلمين .

١٨- فمن النصيحة لله : الإيمان به وتوحيده في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته ، وإخلاص الدين له .

١٩- ومن النصيحة للقرآن : الإيمان به وتعظيمه والوقوف عند حدوده .

٢٠- ومن النصيحة للرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : الإيمان به ومحبته واتباعه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

٢١- ومن النصيحة لأئمة المسلمين : السمع والطاعة لهم بالمعروف ومعرفة قدر العلماء والرجوع إليهم في معرفة أمور الدين .

٢٢- ومن النصيحة لعموم المسلمين : محبة الخير لهم وتعليم جاهلهم وإرشاد ضالهم والإحسان إليهم وكف الأذى عنهم .

٢٣- يطرد الغش بجميع صوره ودقائق تفاصيله ، لأن هذا مقتضى النصيحة .

٢٤- يورث المراقبة وهي من أجَلّ أعمال القلوب ، حيث يجعل الشخص ناصحًا في حال سره لأنه يراقب الله سبحانه وتعالى ولهذا لن يغش ولو خلا عن الرقيب البشري .

٢٥- الحديث في صياغته ترتيب الأولويات حيث بدأ بالأهم فالمهم " للهِ ، ولكتابه ، ولِرَسُوْلِهِ ، وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ ، وَعَامَّتِهِمْ " .

٢٦- يدل على أن المجتمع الإسلامي مجتمع متناصح فيما بينه ، سواء في معاملاته أو علاقاته وجميع شؤونه .

٢٧- من أعظم النصيحة للمسلمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر غش يخالف النصيحة المأمور بها في الحديث .

٢٨- الدين الإسلامي قائم على التناصح , فلا بد من أداء النصيحة لمن يحتاجها .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : ما الذي تتضمنه النصيحة لله ؟

ج : النصيحة لله تتضمن أمرين :

الأول : إخلاص العبادة له .

الثاني : الشهادة له بالوحدانية في ربوبيته وألوهيته ، وأسمائه وصفاته .

س : ما الذي تتضمنه النصيحة لكتابه ؟

ج : النصيحة لكتابه تتضمن أمورًا منها :

الأول : الذّبّ عنه ، بأن يذب الإنسان عنه تحريف المبطلين ، ويبيّن بطلان تحريف من حرّف .

الثاني : تصديق خبره تصديقًا جازمًا لا مرية فيه ، فلو كذب خبرًا من أخبار الكتاب لم يكن ناصحًا ، ومن شك فيه وتردد لم يكن ناصحًا .

الثالث : امتثال أوامره فما ورد في كتاب الله من أمر فامتثله ، فإن لم تمتثل لم تكن ناصحًا له .

الرابع : اجتناب ما نهى عنه ، فإن لم تفعل لم تكن ناصحًا .

الخامس : أن تؤمن بأن ما تضمنه من الأحكام هو خير الأحكام ، وأنه لا حكم أحسن من أحكام القرآن الكريم .

السادس : أن تؤمن بأن هذا القرآن كلام الله عزّ وجل حروفه ومعناه ، تكلم به حقيقة ، وتلقاه جبريل من الله ونزل به على قلب النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين .

س : ما الذي تتضمنه النصيحة لرسوله ؟

ج : والنصيحة لرسوله تكون بأمور منها :

الأول : تجريد المتابعة له ، وأن لا تتبع غيره ، لقول الله تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب / ٢١) .

الثاني : الإيمان بأنه رسول الله حقًا ، لم يَكذِب ، ولم يُكذَب ، فهو رسول صادق مصدوق .

الثالث : أن تؤمن بكل ما أخبر به من الأخبار الماضية والحاضرة والمستقبلة .

الرابع : أن تمتثل أمره .

الخامس : أن تجتنب نهيه .

السادس : أن تذبّ عن شريعته .

السابع : أن تعتقد أن ما جاء عن رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فهو كما جاء عن الله تعالى في لزوم العمل به ، لأن ما ثبت في السنة فهو كالذي جاء في القرآن . قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) (النساء / ٥٩) وقال تعالى : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) (النساء / ٨٠) .

الثامن : نصرة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إن كان حيًا فمعه وإلى جانبه ، وإن كان ميتًا فنصرة سنته – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

س : ما المقصود بـ (لأَئِمَّةِ المُسْلِمِيْن) .

ج : (وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِيْن) أئمة جمع إمام ، والإمام : القدوة كما قال تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ) (النحل / ١٢٠) أي قدوة ، ومنه قول عباد الرحمن : (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) (الفرقان / ٧٤) .

وأئمة المسلمين صنفان من الناس :

الأول : العلماء ، والمراد بهم العلماء الربانيون الذين ورثوا النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – علمًا وعبادة وأخلاقًا ودعوة ، وهؤلاء هم أولو الأمر حقيقة ، لأن هؤلاء يباشرون العامة ، ويباشرون الأمراء ، ويبينون دين الله ويدعون إليه .

الصنف الثاني : من أئمة المسلمين : الأمراء المنفذون لشريعة الله ، ولهذا نقول : العلماء مبينون ، والأمراء منفذون يجب عليهم أن ينفذوا شريعة الله عزّ وجل في أنفسهم وفي عباد الله .

س : ما الذي تتضمنه النصيحة لأَئِمَّةِ المُسْلِمِيْن ؟

ج : والنصيحة للعلماء تكون بأمورٍ منها :

الأول : محبتهم ، لأنك إذا لم تحب أحدًا فإنك لن تتأسّى به .

الثاني : معونتهم ومساعدتهم في بيان الحق ، فتنشر كتبهم بالوسائل الإعلامية المتنوعة التي تختلف في كل زمان ومكان .

الثالث : الذّبّ عن أعراضهم ، بمعنى أن لا تقرّ أحدًا على غِيبتهم والوقوع في أعراضهم ، وإذا نسب إلى أحدٍ من العلماء الربانيين شيء يُستنكر فعليك أن تتخذ هذه المراحل :

المرحلة الأولى : أن تتثبت من نسبتهِ إليه ، فكم من أشياء نسبت إلى عالم وهي كذب ، فلا بد أن تتأكد ،

فإذا تأكدت من نسبة الكلام إليه فانتقل إلى المرحلة الثانية وهي :

أن تتأمل هل هذا محل انتقاد أم لا ؟ لأنه قد يبدو للإنسان في أول وهلة أن القول منتقد ، وعند التأمل يرى أنه حق ، فلابد أن تتأمل حتى تنظر هل هو منتقد أو لا ؟

المرحلة الثالثة : إذا تبيّن أنه ليس بمنتقد فالواجب أن تذبّ عنه وتنشر هذا بين الناس ، وتبين أن ما قاله هذا العالم فهو حق وإن خالف ما عليه الناس .

المرحلة الرابعة : إذا تبين لك حسب رأيك أن ما نسب إلى العالم وصحت نسبته إليه ليس بحق ، فالواجب أن تتصل بهذا العالم بأدب ووقار ، وتقول : سمعت عنك كذا وكذا ، وأحب أن تبين لي وجه ذلك ، لأنك أعلم مني ، فإذا بيّن لك هذا فلك حق المناقشة ، لكن بأدب واحترام وتعظيم له بحسب مكانته وبحسب ما يليق به .

وإذا رأيت منهم خطأً فلا تسكت وتقول : هذا أعلم مني ، بل تناقش بأدب واحترام ، لأنه أحيانًا يخفى على الإنسان الحكم فينبهه من هو دونه في العلم فيتنبه وهذا من النصيحة للعلماء .

الخامس : أن تدلهم على خير ما يكون في دعوة الناس ، فإذا رأيت هذا العالم محبًا لنشر العلم ويتكلم في كل مكان وترى الناس يتثاقلونه ويقولون هذا أثقل علينا ، كلما جلسنا قام يحدّث ، فمن النصيحة لهذا العالم أن تشير عليه أن لا يتكلم إلا فيما يناسب المقام ، لا تقل : إني إذا قلت ذلك منعته من نشر العلم ، بل هذا في الواقع من حفظ العلم ، لأن الناس إذا ملّوا سئموا من العالم ومن حديثه .

ولهذا كان النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَتخوَّل أصحابه بالموعظة ، يعني لا يكثر الوعظ عليهم مع أن كلامه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – محبوب إلى النفوس لكن خشية السآمة ، والإنسان يجب أن يكون مع الناس كالراعي يختار ما هو أنفع وأجدى .

س : ما الذي تتضمنه النصيحة للأمراء ؟

والنصيحة للأمراء تكون بأمور منها :

ج : أولًا : اعتقاد إمامتهم وإمرتهم ، فمن لم يعتقد أنهم أمراء فإنه لم ينصح لهم ، لأنه إذا لم يعتقد أنهم أمراء فلن يمتثل أمرهم ولن ينتهي عما نهوا عنه ، فلا بد أن تعتقد أنه إمام أو أنه أمير ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية ، ومن تولى أمر المسلمين ولو بالغلبة فهو إمام ، سواء أكان من قريش أم من غير قريش .

ثانيا : نشر محاسنهم في الرعية ، لأن ذلك يؤدي إلى محبة الناس لهم ، وإذا أحبهم الناس سهل انقيادهم لأوامرهم .

وهذا عكس ما يفعله بعض الناس حيث ينشر المعايب ويخفي الحسنات ، فإن هذا جورٌ وظلم .

ثالثًا : امتثال ما أمروا به وما نهوا عنه ، إلا إذا كان في معصية الله عزّ وجل لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وامتثال طاعتهم عبادة وليست مجرد سياسة ، بدليل أن الله تعالى أمر بها فقال عزّ وجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأولي الأمر منكم) . (النساء / ٥٩) .

ولا يشترط في طاعتهم ألاّ يعصوا الله ، فأطعهم فيما أَمروا به وإن عصوا الله ، لأنك مأمور بطاعتهم وإن عصوا الله في أنفسهم .

رابعًا : ستر معايبهم مهما أمكن ، وجه هذا : أنه ليس من النصيحة أن تقوم بنشر معايبهم وليس معنى قولنا : ستر المعايب أن نسكت عن المعايب ، بل ننصح الأمير مباشرة إن تمكنا ، وإلا فبواسطة من يتصل به من العلماء وأهل الفضل . ولهذا أنكر أسامة بن زيد – رضي الله عنه – على قوم يقولون : أنت لم تفعل ولم تقل لفلان ولفلان يعنون الخليفة ، فقال كلامًا معناه : (أتريدون أن أحدثكم بكل ما أحدث به الخليفة) فهذا لا يمكن .

فلا يمكن للإنسان أن يحدث بكل ما قال للأمير، لأنه إذا حدث بهذا فإما أن يكون الأمير نفذ ما قال ، فيقول الناس : الأمير خضع وذل ، وإما أن لا ينفذ فيقول الناس : عصى وتمرّد .

ولذلك من الحكمة إذا نصحت ولاة الأمور أن لا تبين ذلك للناس ، لأن في ذلك ضررًا عظيمًا .

خامسًا : عدم الخروج عليهم ، وعدم المنابذة لهم ، ولم يرخص النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في منابذتهم إلا كما قال : " أَنْ تَرَوا " أي رؤية عين ، أو رؤية علم متيقنة . كُفْرًا بَوَاحًا " أي واضحًا بيّنًا .

عِنْدَكُمْ فِيْهِ مِنَ اللهِ بُرْهَانٌ " أي دليل قاطع " .

س : هل إذا جاز الخروج عليهم بهذه الشروط فهل يعني ذلك أن يخرج عليهم ؟ لأن هناك فرقًا بين جواز الخروج ، وبين وجوب الخروج .

ج : لا نخرج حتى ولو رأينا كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان ، إلا حيث يكون الخروج مصلحة ، وليس من المصلحة أن تقوم فئة قليلة سلاحها قليل في وجه دولة بقوتها وسلاحها ، لأن هذا يترتب عليه إراقة الدماء واستحلال الحرام دون ارتفاع المحذور الذي انتقدوا به الأمراء ، كما هو مشاهد من عهد خروج الخوارج في زمن الخلفاء الراشدين – رضي الله عنهم – إلى يومنا هذا ، حيث يحصل من الشر والمفاسد ما لا يعلمه إلا ربُّ العباد .

لكن بعض الناس تتوقد نار الغَيرة في قلوبهم ثم يُحدِثون ما لا يحمد عقباه ، وهذا غلط عظيم .

س : ما معنى (وَعَامَّتُهُمْ) ، وكيف يكون النصح لهم ؟

ج : (وَعَامَّتُهُمْ) : أي عوام المسلمين ، والنصح لعامة المسلمين بأن تبدي لهم المحبة ، وبشاشة الوجه ، وإلقاء السلام ، والنصيحة ، والمساعدة ، وغير ذلك مما هو جالب للمصالح دافعٌ للمفاسد .

واعلم أن خطابك للواحد من العامة ليس كخطابك للواحد من الأمراء ، وأن خطابك للمعاند ليس كخطابك للجاهل ، فلكل مقام مقال ، فانصح لعامة المسلمين ما استطعت .

وبهذا نعرف أن هذا الحديث على اختصاره جامع لمصالح الدنيا والآخرة .

س : لماذا قدّم الكتاب على الرسول ؟

ج : وإنما قدم الكتاب على الرسول لأن الكتاب يبقى ، والرسول يموت ، على أن النصيحة للكتاب وللرسول متلازمان .

الحديث الثامن

عَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُوْلُ اللهِ ، وَيُقِيْمُوْا الصَّلاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهَمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلامِ ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى "

رواهُ البخاريُّ ومسلمُ ، وهذه رواية البخاري / ٢٥

المعنى الإجمالي

يُبيّن لنا هذا الحديث أن الله تعالى أمر بمقاتلة الكفار حتى يشهدوا بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ويشهدوا لمحمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بالرسالة ، والعمل بمقتضى هذه الشهادة من المحافظة على الصلوات الخمس والزكاة عند وجوبها ، فإذا قاموا بهذه الأركان مع ما أوجب الله عليهم ، فقد منعوا وحفظوا دماءَهم من القتل ، وأموالهم لعصمتها بالإسلام ، إلا بحق الإسلام بأن يصدر من أحد ما تحكم شريعة الإسلام بمؤاخذته من قصاص أو حد أو غير ذلك ، ومن فعلها تَقِيَّة وخوفًا على ماله ودمه فهو المنافق والله يعلم ما يُسِرُّه فيحاسبه فإنه (يَعْلَمُ السِرَ وَ أَخْفَى) (طه / ٧) .

توضيح الحديث

(المعنى)

" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُوْلُ اللهِ وَيُقِيْمُوْا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ "

(أُمِرْتُ) : أي أمرني ربي . والأمرُ : طلب الفعل على وجه الاستعلاء ، أي أن الآمر أو طالب الفعل يرى أنه في منزلة فوق منزلة المأمور ، لأنه لو أمر من يساويه سمي عندهم التماسًا ، ولو طلب ممن فوقه سمي دعاءً وسؤالًا .

(أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ) : هذا المأمور به .

(النَّاسَ) : المشركين من غير أهل الكتاب .

(حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله) : أي حتى يشهدوا بألسنتهم وبقلوبهم ، لكن من شهد بلسانه عصم دمه وماله ، وقلبه إلى الله عزّ وجل .

(أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله) : أي لا معبود حقّ إلا الله عزّ وجل ، فهو الذي عبادته حقّ ، وما سواه فعبادته باطلة .

(وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُوْلُ اللهِ) : محمد : هو ابن عبد الله ، وأبرز اسمه ولم يقل : وأني رسول الله للتفخيم والتعظيم .

ورسول الله : يعني مُرسَلَه .

(وَيُقِيْمُوا الصَّلاةَ) : أي يفعلوها قائمة وقويمة على ماجاءت به الشريعة . والصلاة هنا عامة ، لكن المراد بها الخاص ، وهي الصلوات الخمس ، ولهذا لو تركوا النوافل فلا يقاتلون .

(وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ) : أي يعطوها مستحقّها . والزكاة : هي النصيب المفروض في الأموال الزكوية .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٣٩)

١- أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عبدٌ مأمور يُوجه إليه الأمر كما يُوجّه إلى غيره لقوله : " أُمِرْتُ " ، وهو كذلك رسول .

٢- أن الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُبلّغ عن الله أمره ونهيه وشرعه .

٣- وظيفة الدعاة أنهم مبلِّغون عن الله كما هي حال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " أمرت " فهو مأمور بأمر ربه لا من عند نفسه .

٤- الاستجابه لله سبحانه ، حيث أمر الله رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فاستجاب .

٥- جواز إبهام المعلوم إذا كان المخاطب يعلمه ، لقوله : " أُمِرْتُ " فأبهم الآمر لأن المخاطب يعلم ذلك .

٦- وجوب الجهاد .

٧- الجهاد شرع لإقامة دين الله في الأرض وأن يعبد الله ويوحد لا لمجرد الانتقام ولا للعلو في الأرض والسيادة بل حتى يكون الدِّين كله لله " حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُوْلُ اللهِ " .

٨- لأن الغاية من الجهاد دخول الناس في الإسلام لذلك تسبق الجهاد الدعوة لله سبحانه ، فإن أَبَوا فالجزية فإن أَبَوا فالقتال .

٩- وجوب مقاتلة الناس حتى يقوموا بهذه الأعمال .

١٠- لا يتوقف الجهاد إلّا إذا دخل الناس جميعًا في دين الله ، ولهذا فإن الجهاد الشرعي ماضٍ إلى قيام الساعة لأنه لا يزال الكفار في الأرض .

١١- هذا الحديث يُحدد ضابط لجهاد الطلب في حال قدرة المسلمين وهو الدعوة إلى الله .

١٢- عِظَم التوحيد وأنه سبب لحقن الدم .

١٣- الاكتفاء في قبول الإيمان بالاعتقاد الجازم ، خلافًا لمن أوجب عليه تعلم الأدلة .

١٤- وجوب شهادة أن لا إله إلا الله بالقلب واللسان ، فإن أبداها بلسانه ولاندري عما في قلبه أخذنا بظاهره ووكلنا سريرته إلى الله عزّ وجل ووجب الكفّ عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك ، ولا يجوز أن نتهمه .

١٥- أن قتال الكفار لا يقتصر على الدفاع بل يقاتلون ابتداءً فيكون قتالهم على وجهين دفاعًا وهجومًا .

١٦- اشتراط التلفظ بكلمتي الشهادة في الحكم بالإسلام .

١٧- أنه لا يكف عن قتال المشركين إلا بالنطق بهما ، وأما أهل الكتاب فيقاتلون إلى إحدى غايتين : الإسلام ، أو أداء الجزية ، للنصوص الدالة على ذلك .

١٨- أنه لا بد أن يعتقد الإنسان أن لا معبود حق إلا الله ، فلا يكفي أن يعتقد أن الله معبود بحق ، لأنه إذا شهد أن الله تعالى معبود بحق لم يمنع أن غيره يعبد بحق أيضًا . فلا يكون التوحيد إلا بنفي وإثبات : لا إله إلا الله ، نفي الإلوهية عما سوى الله وإثباتها لله عزّ وجل .

١٩- أن المقاتلة لا ترتفع إلا بشهادة أن محمدًا رسول الله ، وأما الدخول في الإسلام فيكون بشهادة أن لا إله إلا الله ، لكن لو شهدت طائفة أن لا إله إلا الله وأبت أن تشهد أن محمدًا رسول الله فإنها تقاتل .

٢٠- دليل على أن الإسلام لا يسعى للسيادة والملك والتسلط والجبروت ، فالأرض كلها لله سبحانه بل يسعى لغاية عظيمة وهدف سامٍ هو دخول الناس في دين الله وعبادتهم له وذلهم وخضوعهم لعظمته .

٢١- أن أعظم مباني الإسلام : الشهادتان ، وبعدهما الصلاة والزكاة .

٢٢- مقاتلة تاركي الصلاة والزكاة .

٢٣- وجوب إقامة الصلاة ، لأنه إذا لم يقمها فإنه لا يمتنع قتاله ، بل قد قال الفقهاء - يرحمهم الله - يُقاتَل أهل بلد تركوا الأذان والإقامة وإن صلوا ، لأن الأذان والإقامة من شعائر الدين الظاهرة ، فإذا قال قوم : نحن لا نؤذن ولا نقيم ولكن نصلي ، وجب أن يقاتلوا .

٢٤- وجوب إيتاء الزكاة ، لأنها جزء مما يمنع مقاتلة الناس .

(المعنى)

" فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهَمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى "

(فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ) : أي شهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة .

(عَصَمُوا) : أي منعوا وحفظوا .

(مِنِّي دِمَاءَهَم وَأَمْوَالَهُم): أي فلا يحل أن أقاتلهم وأستبيح دماءهم ، ولا أن أغنم أموالهم ، لأنهم دخلوا في الإسلام .

(إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلامِ) : إلا أن تباح دماؤهم وأموالهم بحق الإسلام ، مثل : زنا الثيّب ، والقصاص وما أشبه ذلك ، يعني : إلا بحق يوجبه الإسلام .

(وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى) : أي محاسبتهم على الأعمال على الله تعالى ، بواطنهم وسرائرهم موكلة إلى الله وهو المطَّلع عليها .

(المستفاد)

٢٥- أن عِصمة دم الكافر وماله إنما تتحقق بهذه الثلاثة .

٢٦- عدم جواز التعدي على أموال ودماء المسلمين .

٢٧- أن الإسلام يعصم الدم والمال ، وكذلك العِرض ، الحديث " فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ...... " الحديث . (البخاري / ١٧٣٩) .

٢٨- أن الأحكام إنما تجري على الظواهر ، والله يتولى السرائر .

٢٩- جواز عقاب المسلم بالقتل إذا عمل عملًا يقتضي ذلك مثل الثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة .

٣٠- أن الكفار تباح دماؤهم وأموالهم ، لقوله : " عَصَمُوا مِنِّيْ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ " فيقتلون ، أو يؤسرون حسب ما تقتضيه الحال ، وتغنم أموالهم .

٣١- مؤاخذة من أتى بالشهادتين وأقام الصلاة وآتى الزكاة بالحقوق الإسلامية ، من قصاص أو حد أو غرامة متلف ونحو ذلك .

٣٢- النفس والمال أحد الضروريات التي جاء الإسلام بحفظها .

٣٣- عَظَمة الاعتداء على الأنفس والأموال فالنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لا يملك الاعتداء عليها ما دام أن صاحبها عصم نفسه ولهذا قال : " عصموا مني " أي لا أستطيع النيل منها ، فمن اعتدى بعد ذلك فقد ظلم نفسه .

٣٤- دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في أن الأعمال من الإيمان ، حيث علَّق العصمة على النطق بالشهادتين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكلها من أعمال الجوارح .

٣٥- في الحديث ردّ على المرجئة الذين زعموا أن الإيمان لا يحتاج إلى عمل .

٣٦- عدم تكفير أهل البدع المقرِّين بتوحيد الله المقيمين لشرائعه .

٣٧- فيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة والحكم بما يقتضيه هذا الظاهر و توكيل السرائر إلى الله .

٣٨- أن حساب الخلق على الله عزّ وجل ، وأنه ليس على الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلا البلاغ ، وكذلك ليس على من ورث الرسول إلا البلاغ ، والحساب على الله عزّ وجل .

٣٩- الحديث له أهمية خاصة أيام الفتن ، فإذا ادلهمت الخطوب ، وأقبلت المحن ، فليتمسك بهذا الحديث فإنه له نجاة بإذن الله ، فمن ظهر منه الإسلام قبل منه وأرجعت نيته إلى الله وحسابه عند ربه .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

على الحديث الثامن

س : ما الفرق بين القتل والمقاتلة ؟

ج : المقاتلة غير القتل .

– فالمقاتلة : أن يسعى في جهاد الأعداء حتى تكون كلمة الله هي العليا .

– والقتل : أن يقتل شخصًا بعينه ، ولهذا نقول : ليس كل ما جازت المقاتلة جاز القتل ، فالقتل أضيق ولا يجوز إلا بشروط معروفة ، والمقاتلة أوسع ، قال الله تبارك وتعالى : (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ) (الحجرات / ٩) فأمر بقتالها وهي مؤمنة لايحل قتلها ولا يباح دمها لكن من أجل الإصلاح .

وقاتل أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – مانعي الزكاة ولكن لايقتلهم ، بل قاتلهم حتى يذعنوا للحق .

س : (حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله) (حتى) هل هي للتعليل ، بمعنى أن أقاتل ليشهدوا ، أم هي للغاية بمعنى أقاتلهم إلى أن يشهدوا ؟

ج : هي تحتمل أن تكون للتعليل ولكن الثاني أظهر ، يعني أقاتلهم إلى أن يشهدوا .

و(حتى) تأتي للتعليل وتأتي للغاية .

الحديث التاسع

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ صَخْرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُوْلُ : " مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ ، وَاخْتِلافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ " رواهُ البخاريُّ ومسلمُ (١) .

المعنى الإجمالي

هذا الحديث قاعدة من قواعد الدين ومن جوامع الكلم ، فالرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – دلَّنا على أنه إذا نهانا عن شيء وجب علينا اجتنابه جملة واحدة بدون استثناء ، وإذا أمرنا بشيء فلنأْتِ منه ما نطيق .

ولم يكلفنا بشيء نعجز عنه ، وهذا من سماحة الدين ويسره ؛ حيث إن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها .

ثم أشار إلى شيء كالْمَثَلِ عظةً لنا بأن لا نكون كبعض الأمم السابقة حينما أكثروا من الأسئلة على أنبيائهم مع مخالفتهم لهم فعاقبهم الله بأنواع من الهلاك والدمار ؛ فينبغي ألَّا نكون مثلهم حتى لا نهلك كما هلكوا قال تعالى :

(وَ اعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَ لاَ تَفَرَّقُواْ) (ال عمران / ١٠٣) .

توضيح الحديث

(المعنى)

" مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ "

(مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ) : النهي : طلب الكفّ على وجه الاستعلاء ، يعني أن يطلب منك من هو فوقك – ولو باعتقاده – أن تكفّ ، فهذا نهي .

(فَاجْتَنِبُوهُ) : باعِدوا منه حتمًا في المُحرَّم ، وندبًا في المكروه . والمعنى : أي ابتعدوا عنه ، فكونوا في جانب وهو في جانب .

---

(١) وهذه رواية مسلم برقم / ١٣٠ إلا أنها تختلف في :

١ – كلمة : " فَافْعَلُوا " بدلًا من " فأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ " .

٢ – " دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ " (خ / ٧٢٨٨) .

٣ – " دعوني ما تركتكم إنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم " (خ / ٦٨٥٨) .

٤ – " ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ " (م / ٤١٢ – (١٣٣٧)) .

٥ – " مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ " (م / ١٣٠ – (١٣٣٧)) .

(فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) : يعني افعلوا منه ما قدرتم عليه ، وما تيسَّر لكم فعله ، وجوبًا في الواجب ، وندبًا في المندوب .

والفرق بين المنهيات والمأمورات : أن المنهيّات قال فيها : فَاجْتَنِبُوهُ ولم يقل ما استطعتم ، ووجهه : أن النهي كفّ ، وكل إنسان يستطيعه ، وأما المأمورات فإنها إيجاد ، قد يُستطاع وقد لا يُستطاع ، ولهذا قال في الأمر : فأتُوا مِنْهُ مَا استَطَعتُمْ .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٣٤)

١- وجوب الكفّ عما نهى عنه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، لقوله : (مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ) .

٢- أن المنهي عنه يشمل القليل والكثير ، لأنه لا يتأتّى اجتنابه إلا باجتناب قليله وكثيره .

٣- حفظ الشريعة لأفرادها حيث إن الله لم ينه إلّا عمَّا فيه مضرة فأمر باجتناب جميع المنهيات وبدون استثناء .

٤- يربّي الحديث في النفس تعظيم حرمات الله لأنه نهى عن جميع المنهيات ولم يترك منها شيء ، فلولا أن المنهيات عظيمة لم ينه عنها بهذا النهي الذي لم يستثن منها شيء .

٥- يسر الشريعة وسماحتها حيث إن الله في جانب المأمورات أمر بأن يأتي الإنسان ما يستطيعه دون ما لا يستطيعه .

٦- ترك الأسباب المفضية إلى المحرم ، لأن ذلك من معنى الاجتناب .

٧- من عجز عن فعل المأمور به كله و قدر على بعضه فإنه يأتي بما أمكنه منه .

٨- يورث الحديث محبة الله ومحبة رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ومحبة دينه حيث لم يكلفنا الله فوق طاقتنا ولم يأمرنا بما لم نستطع " فأتوا منه ما استطعتم " .

٩- أن الإنسان له استطاعة وقدرة ، لقوله : " مَا استَطَعْتُمْ " فيكون فيه ردٌّ على الجبرية الذين يقولون إن الإنسان لا استطاعة له ، لأنه مجبر على عمله .

١٠- الأمر بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهي .

١١- وجوب طاعة الرسول في أمره ونهيه .

١٢- أن الكفّ أهون من الفعل ، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر في المنهيات أن تُجتنب كلّها ، لأن الكفّ سهل .

١٣- أن النهي أشد من الأمر ، لأن النهي لم يُرخَّص في ارتكاب شيء منه ، والأمر قُيِّد بالاستطاعة ، ولهذا قال بعض السلف : أعمال البِرّ يعملها البار والفاجر ، والمعاصي لا يتركها إلا صِدِّيق .

١٤- دلَّ على أن دائرة المنهيات في الشريعة الإسلامية أقل ولذلك أُمِرْنا باجتنابها جميعها أما المأمورات لكثرتها فلا يستطيع الإنسان الإتيان بها جميعًا فيأتي بما يستطيع .

١٥- لا يسقط الميسور بالمعسور .

١٦- أن العجز عن الواجب أو عن بعضه مسقط للمعجوز عنه .

١٧- أنه لا يجب من فعل المأمور إلا ما كان مستطاعًا ، لقوله : " وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ " .

١٨- أن الإنسان إذا لم يقدر على فعل الواجب كله فليفعل ما استطاع .

١٩- لا ينبغي للإنسان إذا سمع أمر الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أن يقول : هل هو واجب أم مستحبّ ؟ لقوله : " فَأْتُوا مِنْهُ مَا استَطَعْتُمْ " ولا تستفصل ، فأنت عَبدٌ مُنقاد لأمر الله عزّ وجل ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

لكن إذا وقع العبد وخالف فله أن يستفصل في أمره ، لأنه إذا كان واجبًا فإنه يجب عليه التوبة ، وإذا كان غير واجب فالتوبة ليست واجبة .

٢٠- أن ما أمر به النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أو نهى عنه فإنه شريعة ، سواء أكان ذلك في القرآن أم لم يكن ، فُيعمل بالسنة الزائدة على القرآن أمرًا أو نهيًا .

٢١- وجوب اتِّباع النبى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – و الطاعة و الامتثال طريق السلامة والنجاح .

٢٢- قال الحافظ : وفي الحديث إشارة إلى الاشتغال بالأهم المحتاج إليه عاجلًا عما لا يحتاج إليه فى الحال .

٢٣- يربي في المسلم العمل وترك الكلام ، فالمسلم يفعل ما يستطيع من المأمورات ويترك المنهيات ويجتنب التعنت وكثرة الأسئلة التي لا تغني .

(المعنى)

" فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ "

(فَإِنَّمَا) : أي فإن الذي أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم . ويجوز أن تجعل (إنما) : أداة حصر ، ويكون المعنى : ما أهلك الذين من قبلكم إلا كثرة مسائلهم .

(أَهْلَكَ) : صار سبب الهلاك ؛ إذ أوجب العقوبة في الدنيا والآخرة .

(الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ) : يشمل اليهود والنصارى وغيرهم .

(كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ) : جمع مسألة وهي : ما يُسأل عنه ، أسئلتهم الكثيرة فيما لا حاجة إليه و لا ضرورة .

(وَاخْتِلافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ) : يعني وأهلكهم اختلافهم .

(عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ) : وذلك بالمعارضة والمخالفة ، وفي الحديث قال : (اختلافهم على أنبيائهم) ولم يقل : عن أنبيائهم ، لأن كلمة (على) تفيد أن هناك معارضة للأنبياء ، ومعنى الاختلاف على الأنبياء مخالفتهم وعصيانهم لهم و جدالهم فيما جاؤوهم به من شرع . وهي تستلزم اختلاف الأمة فيما بينها .

(المستفاد)

٢٤- أن كثرة المسائل سبب للهلاك ولا سيّما في الأمور التي لا يمكن الوصول إليها مثل مسائل الغيب كأسماء الله وصفاته ، وأحوال يوم القيامة ، لا تكثر السؤال فيها فتهلك ، وتكون متنطّعًا متعمّقًا .

وأما ما يحتاج الناس إليه من المسائل الفقهية فلا حرج من السؤال عنها مع الحاجة لذلك ، فإن كان طالب علم فليسأل وليبحث ، لأن طالب العلم مستعدٌ لإفتاء من يستفتيه . أما إذا كان غير طالب علم فلا يكثر السؤال .

٢٥- النهي عن كثرة السؤال . وقد قسم العلماء السؤال إلى قسمين : أحدهما : ما كان على وجه التعليم لما يحتاج إليه من أمر الدين ، فهذا مأمور به لقوله تعالى : (فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) (النحل / ٤٣)

وعلى هذا النوع تتنزل أسئلة الصحابة عن الأنفال والكلالة وغيرهما .

والثاني : ما كان على وجه التعنت والتكلف وهذا هو المنهي عنه .

٢٦- رحمة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بأمته وخوفه عليها ولذلك كثيرًا ما يذكر لهم سبب هلاك الأمم قبلهم ليحذرهم ف – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وقد وصفه الله بقوله (بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) (التوبة / ١٢٨) .

٢٧- التحذير من الاختلاف و الحث على الوحدة والاتفاق .

٢٨- تحريم الاختلاف على النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بالتنازع في أمره أو معصيته .

٢٩- ذم الأمم الماضية بكثرة السؤال والاختلاف على الأنبياء .

٣٠- أن ذلك سبب هلاكهم المعنوي فإن الكفر والمعاصي هلكة ، أو الحسي وذلك بالعقوبات المدمرة .

٣١- تحذير هذه الأمة من مخالفة نبيها ، كما وقع في الأمم التي قبلها .

٣٢- أن الأمم السابقة هلكوا بكثرة المساءلة ، وهلكوا بكثرة الاختلاف على أنبيائهم .

٣٣- فيه بيان لشرف هذه الأمة على الأمم قبلها حيث إنها استسلمت لأوامر الله ولم تخاصم نبيها ولم تختلف عليه بخلاف الأمم من قبلها كما بينه الحديث .

٣٤- التحذير من الاختلاف على الأنبياء ، وأن الواجب على المسلم أن يوافق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأن يعتقدهم أئمة وأنهم عبيد من عباد الله ، أكرمهم الله تعالى بالرسالة ، وأن خاتمهم محمد رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أرسله إلى جميع الناس ، وشريعته هي دين الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لعباده ، وأن الله لايقبل من أحدٍ دينًا سواه ، قال تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (آل عمران / ١٩) .

والأسئلة التي هي سبب للهلاك :

أ – السؤال تعنتًا وتعمقًا .

ب – السؤال بما لا فائدة منه ولا حاجة له .

ج – السؤال على وجه الاستهزاء والسخرية والعبث .

د – كثرة السؤال في المسائل التي لم تقع .

هـ – السؤال عما أخفاه الله عن خلقه لحكمة يعلمها سبحانه ، مثل السؤال عن سر القضاء والقدر ، وعن قيام الساعة .

وأما السؤال للعلم والعمل وبما يهم الإنسان فهذا مطلوب ومحمود .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

الحديث التاسع

س : هل يرد على هذا إباحة الميتة والخنزير للمضطر ، وإذا كان مضطرًا لم يجب الاجتناب ؟

ج : إذا وجدت الضرورة ارتفع التّحريم ، فلا تحريم أصلًا ، ولهذا كان من قواعد أصول الفقه :

(لا محرم مع الضرورة ، ولا واجب مع العجز) إذًا هذا الإيراد غير وارد .

س : (فاجتنبوه) عام فيشمل اجتناب أكل الميتة عند الضرورة . فهل يجوز فعل المحرّم عند الضرورة أم لا ؟

ج : أنه يجوز لقول الله تعالى : (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ) (الأنعام / ١١٩) .

س : إذا اضطر شخص إلى محرّم فهل له أن يزيد على قدر الضرورة ؟ بمعنى : إذا حل له أكل الميتة فهل له أن يشبع ، أو نقول له : اقتصر على ما تبقى به الحياة فقط ؟

ج : ذكر بعض العلماء : أنه يجب أن يقتصر على ما تبقى به الحياة فقط ، ولا يشبع . والصحيح التفصيل في هذا : فإن كان يعلم أو يغلب على ظنه أنه سيحصل على شيء مباح قريبًا فليس له أن يشبع إلا إذا كان معه شيء يحفظ به اللحم إن احتاجه أكله فهنا لا حاجة للشبع ، بل يكون بقدر ما تندفع به الضرورة .

س : ما الضرورة إلى المحرّم ؟

ج : الضرورة إلى المحرم هي : أن لا يجد سوى هذا المحرّم ، وأن تندفع به الضرورة ، وعلى هذا فإذا كان يجد غير المحرّم فلا ضرورة .

س : هل الدواء بالمحرم يمكن أن يكون ضرورة ؟

ج : الدواء بالمحرّم لا يمكن أن يكون ضرورة لسببين :

أولًا : لأنه قد يبرأ المريض بدون دواء ، وحينئذ لا ضرورة .

ثانيًا : قد يتداوى به المريض ولا يبرأ ، وحينئذٍ لا تندفع الضرورة به .

س : هل هذه الجملة تفيد التسهيل ، أو التشديد ، ونظيرها قوله تعالى : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) (التغابن / ١٦) .

ج : لها وجهان : فقد يكون المعنى : لا بد أن تقوموا بالواجب بقدر الاستطاعة وأن لا تتهاونوا مادمتم مستطيعين .

ويحتمل أن المعنى : لا وجوب إلا مع الاستطاعة ، وهذا يؤيده قوله تعالى : (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة / ٢٨٦) .

الحديث العاشر

عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" إِنَّ اللهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِيْنَ فَقَالَ :
(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا) (المؤمنون / ٥١) ، وَقَالَ :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) (البقرة / ١٧٢) ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيْلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، يَا رَبِّ يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لذلك "
رواهُ مسلمُ (١) .

المعنى الإجمالي

يفيدنا هذا الحديث بأن الله تعالى مُنزَّه عن النقائص والعيوب ، موصوف بصفات الجلال والكمال ، فلا يُتقرب إليه بنفقة أو بصدقة من حرام أو ما فيه شبهة أو بالرديء من الطعام ، وأن الله قد أباح للمؤمنين الأكل من الطيبات ، كما أباحه للمرسلين مع العمل الصالح والشكر لله على نعمه .

ثم بَيَّن الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أن الله سبحانه كما يحبُّ الإنفاق من الطيب ؛ فإنه تعالى كذلك لا يحب من الأعمال إلا طيبها ولا تطيب الأعمال إلا بالمتابعة و الإخلاص .

ثم ذكر – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – شيئًا كالمثال ، تحذيرًا لأمته من الحرام ؛ فذكر – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
الرجل يطيل السفر ، أي : في وجوه الطاعات من حج وجهاد واكتساب معيشة ، أشعث شعر الرأس مُغْبَرَّ اللون من طول سفره في الطاعة ، يمد يديه إلى السماء بالدعاء إلى الله والتضرع إليه والتذلل بين يديه ، ومع ذلك يبعد أن يستجاب له ، لخبث كسبه ، حيث كان مطعمه ومشربه من الحرام .

فليحذر كل مؤمن أن يكون بهذه الصفة المانعة من إجابة الدعاء .

توضيح الحديث

(المعنى)

" إِنَّ اللهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا "

(إِنَّ اللهَ تَعَالَى طَيِّبٌ) : الطيب اسم من أسماء الله ومعنى طيب : طاهر مُقَدَّس منزه عن النقائص والعيوب لا يعتريه الخبث بأي حال من الأحوال .

---

(١) رواه مسلم برقم / ٦٥ إلا أن فيه :
١ – بداية الحديث : " أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ " .
٢ – جملة : " وَغُذِىَ بِالْحَرَامِ " بعد : " وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ " .
– وهذا نص الرواية عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – : " أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ : (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) " .
ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِىَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ " .
(م / ٢٣٩٣) .

(لا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا) : فهو سبحانه وتعالى ، لا يقبل إلا الطيب من الأقوال ، والأعمال وغيرها ، وكل رديء فهو مردودٌ عند الله عزّ وجل ، فلا يقبل الله إلا الطيب .

فالطّيب من الأعمال : ما كان خالصًا لله ، موافقًا للشريعة .

والطيب من الأموال : ما اكتسب عن طريق حلال ، وأما ما اكتسب عن طريق محرّم فإنه خبيث .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٣٩)

١- أن من أسماء الله تعالى الطيّب ، لقوله : (إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ) وهذا يشمل طيب ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وأحكامه .

٢- كمال الله عزّ وجل في ذاته ، وصفاته وأفعاله ، وأحكامه .

٣- أن الله تعالى غنيّ عن الخلق فلا يقبل من الأعمال والأقوال إلا طيبها ، وهو ما كان خالصًا لوجهه وموافقًا لأمره وسنة نبيه .

٤- الطَّيِّب ما طيَّبَه الشرع .

٥- تقسيم الأعمال إلى مقبول ومردود ، لقول : " لا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا " فنفي القبول يدل على ثبوته فيما إذا كان طيبًا ، وهذا شيء ظاهر .

٦- الحث على الإنفاق من الحلال .

٧- النهي عن الإنفاق من غير الحلال .

٨- أن الإنفاق من الحرام لا يقبله الله لأنه خبيث .

٩- ذم الذين يمتنعون من أكل الطيب الحلال .

١٠- أن الحلال من المكاسب والأعيان طيب فالصدقة منه مقبولة .

١١- وجوب الأكل من الحلال واجتناب الحرام .

١٢- إباحة الأكل من الجيد من المطاعم والمشارب .

١٣- يجب العناية بالأقوال والأفعال وإزالة كل ما يشوبها ويشينها حتى تكون طيبة يتقبلها الله .

١٤- تربية المسلم على أن يكون طيبًا في قلبه ولسانه وجسده .

(المعنى)

" وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِيْنَ فَقَالَ : (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا) (المؤمنون / ٥١) ، وَقَالَ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) (البقرة / ١٧٢) "

(وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤمِنِينَ بمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِيْنَ) : تَغْلَيةً لشأن المؤمنين ، وأنهم أهلٌ أن يوجّه إليهم ما أمر به الرسل ، فقال عزّ وجل في أمر المرسلين : (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا) (المؤمنون / ٥١) فأمر الرسل أن يأكلوا من الطيبات وهي التي أحلها الله عزّ وجل ، واكتسبت عن طريق شرعي .

(وَاعْمَلُوْا صَالِحًا) : أي اعملوا عملًا صالحًا . فأمرهم بالأكل الذي به قوام البدن ، ثم أمرهم بالعمل الذي يكون نتيجة للأكل ، لكنه قال : (وَاعْمَلُوا صَالِحًا) وصالح العمل هو ما جمع بين : الإخلاص والمتابعة .

وقال تعالى في أمر المؤمنين : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) (البقرة / ١٧٢) كما قال للرسل : (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) فأمر المؤمنين بما أمر به المرسلين .

إذًا نقول : المؤمنون مأمورون بالأكل من الطيبات ، والمرسلون كذلك مأمورون بالأكل من الطيبات .

(المستفاد)

١٥- أن المؤمنين مأمورون منهيون لقوله : (وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرسَلِينَ) وكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا كان أكثر امتثالًا لأمر الله عزّ وجل ، وإذا رأيت من نفسك هبوطًا في امتثال الأوامر فاتّهمها بنقص الإيمان وصحح الوضع قبل أن يستشري هذا المرض فتعجز عن الاستقامة فيما بعد .

١٦- أن الرسل عليهم الصلاة والسلام يؤمرون وينهون ، لقوله : (إِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤمِنينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرسَلِيْنَ) .

١٧- تكريم المؤمنين بخطابهم بوصف الإيمان .

١٨- استشهاد النبي بالقرآن .

١٩- أن للمؤمن في الرسل أسوة .

٢٠- استعمال ما يشجع على العمل ، وجهه : قول النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (إِنَّ الله أَمَرَ المُؤمنينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرسَلِيْنَ) فإذا علم المؤمن أن هذا من مأمورات المرسلين فإنه يتقوّى ويتشجّع على الامتثال .

٢١- الأمر بالأكل من الطيبات للمؤمنين والمرسلين .

ويتفرّع على هذا فائدة : ذم من امتنع عن الطيبات بدون سبب شرعي .

٢٢- أن الأصل استواء الأنبياء مع أممهم في الأحكام الشرعية ، إلا ما قام الدليل على أنه مختص بهم .

٢٣- كمال الإنسان في الإيمان وبلوغه درجة الولاية لا يسقط التكاليف وترك الأعمال بل يوجب الاجتهاد في العمل ولذلك أمر الله المرسلين – مع كمال إيمانهم وعلو درجة ولايتهم – أمرهم بالعمل فقال :

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا) .

٢٤- أنه يجب شكر نعمة الله عزّ وجل بالعمل الصالح لقوله تعالى : (كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا) (المؤمنون / ٥١) وفي المؤمنين قال : (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ) (البقرة / ٥٧)

ويتفرّع من الجمع بين الآيتين : أن الشكر هو العمل الصالح ، لقول النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

(إِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤمِنِيْنَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ) والذي أمر به المرسلين شيئان :

الأول : الأكل من الطيبات .

والثاني : العمل الصالح .

فليس كل من قال : الشكر لله ، والحمد لله يكون شاكرًا حتى يعمل صالحًا .

٢٥- يجب على المؤمن أن يطالع مِنّة الله عليه وتفضله عليه بالرزق ، ولهذا أضاف الرزق لنفسه فقال :

(كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) (البقرة / ١٧٢) .

٢٦- توجيه الأمر لمن هو متّصف به ، لقوله : (وَاعْمَلُوا صَالِحًا) فوجه الأمر بالعمل الصالح للمرسلين مع أنهم يعملون الصالحات ولا شك في ذلك ، وهذا كقوله تعالى لرسوله محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّه) (الأحزاب / ١) .
٢٧- تحريم الخبائث ، لقوله : (مِنْ الطَّيِّبَاتِ) وقوله في المؤمنين : (مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) (البقرة / ١٧٢) .

(المعنى)

" ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيْلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، يَا رَبِّ يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لذلك "

(ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيْلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ ...) : يعني ضرب النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مثلًا لهذا الرجل .

(يُطِيْلُ السَّفَرَ) : في الطاعة ، كحج وجهاد ونحوهما ، والسفر من أسباب إجابة الدعاء ، ولا سيما إذا أطاله .

(أَشْعَثَ) : يعني أشعث في شعره ، جعد الشعر ، أو متفرق الشعر ثائر الرأس ؛ لبعد عهده بالغسل والتمشيط .

(أَغْبَرَ) : أغبر من التراب ، مغبر اللون لطول سفره في الطاعات . أي أنه لا يهتم بنفسه بل أهم شيء عنده الدعاء .

(يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاء) : يرفعها بالدعاء إلى الله تعالى . ومدّ اليدين إلى السماء من أسباب إجابة الدعاء ، كما جاء في الحديث : " إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ " (صحيح الترمذي / ٢٨١٩) .

(يَا رَبِّ يَا رَبِّ) : نداء بوصف الربوبية ، لأن ذلك وسيلة لإجابة الدعاء ، إذ إن إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية

(وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ) : يعني طعامه الذي يأكله حرام ، أي حرام لذاته أو لكسبه .

(وَمَشرَبُهُ حَرَامٌ) : يعني شربه الذي يشربه حرام ، إما لذاته أو لكسبه .

(وغُذِيَ بالحَرَامِ) : غُذِى : بضم الغين المعجمة وتخفيف الذال المكسورة . يعني أنه تغذّى بالحرام الحاصل من فعل غيره .

(فَأَنَّى) : اسم استفهام ، والمراد به الاستبعاد ، يعني يبعد أن يستجاب لهذا ، مع أن أسباب الإجابة موجودة .
وهذا للتحذير من أكل الحرام ، وشربه ، ولبسه ، والتغذّي به .

(فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لذلك) : من أين يستجاب لمن هذه صفته . والمراد أنه ليس أهلا للإجابة ، وليس صريحًا في استحالتها بالكلية .

(المستفاد)

٢٨- فيه إثبات العلو لله سبحانه لقوله : " يرفع يديه إلى السماء " .
٢٩- أن من أسباب الإجابة رفع اليدين والإلحاح في الدعاء .
٣٠- أن من أسباب إجابة الدعاء التوسل إلى الله تعالى بالربوبية لقوله : (يَا رَبِّ يَا رَبِّ) .
٣١- وصف الله بالربوبية .
٣٢- من سنن الدعاء تكرار ألفاظ النداء " اللهم اللهم " " يَا رَبِّ يَا رَبِّ " " يا الله يا الله " ثم يسأل حاجته وهو نوع من الإلحاح .

٣٣- استبعاد إجابة آكل الحرام لو عمل من أسباب الإجابة ما عمل ، لأن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر .... وقال بعد ذلك : " أَنَّ يُسْتَجَابُ لذلك " وهذا استفهام استبعاد .

٣٤- أن من أسباب إجابة الدعاء السفر والشَّعَث ورثاثة الهيئة ، لأن ذلك يوجب انكسار القلب .

٣٥- التحذير البالغ من أكل الحرام ، لأن أكل الحرام من أسباب ردّ الدعاء وإن توفرت أسباب الإجابة ، لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " فَأَنى يُسْتَجَابُ لذلك " هذا مع أن أكل الحرام – والعياذ بالله – سبب لانصراف الإنسان عن القيام بواجب الدين ، لأن البدن يكون متغذيًا على شيءٍ فاسد ، والمتغذي على فاسد سيؤثر عليه هذا الغذاء .

٣٦- سوء أثر تغذية الصبي بالحرام وإن لم يكن عليه إثم بذلك .

٣٧- أن التوسع في الحرام يمنع قبول العمل وإجابة الدعاء .

٣٨- ذكر في الحديث أربعة أمور في شأن الدعاء :

أ – السفر : وهو مظنة الانكسار كما تقدم .

ب – حصول التبذل في اللباس والهيئة من غير تكلف ذلك وتقصده وهذا مظنة طهارة القلب من الكبر .

ج – رفع اليدين إلى السماء : وهذا مشعر بالسؤال والاستعطاء من العبد الفقير إلى مولاه الغني .

د – الإلحاح بتكرار لفظ الربوبية : وهو مشعر بصدق اللجأ إلى الله .

فهذه الأشياء تؤثر في إجابة الدعاء ، ومدارها يقوم على الذلة والانكسار بين يدي الله .

٣٩- أن من أسباب إجابة الدعاء أربعة أشياء :

أحدها : إطالة السفر لما فيه من الانكسار الذي هو من أعظم أسباب الإجابة .

الثاني : رثاثة الهيئة ، ومن ثَمَّ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

" كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ " (صحيح التِّرْمِذِي / ٣٠٢٨) .

الثالث : مد اليدين إلى السماء فإن الله حيي كريم ، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرًا خائبتين .

الرابع : الإلحاح على الله بتكرير ذكر ربوبيته ، وهو من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : ما مدار الخبث : أعلى ما يستخبثه الناس وكل إنسان بطبيعته أو أن نقول : الخبيث ما استخبثه الشرع .

ج : الخبيث ما استخبثه الشرع .

س : هل هذا يعني أنه يستحيل أن يجاب ؟

ج : لا ، لأن الإنسان قد يستبعد شيئًا ولكن يقع ، وإلَّا فإن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – استبعد هذا تنفيرًا عن أكل الحرام .

لكن هذا قد يرد عليه أن التورع عن المباحات بدون سبب شرعي مذموم ، فيقال المراد بالحديث : أن هذا الرجل يهتم بأمور الآخرة أكثر من اهتمامه بأمور الدنيا .

الحديث الحادي عشر

عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الحَسَنِ بن عَلِيِّ بنِ أَبِي طالبٍ سِبْطِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَرَيْحَانَتِهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ : حَفِظْتُ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيْبُكَ "

رواهُ التِّرْمِذِيُّ والنَّسائيُّ ، وقال التِّرْمِذيُّ : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ . (صحيح التِّرْمِذِيّ / ٢٥١٨) .

المعنى الإجمالي

يرشدنا هذا الحديث إلى أن المؤمن يترك ما يشك في حِلِّه خشية أن يقع في الحرام وهو لا يشعر ؛ بل عليه أن ينتقل مما يشك فيه إلى ما كان حِلُّه متيقنًا ليس فيه شبهة ليكون مطمئن القلب ، ساكن النفس ، راغبًا في الحلال الخالص ، متباعدًا عن الحرام والشبهات وما تتردد فيه النفس .

قال ابن رجب : " ومعنى هذا الحديث يرجع إلى الوقوف عند الشبهات واتقائها ؛ فإن الحلال المحض لا يحصل للمؤمن في قلبه منه ريْب ، بل تسكن إليه النفس ، ويطمئن به القلب .

وأما المشْتَبِهات فيحصل بها للقلوب القلق والاضطراب الموجب للشك " .

توضيح الحديث

(المعنى)

" سِبْطِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَرَيْحَانَتِهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ : حَفِظْتُ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – "

(والسِبْط) : هو ابن البنت ، ابن ابنته فاطمة – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – . وابن الابن يسمى : حفيدًا .

(وَرَيْحَانَتِهِ) : الريحانة هي تلك الزهرة الطيبة الرائحة ، شبهه لسروره وفرحه بالريحانة .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٢٤)

١- هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الدين ، وأصل في الورع الذي عليه مدار اليقين ، ومُنجٍ من ظُلَم الشكوك والأوهام المانعة من نور اليقين .

٢- نصح الرسول وحسن تعليمه .

٣- تربية الصغار على الآداب الشرعية لينشؤوا على الأخلاق الكريمة .

(المعنى)

(دَعْ) : أي اترك .

(مَا يَرِيْبُكَ) : بفتح ياء المضارعة وضمها ، والفتح أفصح وأشهر : أي ما يلحقك به ريب وشك وقلق .

(مَا لا يَرِيْبُكَ) : أي إلى شيءٍ لا يلحقك به ريبٌ ولا قلق ، أو إلى ما لا تَشُكُّ فيه من الحلال الواضح الحِلِّ .

(المستفاد)

٤- أن الدين الإسلامي لا يريد من أبنائه أن يكونوا في شكّ ولا قلق ، لقوله : " دَعْ مَا يرِيْبُكَ إِلَى مَا لا يرِيْبُكْ " .

٥- أنك إذا أردت الطمأنينة والاستراحة فاترك المشكوك فيه واطرحه جانبًا ، لا سيّما بعد الفراغ من العبادة حتى لا يلحقك القلق .

٦- أن على المسلم بناء أموره على اليقين . وأن يكون في دينه على بصيرة .

٧- النهي عن الوقوع في الشبهات .

٨- أن المشتبهات تورث قلقًا في النفس .

٩- ترك الشبهات والتزام الحلال يؤدي إلى الورع .

١٠- إذا تعارض الشك واليقين أخذ باليقين .

١١- الحلال المحض لا يجوز تركه ورعًا لأنه لا ريبة فيه .

١٢- الحرام المحض يجب تركه من باب أولى لأن حرمته لا ريب فيها بل يقين .

١٣- يربي المؤمن على ترك الريب ومواطن الشبه .

١٤- المؤمن التقي لا يرتاح ويطمئن إلّا إلى الحلال المحض ، وأما الفاجر فلا تصيبه ريبه في الحرام فضلا عن الشبهات .

١٥- الحديث قاعدة فيمن احتار بين أمرين أحدهما شاك فيه والآخر عنده يقين ، فينبغي أن يفعل اليقين .

١٦- الحديث عام في كل ما يصيب المسلم وليس في جانب الطعام فقط ، فمن شك هل يجمع الصلاتين أم لا ؟ له أحقية الجمع أم لا ؟ وعنده ريبة في الجمع فلا يجمع لأن ترك الجمع لا ريبة فيه وهكذا .

١٧- الخروج من اختلاف العلماء أفضل لأنه أبعد عن الشبهة ، خاص إذا لم تترجح فيه أقوالهم .

١٨- يجب أن تبنى الأمور على اليقين والاطمئنان ولا قيمة للشك والتردد فيه .

١٩- الحذر من التساهل في الدين ومن البدع .

٢٠- الإرشاد إلى الاحتياط في الدين ، وذلك بالعدول إلى ما يطمئن إليه القلب وتطمئن إليه النفس ، كما جاء في الحديث .

٢١- رحمة الله بعباده إذ أمرهم بما فيه راحة النفس والبال ونهاهم عمّا فيه قلق وحيرة .

٢٢- أن هذا الحديث من جوامع الكلم التي أوتيها النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وعَدَّها من خصائصه .

٢٣- اطِّراح الشك والبناءُ على اليقين في الأحكام .

٢٤- أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أعطي جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصارًا ، لأن هاتين الجملتين : " دع ما يريبك إلى مالا يريبك " لو بنى عليهما الإنسان مجلدًا ضخمًا لم يستوعب ما يدلان عليه من المعاني .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : ما الفرق بين (السِبْطِ ، الحَفِيد) ؟

ج : السَّبْط : اشْتِقَاقُهُ مِنَ السَّبْطِ وَهُوَ التَّتَابُعُ وَقِيلَ مِنَ السَّبَطِ بِالتَّحْرِيكِ وَهُوَ الشَّجَرُ الْمُلْتَفُّ وَقِيلَ لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ سِبْطَا رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لانتشار ذريتهما ثمّ قيل لكل ابن بِنْتٍ سِبْطٍ

قَالَ : الزّجاج : السبط فِي اللُّغَة : الجَمَاعَة الَّذين يرجعُونَ إِلَى أَب وَاحِد .

السِّبْطَ وقد يقال للولد سبط إلا أنه يفيد خلاف ما يفيده لان قولنا سبط يفيد أنه يمتد ويطول ،

وأصل الكلمة من السبوط وهو الطول .

وفي تاج العروس (١٩ / ٣٢٩) : السِّبْطُ ، بالكَسْرِ : وَلَدُ الوَلَدِ ، وفي المُحْكَمِ : وَلَدُ الابنِ والابْنَةِ . والسِّبْطُ : القَبيلَةُ من اليَهودِ وهُمُ الذين يَرْجِعونَ إِلَى أَبٍ واحِدٍ ، سُمِّيَ سِبْطاً لِيُفْرَقَ بَيْنَ وَلَدِ إسماعيلَ ووَلَدِ إسحاق عليهما السَّلام ، جمعه : أَسْباطٌ . وقالَ أَبُو العبّاسِ : سأَلْتُ ابن الأَعْرَابِيّ : مَا مَعْنَى السِّبْطِ في كلامِ العَرَب قالَ : السِّبْطُ والسِّبْطانُ والأَسْباطُ : خاصَّةُ الأَوْلادِ والمُصاصُ مِنْهُم .– المُصاصُ : خالص كل شيء – وقالَ غَيْرُه : الأَسْباط : أَولادُ الأَوْلادِ وقِيل : أَوْلادُ البَناتِ . قُلْتُ : وهذا القول الأخيرُ هو المَشْهورُ عندَ العامَّة ، وبه فرَّقوا بَيْنَها وبين الأَحْفادِ ، ولكنَّ كلامَ الأئمَّةِ صَريحٌ في أنَّه يَشْمَلُ وَلَدَ الابنِ والابْنَة ، كما صَرَّحَ به ابن سِيدَه .

الحفيد ولد الولد . و نخلص من هذا أن الذين فرَّقوا قالوا : الأَسْباط : أَوْلادُ البَناتِ ، و الحفيد ولد الولد .

س : كلمة (دَعْ) فعل أمر ، والمضارع منه (يدع) فما الفعل الماضي منه ؟

ج : دَعْهُ ، أي : اتْرُكْهُ ، وأَصْلُه : ودَعَ يَدَعُ ، كوَضَعَ يَضَعُ ، كما في الصِّحاحِ ومنْهُ الحديثُ : " دَعْ ما يُرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ " ، وقالَ عمرو بنُ مَعْدِ يكَرِبَ : (إذا لمْ تَسْتَطِعْ أمْرًا فدَعْهُ وجاوِزْهُ إلى ما تَسْتَطِيعْ) .

أمَّا الفعل الماضي ، قالوا : أُمِيتَ ماضِيه ، لا يُقَالُ : وَدَعَهُ وإنَّمَا يُقَالُ في ماضِيه : تَرَكَهُ كما في الصِّحاحِ وزادَ : ولا وادِعٌ ، ولكن تارِكٌ ، ورُبَّمَا جاءَ في ضَرُورَةِ الشِّعْرِ ودَعَهُ ، وفي لسانِ العرب : وَدَعَهُ يَدَعُهُ : تَرَكَه ، وهي شاذَّةٌ ، وكلامُ العَرَبِ : دَعْنِي وذَرْنِي ، ويَدَعُ ويَذَرُ ، ولا يَقُولونَ : وَدَعْتُك ، ولا وَذَرْتُكَ ، اسْتَغْنَوا عنْهَا بتَرَكْتُكَ ، والمَصْدَرُ فيهما : تَرْكًا ، ولا يُقَالُ : وَدْعًا ولا وَذْرًا ، وحكاهُمَا بَعْضُهُم ، ولا وادِعٌ ، وقدْ جاءَ في بَيْت أَنْشَدَهُ الفارِسيُّ في البَصْرِيّاتِ :

(فأيُّهُما ما أتْبَعَنَّ فإنَّنِي حَزِينٌ على تَرْكِ الّذِي أنا وادِعُ)

وجاء في صحيح مسلم / ٨٦٥ : " لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ " . قال في تاج العروس ٢٢ / ٣٠٦ : قال شَيْخُنا عِنْدَ قَوْلِه : وقدْ أُمِيتَ ماضِيه ، قلتُ : هي عِبارَةُ أئِمَّةِ الصَّرْفِ قاطِبَةً ، وأَكْثَرُ أهلِ اللُّغَة ، ويُنَافِيه ما يَأْتِي بأثَرِه منْ وُقُوعه في الشِّعْرِ ، ووُقُوعِ القِراءَةِ ، فإذا ثَبَتَ وُرُودُه ولو قَلِيلاً فكَيْفَ يُدَّعَى فيهِ الإماتَة قلت : وهذا بعَيْنِه نَصُّ اللَّيْثِ ، فإنّه قالَ : وزَعَمَتِ النَّحْوِيَّةُ أنَّ العَرَبَ أماتُوا مَصْدَرَ يَدَعُ ويَذَرُ ، واسْتَغْنَوا عنْهُ بتَرْكٍ ، والنَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أفْصَحُ العَرَبِ ، وقد رُوِيَتْ عَنْهُ هذهِ الكَلِمَةُ ،

قالَ ابنُ الأثِيرِ : وإنَّمَا يُحْمَلُ قَوْلُهُم على قِلَّةِ استِعْمَالِهِ ، فهُوَ شاذٌّ في الاسْتِعْمَالِ ، صَحِيحٌ في القِيَاسِ ،

وقد جاءَ في غَيْرِ حديثٍ ، حتى قُرِئَ بهِ قولُه تعالى : ما وَدَّعَكَ وهذا غايَةُ ما فَتَحَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، فتَبَصَّرْ وكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ .

قلت : (والقائل / عماد) : كيف يُحكم على الماضي بأنهم أماتوه ، وقد جاء على لسان خير البشر – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أفْصَح العَرَبِ ، إذ قال : " أَيْ عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ ، أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ – اتِّقَاءَ فُحْشِهِ " (خ / ٦٠٥٤ واللفظ له ، م / ٢٥٩١) ، إلا أن يكون المقصود من قول النحاة :

" أماتوه " : أي : لم يكثروا استعماله .

س : ما الفرق بين (دع يدع) ، (ذر يذر) ؟

قال في تاج العروس : قالَ شَيْخُنا : اخْتَلَفَ أهْلُ النَّظَرِ ، هَلْ دَعْ ، وذَرْ مُتَرادِفَانِ أو مُتَخالِفانِ فذهَبَ قَوْمٌ إلى الأوَّلِ ، وهُوَ رَأْيُ أكْثَرِ أهْلِ اللُّغَةِ ، وذهَبَ أكْثَرُونَ إلى الفَرْقِ بَيْنَهُمَا ، فقالَ : دَعْ ويَدَعْ يُسْتَعْمَلانِ فيما لا يُذَمُّ مُرْتَكِبُه ، لأنَّه منَ الدَّعَةِ ، وهِيَ الرَّاحَةُ ، ولذا قيلَ لمُفَارَقَةِ النّاسِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا : مُوَادَعَةٌ وعَدَمَ اعْتِدادٍ ، لأَنَّهُ منَ الوَذْرِ ، وهُوَ قَطْعُ اللُّحَيْمَةِ الحَقِيرَةِ ، كما أشارَ إليهِ الرّاغِبُ ، فلذا قال تعالى : (أَتَدْعُونَ بَعْلاً وتَذَرُونَ أحْسَنَ الخالِقِينَ)
(الصافات / ١٢٥) ، فلم يقل : (أتَدْعُونَ بَعْلاً وتَدَعُونَ أحْسَنَ الخالِقِينَ) ، معَ ما فيهِ من الجِناسِ ،
وقيلَ : دَعْ : أمْرٌ بالتَّرْكِ قَبْلَ العِلْمِ ، وذَرْ بَعْدَهُ ، كما نُقِلَ عن الرّازِيّ ، قيلَ : وهذا لا يُساعِدُه اللُّغَةُ ولا الاشْتِقاقُ .

س : (يَرِيْبُكَ) ما معنى الريب ، وما الفرق بين (الريب ، الشك ، الظن ، والوهم ، القلق ، المرية ، ومثيلاتها .....) ، الفرق بين (الرِّيبة والتُّهمة) ؟

ج : قال أبو هلال العسكري في الفروق اللغوية ١ / ٢٦٤ :

الفرق بين الريب والشك : الشك : هو تردد الذهن بين أمرين على حد سواء .

وأما الريب فهو شك مع تهمة .

ودل عليه قوله تعالى : (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) (البقرة / ٢) .

وقوله تعالى : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا) (البقرة / ٢٣) .

فإن المشركين – مع شكهم في القرآن – كانوا يتهمون النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بأنه هو الذي افتراه وأعانه عليه قوم آخرون (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا) (الفرقان / ٤) . ويقرب منه (المرية) .

وأما قوله تعالى : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي) (يونس / ١٠٤) فيمكن أن يكون الخطاب مع أهل الكتاب أو غيرهم ممن كان يعرف – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بالصدق والأمانة ولا ينسبه إلى الكذب والخيانة .

الفرق بين الشك والظن والوهم : الشك : خلاف اليقين .

وأصله اضطراب النفس ، ثم استعمل في التردد بين الشيئين سواء استوى طرفاه ، أو ترجح أحدهما على الآخر قال تعالى : (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) (يونس / ٩٤) .

أي غير مستيقن .

وقال الاصوليون : هو تردد الذهن بين أمرين على حد سواء .

قالوا : التردد بين الطرفين إن كان على السواء فهو الشك ، وإلا فالراجح ظن : والمرجوح وهم .

قال الكفوي في كتابه الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ١ / ٨٣٢ :

الشَّك : هُوَ اعْتِدَال النقيضين عِنْد الْإِنْسَان وتساويهما، وَذَلِكَ قد يكون لوُجُود أمارتين متساويتين عِنْده فِي النقيضين ، أَو لعدم الأمارة فيهمَا ، وَالشَّكّ ضرب من الْجَهْل وأخص مِنْهُ ، لِأَن الْجَهْل قد يكون عدم الْعلم بالنقيضين رَأْسًا ، فَكل شكّ جهل وَلَا عكس ، (وَإِن كَانَ طرف الْوُقُوع واللاوقوع على السوية فَهُوَ الشَّك)

وَإِن كَانَ أحد الطَّرفَيْنِ راجحًا وَالْآخر مرجوحًا فالمرجوح يُسمى وَهْمًا

وَالرَّاجِح إِن قَارن إِمْكَان الْمَرْجُوح يُسمى ظنًا ، وَإِن لم يُطَابق يُسمى جهلا مركبًا ، وَالشَّكّ كَمَا يُطلق على مَا لَا يترَجَّح أحد طَرفَيْهِ يُطلق أَيْضًا على مُطلق التَّرَدُّد ، كَقَوْلِه تَعَالَى : (لفي شكّ مِنْهُ) (وعَلى مَا يُقَابل الْعلم)

قَالَ الْجُوَيْنِيّ : الشَّك مَا اسْتَوَى فِيهِ اعتقادان أَو لم يستويا ، وَلَكِن لم ينتبه أحدهمَا إِلَى دَرَجَة الظُّهُور الَّذِي يَبْنِي عَلَيْهِ الْعَاقِل الْأُمُور الْمُعْتَبرَة .

والريب : مَا لم يبلغ دَرَجَة الْيَقِين وَإِن ظهر نوع ظُهُور وَيُقَال : شكّ مريب وَلَا يُقَال : ريب مشكك .

وَيُقَال أَيْضًا : رَابَنِي أَمر كَذَا ، وَلَا يُقَال : شكني ، وَالشَّكّ سَبَب الريب كَأَنَّهُ شكّ أَو لَا فيوقعه شكه فِي الريب ، فالشك مبدأ الريب ، كَمَا أَن الْعلم مبدأ الْيَقِين .

والريب قد يَجِيء بِمَعْنى القلق وَالِاضْطِرَاب ، والْحَدِيث : " دع مَا يريبك إِلَى مَا لَا يريبك " فَإِن الصدْق طمأنينة وَالْكذب رِيبَة ، وَمِنْه (ريب الدَّهْر) لنوائبه ، فيوصف بِهِ الشَّك كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى :(وَإِنَّهُم لفي شكّ مِنْهُ مريب)

والمرية : التَّرَدُّد فِي المتقابلين ، وَطلب الأمارة من (مرى الضَّرع) إِذا مَسحه للدر .

الفرق بين الريبة والتهمة : فإن الريبة هي الخصلة من المكروه تظن بالإنسان فيشك معها في صلاحه ، والتهمة الخصلة من المكروه تظن بالإنسان أو تقال فيه ، ألا ترى أنه يقال وقعت على فلان تهمة إذا ذكر بخصلة مكروهة ويقال أيضًا اتهمته في نفسي إذا ظننت به ذلك من غير أن تسمعه فيه فالمتهم هو المقول فيه التهمة والمظنون به ذلك ، والمريب المظنون به ذلك فقط ، وكل مريب متهم ويجوز أن يكون متهم ليس بمريب .

س : هل هذه النصائح الكبيرة تنفع الأطفال الصغار وعلى أي شيئ يدل هذا ؟

ج : نعم تنفع الأطفال ، ويدل هذا على :

١- نصح الرسول وحسن تعليمه .

٢- تربية الصغار على الآداب الشرعية لينشؤوا على الأخلاق الكريمة .

٣- أن الدين الإسلامي لا يريد من أبنائه أن يكونوا في شكّ ولا قلق .

٤- يربي المؤمن على ترك الريب ومواطن الشبه .

٥- أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أعطي جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصارًا ، لأن هاتين الجملتين : " دع ما يريبك إلى مالا يريبك " لو بنى عليهما الإنسان مجلدًا ضخمًا لم يستوعب ما يدلان عليه من المعاني .

الحديث الثاني عشر

عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيْهِ " حديثٌ حسنٌ ، رواهُ التِّرْمِذِيُّ وغيرُه هكذا .
(صحيح التِّرْمِذِيّ / ٢٣١٨)

المعنى الإجمالي

هذا الحديث وإن لم يصح لفظًا وسياقًا لكنه ثابتٌ من حيث المعنى والمضمون ، وهو أصلٌ في ترك الاشتغال بما لا يعني الإنسان من الأقوال و الأفعال ، كما يُفهم من قوله : " تركه ما لايعنيه " .

قال ابن القيم – يرحمه الله – : " فهذا يعمُّ الترك لما لا يعني مِن الكلام ، والنظر ، والاستماع ، والبطش ، والمشي ، والفِكْر ، و سائر الحركات الظاهرة والباطنة ، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع " .

وهذ الحديث مرتبط بأحاديث أخرى في الأربعين كحديث : " فليقل خيرًا أو ليصمت " ، وحديث " دع ما يريبك " ، وحديث " إن الحلال بين وإن الحرام بين " ، وحديث جبريل " فأخبرني عن الإحسان " ، وحديث " ازهد في الدنيا.... " ، وحديث " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به " .

توضيح الحديث

(المعنى)

" مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيْهِ "

(مِنْ حُسْنِ) : من كمال إسلام الإنسان وتمامه .

(إِسْلامِ المَرْءِ) : أي استسلامه وانقياده .

(تَرْكُه) : يشمل الأقوال والأعمال .

(مَا لاَ يَعْنِيْهِ) : ما لا يَعنيه : بفتح ياء المضارعة ، من عناء الأمر إذا تعلقت به عنايته ، وكان من قصده وإرادته ، أي ما لا تتعلق به عنايته ويهتم به ، ما لا يهمه من أمر الدين والدنيا من الأفعال و الأقوال .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٣٤)

١- أن الإسلام جمع المحاسن ، ومحاسن الإسلام كلّها تجتمع في كلمتين : قال الله عز وجل :
(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) (النحل / ٩٠) .

٢- أن الدين الإسلامي كله محاسن .

٣- الإرشاد إلى فعل محاسن الدين وترك ما ينافيها .

٤- أن من محاسن الإسلام العناية بما ينفع في الدين ثم في الدنيا .

٥- أن من حسن وكمال إيمان الإنسان تركه ما لا يهمه في دنياه وآخرته من أقوال أو أعمال .

٦- من حسن الإسلام ترك السؤال عمّا لا سبيل إلى معرفته ، كحقائق الغيب وتفاصيل الحِكَم في الخلق والأمر ، وكذا السؤال والبحث عن مسائل مقدّرة ومفترضة لم تقع ، أو يندر أن تقع ، أو لا تكاد تقع ، أو لا يتصور وقوعها .

٧- من كمال إسلام المسلم أن يترك ما لا يعنيه من الأقوال والأفعال .

٨- ينبغي للمسلم أن يحرص على تحسين إسلامه .

٩- يدل على تفاوت الناس في الإسلام فمن حسن إلى أحسن وهكذا .

١٠- يحث على ترقي الإنسان إلى تحسين إسلامه قدر استطاعته .

١١- أن ترك الإنسان ما لايهتم به ولا تتعلق به أموره وحاجاته من حسن إسلامه .

١٢- أن من اشتغل بما لا يعنيه فإن إسلامه ليس بذاك الحسن .

١٣- أن من قبح إسلام المرء أخذه فيما لا يعنيه ، وهو الفضول كله على اختلاف أنواعه ، فإن معاناته ضياع للوقت النفيس الذي لا يمكن أن يعوض فائته فيما لم يخلق لأجله .

١٤- أنه ينبغي للإنسان أن يتطلب محاسن إسلامه فيترك ما لا يعنيه ويستريح ، لأنه إذا اشتغل بأمور لاتهمّه ولا تعنيه فقد أتعب نفسه .

١٥- ترك ما لا يعني من الأقوال يدخل فيه حفظ اللسان عن الباطل واللغو وما لا فائدة فيه .

١٦- ترك ما لا يعني من الأفعال يدخل فيه ترك المحرمات والمكروهات والمشتبهات وفضول المباحات التي لا تقربه إلى الله سبحانه لأنها ليست مما يوليه المؤمن عنايته وحرصه .

١٧- الحث على الاشتغال بما يعني ، وهو ما يفوز به المرء في معاده من الإسلام والإيمان والإحسان ، وما يتعلق بضرورة حياته في معاشه ، فإن المشتغل بهذا يسلم من المخاصمات وجميع الشرور .

١٨- الاشتغال بما لا يعني ضياع وهو دليل على ضعف الإيمان .

١٩- من صفات المسلم الاشتغال بمعالي الأمور والبعد عن سفاسفها ومحقراتها .

٢٠- تأديب النفس وتهذيبها بترك ما لا جدوى فيه ولا نفع .

٢١- الحث على استثمار الوقت بما يعود على العبد بالنفع في الدنيا والآخرة .

٢٢- التدخل فيما لا يعني يؤدي إلى الشقاق بين الناس والخصام .

٢٣- الإرشاد إلى ترك ما يضر في الآخرة وترك مالا ينفع .

٢٤- الإرشاد إلى ترك ما ليس من شأن الإنسان ، وما ليس منه بسبيل .

٢٥- أن عدم ترك الإنسان لما لا يعنيه يدل على أن إسلامه ليس بحسن .

٢٦- ينبغي للمسلم أن ينشغل بما يعنيه وينفعه .

٢٧- اغتنام الحياة بالعمل الصالح .

٢٨- أن الإيمان يزيد وينقص .

٢٩- فيه حفظ لخصوصيات الغير ، فيقطع ما تميل إليه النفس من التطلع والبحث في شؤون الغير لأنها لا تعنيه .

٣٠- على الإنسان أن ينشغل بنفسه وما يعنيها وإصلاحها ويترك شؤون الناس التي تعنيهم .

٣١- فيه تربية على علو الهمة حيث قال في أول الحديث " من حسن إسلام المرء " فكأنه قال هناك منازل عالية في الإسلام ثم بينها ليتسابق الناس إليها .

٣٢- يربي في الإنسان الحرص على ما فيه فائدة له وترك ما لا فائدة لأنه لا يعنيه فلا يحصل من ورائه إلّا التعب وضياع العمر وذهاب حسن الإسلام .

٣٣- فيه تربية للمسلم على حفظ وقته بدل أن يضيع فيما لا يعنيه أمره ، فتجده مغتنمًا للحظاته وليس لديه وقت ، للبحث في شؤون الغير .

٣٤- آية للنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حيث أُعطي جوامع الكلم لأن الحديث ذم الانشغال بأمور كثيرة جدًا كلها داخله تحت جملته تلك – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : هل يوجد إسلام حسن ، وإسلام أحسن ؟ وهل الإسلام يتفاوت ؟

ج : نعم فهذا الحديث يدل على تفاوت الناس في الإسلام فمن حسن إلى أحسن وهكذا ، و ينبغي للمسلم أن يحرص على تحسين إسلامه .

س : هل ترك العبد ما لا يعنيه هو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

ج : لا ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يعني الإنسان ، كما قال الله عزّ وجل :

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) (آل عمران / ١٠٤)

ومن ذلك أيضًا : ما يتعلق بالأهل والأبناء والبنات فإنه يعني راعي البيت أن يدلّهم على الخير ويأمرهم به ويحذرهم من الشر وينهاهم عنه قال الله عزّ وجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) (التحريم / ٦) .

الحديث الثالث عشر

عَنْ أَبِيْ حَمْزَة أَنَسِ بنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – خَادِمِ رَسُوْلِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " لا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ " رواهُ البخاريُّ ومُسلمُ

(البخاري / ١٣ ، مسلم / ١٧٩) .

المعنى الإجمالي

يحثنا النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على نشر المحبة والألفة في المجتمع المسلم وأن محبة المؤمنين من علامات الإيمان ودلائله ، وأن الإيمان يزيد ويكمل بالطاعة وفعل الصالحات ، وفيه بيان فضيلة الإيثار وسلامة الصدر والنصح للمسلمين .

توضيح الحديث

(المعنى)

" لا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ "

(لا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ) : أي لا يتم إيمان أحدنا ، فالنفي هنا للكمال والتمام ، وليس نفيًا لأصل الإيمان ، وكثيرًا ما يأتي هذا النفي لانتفاء بعض واجبات الإيمان وإن بقي أصله .

(حَتَّى يُحِبَّ) : (حتى) هذه للغاية ، يعني : إلى أن " يُحبَّ لأَخِيْه " والمحبة : لا تحتاج إلى تفسير ، ولا يزيد تفسيرها إلا إشكالًا وخفاءً ، فالمحبة هي المحبة ، ولا تفسَّر بأبين من لفظها .

(لأَخِيْهِ) : في الإسلام .

(مَا يُحبُّ لِنَفْسِهِ) : مثل الذي يحبه لنفسه من خير ودفع شر ودفاع عن العرض وغير ذلك . والخير كلمة جامعة تعم الطاعات و المباحات الدينية والدنيوية . وتخرج المنهيات .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٣٩)

١– جواز نفي الشيء لانتفاء كماله ، لقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" لا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيْهِ " ومثله قوله : " لا يُؤمنُ مَنْ لا يَأَمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ " .

٢– أن الإيمان يتفاضل ، فإن النفي في الحديث نفي لكمال الإيمان الواجب ، فإن الإيمان لا يُنفى إلا لترك واجب ، ولا يُنفى لترك مستحب ، وإلا للزم جواز نفي الإيمان عن أكثر المؤمنين . كما أوضح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية .

٣– الإيمان يزيد وينقص ، تزيده الطاعة وتنقصه المعصية .

٤– من علامات الإيمان الكامل أن يحب الإنسان لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير .

٥– وأيضًا يكره لأخيه ما يكره لنفسه من الشر .

٦– أن من كره لأخيه الخير فليس بمؤمن الإيمان الكامل .

٧– تمني الضر لغيره من المسلمين علامة نقص في إيمانه ، فليسرع وليستدرك نفسه قبل أن يتفاقم الأمر وينتشر ويجلب أمراض الحسد والغل والحقد .

٨- أن من خصال الإيمان أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، ويستلزم ذلك أن يبغض له ما يبغض لنفسه ، وبهذا تنتظم أحوال المعاش والمعاد ، ويجري الناس على مطابقة قوله تعالى : (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُواْ) (آل عمران / ١٠٣) ، وعماد ذلك وأساسه : السلامة من الأمراض القلبية ، كالحسد وغيره .

٩- التعبير بـ (أخيه) فيه استعطاف للمسلم لأنْ يحصل منه ذلك لأخيه .

١٠- المؤمن مع المؤمن كالنفس الواحدة فإذا أحب لأخيه فكأنه أحب لنفسه هو .

١١- الترغيب في محبة المسلمين بعضهم بعضًا وائتلافهم ، لأن ذلك يؤدي إلى التعاضد والتناصر .

١٢- وجوب محبة المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، لأن نفي الإيمان عن من لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه يدل على وجوب ذلك ، إذ لا يُنفى الإيمان إلا لفوات واجب فيه أو وجود ما ينافيه .

١٣- يزرع الأخوة الحقة بين المسلمين سواءً في لفظه لقوله : " أخيه " أو في معناه .

١٤- يدل على أن تمني الخير للنفس من طبيعة النفس ولا حرج في ذلك إن كان ذلك الخير يقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، ولهذا قال : " ما يحب لنفسه " .

١٥- محبة الخير للغير أمر يجب أن يستمر عليه الإنسان طيلة حياته وهذا المفهوم من صيغة الفعل المضارع " يحب ، ويؤمن " لأن المضارع يفيد الحال والإستمرار في المستقبل .

١٦- الحديث يشمل جميع المؤمنين ، فيجب أن تحب لهم الخير حتى أؤلئك الذين بينك وبينهم عداوات شخصية ومخاصمات دنيوية ولهذا جاء لفظ الحديث عامًا دون استثناء .

١٧- محبة الخير للغير من علامات كمال الإيمان ، فمن أحب الخير والنفع لجميع المسلمين عامة فقد كمل إيمانه لظاهر الحديث .

١٨- إذا رأى المسلم في أخيه نقصًا في دينه اجتهد في نصحه وإصلاحه إشفاقًا عليه من النار .

١٩- وجوب النصيحة لكل مسلم .

٢٠- أن من النصيحة محبة الخير للمسلم ، وكراهة الشر له ، كما يحب المرء لنفسه ويكره لنفسه .

٢١- أن النصيحة من الإيمان .

٢٢- أن النصيحة موجَب الأخوة الإيمانية ، فذكر الأخوة من بواعث القيام بحقوقها ، فهي علة الحكم وموجِبُه .

٢٣- أن الأخوة في الله ، فوق أخوة النسب فحقّها أوجب .

٢٤- أن حق الأخوة الإيمانية عام للمؤمنين والمؤمنات كما قال تعالى : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ) (التوبة / ٧١) ، وقال سبحانه (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات / ١٠) فلا مفهوم لوصف الذكورية في الحديث .

٢٥- تحريم كل ما ينافي هذه المحبة من الأقوال والأفعال كالغش والغيبة والحسد والعدوان على نفس المسلم أو ماله أو عرضه ، ولا يحرم الربح على المسلم في البيع بلا غبن ولا تدليس ولا كذب .

٢٦- التحذير من الحسد ، لأن الحاسد لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بل يتمنّى زوال نعمة الله عن أخيه المسلم .

٢٧- أنه ينبغي صياغة الكلام بما يحمل على العمل به ، لأن من الفصاحة ، صياغة الكلام بما يحمل على العمل به ، والشاهد لهذا قوله : " لأَخِيهِ " لأن هذه يقتضي العطف والحنان والرّقة ، ونظير هذا قول الله عزّ وجل في آية القصاص : (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْء) (البقرة / ١٧٨) مع أنه قاتل ، تحنينًا وتعطيفًا لهذا المخاطب .

٢٨- التنفير من الحسد وأنه يتنافى مع كمال الإيمان .

٢٩- الحث على ائتلاف القلوب .

٣٠- الحث على التواضع ومحاسن الأخلاق ، حيث إن المسلم يحبه لأخيه الخير كما يحب لنفسه دليل على تواضعه ، وأنه لا يحب أن يكون أفضل من غيره .

٣١- الحث على ترك البغضاء والغل .

٣٢- الحرص على الأعمال التي تؤدي إلى زيادة الإيمان كحب الخير للمسلمين .

٣٣- التحذير من الأعمال التي تؤدي إلى نقصان الإيمان كعدم محبة الخير للمسلمين .

٣٤- ذم الأنانية والحسد والكراهية .

٣٥- العمل بمضمون الحديث يؤدي إلى نشر المحبة بين أفراد المجتمع الإسلامي ، ويؤدي أيضًا إلى تماسكه .

٣٦- من علاج الحسد إذا انتشر في المجتمع أن يحب الواحد لغيره من الخير ما يحب لنفسه .

٣٧- الحديث يؤيد حديث تميم الداري " الدين النصيحة " فمن النصيحة لعامة المسلمين تمني الخير لهم .

٣٨- فيه بيان ميزة وخصوصية للمجتمع الإسلامي دون غيره ، وهي محبة الخير للغير كما يحبه لنفسه تمامًا .

٣٩- الحديث يدخل في صورة محبة الهداية والاستقامة على أمر الله لمن لم يهتد من أهل المعاصي ، فيتمنى لهم الهداية والخير وعمل الصالحات .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : (لا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ) هل نفي الإيمان هنا نفي كمال ، أم نفي أصل الإيمان ، وما الفرق بينهما ؟

ج : النفي هنا للكمال والتمام ، وليس نفيًا لأصل الإيمان ، وكثيرًا ما يأتي هذا النفي لانتفاء بعض واجبات الإيمان وإن بقي أصله ، أي لا يتم إيمان أحدنا .

قال الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر في كتابه (زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه ١ / ٦٨) :

فالمراد بهذا الحديث نفي كمال الإيمان الواجب عمن اقترف هذه المعاصي وأنه " لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان ، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله ومختاره ، كما يقال : لا علم إلا ما نفع ، ولا مال إلا الإبل ، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ ، فَأَصْلِحِ الأَنْصَارَ ، وَالمُهَاجِرَةَ " (خ / ٣٧٩٥) ، ومراده – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نفي الكمال ، فإنَّ الدنيا فيها عيش ، كما قال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي " (م / ٢٧٢٠) . ومما يدل على هذا التأويل حديث أبي ذر وغيره : " مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ " ، قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : " وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ " (خ / ٥٨٢٧) وحديث عبادة بن الصامت الصحيح المشهور أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : " تُبَايِعُونِى عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا تَسْرِقُوا وَلا تَزْنُوا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ وَلا تَعْصُونِى فِى مَعْرُوفٍ فَمَنْ وَفَّى فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَصَابَ مِنْكُمْ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ

إنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ " (صحيح النَّسائي / ٤١٦١) فهذان الحديثان مع نظائرهما في الصحيح مع قول الله عز وجل : (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) (النساء / ٤٨) ، مع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان إن تابوا سقطت عقوبتهم ، وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة ، فإن شاء الله تعالى عفا عنهم وأدخلهم الجنة أولًا ، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة .

وقال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي في شرح رسالة كتاب الإيمان الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام :

تأويل أهل السنة للأحاديث التي فيها نفي الإيمان / باب الخروج من الإيمان بالمعاصي :

قال أبو عبيد : أما هذا الذي فيه ذكر الذنوب والجرائم ، فإن الآثار جاءت بالتغليظ على أربعة أنواع : فاثنان منهما فيها نفي الإيمان والبراءة من النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والآخران فيها تسمية الكفر وذكر الشرك ،

وكل نوع من هذه الأربعة تجمع أحاديث ذوات عدة .

نعم هذا الباب عقده المؤلف – يرحمه الله – لبيان النصوص التي فيها أن أصحاب المعاصي يخرجون من الإيمان وتأويلها عند أهل السنة والجماعة فجاءت النصوص في الكتاب والسنة لنفي الإيمان عن أهل المعاصي ، وهي أنواع – كما ذكر المؤلف – :

فمنها : نفي الإيمان ، مثل حديث : " لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ " (خ / ٢٤٧٥) فما تأويل ذلك ؟

ومنها : بعضهم تسميته بالكفر ، كحديث : " اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ : الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ " (م / ٦٧)

ومنها تسميته بالشرك ، كحديث :

" مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ " (صحيح الترمذي / ١٥٣٥) فما تأويلها ؟

والخلاصة أن نفي الإيمان عند أهل السنة والجماعة في قوله : " لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ " (خ / ٢٤٧٥) المراد : نفي كمال الإيمان لا أصل الإيمان ؛ فالزاني والسارق وشارب الخمر – إذا لم يستحله – ليس كافرًا ، بل هو مؤمن ضعيف الإيمان ناقص الإيمان ، والنفي المراد : نفي كمال الإيمان ، " لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ " المراد : نفي كمال الإيمان لا أصل الإيمان ؛ لأنه ليس بكافر ؛ لأنه لو كان كافرًا لقتل . ولم يقم عليه الحدّ لحديث :

" مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ " (خ / ٣٠١٧) .

وما جاءت تسميته كفرًا . فالكفر ، المراد كفر أصغر لا يخرج من الملة ، فيكون صاحبه ضعيف الإيمان ناقص الإيمان .

س : هل الإيمان يتفاضل ؟

ج : قال شيخ الإسلام ابن تيمية : مذهب أهل السنة والحديث على أن الإيمان يتفاضل وجمهورهم يقولون يزيد وينقص .

ثم قال : زيادة الإيمان الذي أمر الله به والذي يكون من عباده المؤمنين من وجوه . ثم ذكر عدة وجوه على زيادة الإيمان من جهة التصديق وبالتالي من جهة الأعمال .

وهذا هو قول جميع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الدين ، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد والليث بن سعد وإسحق بن راهويه والثوري والأوزاعي ، وابن عيينة ، والحسن البصري ، وابن المبارك ،

وأبو عبيد القاسم بن سلام ، ووكيع بن الجراح ، وحماد بن سلمة ، وغيرهم كثير من السلف الذين قالوا بأن الأعمال

من الإيمان .

وهذا هو رأي جماعة من المتكلمين كالبغدادي والغزالي ، والآمدي والأيجي وكثير من الأشاعرة الذين قالوا إن الإيمان الذي هو التصديق يزيد وينقص .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله – : "وذلك أن أصل أهل السنة أن الإيمان يتفاضل من وجهين : من جهة أمر الرب ، ومن جهة فعل العبد .

أما الأول فإنه ليس الإيمان الذي أمر به شخص من المؤمنين هو الإيمان الذي أمر به كل شخص ، فإن المسلمين في أول الأمر كانوا مأمورين بمقدار من الإيمان ، ثم بعد ذلك أمروا بغير ذلك ، وأمروا بترك ما كانوا مأمورين به كالقبلة ، فكان الإيمان في أول الأمر الإيمان بوجوب استقبال بيت المقدس ، ثم صار من الإيمان تحريم استقباله ووجوب استقبال الكعبة ، فقد تنوع الإيمان في الشريعة الواحدة . وأيضًا فمن وجب عليه الحج والزكاة أو الجهاد يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره إلا مجملاً ، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل ، وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل ، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها ، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان .

والنوع الثاني : هو تفاضل الناس في الإتيان به مع استوائهم في الواجب ، وهذا الذي يظن أنه محل النزاع وكلاهما محل النزاع .

وهذا أيضًا يتفاضلون فيه فليس إيمان السارق والزاني والشارب كإيمان غيرهم ، ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان

من أخل ببعضها ، كما أنه ليس دين هذا وبرّه وتقواه مثل دين هذا وبرّه وتقواه ، بل هذا أفضل دينًا وبِرًّا وتقوى فهو كذلك أفضل إيمانًا ... " .

قال الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر في كتابه زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه :

قلت : وهذه الأوجه ينبغي تأملها وحسن فهمها ليعلم من خلالها مدى مفارقة الطوائف لأهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه ، ومقدار مفارقتهم للحق وبعدهم عنه ، لأن منهم من يرى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص من أي وجه ، ومنهم من يرى أنه يزيد وينقص من وجه دون وجه ، وليس أحد يرى أن الإيمان يزيد وينقص من كافة الأوجه المتقدمة غير أهل السنة والجماعة .

وبه أيضًا يعلم فضل علمهم على علم غيرهم ، والفرق بينهم وبين غيرهم ، وقوة موافقتهم للحق وإصابتهم له ؛

لاعتصامهم بحبل الله وتمسكهم بكتابه واهتدائهم بما جاء عن رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، خلافًا لأهل الأهواء الذين لم يصيروا يعتمدون في دينهم لا على القرآن ، ولا على الإيمان الذي جاء به الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فلهذا كان السلف أكمل علمًا وإيمانًا والموفق من وُفِّق لاتِّباعهم .

وقال عبد الله بن المبارك : " الإيمان قول وعمل ، والإيمان يتفاضل " .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : "وبعضهم أي : السلف عدل عن لفظ الزيادة والنقصان إلى لفظ التفاضل .

فقال أقول : الإيمان يتفاضل ويتفاوت ، ويروى هذا عن ابن المبارك ، وكان مقصوده الإعراض عن لفظ وقع فيه النزاع إلى معنى لا ريب في ثبوته " .

قلت : ولا ريب كذلك في ثبوت لفظ الزيادة والنقصان عند السلف ؛ فالزيادة مصرح بها في القرآن والنقصان مصرَّح به في السنة ، ولعل سبب عدول ابن البارك – يرحمه الله – عن لفظ الزيادة والنقصان هو استحسانه لكلمة"التفاضل " ، لا لسبب آخر ، كما إنه روي ذلك عن بعض السلف ، فقد ساق الخلّال بسنده إلى محمد بن أبان قال قلت لعبد الرحمن بن مهدي : الإيمان قول وعمل ؟ قال : نعم . قلت : يزيد وينقص ؟ قال يتفاضل كلمة أحسن من كلمة . فهذا هو وجه عدول ابن مهدي عن كلمة الزيادة والنقصان كما هو منصوصه على ذلك ، فلعل ذلك أيضًا هو سبب عدول ابن المبارك عن هذه الكلمة ، والله أعلم .

وقد كان من السلف من ينكر على من عدل عن لفظة الزيادة والنقصان لثبوتها ، كما قد روى ذلك

عبد الرحمن بن مهدي نفسه رحمه الله قال :" أنا أقول الإيمان يتفاضل .

ثم وقفت على أثر عن الإمام أحمد – يرحمه الله – قد يفهم منه سبب قال : كان يقول : الإيمان يتفاضل .

قال أبو عبد الله :" يا عجباه ، إن قال لكم يزيد وينقص رجمتموه ، وإن قال يتفاضل تركتموه ، وهل شيء يتفاضل إلا وفيه الزيادة والنقصان " .

وعلى كلٍ فابن المبارك عدل عن ذلك ، وصار يصرح بزيادة الإيمان لكونها منصوصًا عليها في القرآن ،

قال – يرحمه الله – : " لم أجد بُدًّا من الإقرار بزيادة الإيمان إزاء كتاب الله " .

ذكر ذلك لما قال له المستملي : يا أبا عبد الرحمن : إن ها هنا قومًا يقولون : الإيمان لا يزيد ، فسكت عبد الله ، حتى سأله ثلاثًا . فأجابه ، فقال : لا تعجبني هذه الكلمة منكم أن ها هنا قومًا ، ينبغي أن يكون أمركم جمعًا ، ثم ساق ابن المبارك بسنده قول عمر بن الخطاب : " لو وزن إيمان أبي بكر الصديق بإيمان أهل الأرض لرجحهم " ثم قال : بلى إن الإيمان يزيد ، بلى إن الإيمان يزيد ثلاثًا ، وقال : " لم أجد بُدًّا من الإقرار بزيادة الإيمان إزاء كتاب الله " .

وقال له شيبان بن فروخ : ما تقول فيمن يزني ويشرب الخمر ونحو هذا أمؤمن هو ؟ قال ابن المبارك :

لا أخرجه من الإيمان . فقال شيبان : على كبر السن صرت مرجئًا ؟ فقال له ابن المبارك : يا أبا عبد الله إن المرجئة لا تقبلني أنا أقول الإيمان يزيد والمرجئة لا تقول ذلك ، والمرجئة تقول : حسناتنا متقبلة وأنا لا أعلم تقبلت مني حسنة .

إن الإيمان يتفاضل ويزيد وينقص من جهة استحضار الإنسان بقلبه لأمور الإيمان ، وذكره لها ، ودوامه وثباته عليها ، بحيث لا يكون غافلًا عنها ، فإن من كان كذلك أكمل إيمانًا ممن صدق بالمأمور به وغفل عنه .

وذلك لأن الغفلة تضاد كمال العلم والتصديق والذكر ، وأما دوام الاستحضار وعدم الغفلة فإنه يكمل العلم واليقين ويقوي الإيمان ، فالعالم بالشيء في حالة غفلته عنه دون العالم بالشيء حال ذكره له ، والعلم وإن كان في القلب فالغفلة تنافي تحققه .

فالغفلة وعدم استحضار الأوامر ، لها أثر في نقص كمال الإيمان وضعفه ولهذا قال عمير بن حبيب الخطمي – رضي الله عنه – : " إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فذلك زيادته ، وإذا غفلنا ونسينا وضعينا فذلك نقصناه " .

وكان معاذ بن جبل – رضي الله عنه – يقول لأصحابه " اجلسوا بنا نؤمن ساعة " . وهذا يدلنا على أن الحذر من الغفلة ، واستحضار الإيمان سبب لزيادة الإيمان ، وعدم ذلك سبب لنقصه . ولهذا فإن الله الكريم نبّه في مواضع كثيرة من كتابه على أهمية الذكرى وعظم شأنها ، وخطر الغفلة وشدة ضررها ، ومن ذلك قوله :

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) .

وقوله : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) ومعنى شهيد أي : حاضر القلب وليس بغافل .

وقوله : (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى) .

وقوله : (وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) .

وقوله : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) وغيرها من الآيات .

س : ما الفرق بين عقيدة أهل السنة والجماعة ، وغيرهم في مسألة تفاضل الإيمان ؟

ج : الفرق بين قول الخوارج والمعتزلة والمرجئة الخالصة وبين قول أهل السنة :

من خلال أقوال كل من الخوارج والمعتزلة ، والمرجئة الخالصة . نلاحظ : أنهم جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا لا يتبعض ولا يتجزأ ؛ فهو عند الخوارج والمعتزلة : مجموع : التصديق القلبي ، والنطق اللساني ، والعمل بالجوارح ، وهو فعل الطاعات وترك المعاصي ، وإذا ذهب بعضه بارتكاب كبيرة ذهب كله .

وهو عند المرجئة الخالصة مجرد المعرفة ، والأعمال ليست منه .

أما أهل السنة فإنهم – وإن اتفقوا مع الخوارج والمعتزلة في تعريف الإيمان لكنهم – يرون أنه يتبعض ويتجزأ ، ويزيد وينقص ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، وهذا فرق ما بينهم وبين أولئك ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله – : وأصل قول أهل السنة الذي فارقوا به الخوارج والجهمية والمعتزلة والمرجئة : أن الإيمان يتفاضل ويتبعض كما قال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ " (خ / ٧٤٣٩) .

وأما أولئك فإنه لما كان الإيمان عندهم لا يتبعض ، قال الخوارج والمعتزلة : من فعل ذنبًا زال بعض الإيمان فيزول كله فيخلد صاحبه في النار .

وقالت الجهمية : قد علمنا أنه ليس يخلد في النار ، وأنه ليس كافرًا مرتدًا بل هو من المسلمين ، وإذا كان من المسلمين وجب أن يكون مؤمنًا تام الإيمان ليس معه بعض الإيمان ؛ لأن الإيمان لا يتبعض عندهم .

س : ماذا يترتب على الخلاف فب مسألة تفاضل الإيمان ؟

ج : يترتب على هذه المسألة : بيان وسطية عقيدة أهل السنة والجماعة بين الخوارج والمعتزلة الذين يقولون الإيمان لا يتبعض ، فمن فعل ذنبًا زال بعض الإيمان فيزول كله فيخلد صاحبه في النار ، وبين المرجئة الذين يقولون الإيمان لا يتبعض ، و قد علمنا أنه ليس يخلد في النار ، وأنه ليس كافرًا مرتدًا بل هو من المسلمين ، وإذا كان من المسلمين وجب أن يكون مؤمنًا تام الإيمان ليس معه بعض الإيمان .

س : هل الإيمان يزيد وينقص ؟

ج : الإيمان يزيد وينقص ، تزيده الطاعة وتنقصه المعصية .

قال الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر في كتابه الماتع – وهو يزيد على خمسِمائة صفحة – :

(زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه) ١ / ٣٥ :

المبحث الأول أدلة زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب

لقد جاء في كتاب الله عز وجل نصوص كثيرة تدل على زيادة الإيمان ونقصانه وأن أهله متفاضلون فيه بعضهم أكمل إيمانًا من بعض ، منهم السابق بالخيرات ، ومنهم المقتصد ، ومنهم الظالم لنفسه ، منهم المحسن ، ومنهم المؤمن ، ومنهم المسلم ، ليسوا في الدين سواء في مرتبة واحدة ، بل فضل الله بعضهم على بعض ورفع بعضهم فوق بعض درجات .

وقبل الشروع في ذكر هذه الأدلة القرآنية الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه أودّ التنبيه على نقطة مهمة ، وهي :

أن كل دليل دلّ على زيادة الإيمان فهو يدل على نقصانه ، وكذا العكس ، فما دل على نقصان الإيمان فهو يدل على زيادته ، فالآيات التي أوردها هنا وظاهرها الدلالة على زيادة الإيمان فقط ، فهي تدل على نقص الإيمان باللزوم ، وذلك لأن الزيادة تستلزم النقص ، ولأن ما جاز عليه الزيادة جاز عليه النقص ، ولأن الزيادة لا تكون إلا عن نقص . ولهذا فإنا نجد أهل العلم كثيرًا ما يستشهدون بأدلة زيادة الإيمان على نقصانه وكذا العكس للأسباب المتقدمة ، وتأمل – مثالًا على ذلك – صنيع البخاري في صحيحه فقد أورد بعض الآيات المصرحة بزيادة الإيمان في باب زيادة الإيمان ونقصانه مستدلًا بها على الزيادة والنقصان معًا .

قال ابن حجر في شرحه لهذا الباب : ".. ثم شرع المصنف يستدل لذلك بآيات من القرآن مصرحة بالزيادة ، وبثبوتها يثبت المقابل ، فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة " .

وقال في موضع آخر مبينًا أن الزيادة مستلزمة للنقص والاستدلال بهما – أي : الآيتين في الباب – نص في الزيادة وهو يستلزم النقص .

وقال الكرماني مجيبًا على ما قد يستشكل من : استدلال البخاري بالآيات على الزيادة والنقصان معًا مع أنها نص في الزيادة فقط : ".. فإن قلت : هذه الآيات دلّت على الزيادة فقط ، والمقصود بيان الزيادة والنقصان كليهما ، قلت : كل ما قبل الزيادة لا بد وأن يكون قابلًا للنقصان ضرورة " .

أما النقول عن أهل العلم في هذا فكثيرة .

قال الإمام أحمد – يرحمه الله – : " إن كان قبل زيادته – أي الإيمان – تامًا فكما يزيد كذا ينقص " .

وقال أبو محمد بن حزم في فِصَله : (فإذ قد وضح وجود الزيادة في الإيمان ... فبالضرورة ندري أن الزيادة تقتضي النقص ضرورة ولا بد ، لأن معنى الزيادة إنما هي عدد مضاف إلى عدد ، وإذا كان ذلك فذلك العدد المضاف إليه هو بيقين ناقص عند عدم الزيادة فيه .. " . الفصل (٣/ ٢٣٧) .

وقال ابن بطال في شرحه لبعض الآيات الدالة على زيادة الإيمان نصًا :

" فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص " .

وقال البيهقي بعد أن ذكر جملة من الآيات المصرحة بزيادة الإيمان :

" فثبت بهذه الآيات أن الإيمان قابل للزيادة ، وإذا كان قابلًا للزيادة فعدمت الزيادة كان عدمها نقصانًا " .

وقال : " وإذا قبل الزيادة قبل النقص " .

وقال أبو الفضل التميمي في رسالته التي أملاها في ذكر معتقد الإمام أحمد . وإن كان قد غلط في مواضع منها فيما نسبه للإمام . قال : " ... وما جاز عليه الزيادة جاز عليه النقص " .

وقال البغدادي بعد أن ذكر الآيات المصرحة بزيادة الإيمان : " .. ففي هذه الآيات الست تصريح بأن الإيمان يزيد ، وإذا صحت الزيادة فيه كان الذي زاد إيمانه قبل الازدياد أنقص إيمانًا منه في حال الازدياد " .

ومن علماء عصرنا يقول العلامة الشيخ محمد العثيمين – يرحمه الله – :

" وكل نص يدل على زيادة الإيمان فإنه يتضمن الدلالة على نقصه وبالعكس ، لأن الزيادة والنقص متلازمان لا يعقل أحدهما بدون الآخر " .

وبهذا يعلم أن كل دليل أورده هنا وهو نص في زيادة الإيمان ، يعد دليلًا على الزيادة والنقصان معًا لزومًا وكذا العكس وبالله التوفيق .

وفيما يلي أسوق بعض ما جاء في كتاب الله من أدلة على زيادة الإيمان ونقصانه مع بيانها ، وبيان وجه دلالتها على المقصود .

– آيات فيها التصريح بزيادة الإيمان :

جاء في كتاب الله في ستة مواضع منه ، التصريح بزيادة الإيمان ، وذلك في قوله : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (سورة آل عمران / ١٧٣) .

، وقوله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (سورة الأنفال / ٢) ، وقوله : (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (التوبة / ١٢٤) ، وقوله : (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) (الأحزاب / ٢٢) ، وقوله : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (سورة الفتح / ٤)

، وقوله : (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا) (المدثر / ٣١) .

فهذه ستة مواضع من كتاب الله عز وجل صرح فيها سبحانه بزيادة الإيمان ، وهذا من أوضح الأدلة وأظهرها على زيادة الإيمان ، بل لا أدل منه على ذلك .

وقد استدل بهذه الآيات على زيادة الإيمان ونقصانه علماء المسلمين من أهل السنة والجماعة .

قيل لسفيان بن عيينة الإيمان يزيد وينقص قال : أليس تقرأون : (فزادهم إيمانًا) (آل عمران / ١٧٣) ، (وزدناهم هدى) (الكهف / ١٣) في غير موضع ، قيل : فينقص ؟ قال : ليس شيء يزيد إلا وهو ينقص .

وعقد البخاري في صحيحه بابًا في زيادة الإيمان ونقصانه أورد فيه بعض هذه الآيات .

قال ابن بطال عند شرحها : " مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، والحجة على زيادته ونقصانه ما أورده البخاري من الآيات أي المصرحة بزيادة الإيمان ثم قال : فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص " .

وقال ابن كثير عند تفسير للآية الثانية من سورة الأنفال : ".. وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب كما هو مذهب جمهور الأمة ، بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري " .

وقال عند تفسيره لقوله تعالى : (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ...) (التوبة / ١٢٤) " وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء " .

وممن استدل بهذه الآيات من أهل العلم الآجري في الشريعة حيث عقد بابًا في ذكر ما دل على زيادة الإيمان ونقصانه أورد فيه جملة من الأحاديث والآثار الدالة على ذلك ثم قال :" كل هذه الآثار تدل على زيادة الإيمان ونقصه ، وسنذكر من القرآن ما يدل على ما قلنا، وهذا طريق من أراد الله الكريم به خيرًا ... فذكر جملة من هذه الآيات ثم قال : وهذا في القرآن كثير " .

وعقد اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة بابًا في سياق ما جاء في القرآن والسنة من أدلة على زيادة الإيمان ونقصانه أورد فيه جملة من هذه الآيات .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : " والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات ، كقوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) (الأنفال / ٢) ، وهذه زيادة إذا تُليت عليهم الآيات أي : وقت تُليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول ، وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن ، حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ ، ويحصل في قلبه من الركبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن ، فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته ، وهذه زيادة الإيمان ، وقال تعالى : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (آل عمران / ١٧٣) ، فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقينًا وتوكلاً على الله ، وثباتًا على الجهاد وتوحيدًا بألا يخافوا المخلوق ، بل يخافون الخالق وحده ، وقال تعالى : (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ) (سورة التوبة / ١٢٥– ١٢٦) ، وهذه الزيادة ليس مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم إيمانًا بحسب مقتضاها ، فإن كانت أمرًا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة ، وإن كانت نهيا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه ، ولهذا قال : (وهم يستبشرون) والاستبشار غير مجرد التصديق ... وقال تعالى : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) (سورة الفتح / ٤) ، وهذه نزلت لما رجع النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وأصحابه من الحديبية فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان ، والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه .. " (الإيمان ص ٢١٥ ، ٢١٦) . وقال ابن سعدى عند تفسيره لقوله تعالى : (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً) (مريم / ٧٦) ، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه كما قاله السلف الصالح ويدل عليه قوله تعالى : (وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا) (المدثر / ٣١) ،

(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) (الأنفال / ٢) ، ويدل عليه أيضًا الواقع فإن الإيمان قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح ، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت " .

وقال الألوسي عند تفسيره لقوله تعالى : (زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) ، " وهذا أحد أدلة من ذهب إلى أن الإيمان يزيد وينقص ، وهو مذهب الجم الغفير من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين وبه أقول ، لكثرة الظواهر الدالة على ذلك من الكتاب والسنة من غير معارض لها عقلاً ، بل قد احتج عليه بعضهم بالعقل أيضًا ، وذلك أنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة بل المنهمكين في الفسق والمعاصي مساويًا لإيمان الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام واللازم باطل فكذا الملزوم " . (روح المعاني (٩ / ١٦٥) .

إيمانا يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ ... وَنَقْصُهُ يَكُونُ بِالزَّلَّاتِ

الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَعَلَى ذَلِكَ تَرْجَمَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ فَقَالَ فِي جَامِعِهِ : كِتَابُ الْإِيمَانِ بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ " وَهُوَ قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) (الْفَتْحِ / ٤) (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) (الْكَهْفِ / ١٣) (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى) (مريم / ٧٦) وَقَالَ تَعَالَى : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) (مُحَمَّدٍ / ١٧) (وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا) (الْمُدَّثِّرِ / ٣١) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) (الْأَحْزَابِ / ٢٢) .

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : بَابٌ فِي اسْتِكْمَالِ الْإِيمَانِ وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ ، وَسَاقَ فِيهِ حَدِيثَ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ " وَحَدِيثَ " يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ " الخْ ، وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ ، وَالشَّاهِدُ مِنْهُ قَوْلُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذَوِي الْأَلْبَابِ وَذَوِي الرَّأْيِ مِنْكُنَّ " .

وَذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَابًا ، فَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَأَرْفَعُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " هَذَا لَفْظُ التِّرْمِذِيِّ ، وَقَالَ : حَسَنٌ صَحِيحٌ وَلَفْظُهُ " بِضْعٌ وَسِتُّونَ " وَلِمُسْلِمٍ رِوَايَةُ " بِضْعٌ وَسَبْعُونَ " لَكِنْ قَالَا : " شُعْبَةً " بَدَلَ " بَابًا " .

وَقَالَ النَّسَائِيُّ : بَابُ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ ، وَذَكَرَ فِيهِ حَدِيثَ الشَّفَاعَةِ وَدَلَالَتِهِ مَنْطُوقًا عَلَى تُفَاضِلِ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِيهِ ، وَأَمَّا الزِّيَادَةُ وَالنَّقْصُ فَدَلَالَتُهُ عَلَيْهَا مَفْهُومًا لَا مَنْطُوقًا ، وَمِثْلُهُ حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – " رَأَيْتُ النَّاسَ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدْيَ " الْحَدِيثَ . وَفِيهِ " وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ " قَالُوا : فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " الدِّينَ " ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ عُمَرَ فِي نُزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) (الْمَائِدَةِ / ٣) وَدَلَالَتَهَا عَلَى ذَلِكَ مَنْطُوقًا ، وَعَلَى ذَلِكَ تَرْجَمَ الْبُخَارِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَفيه : عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ اليهود نزلت لاتخدنا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا ، قَالَ : أَيُّ آيَةٍ . قَالَ : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) (الْمَائِدَةِ / ٣) قَالَ عُمَرُ : قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ . وَعَلَى ذَلِكَ تَرْجَمَ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ ، وَسَاقُوا فِي ذَلِكَ أَحَادِيثَ تَتَضَمَّنُهُ مَنْطُوقًا وَمَفْهُومًا ، قَالَ مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيْدِيِّ قَالَ : وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : قُلْتُ :

نَافَقَ حَنْظَلَةُ . قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ . مَا تَقُولُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ الصِّغَارَ فَنَسِينَا كَثِيرًا . قَالَ أَبُو بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا . فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " وَمَا ذَاكَ " قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ ؛ نَسِينَا كَثِيرًا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " والذي نفسي بيده أَنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ ، سَاعَةً وَسَاعَةً " ثَلَاثُ مَرَّاتٍ .

وعَنْ حَنْظَلَةَ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَوَعَظَنَا فَذَكَرَ النَّارَ . قَالَ : ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصِّبْيَانَ وَلَاعَبْتُ الْمَرْأَةَ . قَالَ : فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ . قَالَ : وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا تَذْكُرُ . فَلَقِينَا رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ نَافَقَ حَنْظَلَةُ . فَقَالَ : " مَهْ " فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ . فَقَالَ : " يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً سَاعَةً ، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطُّرُقِ " . وَمِنْ طَرِيقٍ ثَالِثٍ فَذَكَرْنَا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ الْحَدِيثَ . وَعَلَى هَذَا إِجْمَاعُ الْأَئِمَّةِ الْمُعْتَدِّ بِإِجْمَاعِهِمْ ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ ، وَإِذَا كَانَ يَنْقُصُ بِالْفَتْرَةِ عَنِ الذِّكْرِ فَلَأَنْ يَنْقُصَ بِفِعْلِ الْمَعَاصِي مِنْ بَابِ أَوْلَى كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيَانُهُ قَرِيبًا .

قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين في كتابه / شرح العقيدة السفارينية :

مذهب السلف يزيد وينقص ، وقال بعض العلماء من السلف : قل : يزيد ، ولا تقل : ينقص ،

وقالت المرجئة : لا يزيد ولا ينقص ، وقالت الخوارج والمعتزلة : لا يزيد ولا ينقص ، فالأقوال إذن أربعة :

١– أن تقول : يزيد وينقص .

٢– أن تقول : يزيد ولا ينقص ، يعني ولا تقل : ينقص وهذان لأهل السنة والجماعة .

٣– الثالث : لا يزيد ولا ينقص وهذا قول المرجئة .

٤– وقول الخوارج والمعتزلة أيضًا ، لأنهم يقولون : الإيمان إما أن يوجد كله وإما أن يعدم كله .

فلنبدأ أولًا بالعقيدة هل العقيدة تزيد وتنقص ؟

الجواب : نعم تزيد وتنقص بلا شك .

وذلك لأن الاعتقاد مبنيٌ على العلم والعلم مبني على طرق العلم وطرق العلم تختلف ، هذا دليل عقلي الاعتقاد يزيد وينقص لماذا ؟

لأن الاعتقاد مبنيٌ على العلم والعلم يزيد وينقص باعتبار طرقه فلزم من ذلك أن يزيد الاعتقاد أو ينقص ، هذا عقلا ، أما شرعًا : فقد دل الشرع على أن الاعتقاد يزيد وينقص ، (وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) (البقرة / ٢٦٠) ، فصار الاعتقاد يزيد وينقص لدليلين أحدهما أثري والثاني نظري وإن شئت قل أحدهما سمعي والثاني عقلي ، ونضرب مثلاً محسوسًا لهذا : إذا أخبرك رجلٌ ثقة لهذا اعتقدت مُخْبَرَه ، إذا جاءك آخر أخبرك بهذا الخبر زاد اعتقادك ، ثالث يزيد ، رابع يزيد ، شاهدت أنت بنفسك أنه يزيد أليس كذلك ؟

ولهذا قال المحدثون : إن المتواتر يفيد العلم اليقيني أو الضروري على خلافٍ في هذا ، صار الاعتقاد يزيد وينقص أو لا ؟

نعم يزيد وينقص حتى أنت بنفسك الآن أحيانًا يكون عندك صفاء ذهن وحضور نفس فتتعبد لله وكأنك تشاهد الجنة والنار أحيانًا تستولي عليك الغفلة ولا يحصل عندك هذا الاعتقاد ، ولهذا سئل النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قالوا : يا رسول الله إذا كنا عندك وذكرت الجنة والنار فكأنما نشاهدها رأي عين فإذا ذهبنا إلى أهلينا وعافسنا الأولاد والنساء يعني غفلنا فقال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (يا حنظلة ساعةً وساعة ، ساعةً وساعة) ، وهذا أمر مشاهد ، إذن الاعتقاد يزيد وينقص لأنه مبنيٌ على العلم والعلم يزيد وينقص بحسب الطرق الموصلة إليه ،

القول من الإيمان هل القول يزيد وينقص ؟

نعم الذي يذكر الله عشر مرات مثل الذي يذكر الله خمس مرات ؟ أيهما أَزْيَدْ ؟ العشر ، إذن القول يزيد وينقص إذا زاد القول زاد الإيمان ، وزيادة القول هل هي بالكمية أم بالكيفية ؟

تارةً يالكمية وتارةً بالكيفية وتارةً بهما ، إنسان يقول : (لا إله إلا الله) موقنًا بها قلبه تمامًا مُسْتَلْزِمًا لمقتضياتها هذا أَزْيَد ممن قالها مع الغَفْلَة والإنسان الذي قال – عشر مرات – : (لا إله إلا الله) أَزْيَد من الذي قال خمس مرات ، فزيادة القول تكون بالكمية والكيفية ، إذن إذا زاد القول وقلنا : أنه من الإيمان لَزِم زيادة الإيمان وإذا نقص القول نقص الإيمان ، ولذلك قال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – للنساء : (ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن) قالوا : يا رسول ما نقصان دينها ؟ قال : (أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟) ، والصيام والصلاة عمل فجعل النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نقصه من الحائض نقصًا في الدين ، إذن هنا نَقَصَ الإيمان بنقص العمل الذي يصلي أربع ركعات أكثر من الذي يصلي ركعتين فيكون إيمانه أَزْيَد ، فصار الآن زيادة الإيمان ثابتة شرعًا وحسًّا وإن شئت سمعًا وعقلاً ، قوله تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانًا فأما الذين ءَامنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون) (التوبة / ١٢٤) ، من أي أنواع الزيادة ؟ زيادة القول أو العمل أو الاعتقاد ؟

كلها يزدادون إيمانًا ويزدادون عملاً إذا الآية فيها أمرٌ بأعمال أو قولاً إذا كان فيها أمرٌ بأقوال .

– ما سبب زيادة الإيمان ؟

الآن تقرر عندنا أن الإيمان يزيد في الاعتقاد والقول والعمل ، فما سبب زيادة الإيمان ؟

يقول المؤلف : (يزيده التقوى) : وهذا أحد أسباب زيادة الإيمان التقوى تقوى الله عز وجل أي تقوى ما يغضبه .

والتقوى : هي (اتخاذ وقاية من عذابه سبحانه وتعالى بفعل الأوامر واجتناب النواهي) ، فكلما زاد الإنسان من فعل الطاعة زاد إيمانه وكلما تجنب النواهي مخلصًا لله زاد إيمانه ، إذن فعل الطاعة تقربًا إلى الله يزيد في الإيمان وترك المعصية تقربًا إلى الله يزيد الإيمان هذا سبب .

السبب الثاني : النظر في آيات الله فإن النظر في آيات الله الكونية أو الشرعية يزيد في الإيمان .

إيماننا قول وقصد وعمل ، تزيد بالتقوى وتنقص بالزلل ، الإيمان عند أهل السنة والجماعة ثلاثة أشياء مركبٌ من ثلاثة أشياء :

القول والقصد والعمل ، والقصد هنا بمعنى الاعتقاد وسبق لنا الخلاف في هذه المسألة بين أهل السنة وبين غيرهم ، قال : (تزيد بالتقوى وينقص بالزلل) : استفدنا من هذا الشطر أن الإيمان يزيد وينقص ، فهل هناك دليل على زيادته ونقصه ؟

نعم ، قال الله تبارك وتعالى : (ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم) (الفتح / ٤) .

وقال تعالى : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) (التوبة / ١٢٤) .

وقال تعالى : (ويزداد الذين آمنوا إيمانا) (المدثر / ٣١) .

وهذا نص في كتاب الله عز وجل ، والزيادة زيادة الإيمان تكون في القول وفي العمل وفي الاعتقاد وشرحناها ، وقلنا : إن الاعتقاد يختلف قوةً وضعفًا بحسب الوسائل الموصلة إليه وبَيَّنا وجه ذلك أن الاعتقاد مبنيٌ على العلم وأن العلم يختلف قوةً وضعفاً بحسب وسائله وطرقه ، كذلك بَيَّنا أنه الزيادة تكون في العمل كميةً وكيفيةً ونوعًا ، النوع الواجب أفضل من التطوع ، لقول الله تعالى في الحديث القدسي : (وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه) ، الصلاة أيضًا أفضل من الصدقة هذا بالجنس الأضحية في وقتها أفضل من الصدقة هذا في النوع ، في الكمية من صلى عشر ركعات فإيمانه أزيد ممن صلى ركعتين في الكيفية من صلى صلاةً يطمئن فيها بخشوع وتأنٍ وتدبر لما يقول ليس كمن صلى صلاةً على غير هذا الوجه .

– أسباب زيادة الإيمان : ذكرنا أن لها أسبابًا منها :

النظر في آيات الله الكونية والنظر في آيات الله الشرعية والطاعة ، الطاعة من أسباب زيادة الإيمان ، قال المؤلف :

(وينقص بالزلل) : يعني الإيمان ينقص بالزلل .

فإن قيل : ما الدليل على نقصه ؟

فالجواب على ذلك : أن الدليل قول النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في النساء : (ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين) ، قال : (عقل ودين) هذا دليل ، الدليل الثاني : دليل عقلي : وهو أنه إذا ثبتت الزيادة ثبت النقص لأنه لا تعقل زيادة إلا بوجود مزيد ومزيد عليه فإذا ثبتت الزيادة بالنص فقد ثبت النقص أيضًا أنه لا يُتصور زيادة إلا بنقص ، فمثلًا : قلنا : أن هذا الرجل زاد إيمانه معنى ذلك أنه قال ناقصًا ، فدليل النقص إذن مركبٌ من شيئين :

أولًا : النص على ذلك كما في قوله : (من ناقصات عقلٍ ودين) .

الثاني : اللزوم أو التلازم ، فإنه لا يمكن وجود زيادة إلا بوجود نقص ،

ثم اعلم أن النقص أعني نقص الإيمان على قسمين :

١– نقصٌ لا حيلة للإنسان ، كنقص دين المرأة بترك الصلاة في أيام الحيض فإن هذا لا اختيار لها فيه بل لو قالت : دعوني أصلي حتى لا ينقص إيماني قلنا هذا حرامٌ عليك لو صليت لزاد نقص الإيمان أكثر ، إذن هذا نقص لا حيلة للإنسان فيه فهل يُلام عليه ؟ الذي نقص دين أو لا ؟ لا يُلام عليه لأن هذا لا اختيار له فيه إطلاقًا فلا لوم عليه .

٢– الثاني : نقصٌ باختيار الإنسان ، فهذا ينقسم إلى قسمين من حيث اللوم :

أ – إن كان سببه المعصية أو ترك الواجب فإنه يُلام عليه ويأثم به .

ب – وإن كان نقصه بترك تطوع غير واجب فإنه لا يُلام عليه ، لا يُلام عليه لومًا يُؤَثم به .

وإن كان قد يُقال : يا فلان اجتهد في العمل الصالح ، ولهذا قيل لابن عمر في المنام : نعم الرجل لو كان يقوم من الليل وقال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لعبد الله بن عمرو بن العاص : يا عبدالله لا تكن مثل فلان كان يقوم من الليل فترك قيام الليل ، وهذا لا شك أنه نوع لوم لكنه لومٌ لا إثم به بخلاف من ترك الواجب أو فعل المحرم فإنه يُلام لومًا يأثم به ، إذن نقص الإيمان نقول : على قسمين :

القسم الأول : أن لا يكون للإنسان فيه اختيار فهذا لا لوم عليه فيه ، ومثاله : ترك المرأة الصلاة أيام الحيض ، ومثاله أيضًا : أن يموت الإنسان صغيرًا فإن إيمانه ينقص عمن عُمِّر لأن من عُمِّر زاد إيمانه وزادت أعماله فهذا النقص لا حيلة له ولا يُلام عليه إطلاقًا .

والقسم الثاني : ما كان للإنسان فيه اختيار فهذا إن كان واجبًا فهو مُلامٌ آثم وإن كان غير واجب فقد يُلام ولكنه لومٌ لا إثم فيه .

وقول المؤلف : (ينقص بالزلل) : الباء هنا للسببية والزلل مصدر زلَّ يزل زللًا وهو مثل الزَّلَق يعني الخروج عن الاعتدال هذا هو الزلل فإن خرج عن الإنسان عن واجبه نقص إيمانه .

س : (لأَخِيْهِ) هل المقصود الأخوة في النسب أم غيرها مع الدليل ؟

ج : (لأَخِيْهِ) : المقصود الأخوة في الإسلام ، الأخوة الإيمانية ، قال تعالى :
(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الحجرات / ١٠) .

س : فإن قال قائل : هذه المسألة قد تكون صعبة ، أي : أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، بمعنى : أن تحب لأخيك أن يكون عالمًا ، وأن يكون غنيًا ، وأن يكون ذا مال وبنين ، وأن يكون مستقيمًا ، فقد يصعب هذا ؟

ج : هذا لا يصعب إذا مرّنت نفسك عليه ، مرّن نفسك على هذا يسهل عليك ، أما أن تطيع نفسك في هواها فنعم سيكون هذا صعبًا .

الحديث الرابع عشر

عنِ ابْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ : الثَّيِّبُ الزَّانِيْ ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّارِكُ لِدِيْنِهِ المُفَارِقُ للجمَاعَةِ "
رواهُ البخاريُّ ومسلمُ [1] .

المعنى الإجمالي

يرشدنا النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أن دم المسلم لا يحل إلا بإحدى الخصال الثلاث المذكورة في الحديث ، وما في معناها ، فلا يجوز إراقة دم المسلم بغير هذه الثلاث ، وما يرجع إليها ويجري مجراها مما لم يُذْكر في الحديث نصًّا ، ومن ذلك : قَتْل اللوطي ومَنْ أتى ذات محرم ، فمرده إلى الخصلة الأولى ، كما يرجع قتل الساحر ونحوه إلى الخصلة الثالثة ، وهكذا .

توضيح الحديث

(المعنى)

" لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ : الثَّيِّبُ الزَّانِيْ ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّارِكُ لِدِيْنِهِ المُفَارِقُ للجمَاعَةِ "
(لا يَحِلُّ) : أي يحرم .
(لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ) : لا تجوز إراقة دمه . والمراد النهي عن قتله ولو لم يرق دمه .
(امرِئٍ مُسْلِمٍ) : التعبير بذلك لا يعني أن المرأة يحل دمها ، ولكن التعبير بالمذكر في القرآن والسنة أكثر من التعبير بالمؤنث ، لأن الرجال هم الذين تتوجه إليهم الخطابات وهم المعنيّون بأنفسهم وبالنساء .
(مُسْلِمٍ) : أي داخل في الإسلام .
(إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ) : يعني بواحدة من الثلاث خصال يجب على الإمام القتل بها لما فيه من المصلحة العامة ، وهي حفظ النفوس والأنساب والدين .

---

(١) ١– عَنْ عَبْدِ اللهِ قَال : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ " . (خ / ٦٨٧٨)
٢ – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ الثَّيِّبُ الزَّانِ وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ " . (م / ٤٤٦٨) .
٣ – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : " وَالَّذِى لا إِلَهَ غَيْرُهُ لا يَحِلُّ دَمُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا ثَلاثَةُ نَفَرٍ التَّارِكُ الإِسْلامَ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ أَوِ الْجَمَاعَةَ " – شَكَّ فِيهِ أَحْمَدُ – " وَالثَّيِّبُ الزَّانِى وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ " . (م / ٤٤٧٠) .
هذه الرواية أقرب لرواية مسلم / برقم (٤٤٦٨) إلا أنها تختلف في :
– زيادة جملة : " يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللَّهِ " بعد " لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ " .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٣١)

١- أن الإسلام أعظم ما يُعصم به الدم .

٢- احترام دماء المسلمين ، لقوله : " لا يَحِلُّ دَمُ امرِئٍ مُسلمٍ " وهذا أمر مجمع عليه دلَّ عليه الكتاب والسنة والإجماع .

٣- عصمة دم المسلم .

٤- أن غير المسلم يحلّ دمه ما لم يكن معَاهَدًا ، أو مستأمِنًا ، أو ذميًّا ، فإن كان كذلك فدمه معصوم .

والمعاهد : من كان بيننا وبينه عهد ، كما جرى بين النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وقريش في الحديبية .

والمستأمن : الذي قدم من دار حرب لكن دخل إلينا بأمان لبيع تجارته أو شراء أو عمل ، فهذا محترم معصوم حتى وإن كان من قوم أعداء ومحاربين لنا ، لأنه أعطي أمانًا خاصًا .

والذّمي : وهو الذي يسكن معنا ونحميه ونذبّ عنه ، وهذا هو الذي يُعطِي الجزية بدلاً عن حمايته وبقائه في بلادنا .

إذًا قوله : " لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ " يخرج بذلك غير المسلم فإن دمه حلال إلا هؤلاء الثلاثة .

٥- تحريم قتل المسلم وقتاله إلا بما يوجبه شرعًا .

٦- تحريم التسبب في قتله أو قتاله .

٧- دم المسلم لا يباح بالشبهات بل لابد من يقين كامل في الزنا وهو ثيب أو قتل نفسًا عمدًا من غير شبهة أو ترك دين الإسلام .

٨- الأصل في المجتمع المسلم ؛ الإسلام حتى يثبت خلاف ذلك .

٩- أن دم المسلم لا يباح إلا بإحدى ثلاثة أنواع : ترك دين الإسلام ، وقتل النفس بالشروط المتقدمة ، وانتهاك حرمة الفرج المحرم بالزنى بعد الوطء في نكاح صحيح .

(المعنى)

(الثَّيِّبُ الزَّانِي) : فالثيب الزاني يحلّ دمه ، والثيب هو : الذي جامع وهو حر مكلف في نكاح صحيح سواء أكان رجلًا أم امرأة ، والزنا شرعًا : وطئ الرجل المرأة الحية في قُبُلها من غير نكاح .

فإذا زنى بعد ذلك فإنه يرجم حتى يموت .

(المستفاد)

١٠- يدل الحديث على حفظ الأعراض ونقائها .

١١- أن حدَّ الزاني الثيب القتل ، وذلك برجمه بالحجارة بشروطه كما دلت على ذلك السنة المتواترة ، و صفة الرجم : أن يوقف ويرميه الناس بحجارة لا كبيرة ولا صغيرة ، لأن الكبيرة تقتله فورًا فيفوت المقصود من الرّجم ، والصغيرة يتعذّب بها قبل أن يموت ، بل تكون وسطًا ، فالثيب الزاني يرجم بالحجارة حتى يموت ، سواء أكان رجلًا أم امرأة .

١٢- قوله : " الثَّيِّبُ الزَّانِي " دليل على أن البكر ليس حدَّه الرجم ، فقد جاء النص أن حدَّه الجلد والتغريب .

(المعنى)

(وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ) : المقصود به القصاص ، أي أنه إذا قتل إنسانٌ إنسانًا عمدًا قُتِلَ به بالشروط المعروفة مثل المكافأة في الدين والحرية . فلا يقتل المسلم بالكافر ، ولا الحر بالعبد .

(المستفاد)

١٣- فيه الترهيب من قتل النفس التي حرم الله .

١٤- ثبوت القصاص على من قتل معصومًا عمدًا عدوانًا في الجملة بشروطه .

(المعنى)

(وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ) : يعني بذلك الخارج من الإسلام وهو المرتدّ بأي نوع من أنواع الرّدة .

(المُفَارِقُ للجَمَاعَةِ) : جماعة المسلمين هذا عطف بيان ، يعني أن التارك لدينه مفارق للجماعة خارج عنها .

(المستفاد)

١٥- الدين يأمر بالجماعة وينهى عن الفرقة ولذلك قال : " التارك لدينه المفارق للجماعة " فمن ترك دينه فقد فارق الجماعة لأن الدين هو الجماعة .

١٦- الحث على الالتزام بجماعة المسلمين وعدم مفارقتهم .

١٧- وجوب قتل المرتد عن دين الإسلام .

١٨- أن الإسلام يثبت حكمه بالشهادتين لقوله – كما في أصل الحديث – :
" مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله " .

١٩- حرص الإسلام على الأعراض والأرواح والدين ، وقتل كل من تعرض لها بالزنى والقتل والردة .

٢٠- أن أصول ما يحل به دم المسلم الخصال الثلاث .

٢١- تحريم هذه الأشياء الثلاثة ، وهي : الزنا – والقتل – والردة .

٢٢- أن قتل القاتل والزاني بعد إحصانه والمرتد فيه مصالح عامة ، من حفظ النفوس والأنساب والأديان .

٢٣- الحديث لم يدل على أن فعل هذه الأشياء بمجردها يبيح الدم لأي أحد أراد إقامة الحد عليه ، بل الحديث مقرر قاعدة في الدماء أما تطبيقها فلولي أمر المسلمين أو من يقوم مقامه ، بدليل سيرة الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – والسلف الصالح فلم يثبت أن أحدهم قتل زانيًا ثيبًا أو قاتلاً لنفس بل كان ذلك يرجع لولي الأمر ، وحتى لا تعم الفوضى في المجتمع الإسلامي .

٢٤- فيه بيان عظم هذه الذنوب على وجه الخصوص لأنها استثنيت من القاعدة وأبيح لأجلها الدم .

٢٥- الحدود في الإسلام رادعة ويقصد بها الوقاية والحماية .

٢٦- الحديث ينفي الأخذ بمجرد التهمة بل لابد من اليقين الثابت ووجود الشروط وانتفاء الموانع .

٢٧- الحديث ذكرت فيه ثلاث من الضروريات الخمس :

أ - حفظ الأعراض " الثيب الزاني " حيث شرعت هذه العقوبه حفظًا للأعراض .

ب - حفظ النفس " النفس بالنفس " حيث شرعت هذه العقوبة حفظًا للأنفس .

ج - حفظ الدين " التارك لدينه المفارق للجماعة " حيث شرعت هذه العقوبة حفظًا للدين .

٢٨- حسن تعليم النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حيث يرد كلامه أحيانًا بالتقسيم ، لأن التقسيم يحصر المسائل ويجمعها وهو أسرع حفظًا وأبطأ نسيانًا .

٢٩- تربية المجتمع على الخوف من الله تعالى ومراقبته في السر والعلن قبل تنفيذ الحدود .

٣٠- جواز وصف الشخص بما كان عليه أولا ، وانتقل عنه لاستثناء المرتد من المسلمين ، اعتبارًا لما كان عليه قبل مفارقة دينه .

٣١- إن الدين المعتبر هو ما عليه جماعة المسلمين فيجب التزامهم وعدم الشذوذ عنهم .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : إِذَا زِنَا الثَّيّب ، وَالْمُرَاد بِالثَّيِّبِ الْمُحْصَن وَهُوَ الْحُرّ الْمُكَلَّف الَّذِي أَصَابَ فِي نِكَاح صَحِيح ثُمَّ زَنَى فَإِنَّ لِلْإِمَامِ رَجْمه . قَالَ النَّوَوِيّ : فِيهِ إِثْبَات قَتْل الزَّانِي الْمُحْصَن ، وَالْمُرَاد رَجْمه بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوت وَهَذَا بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ فإن قال قائل : كيف تقتلونه على هذا الوجه ، لماذا لا يُقتل بالسيف وقد قال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " إِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ " ؟

ج : ليس المراد بإحسان القتلة سلوك الأسهل في القتل ، بل المراد بإحسان القتلة موافقة الشريعة ، كما قال الله عزّ وجل : (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا) (المائدة / ٥٠) فرجم الزاني من القتلة الحسنة ، لموافقة الشريعة .

س : ما الحكمة من كونه يقتل على هذا الوجه ؟

ج : أن شهوة الجماع لا تختص بعضو معين ، بل تشمل كل البدن ، فلما تلذذ بدن الزاني المحصن بهذه اللذة المحرّمة كان من المناسب أن يذوق البدن كلّه ألم هذه العقوبة التي هي الحدّ ، فالمناسبة إذًا ظاهرة .

س : بماذا يثبت الزّنا ؟

ج : يثبت الزنا بشهادة أربعة رجال مرضيين أنهم رأوا ذكر الزاني في فرج المزني بها ولابدّ ، والشهادة على هذا الوجه صعبة جدا ، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية - يرحمه الله - : إنه لم يثبت الزنا بالشهادة قطّ ، وهو في وقته .

والطريق الثاني لثبوت الزنا أن يُقرّ الزاني بأنه زنا .

س : هل يشترط تكرار الإقرار أربع مرات ، أو يكفي الإقرار مرة واحدة ، أو يفصل بين ما اشتهر وبين ما لم يشتهر ؟

ج : في هذا خلاف بين أهل العلم :

والأقرب أنه لا يشترط تكرار الإقرار ، إلا إذا كان هناك شبهة ، وإلا فأكبر بيّنة وأكبر دليل أن يقرّ الفاعل ، فكيف يقرّ وهو بالغ عاقل يدري ما يقول ثم نقول : لا حكم لهذا الإقرار ، فلو أقرّ ثلاث مرات لا نعتبره إقرارًا .

فالصواب : أن الإقرار مرة واحدة يكفي إلا مع وجود شبهة .

س : هل اللواط مثل الزنا ؟

ج : نعم مثل الزنا بل أخبث ، فاللواط لا يشترط أن يكون اللائط أو الملوط به ثيبًا ، وإنما يشترط أن يكونا بالغين عاقلين ، فإذا كانا بالغين عاقلين أقيم عليهما الحد .

والقول الصواب في هذا : إن الفاعل والمفعول به يجب قتلهما بكل حال ، لأن هذه الجرثومة في المجتمع إذا شاعت وانتشرت فسد المجتمع كله ، وكيف يمكن للإنسان المفعول به أن يقابل الناس وهو عندهم بمنزلة المرأة يُفعل به ، فهذا قتل للمعنويات والرجولة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله – أجمع الصحابة على قتل الفاعل والمفعول به ، وقد ورد فيه حديث

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُما – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ " (صحيح الترمذي / ١٤٥٦ ، صحيح ابن ماجة / ٣٥٦١) .

قال شيخ الإسلام : لكن الصحابة اختلفوا كيف يقتل الفاعل والمفعول به ؟

فقيل : يحرقان بالنار ، وروي هذا عن أبي بكر – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – وقال بعضهم : يرجمان كما يرجم الثيب الزاني

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – ؛ فِي الَّذِي يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ ، قَالَ : " ارْجُمُوا الأَعْلَى وَالأَسْفَلَ ، ارْجُمُوهُمَا جَمِيعًا " (صحيح ابن ماجة / ٢٠٧٦) .

وقال آخرون : يصعد بهما إلى أعلى شاهق في البلد ثم يرميان ويتبعان بالحجارة بناء على أن قوم لوط فعل الله تعالى بهم هكذا .

وأهم شيء عندنا أنه لابد من قتل الفاعل والمفعول به على كل حال إذا كانا بالغين عاقلين ، لأن هذا مرض فتّاك لا يمكن التحرّز منه ، فأنت مثلًا لو رأيت رجلًا مع امرأة واستنكرت ذلك فممكن أن تقول : من هذه المرأة ؟ لكن رجل مع رجل لا يمكن ، فكل الرجال يمشي بعضهم مع بعض . إذًا الثيب الزاني دمه حلال .

س : إذا كان الثيب الزاني دمه حلالًا فهل لكل واحد أن يقيم عليه الحد ؟

ج : لا ، ليس لأحد أن يقيم عليه الحد إلا الإمام أو من ينيبه الإمام ، لقول النبي – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – :

" اغْدُ يَا أُنَيْسُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا ، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا ، قَالَ : فَغَدَا عَلَيْهَا فَاعْتَرَفَتْ ، فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَرُجِمَتْ " (خ / ٢٧٢٥) ، ولو قلنا لكل إنسان أن يقتل هذا الزاني لأن دمه هدر لحصل من الفوضى والشر ما لا يعلمه إلا الله عزّ وجل .

الثاني ممن يباح دمه : " النَّفْسُ بالنَّفسِ " أي إذا قتل الإنسان شخصًا مكافئًا له في الدين والحرية والرّق قتل به .

وعلى قولنا : في الدين وهو أهم شيء لا يقتل المسلم بالكافر ، لأن المسلم أعلى من الكافر ، ويقتل الكافر بالمسلم لأنه دونه .

س : هل يشترط أن لا يكون القاتل من أصول المقتول ، أو لا يشترط ؟

ج : قال بعض أهل العلم إنه يشترط أن لا يكون القاتل من أصول المقتول والأصول هم : الأب والأم والجد والجدة وما أشبه ذلك ، وقالوا : لا يقتل والد بولده واستدلّوا بحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُما – عَنِ النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " لا تُقَامُ الحُدُودُ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَلا يُقْتَلُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ " (صحيح الترمذي / ١٤٠١ ، صحيح ابن ماجة / ٢٥٩٩ ، ٢٦٦١) وبتعليل قالوا : لأن الوالد هو الأصل في وجود الولد فلا يليق أن يكون الولد سببًا في إعدامه .

وجه ذلك : أن الوالد إذا قتل الولد ثم قتِلَ به فليس الولد هو السبب في إعدامه ، بل السبب في إعدامه فعل الوالد القاتل ، فهو الذي جنى على نفسه ، وهذا القول هو الراجح لقوة دليله بالعمومات التي ذكرناها ، ولأن هذا من أشدّ قطيعة الرحم ، فكيف نعامل هذا القاطع الظالم المعتدي بالرّفق واللين ، ونقول : لا قصاص عليه .

فالصواب : أن الوالد يقتل بولده سواء بالذكر كالأب ، أو الأنثى كالأم .

" التَّارِكُ لدينِهِ " أي المرتدّ " المُفارِقُ للجَمَاعَةِ " المراد بالجماعة أي جماعة المسلمين فالمرتد يقتل .

س : هل يستتاب قبل أن يقتل ؟

في ذلك خلاف بين العلماء :

والصحيح في الاستتابة : أنها ترجع إلى اجتهاد الحاكم ، فإن رأى من المصلحة استتابته استتابه ، وإلا فلا ، لعموم قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ " (خ / ٣٠١٧) ولأن الاستتابة وردت عن الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – .

وهذا يختلف فقد يكون هذا الرجل الكافر أعلن كفره واستهتر فلا ينبغي أن نستتيبه ، وقد يكون أخفى كفره وتاب إلى الله ورأينا منه محبة التوبة ، فلكل مقام مقال .

وقولنا : يستتاب من تقبل توبته إشارة إلى أن المرتدين قسمان :

قسم تقبل توبتهم ، وقسم لا تقبل .

قال أهل العلم : من عظمت ردته فإنه لا تقبل توبته بأن سب الله ، أو سب رسوله ، أو سب كتابه ، أو فعل أشياء منكرة عظيمة في الردة ، فإن توبته لا تقبل ، ومن ذلك المنافق فإنه لا تقبل توبته .

وقيل : إن توبته مقبولة ولو عظمت ردته ولو سب الله أو رسوله أو كتابه ولو نافق ، وهذا القول هو الراجح ، لكن يحتاج إلى تأنٍّ ونظر : هل هذا الرجل يبقى مستقيمًا أو لا ؟

فإذا علمنا من حاله أنه صادق التوبة قبلنا توبته لعموم قوله تعالى : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) (الزمر / ٥٣) ، وهذا القول هو الراجح وله أدلة .

أما المستهزئ فتقبل توبته بدليل قول الله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

(التوبة / ٦٥ – ٦٦) ولا عفو إلا بالتوبة .

وفي المنافقين قال الله تعالى : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)

(النساء / ١٤٥ – ١٤٦) .

فالصواب : أن كل كافر أصلي أو مرتدّ إذا تاب من أي نوع من الكفر فإن توبته مقبولة .

ولكن مثل هؤلاء يحتاجون إلى مراقبة أحوالهم : هل هم صادقون ، أو هم يستهزؤون بنا ؟ يقولون : إنهم رجعوا إلى الإسلام وهم لم يرجعوا .

وإذا تاب يرتفع عنه القتل ، لأن إباحة قتله إنما كانت لكفره ، فإذا قبلنا توبته ارتفع الكفر عنه فارتفع قتله إلا من سب الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فإن توبته تقبل لكن يجب أن يقتل ، ويقتل مسلمًا بحيث نغسله ونكفنه ونصلي عليه وندفنه مع المسلمين ، لكننا لا نبقيه حيًا . ومن سب الله عزّ وجل إذا تاب فإنه لا يقتل .

س : على ضوء هذا الكلام أيكون سب الله عزّ وجل دون سب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟

ج : لا والله لا يكون ، بل سب الله أعظم ، لكن الله تعالى قد أخبرنا أنه عافٍ عن حقه إذا تاب العبد ، فإذا تاب علمنا أن الله تاب عليه .

أما الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فإنه لم يقل : من سبّني أو استهزأ بي ثم تاب فأنا أسقط حقي ، وعلى هذا فنحن نقتله لأن سب الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حق آدمي لم نعلم أنه عفا عنه .

س : فإن قال قائل : إن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عفا عن أناس سبّوه في عهده وارتفع عنهم القتل ؟

ج : هذا لا يمنع ما قلنا به لأن الحق حقه ، وإذا عفا علمنا أنه أسقط حقه فسقط ، لكن بعد موته هل نعلم أنه أسقط حقه ؟

الجواب : لا نعلم ، ولا يمكن أن نقيس حال الموت على حال الحياة ، لأننا نعلم أن هذا القياس فاسد ، ولأننا نخشى أن يكثر سب الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لأن هيبة الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في حياته أعظم من هيبته بعد مماته . والله أعلم .

س : كيف قال : " وَالتَّارِكُ لِدِيْنِهِ المُفَارِقُ للجمَاعَةِ " وقد سماه في بداية الحديث مسلمًا فقال : " لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ " ؟ .

ج : قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : قيل : إنَّما استثناه من المسلمين باعتبار ما كان عليه قبْلَ مفارقة دينه ، وليس هذا كالثيبِ الزَّاني ، وقاتل النفس ؛ لأنَّ قتلَهُما وَجب عقوبةً لجريمتهما الماضية ، ولا يُمكن تلافي ذلك .

وأمَّا المرتدُّ ، فإنَّما قُتِلَ لوصفٍ قائمٍ به في الحال ، وهو تركُ دينه ومفارقةُ الجماعة ، فإذا عاد إلى دينِهِ ، وإلى موافقته الجماعة ، فالوصف الذي أُبيح به دمُه قدِ انتفى ، فتزولُ إباحةُ دمِهِ ، والله أعلم .

س : قوله : (والمُفَارِق لِدِينِهِ ، التَّارِكُ للجماعةِ) هل المُفَارَقَةُ للدِّينِ ، وتَرْكُ الجماعةِ أمران مختلفان ، أو معناهُما واحدٌ ؟

ج : قال محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري (المتوفى : ١٣٥٣هـ) في فيض الباري على صحيح البخاري :

هُمَا رَأْيَان ، فإِنْ كان الأولُ كان مِنْ مُوجِبَاتِ القَتْلِ أربعًا ، وإلا ثَلاثًا ، ثمَّ إنْ مُوجِبَاتِ القَتْلِ سِوَاها بعدَ تَنْقِيحِ المَنَاطِ ، راجعةٌ إلى هذه الأمورِ ، فهي أصولٌ ودَعَامَةٌ . وعن أحمد : يجوزُ قَتْل كُلِّ مُبْتَدعٍ .

وقال ابن دقيق العيد في إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام :

" المفارق للجماعة " كالتفسير لقوله : " التارك لدينه " والمراد بالجماعة جماعة المسلمين وإنما فراقهم بالردة عن الدين وهو سبب لإباحة دمه بالإجماع .

وقال العثيمين :

" المُفَارِقُ للجَمَاعَةِ " هذا عطف بيان ، يعني أن التارك لدينه مفارق للجماعة خارج عنها .

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الأربعين ١ / ١٢٩ :

" التارك لدينه " فُسِّرت بتفسيرين :

الأول : التارك لدينه يعني : المرتد الذي ترك دينه كله فارتد عن الدين ، فيباح دمه .

والتفسير الثاني : أن التارك للدين هو : من ترك بعض الدين ، مما فيه مفارقة للجماعة ، يعني: ترك بعض أمر الدين ، مما فيه المفارقة للجماعة ، قالوا : ولهذا عطف المفارق للجماعة على التارك لدينه فقال : والتارك لدينه المفارق للجماعة فجعل مفارقة الجماعة عطفًا لبيان ترك الدين ، فدل هذا على أن إباحة الدم في ترك الدين يكون بترك الجماعة ، وترك الجماعة يراد بها ترك الجماعة التي اجتمعت على الدين الحق بمفارقته للدين ، وتركه للدين بما يكفره .

والثاني : يعني : مفارق للجماعة ، جماعة الدين أو الاجتماع في الدين ، والثاني : أن المفارقة للجماعة يعني بالخروج على الإمام ، أو البغي ، فيكون المفارقة للجماعة المقصود بها الاجتماع بالأبدان .

وهنا تكلم العلماء في كثير من المسائل التي تدخل تحت ترك الدين ، فجعلوا باب الردة فيه ، أو باب حكم المرتد فيه مسائل كثيرة ، فيها يخرج المرء من الدين ، ويكون مرتدا بذلك ، فكل مسألة حكم العلماء فيها على أنها من أسباب الردة ، أو بها يرتد المسلم ، فإنه بعد اكتمال الشروط ، وانتفاء الموانع يحل دمه ، يعني : يحل دم المرتد ، وكذلك المفارق للجماعة بالأبدان يحل دمه لقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ " (م / ٤٩٠٤) .
فدل هذا على أن ترك الجماعة ، ومفارقة الجماعة يحصل بترك الدين ، بالردة عن الدين ، وبمفارقة الاجتماع على الإمام ، وهذا ظاهر بين في تعلية ترك الدين بمفارقة الجماعة ، ولهذا جعل أهل العلم في ترك الدين هذا كل المسائل التي يقتل بها .
إذا تقرر هذا فإن إحلال الدم هذا متوجه إلى الامام – إمام المسلمين – فإنه لا يجوز لأحد أن يستبيح دم أحد ؛ لأنه عنده قد أتى بشيء من هذه الثلاث . فإذا قال : أنا رأيت هذا يزني رأيته بعيني فاستبحت دمه لذلك فإنه يقتل ، ولا يجوز له ؛ لأن الله – جل وعلا – جعل ثبوت الزنا منوطًا بشهادة أربع .
ولو شهد ثلاثة من أعظم المسلمين صلاحًا على حصول الزنا ، وأنهم رأوا ذلك بأعينهم لَدُرِئَ الحدُّ ، ولأقيم على هؤلاء الصلحاء حد القذف ؛ لأنهم قذفوه ، ولم يكمل أربعة من الشهداء ، كما هو بين لكم في أوائل سورة النور .
كذلك من قال : هذا ارتد عن دينه فأنا أقيم عليه الحدّ وأقتله ، وأبيح دمه لأجل هذا الحديث فإن هذا افتئات وتعد ، ولا يباح له أن يفعل ذلك ، ودمه لا يحل لكل أحد .
فإذن قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ " إحلاله لولي الأمر أو لنوابه ممن جعل الله – جل وعلا – إليهم إنفاذ الحدود وقتل من يستحق القتل ، أما لو جعل هذا لكل أحد لصار في ذلك استباحة عظيمة للدماء ؛ إذ المختلفون كثيرًا ما يكفر أحدهم الآخر إذا لم يكونوا من أهل السنة والاعتدال ، فإذا قيل بظاهره – ولا قائل به – فإنه يعني أن من حكم على الآخر بأنه كافر فإنه ينفذ ذلك .
ثم ها هنا مسألة متعلقة بذلك : إذا كان في بلد لا يوجد إمام أو ولي أمر ينفذ الأحكام ، فهل للمسلم إذا ثبت عنده شيء من ذلك أن ينفذ الأحكام ؟ والجواب : لا ، كما هو قول عامة أهل العلم ، إذ يشترط لإنفاذ الأحكام التي فيها استباحة للدم أو المال أو الأعراض ، أو ما أشبه ذلك ، هذا إنما يكون للإمام ، فإذا لم يوجد لم يجز لأحد أن ينفذ هذا إلا في حالة واحدة وهي : أن يأتي أحد إلى من يرى فيه العلم أو الصلاح ويقول : أنا ارتكبت حَدًّا – فيما دون القتل – يعني ارتكبت زنا ، وكان غير محصن أو قال : شربت الخمر أو قذفت فلانًا فطهرني بالجلد يعني : بما دون القتل فهذا لا بأس به عند كثير من أهل العلم ؛ لأن إرادة التطهير له ، وإذا جلد فإن هذا له ، وليس فيه استباحة الدم .
أما استباحة الدم ، أو تطبيق الحدود في غير حال من يرضى بتطبيقها عليه فإنه لا يجوز بقول عامة أهل العلم ، فتلخَّص من هذا أن إقامة هذه الأشياء راجعة إلى الإمام ولي الأمر المسلم ، أو من ينيبه .
والثاني : أنه في بلد لا يوجد فيها من ينفذ أحكام الله – جل وعلا – فلا يجوز إنفاذ أحكام القتل ؛ لأن هذه معلقة بولي الأمر المسلم ، والنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في مكة ، والصحابة في بعض البلاد التي لا يقام لم يقيموا فيها ذلك ، وكذلك العلماء في بعض البلاد كما كان في الدولة العبيدية ، وأشباه ذلك فإن العلماء لم يقيموا الحدود بالقتل ، وأشباه ذلك .
الحالة الثالثة : فيما دون القتل ، يعني فيما فيه تطهير بجلد ونحوه :
إذا اختار المسلم عالما وقال : طهرني بالجلد من ذلك فإن ذلك جائز ؛ لأن هذا فيه حق له ، ويريد التطهير ولا يتعدى ضرره ، وهذا عند بعض أهل العلم .
وآخرون يشترطون في الجميع إذن الإمام ، أو وجود ولي الأمر المسلم .

الحديث الخامس عشر

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَو لِيَصْمُتْ ، وَمَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ " رواهُ البخاريُّ ومسلمُ (١) .

المعنى الإجمالي

– قال الإمام الشافعي – يرحمه الله – : " معنى الحديث : إذا أراد أن يتكلم فليفكِّر ، فإن ظهر أنه لا ضرر عليه تكلم ، وإن ظهر فيه ضررًا أو شك فيه أَمْسَكَ " .

– وقال القاضي عياض : " معنى الحديث أن من التزم شرائع الإسلام لزم إكرام الضيف والجار " .

– والحديث دليل على دخول الأعمال الحسية في الإيمان ،كما هو مذهب أهل السنة والجماعة .

– وفيه الترغيب في الأعمال الصالحة بربطها بأصلها : وهو الإيمان ، وبمحل الجزاء : وهو اليوم الآخر .

توضيح الحديث

(المعنى)

" مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَو لِيَصْمُتْ "

(مَنْ كَانَ يُؤمِنُ) : هذه جملة شرطية ، جوابها : (فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَو لِيَصْمُتْ) ، والمقصود بهذه الصيغة الحث والإغراء على قول الخير أو السكوت كأنه قال : إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فقل الخير أو اسكت .

(يُؤمِنُ) : الإيمان الكامل المنجي من عذاب الله الموصل إلى رضاه .

(وَاليَوْمِ الآخِرِ) : أنه سيجازى فيه بعمله . اليوم الآخر: هو يوم القيامة ، سُمِّي بذلك ؛ لتأخره عن الدنيا ، أو لأنه لا ليل بعده .

(فَلْيَقُلْ خَيرًا) : اللام للأمر ، خيرًا : أي : كلامًا يُثابُ عليه ، أو كلامًا لا يُلام عليه .

والخير نوعان : خير في المقال نفسه ، وخير في المراد به .

أما الخير في المقال : فأن يذكر الله عزّ وجل ويسبّح ويحمد ويقرأ القرآن ويُعلِّم العِلْم والإبلاغ عن الله وعن رسوله ، وتعليم الخير والأمر بالمعروف عن علم وحلم ، والنهي عن المنكر عن علم ورفق ، والإصلاح بين الناس ، والقول الحسن لهم ، وكلمة حق عند من يخاف شره ويرجى خيره ، في ثبات وحسن قصد ، فهذا خير بنفسه .

وأما الخير لغيره : فأن يقول قولاً ليس خيرًا في نفسه ولكن من أجل إدخال السرور على جلسائه ، فإن هذا خير لما يترتب عليه من الأنس وإزالة الوحشة وحصول الإلفة .

(أو لِيَصْمُتْ) : بضم الميم وكسرها ، أي يسكت . والصمت : السكوت عن الكلام ، وهو شاملٌ للصمت عن الكلام المحرم والمكروه ، ونحوها .

---

(١) (هذه رواية مسلم برقم / ٧٤) ، وتختلف عن رواية البخاري في الترتيب وبعض الألفاظ .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٣٣)

١- مِن كمال الإيمان قول الخير والصمت عما سواه .

٢- حرص الإسلام على أن يتكلم المسلم بما ينفع وأن يمسك عن الكلام المحرم في أي حال .

٣- مِن علامات الإيمان بالله واليوم الآخر أن يقول خيرًا أو ليسكت .

٤- أن من محاسن الإسلام رعاية الحقوق التي بين الناس والحث على حفظ اللسان بكفه عمّا لا خير فيه والترغيب في الكلام الطيب .

٥- الشريعة تحرص على كل ما فيه فائدة حتى الكلام أو السكوت .

٦- وجوب السكوت إلا في الخير ، لقوله : " مَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فَليَقُلْ خَيرًا أو لِيَصمُتْ " هذا ظاهر الحديث ، ولكن ظاهر أحوال الناس أن ذلك ليس بواجب ، وأن المقال ثلاثة أقسام : خير ، وشر ، ولغو .
فالخير : هو المطلوب . والشر : محرم ، أي أن يقول الإنسان قولاً شرًا سواء أكان القول شرًا في نفسه أم شرًا فيما يترتب عليه . واللغو : ما ليس فيه خير ولا شرّ فلا يحرم أن يقول الإنسان اللغو ، ولكن الأفضل أن يسكت عنه .

٧- التحذير من آفات اللسان ، وأن على المرء أن يتفكر فيما يريد أن يتكلم به ، فإذا ظهر له أنه لا ضرر عليه في التكلم به تكلم به ، وإن ظهر له فيه ضرر أو شك فيه أمسك ، وقد ندب الشارع إلى الإمساك عن كثير من المباحات ، لئلا تجر صاحبها إلى المحرمات والمكروهات .

٨- الحث على حفظ اللسان لقوله : " مَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيراً أَوْ لِيَصْمُتْ "

٩- أن التكلم بالخير خير من الصمت عما لا خير فيه ، وأن الصمت عمّا لا خير فيه خير من التكلم به ، ففيه دليل للقائلين بأن فعل الطاعة أفضل من ترك المعصية في الجملة .

١٠- قول الخير أفضل من الصمت عن الشر لأن قول الخير يتعدى بنفسه ، بخلاف الصمت لا يتعدى ، ولهذا والله أعلم بدأ فيه فقال : " فليقل خيرًا أو ليصمت " .

١١- فيه دليل للقائلين بوجوب حفظ اللسان ليس عن الحرام فقط بل عن كل ما لا فائدة من ورائه .

١٢- الخوض في الكلام سبب الهلاك وصون اللسان طريق النجاة .

١٣- عدم الإكثار من الكلام المباح لأنه قد يجر إلي المحرم أو المكروه .

١٤- وجوب الكلام عند الحاجة إليه وخاصة لبيان الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(المعنى)

" وَمَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ "
(فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ) : وإكرام الجار يكون : بالإحسان إليه وكف الأذى عنه ، وتحمل ما يصدر منه ، والبشر في وجهه ، وغير ذلك من وجوه الإكرام . و(جَارَهُ) : أي جاره في البيت ، والظاهر أنه يشمل حتى جاره في المتجر كجارك في الدكان مثلًا ، لكن هو في الأول أظهر أي الجار في البيت ، وكلما قرب الجار منك كان حقه أعظم .
والمراد : إيصال الخير للجار ، ومنع الأذى عنه بكل سبيل .

(المستفاد)

١٥- من كمال الإيمان إكرام الجار والعناية به وعدم إيذائه .

١٦- تعريف حق الجار ، والحث على حفظ جواره وإكرامه .

١٧- وجوب إكرام الجار لقوله : " مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكرِمْ جَارَهُ " وهذا الإكرام مطلق يرجع فيه إلى العرف .

١٨- أن حق الجوار لكل جار ، مُسلمًا كان أم كافرًا ، لإطلاق الحديث .

(المعنى)

" ومَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ "

(فَلْيُكرِمْ ضَيْفَهُ) : وإكرام الضيف يكون : بالبشر في وجهه ، وطيب الحديث معه ، وإحضار المتيسر ، ويقدِّم له القِرى ، ويحسن إليه .

(ضَيْفَهُ) : الضيف هو النازل بك ، كرجل مسافر نزل بك ، فهذا ضيف يجب إكرامه بما يُعَدّ إكرامًا .

ويقال للواحد وللجمع ضيف ويجمع على أضياف وضيوف وضيفان ، ويقال للمرأة ضيف وضيفة ، وإكرام الضيف حُسْن ضيافته ، وإعانته على حاجته .

(المستفاد)

١٩- أن إكرام الضيف من صفات المؤمنين .

٢٠- إكرام الضيف من مكارم الأخلاق والالتزام بشرائع الإسلام .

٢١- وجوب إكرام الضيف بما يعد إكرامًا ، وذلك بأن تتلقاه ببشر وسرور .

٢٢- الأمر بإكرام الضيف ، وهو من آداب الإسلام وخلق النبيين .

٢٣- أن الإيمان بالله واليوم الآخر أصل لكل خير .

٢٤- أن هذه الخصال الثلاث من الإيمان .

٢٥- دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في أن الأعمال من الإيمان ولذلك ربط بين الأعمال مع الإيمان بالله واليوم الآخر .

٢٦- أن هذه الخصال من شعب الإيمان ، وفي ذلك دليل على دخول الأعمال في الإيمان . والخصال المذكورة في الحديث ترجع إلى التخلي عن الرذيلة ، والتحلي بالفضيلة .

٢٧- الإسلام يدعو إلى كل ما يشيع المحبة والألفة بين أفراد المجتمع الإسلامي .

٢٨- الحث على حسن معاشرة الآخرين .

٢٩- الإسلام يربي أهله على إعطاء الحقوق وعلى تنوعها ، والحديث يشمل حقوق الله وحقوق الناس : فالكلام بالخير والصمت عن غيره من حقوق الله ، وإكرام الضيف والجار من حقوق الناس .

٣٠- الإسلام يحارب البخل ولذلك كررت كلمة " فليكرم " مرتين في الحديث لأن البخل يجمع الصفات العديدة كحب الدنيا وسوء الظن بالله والشحّ .

٣١- الإسلام يقوي الروابط بين أهله وأتباعه ، فرابطة أخوة الإسلام ثم القرابة والنسب ثم الجار ثم الضيافة .
وهذا ليصبح المجتمع الإسلامي ، مجتمعًا قويًا من الداخل يصعب اختراق صفوفه وشق عصاهم ، فتندحر فتنة الشيطان بالتفريق بينهم وفتنة الأعداء في الوصول لهم .
٣٢- الإسلام يربط همة أتباعه بالجائزة العظمى وهي تحقق الإيمان ، فلم تكن الجائزة لمن قال خيرًا أو أكرم جاره وضيفه ، جائزة دنيوية لأن همة المؤمن أعلى من ذلك بل الجائزة هي " الإيمان بالله واليوم الآخر " .
٣٣- في تعليق الناس بالإيمان بالله واليوم الآخر تأصيل لمنزلة مراقبة الله في قلوبهم .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : هل الذي لم يَقُلْ خَيْرًا ، أو الذي لم يُكْرِمْ جارَهُ ، أو الذي لم يُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، غير مؤمن بالله واليوم الآخر ؟

ج : قال ابن حجر في الفتح :
المراد بقوله : " مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ " : الإيمان الكامل وخصه بالله واليوم الآخر إشارة إلى المبدأ والمعاد أي من آمن بالله الذي خلقه وآمن بأنه سيجازيه بعمله فليفعل الخصال المذكورات . ا هـ .
يعنى من كان يؤمن بالله واليوم الآخر الإيمان التام فإنه ستبعثه قوة إيمانه على محاسبة نفسه فى الدنيا .
قال القرطبيُّ في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم :
مَنْ كان يؤمنُ بالله الإيمانَ الكامل ، المُنْجِيَ مِنْ عذاب الله ، المُوصِلَ إلى رضوان الله ؛ لأنَّ مَنْ آمَنَ بالله تعالى حَقَّ إيمانه ، خاف وعيدَه رجاءَ ثوابَه ، ومَنْ آمنَ باليومِ الآخر ، استعدَّ له ، واجتهَدَ في فعل ما يدفَعُ به أهوالَهُ ومكارهه ، فيأتمرُ بما أُمِرَ به ، وينتهي عما نُهِيَ عنه ، ويتقرَّبُ إلى الله تعالى بفعلِ ما يقرّبُ إليه . اهـ .

س : لماذا خص الإيمان باليوم الآخر دون بقية أركان الإيمان ؟

ج : ذكر اليوم الآخر من أجل الترغيب ومن أجل تحصيل الثواب ، ويذكر في الترهيب من أجل الحذر من العقاب . الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ يُؤْمِنُ ، الْإِيمَانَ الْكَامِلَ ، وَخَصَّهُ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إِشَارَةً إِلَى الْمَبْدَإِ وَالْمَعَادِ أَيْ مَنْ آمَنَ بِاَللَّهِ الَّذِي خَلَقَهُ وَآمَنَ بِأَنَّهُ سَيُجَازِيهِ بِعَمَلِهِ .

س : إذا كان البيت ضيقًا ولا مكان لهذا الضيف فيه ولست ذا غنى كبير بحيث تعد بيتًا للضيوف ، فهل يكفي أن تقول للضيف : يا فلان بيتي ضيق والعائلة ربما إذا دخلت أقلقوك ، ولكن خذ مثلاً مائة ريال أو مائتين – حسب الحال – تبيت بها في الفندق فهل يكفي هذا أو لا يكفي ؟

ج : للضرورة يكفي ، وإلا فلا شك أنك إذا أدخلته البيت ورحبت به وانطلق وجهك معه أنه أبلغ في الإكرام ، ولكن إذا دعت الضرورة إلى مثل ما ذكرت فلا بأس ، فهذا نوع من الإكرام ، والله أعلم .

الحديث السادس عشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : أَوصِنِيْ ، قَال :
" لا تَغْضَبْ " رواهُ البخاريُّ [1] .

المعنى الإجمالي

هذا الحديث العظيم الذي جمع أبواب الخير وخصاله يُبيّن لنا حرص أصحاب نبينا محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على طلب الوصية منه عليه الصلاة والسلام وسؤالهم له عن أفضل الأعمال وأنفع الخصال ، وكيفية تحصيل رضا الله وجنة الخلد من أقرب طريق ومن أسهل باب .

وكان نبينا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بصيرًا بأدواء القلوب ودوائها ، عالمًا بأحوال السائلين وما يناسبهم ، فأعطى كل أحد ما يناسبه من نافع الدواء وناجح العلاج .

وفي وصيته : " لا تَغْضَبْ " دفع لأكثر شرور الإنسان ؛ لأن الشخص في حياته بين لذَّةٍ وألم ، فاللذة سببها ثوران الشهوات أكلًا وشربًا وجماعًا ونحو ذلك ، و الألم سببه ثوران الغضب ، فإذا اجتنبه اندفع عنه نصف الشر ، بل أكثره ، ولهذا لما تجرَّدت الملائكة عن الغضب والشهوة سلموا من جميع الشرور البشرية .

توضيح الحديث

(المعنى)

(أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : أَوصِنِيْ)

(أَوصِنِيْ) : دلني على عمل ينفعني أو أي اعهد لي بوصية جامعة لخصال الخير . والوصية : هي العهد إلى الشخص بأمر مهم ، كما يوصي الرجل مثلًا على ثلثه أو على ولده الصغير أو ما أشبه ذلك .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٢٥)

١- على الإنسان أن يطلب الوصية ممن يكون أهلًا لها ، ولذلك طلب الرجل الوصية من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

٢- جواز طلب الوصية من العالم .

٣- حرص الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – على ما ينفع ، لقوله : " أَوصِنِيْ " ، والصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – إذا علموا الحق لا يقتصرون على مجرّد العلم ، بل يعملون .

٤- حرص المسلم على النصيحة وتعرف وجوه الخير والاستزادة من العلم النافع والموعظة الحسنة .

---

(١) رواه البخاري برقم / ٦١١٦ إلا أنه زاد جملة : فَرَدَّدَ مِرَارًا ، قَالَ : " لا تَغْضَبْ " .

(المعنى)

(لا تَغْضَبْ) : لا تتعرض لما يجلب الغضب ، ولا تفعل ما يأمرك به ، واجتنب الغضب . والغضب : هو ثوران في النفس يحملها على الرغبة في البطش والانتقام .

(فَرَدَّدَ) : أي كرر ذلك الرجل قوله : (أوصني) ، يلتمس أنفع من ذلك ، أو أبلغ أو أعم .

(مِرَارًا) : أَيْ قَالَ : أَوْصِنِي ، قَالَها عدة مرات .

(المستفاد)

٥- أن المخاطب يخاطب بما تقتضيه حاله ومعالجة كل ذي مرض بما يناسب مرضه . وهذه قاعدة مهمة .

٦- النهي عن الغضب ، لقوله : " لا تَغْضَبْ " لأن الغضب يحصل فيه مفاسد عظيمة إذا نفذ الإنسان مقتضاه .

٧- مراعاة الموصي حال الموصَى في وصيته .

٨- التحذير من الغضب فإنه جماع الشر ، و التحرز منه جماع الخير ، وفي هذه الوصية من استجلاب المصلحة ، ودرء المفسدة ما يتعذر إحصاؤه .

٩- ينبغي للمسلم أن يتخلص من الأخلاق الذميمة التي تسبب الغضب مثل : الكبر ، والتفاخر ، والجدال ، والحرص على فضول المال والجاه .

١٠- الغضب لا يكون لفوات شهوة أو لحظ نفسه ، وإنما يكون دفعًا للأذى في الدين وانتقامًا ممن عصى الله .

١١- قال الشيخ السعدي - يرحمه الله - : قوله : " لا تغضب " يتضمن أمرين :

أحدهما : الأمر بفعل الأسباب والتمرن على حسن الخلق والحلم والصبر .

الثاني : الأمر - بعد الغضب - أن لا ينفذ غضبه ، فإن الغضب غالبًا لا يتمكن الإنسان من دفعه ورده ، ولكنه يتمكن من عدم تنفيذه .

١٢- أن الغضب مفتاح لكثير من الشرور القولية والفعلية ، وأعلاها الكفر والقتل .

١٣- تأكيد النهي عن الغضب ولا يدخل في ذلك الغضب لله إذا انتهكت حرماته . فالغضب مراتب فأفضله الغضب لله وأسوأه السخط على قضاء الله ، فالأول من كمال الإيمان والثاني من الجهل بالله وسوء الظن به .

١٤- صيغة ترديد السؤال وترديد الجواب تدل على خطورة الغضب .

١٥- أن النهي عن الشيء نهي عن أسبابه ، وأمر بما يعين على تركه .

١٦- جواز الاستزادة من الوصية .

١٧- يدل الحديث على أن الغضب يمكن التخلص منه ولو كان من صفات الشخص الذاتية ، فلو لم يمكن التخلص منه لم ينه النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عنه .

١٨- حسن تعليمه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

١٩- ينبغي في حال النصيحة اختيار الكلمات المختصرة التي تناسب الحال ، لأن ذلك أنفع ، كما فعل النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مع الرجل .

٢٠- لفظ الحديث أطلق ولم يقيد " لا تغضب " ولم يذكر الأشياء التي لا يغضب فيها ، والذي يظهر أن هذا الإطلاق مقصود وذلك حتى يشمل جميع أمور الحياة فلا يغضب من زوجته ولا أولاده ولاتعامله ولا جيرانه ولاتجارته ولا غير ذلك .

٢١- يدل الحديث على أن الغضب لا يحل المشاكل ولا ييسر الأمور بل يزيد تعقيدها ، ولو كان الغضب حَلًّا لأوصى به النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

٢٢- الأمر بالأخلاق التي إذا تخلق بها المرء وصارت له عادة دفعت عنه الغضب عند حصول أسبابه ، كالكرم والسخاء ، والحلم والحياء ، والتواضع والاحتمال ، وكف الأذى ، والصفح والعفو ، وكظم الغيظ والشر ، ونحو ذلك من الأخلاق الجميلة .

٢٣- أن الدين الإسلامي ينهى عن مساوئ الأخلاق لقوله : " لا تَغضبْ " والنهي عن مساوئ الأخلاق يستلزم الأمر بمحاسن الأخلاق .

٢٤- الشريعة تدعو لأن يتحكم الشخص بعاطفته فيجعلها تحت سلطان الشرع وحتى في حال الغضب الذي قد لا يملك الإنسان نفسه .

٢٥- تكرار الكلام حتي يعيه السامع ويدرك أهميته .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : هل مراد الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من قوله : " لا تَغْضَبْ " أي لا يقع منك الغضب ، أو المعنى : لا تنفذ الغضب ؟

ج : لننظر : أما الأول فإن ضبطه صعب ، لأن الناس يختلفون في هذا اختلافًا كبيرًا ، لكن لا مانع أن نقول : أراد قوله : " لا تَغْضَبْ " أي الغضب الطبيعي ، بمعنى أن توطن نفسك وتبرّد الأمر على نفسك .

وأما المعنى الثاني : وهو أن لا تنفذ مقتضى الغضب فهذا حق ، فينهى عنه ، فلو غضب الإنسان وأراد أن يطلّق امرأته ، فنقول له : اصبر وتأنَّ .

س : كلمة " لا تَغْضَبْ " هل هي نهي عن الغضب الذي هو طبيعي أو هي نهي لما يقتضيه الغضب ؟

ج : إن نظرنا إلى ظاهر اللفظ قلنا : " لا تَغْضَبْ " أي الغضب الطبيعي ، لكن هذا فيه صعوبة ، وله وجه يمكن أن يحمل عليه بأن يقال : اضبط نفسك عند وجود السبب حتى لا تغضب .

س : لماذا لم يوصه بتقوى الله عزّ وجل ،كما قال الله عزّ وجل : (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ) (النساء / ١٣١) .

ج : أن كل إنسان يخاطب بما تقتضيه حاله ، فكأن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عرف من هذا الرجل أنه غضوب فأوصاه بذلك .

فهذه القاعدة التي ذكرناها يدل عليها جواب النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، أي أن يوصى الإنسان بما تقتضيه حاله لا بأعلى ما يوصى به ، لأن أعلى ما يوصى به غير هذا .

س : إذا وجد سبب الغضب ، وغضبَ الإنسان فماذا يصنع ؟

ج : هناك دواء – والحمد لله – لفظي وفعلي .

أما الدواء اللفظي : إذا أحس بالغضب فليقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وأما الدواء الفعلي : إذا كان قائمًا فليجلس ، وإذا كان جالسًا فليضطّجع ، لأن تغير حاله الظاهر يوجب تغير حاله الباطن ، فإن لم يفد فليتوضّأ، لأن اشتغاله بالوضوء ينسيه الغضب ، ولأن الوضوء يطفئ حرارة الغضب .

س : هل يُقتصر على هذا ؟

ج : لا يلزم الاقتصار على هذا ، قد نقول إذا غضبت فغادر المكان ، وكثير من الناس يفعل هذا ، أي إذا غضب خرج من البيت حتى لا يحدث ما يكره فيما بعد .

الحديث السابع عشر

عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ – عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :
" إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ . فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيْحَتَهُ " . رواهُ مسلمُ (١) .

المعنى الإجمالي

هذا حديث الإحسان والرحمة ، ومن تدبَّر معنى الإحسان في الحديث وجد أنه مَعْلَم بارز من معالم شمولية هذا الدين شئونَ المسلم ، فالإحسان اسمٌ جامع لجميع أبواب الخير والفضائل ، وهو مطلقٌ في الأعمال والأقوال ، بل والنوايا و المقاصد . فالمسلم مطالب بإحسان نيته وسريرته ، ومطالب بإحسان عبادته وطاعته ، و مطالب بإحسان عمله وصنعته ، ومطالب بالإحسان إلى الناس والحيوان بل والجماد أيضًا .

يُحْسِنُ حين يرضى ، ويحسن حين يغضب ، ويحسن حين يزهق روح غيره – بحق – من إنسان أو حيوان !! يحسن حتى لو كان العمل في ظاهره أبعد ما يكون عن الإحسان .

ولا شك أن ذابح الحيوان سيؤلمه بالذبح ، ولا بد من ذبحه للانتفاع به ، إذًا فالمقصود من ذلك هو تربية الرحمة والرأفة والشفقة والرفق في نفس المؤمن حتى لا يغفل عن تلك المعاني ولو كان ذابحًا أو قاتلًا بحقٍّ ، ولهذا أثره العظيم في بناء الشخصية المسلمة ، وهو تنبيه على أن الإحسان إذا طُلِبَ في القتل والذبح فطلبه في غيرهما من الأعمال آكد وأشد .

والإحسان بعد ذلك كله من مراتب الدين العظمى ، ومن درجاته الكبرى .

فأهلُه أهلُ محبة الله : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران / ١٤٨) .

وأهله أهل مَعِية الله : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) (النحل / ١٢٨) .

وأهله لا يُضيع الله سعيهم ولا ينقص أجرهم ، قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) (الكهف / ٣٠) .

---

(١) (رواية مسلم برقم / ٥١٦٧) : وهذا نصها : – " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ " . ونلحظ الآتي :

١ –كلمة : (الذَّبْحَ) بدلًا من (الذِّبْحَةَ) في جملة : (فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ) .

٢ –كلمة : (فَلْيُرِحْ) بدلًا من (وَلْيُرِحْ) في جملة : (فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ) .

٣ –كلمة : (الذِّبْحَةَ) موجودة في (الترمذي / ١٤٠٩) ، (النسائي / ٤٤٠٥) . وهي صحيحة .

توضيح الحديث

(المعنى)

" إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ "

(كَتَبَ) : أَوْجَبَ وفرض وطلب طلبًا محتمًا .

(الإِحْسَانَ) : مصدر (أحسن) إذا أتى بالشيء حسنًا ، وهو ما حسنه الشرع ، والمراد تحسين الأعمال المشروعة بإيقاعها على الوجه المرضي عنه على سُنَّة صاحب الشريعة ، وهذا يشمل الرفق والإنعام على الغير وعلى النفس .

(عَلَى كُلِّ شَيءٍ) : على هنا بمعنى (إلى) أو (في) أي في كل شيء تعملونه .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ١٥)

١- إضافة الكتابة إلى الله .

٢- رأفة الله عزّ وجل بالعباد ، وأنه كتب الإحسان على كل شيء وهذا يورث محبته سبحانه .

٣- أن الله عزّ وجل له الأمر وإليه الحكم ، لقوله : " إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ " وكتابة الله تعالى نوعان : كتابة قدرية ، وكتابة شرعية .

الكتابة القدرية لابد أن تقع ، والكتابة الشرعية قد تقع من بني آدم وقد لا تقع .

مثال الأول : قول الله تعالى : (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

(الأنبياء / ١٠٥) فهذه كتابة قدرية .

ومثال الثاني : قوله تعالى : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ) (البقرة / ٢١٦) أي كتب كتابة شرعية .

أن الإحسان شامل في كل شيء ، كل شيء يمكن فيه الإحسان لقوله : " إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحسَانَ عَلَى كِلِّ شَيء "

من الإحسان إلى البهائم الرفق بها ، وألا تحمل فوق طاقتها ، ولا يعذبها أثناء ذبحها .

٤- كمال هذه الشريعة وسماحتها ويسرها واشتمالها على كل خير ، وأنها تطلب الإحسان إلى كل مخلوق ومنها الحيوان .

٥- الحث على الإحسان و الأمر به في كل شيء ، لأن الله تعالى كتب ذلك أي شرعه شرعًا مؤكدًا .

٦- إذا أراد الإنسان أن يؤدب أهله ، أو ولده فليؤدب بإحسان .

(المعنى)

(فَإِذَا قَتَلْتُمْ) : أي أردتم قتل من يجوز قتله أي بحقٍّ ، إما قصاصًا أو حدًّا أو تعزيرًا ، فهو مثل قوله تعالى :

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) (النحل / ٩٨) .

(فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ) : بأن تختاروا أسهل الطرق وأخفها وأسرعها زهوقًا .

(القِتْلَةَ) : القتلة بكسر القاف الهيئة والحالة التي يتم فيها القتل ، وإحسانها : اختيار أسهل الطرق وأخفها إيلامًا .

(المستفاد)

٧- أنك إذا قتلت شيئًا يباح قتله فأحسن القتلة .

٨- وجوب إحسان القِتلة ، لأن هذا وصف للهيئة لا للفعل ، وإحسان القتلة على القول الراجح هو اتباع الشرع فيها سواء كانت أصعب أو أسهل .

(المعنى)

(وَإِذَا ذَبَحْتُمْ) : أي أردتم ذبح ما يحل ذبحه من الحيوان .

(فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ) : أي هيئة الذبح ، بأن ترفقوا بالبهيمة وبإحداد الآلة ، وتوجيهها القبلة والتسمية ، ونية التقرب بذبحها إلى الله ، وأن يعجل إمرارها .

(لِيُحِدّ) : أي : ليشحذ شفرته ، والشفرة بالفتح والضم : السكين ، وأصل الشفرة : الحد ، وسميت السكين باسم حدها من باب تسمية الشيء باسم جزئه .

(المستفاد)

٩- أن نحسن الذبحة ، بأن نذبحها على الوجه المشروع .

١٠- وجوب إراحة الذبيحة وذلك بسرعة الذبح .

١١- حسن تعليم النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بضرب الأمثال ، لأن الأمثلة تقرّب المعاني في قوله : " إِذَا قَتَلْتُمْ ... إِذَا ذَبَحْتُمْ " .

١٢- من أساليب التعليم : ذكر قاعدة ثم ضرب أمثلة لها .

(المعنى)

(شَفْرَتَهُ) : الشفرة : بفتح الشين ، آلة الذبح كالسكين وما يذبح به .

(وَلْيُرِحْ) : بضم الياء .

(ذَبِيْحَتَهُ) : فعيلة بمعنى مفعولة ، أي : مذبوحته ، باعتبار ما يؤول إليه الأمر ، والعرب تقول شاة ذبيح ، وامرأة قتيل ، فإذا حذفوا الموصوف عوضوا عنه الهاء ، ما يدل على التأنيث .

(المستفاد)

١٣- وجوب حد الشفرة ، لأن ذلك أسهل للذبيحة ، فإن ذبح بشفرة كالّة أي ليست بجيدة ولكن قطع ما يجب قطعه فالذبيحة حلال لكنه آثم حيث لم يحد الشفرة .

١٤- الحث على الرحمة والشفقة بالحيوان .

١٥- حسن التعامل مع المخلوقات .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : " إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانُ عَلَى كُلِّ شَيء " أي في كل شيء ، لماذا قال : " عَلَى كُلِّ شَيء " ولم يقل : إلى كل شيء ؟ .

ج : يدل ذلك على أن الإحسان ليس خاصًا بشيء معين من الحياة بل هو في جميع الحياة .

س : ما الفرق بين " فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ " ، " وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ " .

ج : الفرق بينهما : أن المقتول لا يحل بالقتل كما لو أراد إنسان أن يقتل كلبًا مؤذيًا ، فنقول : أحسن القِتلة . وكذا إذا أراد أن يقتل ثعبانًا فنقول : أحسن القِتلة ، وإذا ذبح فنقول : أحسن الذِّبحة ، وهذا فيما يؤكل ، أي يحسن الذِبحة بكل ما يكون فيه الإحسان ، ولهذا قال : " وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ " أي السكين ، وحدُّها يعني حكها حتى تكون قوية القطع ، أي يحكها بالمبرد أو بالحجر أو بغيرهما حتى تكون حادة يحصل بها الذبح بسرعة .

وَلْيُرِحْ ذَبِيْحَتَهُ " اللام للأمر ، أي وليرح ذبيحته عند الذبح بحيث يمر السكين بقوة وسرعة . "

الحديث الثامن عشر

عَنْ أَبِيْ ذَرٍّ جُنْدُبِ بنِ جُنَادَةَ ، وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُعَاذِ بِنِ جَبَلٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ "
رواهُ التِّرْمِذِيُّ وقال : حديثٌ حسنٌ . وفي بعض النسخ : حسنٌ صحيح (١) .

المعنى الإجمالي

جمع هذا الحديث بين كيفية معاملة العبد لربه ومعاملته لنفسه ومعاملته للناس .

فقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " اتق الله حيثما كنت " : هو علم معاملة العبد لربه . وقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " وأَتْبعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها " يتعلق بمعاملة العبد لنفسه . وقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" وخالق الناس بخلق حسن " يتعلق بمعاملة العبد للناس كافة ، ولفظ " الناس " عامٌ أُرِيدَ به الخاص ؛ ليخرج منه المبتدع والفاجر والفاسق والكافر ، فهؤلاء لهم معاملة أخرى سيأتي بيانها .

وقد يقال : إنَّ زجر هؤلاء واعتزالهم من الإحسان إليهم ؛ لأنه ربما دفعهم إلى الصلاح .

وفي الحديث الحث على تقوى الله تعالى في علاقة الإنسان بربِّه ، وعلاقته بنفسه ، وعلاقته بالآخرين .

وضابطُ ذلك : التزام المأمورات واجتناب المنهيات في هذه الأبواب جميعها ، وهذا هو مدار التقوى وقُطْب رحاها ومعناها .

والحديث يرسم خطة للإنسان المسلم توصّله إلى ربِّه سالمًا من أدران الانحراف عن الجادَّة ، نقيًّا من أسباب اللَّوم ، وشَيْن المعصية ، ونار العار بين الخَلْق بسوء الخُلُق مع الخالق أو المخلوق .

توضيح الحديث

(المعنى)

" اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ "

(اتَّقِ اللهَ) : أي اتخذ وقاية من عذاب الله عز وجل ، وذلك بامتثال أمره واجتناب نهيه ، والوقوف عند حده .

(حَيْثُمَا كُنْتَ) (حيث) : ظرف مكان ، أي في أي مكان كنت فيه حيث يراك الناس ، وحيث لا يرونك ، فإنه مطلع عليك .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٢١)

١– وجوب تقوى الله عزّ وجل حيثما كان الإنسان وفي كل اللحظات فليس لها زمن تتقيد به وتقف عنده وهي أساس العمل الصالح .

٢– ملازمة التقوى في جميع الأحوال .

---

(١) قال الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب / ٣١٦٠ (حسن) .

٣- قوله : " اتق الله حيثما كنت " تأصيل لمراقبة الله سبحانه في السر والعلن .

٤- الشريعة تحرص على أن يوجد عند الشخص رادع وزاجر من نفسه يحول بينه وبين المحرمات وهو " تقوى الله " .

(المعنى)

" وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا "

(وَأَتْبِعِ) : فعل أمر ، بالهمزة ، وسكون المثناة فوق ، وكسر الموحدة : ألحق وافعل عقبها مباشرة .

(السَّيِّئَةَ) : وهي ترك بعض الواجبات ، أو ارتكاب بعض المحظورات ، أو الذنب .

(الحَسَنَةَ) : التوبه منها . أو الإتيان بحسنة أخرى .

(تَمْحُهَا) : جواب الأمر ، ولهذا جزمت ، والمعنى : إذا فعلت سيئة فأتبعها بحسنة ، فهذه الحسنة تمحو السيئة أو تزيلها من صحائف الملائكة الكاتبين وترفع المؤاخذة عنها ، وأثرها السيء في القلب .

(المستفاد)

٥- الوصية بإتباع الحسنة للسيئة ، والحسنة هي الطاعة ، والسيئة هي المعصية .

٦- الإسراع بفعل الطاعات بعد السيئات مباشرة لأن الحسنات تمحو السيئات .

٧- أن الحسنات يذهبن السيئات ، والإتيان بالحسنة عقب السيئة يمحو السيئة .

٨- رأفة الله ورحمته بعباده إذ شرع لهم ما يكفر السيئات ، فضلاً من الله ونعمة .

٩- ظاهر الحديث أن تقوى الإنسان لا تعصمه من وجود زلات سرعان ما يتبصر فيها المتقي ويرجع إلى حالٍ أفضل من حال قبل الذنب وهذا الظاهر يؤخذ من قوله " وأتبع السيئة الحسنة تمحها " بعد قوله " اتق الله حيثما كنت " .

١٠- على الإنسان أن لا يستسلم للذنوب فمن أذنب فلا يعني سقوطه وإبعاده أو أنه يرضى بما هو عليه بل يحاول التخلص من الذنب ويفعل الخير ويتوب ويرجع إلى ربه وفي ذلك رفع للمعنوية وشحذ للهمة .

١١- فضل الله عزّ وجل على العباد وذلك لأننا لو رجعنا إلى العدل لكانت الحسنة لا تمحو السيئة إلا بالموازنة ، وظاهر الحديث العموم .

١٢- فضل فعل الحسنات والصالحات أنه يرفع الدرجات ويكفر السيئات .

(المعنى)

" وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ "

(وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) : خالق : جاهد وكلف نفسك حسن المعاملة ، أي عامل الناس بخلق حسن .

(بِخُلُقٍ) : والخُلُق : بضم الخاء ، هو الصفة الباطنة في الإنسان ، والخَلْقُ : بفتح الخاء ، هو الصفة الظاهرة ، الخُلق : هو الطبع والسجية والعادة والسلوك ، وعرَّفه الغزالي بقوله : هيئة للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير فكر وروية ، فإن كانت الأفعال الصادرة محمودة عقلًا وشرعًا سميت خُلُقًا وإلا فَسَيِّئًا . والمعنى : عامل الناس بالأخلاق الحسنة بالقول وبالفعل بأن تفعل معهم ما تحب أن يفعلوه معك ، فبذلك تجمع القلوب ، وتتفق الكلمة ، وتنتظم الأحوال ، وقيل الخلق الحسن هو فعل الفضائل وترك القبائح .

(المستفاد)

١٣– كمال نصح النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لأمَّته ، ومن ذلك ما اشتمل عليه هذا الحديث من هذه الوصايا الثلاث الجوامع العظيمة .

١٤– يربي الحديث في المسلم الخوف والرجاء ، فتقوى الله تربي في المسلم الخوف ، وفتح باب التوبة . وتكفير السيئات يربي في المسلم الرجاء وهما منزلتان عظيمتان من منازل أعمال القلوب .

١٥– الترغيب في مخالقة الناس بالخلق الحسن ، وهو من خصال التقوى التي لا تتم التقوى إلا به .

١٦– الوصية بحسن الخلق مع الناس، وجماع ذلك الإحسان إليهم وترك العدوان عليهم ، والصبر على أذاهم .

١٧– الأخلاق الحسنة في الشريعة تبذل مطلقًا سواءً أأحسن الناس إليك أم أساءوا ولذلك لم يقيدها النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بأنها لا تبذل إلّا لمن أحسن إليك بل جعلها عامة فقال : " وخالق الناس " أي جميعًا من أحسن ومن أساء .

١٨– مجاهدة النفس في التحلي بالأخلاق الحسنة .

١٩– حسن المعاملة ضمان للنجاة والسعادة والراحة في الدنيا والآخرة وهي تزيل أثر المعاملة السيئة .

٢٠– يسعى الإسلام لتربية أهله على زوال العداوات بينهم وهو المقصود من قوله :" وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ " .

٢١– تقوى الله تشمل القيام بحقوق الله وحقوق الناس ولذلك قال في الحديث " وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ "

قال ابن رجب – يرحمه الله – : " وإنما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه فإن كثيرًا من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحقوق الله دون حقوق عباده فنص له الأمر بحسن العشرة للناس " .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : هل المراد بالحسنة التي تتبع السيئة هي التوبة ، فكأنه قال : إذا أسأت فتب ، أو المراد العموم ؟

ج : اختلف العلماء – يرحمهم الله – الصواب : الثاني ، أن الحسنة تمحو السيئة وإن لم تكن توبة ، دليل هذا قوله تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَ زُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) (هود / ١١٤) .

س : ما الخُلُق الحسن ؟

ج : قال بعضهم : الخلق الحسن : كف الأذى ، وبذل الندى ، والصبر على الأذى – أي على أذى الغير – والوجه الطلق .

وضابط ذلك ما ذكره الله عزّ وجل في قوله : (خُذِ الْعَفْوَ) (الأعراف / ١٩٩) أي خذ ما عفا وسهل من الناس ، و لا ترد من الناس أن يأتوك على ما تحب لأن هذا أمر مستحيل ، لكن خذ ما تيسر (وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (الأعراف / ١٩٩) .

س : هل الخلق الحسن جِبْلِيٌّ أو يحصل بالكسب ؟

ج : بعضه جبلي ، وبعضه يحصل بالكسب .

الحديث التاسع عشر

عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَومًا فَقَالَ : " يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللهَ يَحفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنتَ فَاسْتَعِن بِاللهِ ، وَاعْلَم أَنَّ الأُمّة لو اجْتَمَعَت عَلَى أن يَنفعُوكَ بِشيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشيءٍ قَد كَتَبَهُ اللهُ لَك ، وإِن اِجْتَمَعوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشيءٍ لَمْ يَضروك إلا بشيءٍ قَد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَت الأَقْلامُ ، وَجَفّتِ الصُّحُفُ " رواهُ التِّرْمِذِيُّ وقال : حديث حسن صحيح – [(١) (٢)] وفي رواية – غير التِّرْمِذِيّ : (اِحفظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ ، تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يَعرِفْكَ في الشِّدةِ ، وَاعْلَم أن مَا أَخطأكَ لَمْ يَكُن لِيُصيبكَ ، وَمَا أَصابَكَ لَمْ يَكُن لِيُخطِئكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَربِ ، وَأَنَّ مَعَ العُسرِ يُسرًا) [(٣)] .

المعنى الإجمالي

في هذا الحديث العظيم يتوجه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لغلام حَدَثٍ بالتعليم وهو ابن عباس – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – ؛ لما لمس فيه من كمال العقل ووفور الذهن ، حتى ينشأ هذا الصبي على أكمل الأخلاق وأحسن الأحوال ، والنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يطلب منه أن يحفظ أوامر الله تعالى ونواهيه على كل أحيانه وفي كل أوقاته ، ويُصَحّح له النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عقيدتَهُ من الصِّغَرِ فما من خالق إلا الله ، وما من قادر دون الله ، وما من مدبِّرٍ للأمر مع الله ، ولا واسطةَ بين العبد وبين ربه ومولاه ، فهو سبحانه المأمول عند نزول المصاب ، وهو سبحانه المرجو عند حلول العقاب ، والحديث بجملته أصلٌ في رعاية حقوق الله تعالى وتفويض الأمر إليه ، وشهود توحيده وبيان عجز الخلق وافتقارهم إليه ، وعلى هذا المعنى دار هذا الحديث .

فمَنْ عَلِمَ أن الله هو المعطي المانع الضار النافع فتوجه إليه في دقيق الأمر وجليله فقد حقق التوحيد وأفرد ربه بالطاعة وحَفِظَ حدوده في جميع أحواله .

توضيح الحديث

(المعنى)

(كُنْتُ خَلفَ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يومًا فَقَالَ : " يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ")

(خَلْفَ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –) : أي راكب خلفه على دابته رديفًا .

(يَا غُلامُ) : بضم الميم ، لأنه نكره مقصودة بالنداء ، وهو الصبي حين يفطم إلى تسع سنين ، وسِنُّه إذ ذلك كانت نحو عشر سنين .

---

(١) قال الشيخ الألباني في (صحيح الترمذي / ٢٥١٦) : صحيح .

(٢) (رواية الترمذي برقم / ٢٥١٦) إلا أنها تختلف في الآتي :

١ – جملة : (وَلَوْ اجْتَمَعُوا) بدلًا من : (وإِن اِجْتَمَعوا) .

٢ – لم أجد جملة : (وإِن اِجتَمَعوا) في شئ من كتب السنة .

(٣) قال الشيخ الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : ٦٨٠٦ في صحيح الجامع .

(إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ) : ينفعك الله بها ، والتنوين هنا للتعظيم ، وكلمات : جمع كلمة ، وتطلق على اللفظة المؤلفة من حروف ولها معنى ، والمراد بها هنا الجملة المفيدة .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٦٣)

فوائد هذا الحديث العظيم كثيرة جدًا ولذلك قال بعض العلماء : تدبرت هذا الحديث فأدهشني وكدت أطيش فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث وقلة التفهم لمعناه .

١- تواضع النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

٢- التواضع للصغار وتعليمهم .

٣- جواز الإرداف على الدابة ، لكن بشرط أن تطيق ذلك .

٤- ملاطفة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لمن هو دونه حيث قال : " يَا غُلام إني أُعَلِمُكَ كَلِماتٍ " .

٥- حسن تعليم النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وتربيته للغير .

٦- اهتمام النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بتوجيه الأمة وتنشئة الجيل المؤمن المثالي .

٧- الاهتمام بالناشئة وتعليمهم أمور دينهم .

٨- بذل العلم للكبير والصغير لكن على قدر ما ينتفع به المتلقي ، ولا يأنف الإنسان الذي آتاه الله علمًا من تعليمه للصغار أو من هو دونًا منه .

٩- فضل ابن عباس – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – حيث رآه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أهلًا لهذه الوصايا مع صغر سنه .

١٠- من أداب التعليم لفت انتباه المتعلم ليشتد شوقه للعلم ويكون أوقع في نفسه .

١١- ذكر المعلِّم للمتعلِّم أنه يريد أن يعلمه قبل فعله ، ليشتد شوقه إلى ما يعلم وتقبل نفسه عليه .

١٢- من حسن التعليم التمهيد لما يراد من الكلام ، لقوله : " يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ " .

١٣- اختيار الجُمَل القصيرة في حال تعليم الصغار ليكون أسهل في الحفظ .

١٤- الحرص على الوقت واستغلاله بما يعود بالنفع فها هو الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يستغل وقته حتى أثناء تنقله .

(المعنى)

" احْفَظِ اللهَ يَحفَظك ، احْفَظِ اللهَ تَجِدهُ تُجَاهَكَ "

(احْفَظِ اللهَ) : اعرف حدوده وقف عندها والتزم فرائضه ولازم تقواه .

(يَحفَظك) : يصونك ويحميك في أهلك وفي نفسك ودينك ودنياك ، سيما عند الموت . أو يحفظ الله عبده في بدنه وولده وأهله ويحفظه أيضًا في إيمانه ودينه .

(تُجَاهَكَ) : بضم التاء ، أمامك يؤيدك وينصرك ويحفظك . أي من حفظ حدود الله وجد الله معه ينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده . والمقصود أنه يكون معك بالحفظ والعناية والتأييد فهي مَعِيَّةٌ خاصة للمؤمنين .

(المستفاد)

١٥- الوصية بحفظ العبد لربه ، ومعناه مراقبته وطاعته فحقيقته حفظ الدين ، والحفظ ضد الإضاعة .

١٦- الأمر بالمحافظة على رعاية حقوق الله تعالى .

١٧- أن الجزاء قد يكون من جنس العمل فمن حفظ الله حفظه الله .

١٨- أن حفظ الله سبب لمعيته الخاصة المتضمنة للنصر والتأييد والكفاية .

١٩- من يحفظ أوامر الله يحصل على ثمرتين عظيمتين :

الثمرة الأولى : يحفظه الله من كل مكروه لقوله في جواب الشرط " يحفظك " .

الثمرة الثانية : يعينه الله في أموره المستقبلية ويجلب له الخير لقوله : " احفظ الله تجده تجاهك " .

٢٠- صلاح الدنيا والآخرة للشخص على قدر حفظه لحدود الله .

٢١- أن من أضاع الله – أي أضاع دين الله – فإن الله يضيعه ولا يحفظه .

(المعنى)

" إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنتَ فَاسْتَعِن بِاللهِ "

(إِذَا سَأَلْتَ) : طلبت شيئًا من الدنيا أو الدين .

(فَاسْأَلِ اللهَ) : أن يعطيك مطلوبك ، ولا تسأل غيره ، فإنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ، فضلا عن غيره .

(اسْتَعَنتَ فَاسْتَعِن بِاللهِ) : أي اطلب معونته تعالى دون سواه ، والمراد ألا تعتمد بقلبك على غير الله تعالى ، لأنه خالق الأسباب ومسخرها ، وهو القادر على كل شيء ، وغيره عاجز حتى عن طلب مصالح نفسه ودفع مضارها .

(المستفاد)

٢٢- أن الإنسان يجب عليه أن يسأل الله ويستعين به ولا يسأل غيره .

٢٣- أن الإنسان إذا احتاج إلى معونة فليستعن بالله ، ولكن لا مانع أن يستعين بغير الله ممن يمكنه أن يعينه .

٢٤- تحقيق التوحيد بالاستغناء بالله عن خلقه بترك سؤالهم وترك الاستعانة بهم وصرفِ ذلك لله وحده ، فينزل العبد حوائجه بربه ويطلب العون منه .

٢٥- الأمر بالاعتماد على الله ، والتوكل عليه دون غيره .

(المعنى)

" وَاعْلَم أَنَّ الأُمّة لو اجْتَمَعَت عَلَى أن يَنفَعُوكَ بِشيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشيءٍ قَد كَتَبَهُ اللهُ لَك ، وإِن اِجْتَمَعوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشيءٍ لَمْ يَضروك إلا بشيءٍ قَد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ "

(وَاعْلَمْ) : كلمة تنبيه معناها تيقَّنْ وتحقَّقْ .

(الأُمّة) : المراد بها هنا سائر المخلوقات .

(المستفاد)

٢٦- أن الأمة لن تستطيع أن تنفع أحدًا إلا إذا كان الله قد كتب ذلك النفع ، ولن يستطيعوا أن يضروا أحدًا إلا أن يكون الله تعالى قد كتب ذلك الضرر عليه .

٢٧- لن يصيب الإنسان إلا ما كتب الله له .

٢٨- أن ما يقع من المنافع والمضار والنعم والمصائب مكتوب ، وأن ما لم يُكتب لا يكون .

٢٩- إثبات تأثير الأسباب بالنفع والضرر ، وأنها لا تخرج عن قدر الله .

٣٠- أنه يجب على المرء أن يكون معلقًا رجاءه بالله عزّ وجل وأن لا يلتفت إلى المخلوقين .

٣١- وجوب توحيد الله بالخوف والرجاء والتوكل .

٣٢- من إحسان الله سبحانه أنه ييسر العبادة للشخص ثم يعينه عليها ثم يجازيه بها والشخص لا حول له ولا قوة إلّا بإعانة المولى سبحانه فله الفضل أولًا وآخرًا .

٣٣- يدل الحديث على أن الشخص ضعيف لا يملك لنفسه حولاً ولا قوة ، حتى إعانته نفسه على ما يريد لا يقدر عليه إلّا بإعانة المولى سبحانه .

٣٤- يقرر الحديث الأعمال القلبية من التوكل والاستعانة والتعلق والخوف والرجاء لأنها حياة الإنسان وأصل العقيدة .

٣٥- عجز الخلائق كلهم ، وافتقارهم إلى الله عز وجل .

٣٦- أن كل شيء مكتوب منتهٍ منه ، فقد ثبت عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أن الله عزّ وجل كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة

٣٧- قوله " إلّا بشئ كتبه الله لك " وقوله " إلّا بشئ كتبه الله عليك " لا يعارض العمل ولا يدل على ترك العمل ، بدليل أول الحديث " إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله " فسؤال الله والاستعانة به هي من عمل الشخص يجازيه الله بها .

(المعنى)

(رُفِعَت الأَقْلامُ ، وَجَفّتِ الصُّحُفُ) : تركت الكتابة بها وقدر كل شئ في علم الله وانتهى . وهو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها ، والفراغ منها من أمد بعيد .

(وَجَفّتِ الصُّحُفُ) : الصحف ما كتب فيه مقادير المخلوقات كاللوح المحفوظ ، وجفافها انتهاء الأمر واستقراره فلا تبديل فيها ولا تغيير .

(المستفاد)

٣٨- أن كل ما في الوجود قد فُرغ منه ، لقوله : " رفعت الأقلام وجفت الصحف " فلا تغيير لما سبق به علم الله ولا كتابه .

٣٩- التخلق بالشجاعة والإقدام مع التعقل وأخذ الأسباب .

٤٠- أن الخلق لا يقدرون على تغيير ما سبق به القدر والكتاب الأول .

(المعنى)

" اِحفظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ ، تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يَعرِفْكَ في الشّدةِ ، وَاعْلَم أن مَا أَخطأكَ لَمْ يَكُن لِيُصيبكَ ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُن لِيُخطِئكَ "

(تَعَرَّفْ) : بتشديد الراء ، أي تحبب إليه وتقرب منه بالطاعات .

(إلى اللهِ في الرَّخاءِ) : بملازمة طاعته ، والإنفاق في وجوه القرب في زمان السَّعة في العيش والصحة في البدن وخلو الفكر من الهم .

(يَعرِفْكَ) : يجازيك .

(في الشّدةِ) : بتفريجها عنك ، وجعله لك من كل ضيق فرجًا ، ومن كل هم مخرجًا .

(مَا أَخطأكَ) : ما جاوزك من المقادير فلم يصل إليك ولم تصبك بإذن الله .

(لَمْ يَكُن لِيُصيبكَ) : لأنه مقدر على غيرك .

(وَمَا أَصَابَكَ) : ما قدر أزلًا فحصل لك بقدر الله .

(لَمْ يَكُن لِيُخطِئكَ) : لأنه مقدر عليك .

(المستفاد)

٤١ – فضل التقرب إلى الله بطاعته وتقواه في حال الرخاء ، وهي حال الصحة والأمن والغنى .

٤٢ – أن من اتقى الله حال رخائه وصحته وغناه وقاه الله ما يكره ويسَّر أموره وهوَّن عليه الشدائد ، عندما تحل به الشدة والضيق والفقر والمرض فلطف به وأعانه وأزال شدته وكشف غمّه وهمه ونفّس كربته ، وهذا معنى قوله :
" يَعرِفْكَ في الشّدةِ " .

٤٣ – فيه تفسير لمعية الله الخاصة لعباده المؤمنين كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وهذه المعية الخاصة في قوله " تجاهك " ، " أمامك " ، " يحفظك " ، " يعرفك في الشدة " .

٤٤ – أن الإنسان إذا كان قد كتب الله عليه شيئًا فإنه لا يخطئه ، وأن الله عزّ وجل إذا لم يكتب عليه شيئًا فإنه لا يصيبه .

٤٥ – تسلية العبد عند حصول المصيبة ، وفوات المحبوب على أحد المعنيين في قوله : " وَاعْلَم أن مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُن لِيُخطِئكَ ، وَمَا أخطأَكَ لَمْ يَكُن لِيصيبَك " فالجملة الأولى تسلية في حصول المكروه ، والثانية تسلية في فوات المحبوب .

(المعنى)

" وَاعْلَمْ أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَربِ ، وَأَنَّ مَعَ العُسرِ يُسرًا "

(أنَّ النَّصْرَ) : من الله للعبد على جميع أعداء دينه ودنياه أينما يوجد .

(مَعَ الصَّبْرِ) : على طاعة الله ، وعن معصيته ، وعن المصائب .

(المستفاد)

٤٦- التنبيه على أن هذه الدار عرضة للمصائب ، فينبغي الصبر عليها .

٤٧- فضل الصبر وأنه من أسباب النصر .

٤٨- لطف الله بعباده إذ يأتي بالفرج بعد الكرب وباليسر بعد العسر .

٤٩- البشارة العظيمة للصابرين ، وأن النصر مقارن للصبر .

٥٠- فيه البشارة العظيمة أيضًا بأن تفريج الكربات وإزالة الشدائد مقرون بالكرب ، فإذا اشتد الأمر وزاد الكرب ، وانغلقت جميع الأبواب ،كان هذا بإذن الله دليل على الفرج لقوله : " وأن الفرج مع الكرب " .

٥١- البشارة العظيمة أن الإنسان إذا أصابه العسر فلينتظر اليسر .

٥٢- انه إذا تعسر الأمر فلينتظر المسلم وليستبشر بقدوم اليسر .

٥٣- يدل ظاهر الحديث على أن حال الدنيا يدور بين عسر يتبعه يسر ، وكرب يتبعه فرج حيث خلق الله الدنيا على نكد وعدم صفو ، فمن عرف حالها لم يطمئن لها .

٥٤- الإرشاد إلى حسن الظن بالله وانتظار الفرج واليسر عند الكرب والعسر ، وترك اليأس والقنوط من رحمته .

٥٥- يقرر الحديث الرضا بأقدار الله ، وهي منزلة أعلى من منزلة الصبر .

٥٦- أن الإيمان بالقدر يهون المصيبة ويعين على الصبر ويمنع من الاعتماد على الأسباب .

٥٧- فيه الاهتمام بأمر العقيدة ، فهذه الكلمات جميعها من أمور العقيدة .

٥٨- تقرير لمذهب أهل السنة والجماعة أن مشيئة الله هي النافذه ، وترجع مشيئة العبد إليها .

٥٩- يربي عظمة الله سبحانه في قلوب المؤمنين ، فمن تأمل قدرته الباهرة ، ومشيئته النافذة وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن عرف ذلك .

٦٠- الحديث يشمل أعمال الجوارح وأعمال القلوب ، فالسؤال والدعاء من أعمال الجوارح ، والاستعانة من أعمال القلوب ، وكلا الأمرين من أركان الإيمان .

٦١- من أهداف الحديث تقرير مسألتين عظيمتين :

الأولى : فقر الإنسان لربه ، وأنه لا غنى له عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك وقطع الرجاء بالمخلوقين .

الثانية : غنى الله عن جميع المخلوقين وكماله بذاته سبحانه .

٦٢- الكلمات التي تعلمها ابن عباس – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – تربي القوة والشجاعة في النفس ، فمن نزّل مسألته بالله دون غيره واستعان به وحده ، وعلم أن ما أصابه لا يخطؤه وما أخطأه لا يصيبه أصبح قويًا في حجته ودعوته وسائر حياته .

٦٣- يقرر الحديث اليقين بالله سبحانه وأفعاله .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ " هل يشمل فعل الأوامر في أماكن غير لائقة كالمراحيض مثلًا ؟

ج : لا تفعل الأوامر في هذه الأماكن ، ولكن انوِ بقلبك أنك مطيع لله عزّ وجل ممتثل لأمره مجتنب لنهيه .

س : هل يُشترط أن ينوي بهذه الحسنة أنه يمحو السيئة التي فعل ؟

ج : ظاهر الحديث : لا ، وهذا من نعمة الله عزّ وجل على العباد ومن مقتضى كون رحمته سبقت غضبه .

س : معاملة الناس بالحزم والقوة والجفاء أحيانًا هل ينافي هذا الحديث أو لا ؟

ج : لا ينافيه ، لأنه لكل مقام مقال ، فإذا كانت المصلحة في الغلظة والشدة فعليك بها ، وإذا كان الأمر بالعكس فعليك باللين والرفق ، وإذا دار الأمر بين اللين والرفق أو الشدة والعنف فعليك باللين والرفق ، لأن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : "إِنَّ اللهَ رَفِيْقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ " .

الحديث العشرون

عَنْ أَبِيْ مَسْعُوْدٍ عُقبَة بنِ عَمْرٍو الأَنْصَارِيِّ البَدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" إِنَّ مِمَّا أَدرَكَ النَّاسُ مِن كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى ، إِذا لَم تَستَحْيِ فاصْنَعْ مَا شِئتَ "
رواهُ البخاريُّ برقم ٦١٢٠ .

المعنى الإجمالي

اخْتُلِفَ في المراد من هذا الحديث ، وأيًّا ما كان فهو أصلٌ في قاعدة الحياء والحث عليه ، وترك المنهيات والزَّجْر عنها ، ويفيد الحديث العمل بما يوافق شرعنا من كلام النبوة الأولى ، وفيه بيان فضيلة الحياء ومنزلته من الإسلام ، وفيه اعتبار الحياء من موانع المخالفة والوقوع في المعاصي .

توضيح الحديث

(المعنى)

(أَدرَكَ النَّاسُ) : الإدراك يأتي بمعنى الإحاطة الكاملة بالشيء .

والمعنى : مما أدركه الناس : أي : توارثوه قرنًا بعد قرن ، أو وصلهم أو بلغهم من كلام الأنبياء ، وظفروا به وبقي مأثورًا لديهم .

(النَّاس) : من النوس وهو التحرك ، أو من الأُنس ؛ لأن بعضهم يأنس ببعض ، وقيل من النسيان .

(النُّبُوَّةِ الأُولَى) : التي قبل نبينا محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، والمراد أنه مما اتفقت عليه الشرائع ، لأنه جاء في أولاها ، ثم تتابعت بقيتها عليه .

(إذا لَم تَستَحْيِ فَاصْنَع مَا شِئت) : من الحياء ، وهو خلق يحث على فعل الجميل ، وترك القبيح ، ويمنع من التفريط في الحق ، أما ما ينشأ عنه الإخلال بالحق فليس هو حياء شرعيًا ، بل هو خور وضعف .

(إذا لَم تَستَحْيِ) : يحتمل معنيين :

المعنى الأول : إذا لم تكن ذا حياء صنعت ما تشاء، فيكون الأمر هنا بمعنى الخبر، لأنه لا حياء عنده ،

المعنى الثاني : إذا كان الفعل لا يُستَحيى منه فاصنعه ولا تبالِ .

فالأول عائد على الفاعل ، والثاني عائد على الفعل . والمعنى : لا تترك شيئًا إذا كان لا يُستَحيى منه .

(فاصنَع مَا شِئت) : أي افعل ، والأمر هنا للإباحة على المعنى الثاني ، أي إذا كان الفعل مما لا يستحيى منه فلا حرج . وهي للذم على المعنى الأول ، أي أنك إذا لم يكن فيك حياء صنعت ما شئت .

قال ابن القيم : في معناه قولان :

أحدهما : أنه أمر تهديد ، ومعناه الخبر : أي من لم يستح صنعَ ما شاء .

والثاني : أنه أمر إباحة ، أي انظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله ، فإن كان مما لا يستحيَى منه ، والأول أصح وهو قول الأكثرين .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ١٩)

١- أن الآثار عن الأمم السابقة قد تبقى إلى هذه الأمة ، وما سبق عن الأمم السابقة إما أن ينقل عن طريق الوحي في القرآن ، أو في السنة ، أو يكون مما تناقله الناس .

٢- أن هذه الجملة :" إِذا لَمْ تَستَحْيِ فاصنَع مَا شِئت " مأثورة عمن سبق من الأمم ، لأنها كلمة تُوجَّه إلى كل خلق جميل .

٣- اتفاق النبوات على فعل الخير .

٤- فضل التخلق بأخلاق الأنبياء .

٥- الإسلام يدعو إلى الفضائل ويمنع من الرذائل .

٦- أن من خلق الإنسان الذي لا يستحيي أن يفعل ما شاء ولا يبالي .

٧- ومن فوائد الحديث على المعنى الثاني : أن ما لا يُستحيى منه فالإنسان حل في فعله لقوله : " إِذَا لَمْ تَستَحْيِ فَاصنَع مَا شِئت " .

٨- الحياء من شعب الإيمان الواجبة .

٩- الحياء كله خير .

١٠- شرف الحياء ، فإنه ما من نبي إلا وقد حث عليه ، فهو من قضايا النبوة المجمع عليها وهو من إرثها الذي لم يُنسخ ، وذلك لأنه أمر قد بان فضله ، واتفقت العقول على حسنه وما كان كذلك لا ينسخ .

١١- أن الحياء هو الذي يكف الإنسان ويردعه عن مواقعة السوء ، فإذا رفضه وخلع ربقته كان كالمأمور بارتكاب كل ضلالة ، تعاطي كل سيئة .

١٢- الحياء الذي يعوق عن التعلم حياء مذموم .

١٣- توبيخ من لا يستحي بأنه يصنع كلَّ ما يشتهي .

١٤- أن من نزع منه الحياء فعل ما يشاء .

١٥- أن عدم الاستحياء يحمل على المجاهرة بالقبيح ، وأن الاستحياء يبعث على الاستتار بستر الله .

١٦- إذا ترك المرء الحياء فلا تنتظروا منه شيئًا .

١٧- يرشد الحديث لضبط سلوك الإنسان وتصرفاته .

١٨- فيه الرد على الجبرية ، لإثبات المشيئة للعبد .

١٩- فائدة : قال الفيروزآبادى - يرحمه الله - في بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز في بصيرة الحياء :
وقد قُسِّم الحياء على عشرة أوجه :

١ - حياء جنايةٍ ٢ - وحياء تقصير ٣ - وحياء إجلال ٤ - وحياء كَرَم ٥ - وحياء حِشْمَةٍ
٦ - وحياء (استصغار النَّفس) ٧ - وحياء محبّة ٨ - وحياء عبوديّة ٩ - وحياء شرف وعزَّةٍ
١٠ - وحياء المستحي من نفسِه .

١ - فأَمّا حياء الجناية : فمنه حياء آدم لما فرّ هاربًا فى الجنَّة .

٢ – وحياء التقصير : كحياءِ الملائكة الَّذين يسبّحون اللَّيل والنَّهار لا يفترون ، فإذا كان يوم القيامة قالوا : سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك .

٣ – وحياءُ الإجلال : هو حياء المعرفة ، وعلى حسب معرفة العبد بربّه يكون حياؤه منه .

٤ – وحياءُ الكرم : كحياءِ النبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من القوم الَّذين دعاهم إلى وليمة زَيْنَبَ وطوَّلوا عنده فقام واستحى أن يقول هم : انصرفوا .

٥ – وحياء الحِشْمَةِ : كحياءِ على بن أَبى طالب – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَن يسأَل رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن المَذْى لمكان ابنته .

٦ – وحياء الاستحقار واستصغار النفس : كحياءِ العبد من ربّه حين يسأَله حوائجه احتقارًا لشأْن نفسه واستصغارًا لها .

٧ – وأَمّا حياءُ المحبة : فحياءُ المحبِ من محبوبه ، حتَّى إنَّه إذا خطر على قلبه فى حال غيبته هاج الحياءُ فى قلبه وظهر أَثرُه فى وجهه ولا يدرى ما سببه . وكذلك يعرض للمحِبّ عند ملاقاة محبوبه ومناجاته له روعةٌ شديدة . ومنه قولهم جمال رائع . وسبب هذا الحياء والرّوعة ممّا لا يعرفه أَكثر الناس . ولا ريب أَنَّ للمحبّة سلطانًا قاهرًا للقلب أَعظم من سلطان مَن يقهر البدن ، فأَين من يقهر قلبك وروحك ممّن يقهر بدنك ؟! ولذلك تعجّبت الملوك والجبابرة من قهرهم للخلق وقهر المحبوب لهم . فإذا فاجأَ المحبوبُ محبَّه ورآه بغتة أَحسّ القلبُ بهجوم سلطانه فاعتراه رَوْعة وخوفٌ .

٨ – وأَمّا حياءُ العبوديَّة : فهو ممتزِج من حُبٍّ وخوف ومشاهدة عدم صلاحية عبوديّته لمعبوده ، وأَنَّ قَدْره أَعلى وأَجلّ منها ، فعبوديته له توجب استحياءَه منه لا محالة .

٩ – وأَمّا حَياءُ الشَّرف والعِزَّة : فحياءُ النَّفْسِ العَظيمة الكبيرة إذا صدر منه ما هو دون قَدْرها من بَذْل أَو إِعطاءٍ أَو إِحسان ، فإِنَّه يستخرج مع بذله حياء وشرف نفس وعزَّه . وهذا له سببان : أَحدهما هذا ، والثانى استحياؤُه من الآخذ ، حتَّى إنَّ بعض الكُرماءِ يستحى من خَجْلة الآخذ .

١٠ – وأَمّا حياءُ المؤمن من نفسه : فهو حياءُ النفوس الشَّريفة العزيزة من رضاها لنفسه بالنَّقص وقنعها بالدُّون ، فيجد نفسه مستحييًا مِن نفسه حتَّى كأَنَّه له نَفْسان تستحى إحداهما من الأُخرى ، وهذا أَكمل ما يكون من الحياءِ ، فإِنَّ العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأَن يستحى من غيره أَجدر .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : لماذا لم تُحذف الياء من كلمة (تستحي) بسبب الجزم (إذا لَم تَستَحْيِ) ؟

ج : تستحي : مضارع استحيا وحُذِفَت الياء الثانية للجزم بالجازم .

وفي رواية " إذا لم تستح " : مضارع استحى ، يقال استحيى واستحى ، والرواية الأولى أصح وأفصح ، وقال الله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً) (البقرة / ٢٦) .

الحديث الحادي والعشرون

عَنِ أَبِيْ عَمْرٍو ، وَقِيْلَ ، أَبِيْ عمْرَةَ سُفْيَانَ بنِ عَبْدِ اللهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُوْلَ اللهِ ، قُلْ لِيْ فِي الإِسْلامِ قَوْلًا لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ ، قَالَ : " قُلْ آمَنْتُ باللهِ ثُمَّ استَقِمْ " رواهُ مسلمُ [١] .

المعنى الإجمالي

هذا الحديث من جوامع كَلِمِه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، والآيات التي خصَّه الله عز وجل بها ؛ حيث جمع الدين كلَّه في هذه الكلمات اليسيرة ، فجمع في عبارته الأولى : " قل : آمنت بالله " تحقيق التوحيد بكافة صوره وأشكاله ، وجمع في عبارته الثانية : " ثم استقم "كل أمرٍ ونهي ، وكلَّ حثٍّ وزجرٍ ، لأنَّ الاستقامة هي فعل الطاعات وترك المزجورات .

وقيل : اتباع الحق والقيام بالعدل ولزوم المنهج المستقيم .

ولذا قال بعضهم : لا يطيقها إلا الأكابر . وقال آخر : وذلك خطبٌ جسيم لا يحصل إلا لمن أشرق قلبه ، وأيَّده الله من عنده . ولذلك كان حظ المستقيمين وافرًا ، وثواب الله لهم عظيمًا ، كما قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) (فصلت / ٣٠) . وقال : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣)) (الأحقاف) .

توضيح الحديث

(المعنى)

(عَنِ أَبِيْ عَمْرٍو ، وَقِيْلَ ، أَبِيْ عمْرَةَ سُفْيَانَ بنِ عَبْدِ اللهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُوْلَ اللهِ قُلْ لِيْ فِي الإِسْلامِ قَوْلًا لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ)

(قل لي في الإسلام) : أي في دينه وشريعته .

(قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك) : يعني قولًا يكون حدًّا فاصلًا جامعًا لمعاني الدين ، واضحًا في نفسه ، اكتفي به وأعمل عليه .

---

(١) (رواه مسلم برقم / ١٦٨) إلا أنه قال :

١ – كلمة : (بَعْدَكَ) بدلًا من : (غَيْرَكَ) في جملة (لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ) .

٢ – كلمة : (فَاسْتَقِمْ) بدلًا من : (ثُمَّ استَقِمْ) .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٢٨)

هذا حديث جامع ، من أجمع الأحاديث .

١- حرص الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – على العلم والبيان الجامع الذي يُستغنى به عن الكلام الكثير ، وذلك لما يرد على النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – منهم من الأسئلة .

٢- رجاحة عقل سُفْيَانَ بنِ عَبْدِ اللهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – حيث سأل هذا السؤال العظيم الذي فيه النهاية ، ويستغنى عن سؤال أي أحد .

٣- أن الإنسان ينبغي له أن يسأل عن العلم السؤال الجامع المانع حتى لا تشتبه عليه العلوم وتختلط ، لقوله : " قَوْلًا لا أَسأَلُ عَنهُ أَحَدًا غَيْرَك " .

٤- أهمية الحديث تتجلى من خلال صيغة السؤال " لا أسأل عنه أحدًا غيرك " فهذا يدل على أن الجواب سيكون جامعًا مانعًا .

٥- يدل على الحرص على طلب العلم وهذا ظاهر من صيغة السؤال ، فهي تدل على حب وشغف لمعرفة الجواب .

٦- ينبغي لطالب العلم أن يحرص على السؤال المختصر المهم الذي يجمع فوائد عدة ، وهذا ما فعله سُفْيَان بن عَبْدِ اللهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – في سؤاله حيث كان مختصرًا مهمًا ، إجابته تجمع فوائد عديدة .

٧- السؤال مفتاح العلم ، فعلى طالب العلم ألّا يستحي من سؤاله .

٨- طالب العلم يجب أن يكون ذكيًا في اختيار سؤاله ، خاصة إن كانت فرصة الجواب لا تتهيأ في كل الأحيان ، ولذلك فإن سؤال سُفْيَانَ بنِ عَبْدِ اللهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – من هذا النوع الذكي الذي يختلف عن أسئلة الناس .

(المعنى)

(قُل آمَنْتُ) : يشمل قول اللسان وقول القلب .

(آمَنْتُ بِاللهِ) : أي أقررت به على حسب ما يجب علي من الإيمان بوحدانيته في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات .

(اِستَقِم) : داوم واثبت أي سر على صراط مستقيم ، فلا تخرج عن الشريعة لا يمينًا ولا شمالًا بأن تلزم عمل الطاعات ، وتنتهي عن جميع المخالفات ، والشيء المستقيم : هو الذي لاعوج فيه .

(المستفاد)

٩- أن أصل الدين مطلقًا هو الإيمان بالله ، وهو الإيمان بربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته ، وتوحيده في ذلك كله .

١٠- وجوب الإيمان بالله تعالى .

١١- أن أول واجب على الإنسان هو الإيمان بالله تعالى .

١٢- الإيمان بالله يسبق الطاعات .

١٣- الإيمان قول يصدقه عمل ، فلم يكتف النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بقوله " قل آمنت بالله " حتى أردف بها وصيته لسفيان – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – بقوله " ثم استقم " فيصدق قوله بالإيمان بفعل وعمل ظاهر .

١٤- فضل من آمن ثم استقام على طاعة الله واستمر على ذلك .

١٥- لا بد من الإيمان و العمل الصالح .

١٦- الأمر بالاستقامة ، وهي الإصابة في جميع الأقوال والأفعال والمقاصد . وأصلها استقامة القلب على التوحيد التي فسر بها أبو بكر الصديق – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) (فصلت / ٣٠) .

١٧- يجب على الإنسان أن يستقيم على دين الله من غير اعوجاج ولا انحراف ، ويشمل ذلك فعل الطاعات وترك المنهيات .

١٨- الأعمال الصالحة تحافظ على الإيمان .

١٩- لا يلزم من الاستقامة عدم الوقوع بشيء من المعاصي ، قال تعالى : (فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ) (فصلت / ٦).

قال ابن رجب : " فيه إشارة إلى أنه لا بد من التقصير في الاستقامة المأمور بها ، فيجبر ذلك الاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة .

٢٠- أنه لا يكفي مجرد الاعتقاد ، بل لابد من الإقرار باللسان .

٢١- وجوب تصديق القول بالعمل .

٢٢- أن اللفظ الشرعي الدال على لزوم الطاعة هو الاستقامة لا الالتزام ،كما يجري على ألسن كثير من الناس ، فالصواب أن يقال : فلان مستقيم كما جاء في القرآن والسنة .

٢٣- التعبير بكلمة الاستقامة دون التعبير المشهور عند الناس الآن بكلمة الالتزام .

٢٤- أن من قصر في الواجبات فما استقام .

٢٥- أنه ينبغي للإنسان أن يتفقد نفسه دائمًا : هل هو مستقيم أو غير مستقيم ؟ فإن كان مستقيمًا حمد الله وأثنى عليه وسأل الله الثبات ، وإن كان غير مستقيم وجب عليه الاستقامة وأن يعدل سيره إلى الله عزّ وجل .

٢٦- جمع في الحديث أركان الإيمان عند أهل السنة والجماعة وهي : -

قول اللسان : لقوله " قل آمنت بالله " .

اعتقاد الجنان : لقوله " آمنت بالله " .

عمل الجوارح : لقوله " استقم " .

٢٧- أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أعطي جوامع الكلم حيث جمع كل الدين في كلمتين :

" آمَنتُ بِاللهِ ، ثُمَّ استَقِم "

٢٨- هاتان الكلمتان جمعتا الدين كله .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : قول الصحابي : " لا أَسأَلُ عَنهُ أَحَدًا غَيْرَك " فهل يمكن أن يسأل الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – أحدًا غير رسول الله ﷺ في أمور الدين ؟

ج : نعم ، يمكن أن يسأل أحدهم مَنْ يفوقه في العلم ، وهذا وارد ، ثم هذه الكلمة تقال حتى وإن لم يكن يسأل ، لكن تقال من أجل أن يهتم المسئول بالجواب .

الحديث الثاني والعشرون

عَنْ أَبِيْ عَبْدِ اللهِ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ :
" أَرَأَيتَ إِذا صَلَّيْتُ المَكْتُوبَاتِ ، وَصُمْتُ رَمَضانَ ، وَأَحللتُ الحَلاَلَ ، وَحَرَّمْتُ الحَرَامَ ،
وَلَمْ أَزِدْ عَلى ذَلِكَ شَيئًا أَدخُلُ الجَنَّة ؟ قَالَ : " نَعَمْ " رواهُ مسلمٌ [١] .

المعنى الإجمالي

هذا الحديث عظيم القدر ؛ لاشتماله على الحرام والحرام ، أو الأمر والنهي ، وقد دلَّ منطوقه على أنَّ من قام بالواجبات ، وخاصة الصلوات الخمس وصيام رمضان ، وترك المزجورات والمنهيات ، مع الإتيان بأصول الإسلام وقواعده ؛ فقد استحقَّ الجنة .

توضيح الحديث

(المعنى)

(أَرَأَيتَ) : بمعنى أخبرني .

(صَليتُ المكتوبَات) : المفروضات الخمس وهن خمس صلوات في اليوم والليلة كما قال عزّ وجل : (إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا) (النساء / ١٠٣) وغير الخمس لا يجب إلا لسبب يقتضيه ، وهذا يُعرَف بالتأمل .

(وَصمتُ رَمَضَان) : أي الشهر المعروف ، أمسكت نهاره عن المفطرات بنية .

(وَأَحلَلتُ الحَلاَلَ) : أي فعلت الحلال معتقدًا حله ، هذا معنى قوله : " أَحلَلت " لأن أحل الشيء لها معنيان :

المعنى الأول : الاعتقاد أنه حلال .

المعنى الثاني : العمل به .

(وَحَرَّمتُ الحَرَامَ) : أي اجتنبت الحرام معتقدًا تحريمه .

(الحَرَام) : كل ما منع الشرع من فعله على سبيل الحتم .

(ولم أزد على ذلك شيئًا) : من التطوع .

(أَدخُل الجَنة) : يعني أأدخل الجنة . ابتداء من غير عقاب ، لأنه مطلق الدخول يتوقف على التوحيد .

---

(١) (رواه مسلم برقم / ١٨) إلا أنها تختلف في الآتي :

١ –كلمة : (الصَّلَوَاتِ) هذه ليست موجودة في النص الذي معنا وذلك في جملة : (إِذَا صَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ) .

٢ –كلمة : (أَأَدْخُلُ) بهمزتين وليست بهمزة واحدة في جملة (أَدخُلُ الجَنَّة) .

٣ – زيادة جملة : (قَالَ : وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا) في نهاية الحديث بعد قوله : " نعم " .

وهذا نص الرواية كما في صحيح مسلم : (أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ ، وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ ، وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ ، وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا ، أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : " نَعَمْ " ، قَالَ : وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا) .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٣٢)

١- حرص الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – على السؤال .

٢- حرص و غايات الصحابة واهتمامهم وشوقهم إلى الجنة والبحث عن طريق الوصول إليها ، وأن غاية الشيء عندهم دخول الجنة ، لا كثرة الأموال ، ولا كثرة البنين ، ولا الترفه في الدنيا مما يدل على كمال غاياتهم رضي الله عنهم .

٣- أن الجنة هي الهدف لكل مسلم .

٤- تفاوت الناس في الإيمان ، فمنهم من يحرص على المقامات العليا ، ومنهم من يكون أقل ، فأحيانًا يسأل السائل رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن أفضل الأعمال ؟ وأحيانًا بما دون ذلك ، وهذا يؤكد مذهب أهل السنة والجماعة في أن الإيمان يزيد وينقص وأهله يتفاضلون فيه .

٥- على المسلم أن يسأل أهل العلم عن شرائع الإسلام وما يجب عليه وما يحل له ، وما يحرم عليه إن كان يجهل ذلك .

٦- طالب العلم ينبغي أن ينتبه للأسئلة التي تعرض على الشيخ ويحضر لها ذهنه وقلبه ولو كانت من غيره ، فلابد أن يجد فيها فائدة .

٧- يجوز الاقتصار على الفرائض من المكتوبات ورمضان والزكاة وغيرها فلا لوم عليه ، ولا يحرم من دخول الجنة ، لقوله : " أَرَأَيتَ إِذا صَليتُ المكتوبَات " ، لكن المقام العالي أن يجمع الشخص النوافل .

٨- أن أعظم الواجبات على المسلم الصلوات الخمس .

٩- الصلوات الخمس أعظم أسباب دخول الجنة بعد الشهادتين .

١٠- أن صيام شهر رمضان من أعظم فروض الإسلام .

١١- فيه فضيلة الفرائض لدرجة أن من اقتصر عليها وداوم تدخله الجنة بفضل الله ورحمته .

١٢- جواز ترك التطوعات على الجملة إذا لم يكن من قبيل التهاون ، ولا ينافي ذلك أن تاركها فوت نفسه ربحًا عظيمًا .

١٣- قول السائل " ولم أزد على ذلك شيء " معناه لم أفعل النوافل بل أكتفي من الصلاة بالمكتوبة ومن الصيام برمضان وهكذا ، وليس المراد أني لا أعمل بشيء من الشريعة غير الصلاة والصيام بدليل قوله " وأحللت الحلال وحرمت الحرام " .

١٤- حكمة الله في التشريع ، حيث إن من الأعمال ما هو واجب ومنها ما هو مستحب .

١٥- وجوب امتثال أمر الله والانتهاء عن نهيه .

١٦- أن لا يمتنع الإنسان من الحلال ، لقوله : " وَأَحلَلتُ الحَلال " فكون الإنسان يمتنع من الحلال لغير سبب شرعيٍّ مذموم وليس بمحمود .

(المعنى)

(نَعَم) : ونعم حرف جواب لإثبات المسؤول عنه ، والمعنى : نعم تدخل الجنة .

(المستفاد)

١٧- أن الجواب بـ : نعم إعادة للسؤال ، لأن قوله : أَأَدْخُلُ الجَنَّةَ ؟ قَالَ : نَعَمْ يعني تدخل الجنة ، ولهذا لو سئل الرجل فقيل له : أطلّقتَ امرأتك ؟ قال : نعم ، فإنها تطلق لأن قوله : نعم ، أي طلقتها .

١٨- أن الصلوات وكذلك الصوم والعمل الصالح عمومًا يكون سببًا في دخول الجنة .

١٩- التنبيه على عظيم قدر الصلاة والصيام حتى خصَّهما بالذِّكر في هذا الحديث .

٢٠- أن من قام بالواجبات ، وانتهى عن المحرمات فإن ذلك سبب لدخول الجنة .

٢١- وجوب اجتناب الحرام ، وأن اجتنابه من أسباب النجاة .

٢٢- أن طلب الجنة بالأعمال الصالحة مطلوب شرعًا ومحمود ، ففيه الرد على الصوفية الذين يرون أن طلب الثواب والخوف من العقاب نقص .

٢٣- الحديث دليل لمذهب أهل السنة والجماعة على أن الأعمال من الإيمان .

٢٤- إثبات الجزاء وترتبهِ على الأعمال .

٢٥- وفيه اعتبار الأسباب والأخذ بها ، والرد على من أنكر العمل بها ، أو عطَّلها ، ومع ذلك فهذا مشروطٌ بموافقة هذا لمراد الله عز وجل ، ورحمته ؛ إِذْ لا يدخل الإنسان الجنة بعمله ولو كَثُرَ ؛ لأن نِعَم الله على العبد لا تُعَدُّ ولا تُحْصى ، ومهما كان من العمل فنِعَم الله أجل وأعظم .

٢٦- أن دخول الجنة بمحض فضل الله تعالى ليس إلا ، وأما اختلاف مراتبها فبحسب العمل ، لكن لا بد للعبد أن يستند لفضله .

٢٧- ظاهر الحديث جواز ترك التطوعات في الجملة ؛ لكن من تركها ولم يعمل شيئًا منها فقد فَوَّت على نفسه ربحًا عظيمًا وثوابًا جسيمًا ، ومن داوم على ترك شيء من السنن كان نقصًا في دينه ، لا سيما إن قصد بتركها الاستخفاف بها .

٢٨- ترك النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – تنبيه السائل عليها تيسيرًا وتسهيلًا عليه وتأليفًا له لقُرْب عهده بالإسلام ؛ وخشيةً من نفرته لو أَكْثَرَ عليه ، مع العلم بأنه إذا تَمَكَّنَ الإسلام من قلبه شرح الله صدره ، ورغب فيما رغبت فيه بقية الصحابة من محافظتهم على التطوعات ، كمحافظتهم على الفرائض اغتنامًا للأجر .

٢٩- تيسير الشريعة الإسلامية على أهلها فلم تشدد عليهم ولم تطالبهم بالتنطع والانقطاع والرهبانية بل رضيت منهم الحرص على الفرائض وفعل الحلال وترك الحرام .

٣٠- في الحديث التبشير والتيسير والترغيب أثناء نشر العلم .

٣١- على العالم أن يراعي حال الناس ، فلا يلزم الناس بحالة واحدة ويهمل الفوارق بينهم بل عليه أن يوجه ويرشد على حسب حال السائل ، ولذلك السائل في حديث الباب لم يوبخه النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ويلزمه النوافل بل رضي منه الفرائض لأنها تناسب حاله ، وفي بعض الروايات أن أعرابيًا سأل النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، ولا يخفى مراعاة حال الأعراب .

٣٢- من الفقه ألا يُقَنِّط العالمُ الناسَ من رحمة ربه سبحانه وتعالى .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : كيف يُجاب عن قول الإمام أحمد – يرحمه الله – فيمن ترك الوتر : هو رجل سوء لا ينبغي أن تقبل له شهادة ؟

ج : أن كونه رجل سوء لا يمنعه من دخول الجنة ، فهو رجل سوء ترك الوتر وأقله ركعة مما يدل على أنه مهمل ولا يبالي إذ لم يطلب منه ركعات كثيرة ، بل ركعة واحدة ومع ذلك يتركها .

س : الرجل الذي جاء يسأل قال : لم أزد على ذلك شيئًا . وقد قال له النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – تدخل الجنة ، مع أنه نقص من أركان الإسلام الزكاة والحج ، والزكاة مفروضة قبل الصيام ، يعني فلا يقال : لعل هذا الحديث قبل أن تفرض الزكاة ، أما الحج فيمكن أن نقول إن هذا الحديث قبل فرض الحج ، لكن لا يمكن أن نقول إنه قبل فرض الزكاة ، فما الجواب عن هذا ؟

ج : لعل النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – علم من حال الرجل أنه ليس ذا مال ، وعلم أنه إذا كان ذا مال فسوف يؤدي الزكاة ، لأنه قال : " وَحَرَّمتُ الحَرَام " ومنع الزكاة من الحرام .

أما الحج فما أسهل أن نقول : لعل هذا الحديث قبل فرض الحج ، لأن الحج إنما فرض في السنة التاسعة أو العاشرة . وأما قوله تعالى : (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ) (البقرة / ١٩٦) فهذا فرض إتمامه لا ابتدائه . وقد يقال : ذلك داخل في قوله : " حَرَّمتُ الحَرَامَ " لأن ترك الحج حرام وترك الزكاة حرام .

س : لم يذكر النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في هذا الحديث الزكاة ولا الحج ؟

ج : أما الزكاة ، لعل النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – علم من حاله أنه فقير ولا يستطيع عليها .

وأما الحج ، فلعله لم يفرض بعد .

الحديث الثالث والعشرون

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الحَارِثِ بنِ عَاصِمِ الأَشْعَرِيّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيْمَانِ ، والحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الميزانَ ، وسُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ – أَو تَمْلأُ – مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ ، وَالصَّلاةُ نُورٌ ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَو عَلَيْكَ ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَو مُوبِقُهَا " رواهُ مسلمٌ [(١)] .

المعنى الإجمالي

هذا حديث عظيم ، و هو أصل من أصول الإسلام ، قد اشتمل على مهمات من قواعد الإسلام ؛ منها فضل الطُّهُور والطهارة ، وقد اختُلِفَ في معنى قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيْمَانِ " ؛ فقيل : معناه أن الأجر فيه ينتهي تضعيفه إلى نصف أجر الإيمان ؛ وقيل : معناه أن الإيمان يَجُبُّ ما قبله من الخطايا ، وكذلك الوضوء ، وقيل المراد بالإيمان هنا الصلاة ، وقيل : الإيمان انقيادٌ في الباطن والطهور دلالة على الانقياد في الظاهر ، فكان في معنى الشطر .

وفيه بيان لفضل التسبيح والتحميد : كما في قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض " ، وسبب عِظَم فضلهما ما اشْتَمَلَتا عليه من التنزيه لله عز وجل بقوله : " سبحان الله " ، والتسليم والافتقار والشكر لله تعالى بقوله : " الحمد لله " .

توضيح الحديث

(المعنى)

" الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيْمَانِ "

(الطُّهُورُ) : بالفتح اسمٌ لما يُتَطَهَّرُ به – الماء – ، وبالضم فِعْلُ الطهارة أي التطهير بالماء من الأحداث . والمراد به الوضوء ، سمي طهورًا لأنه يطهر الأعضاء ، وهو المراد هنا .

(شَطْرُ الإِيْمَانِ) : أي نصفه ، وذلك أن الإيمان – كما يقولون – تخلية وتحلية .

التخلية : بالطهور ، والتحلية : بفعل الطاعات .

فوجه كون الطهور شطر الإيمان : أن الإيمان إما فعل وإما ترك .

والتّركُ تَطَهُّرٌ ، والفعل إيجاد .

فقوله : " شَطْرُ الإِيْمَانِ " قيل في معناه : التخلي عن الإشراك لأن الشرك بالله نجاسة كما قال الله تعالى : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَس) (التوبة / ٢٨) فلهذا كان الطهور شطر الإيمان ، وهذا المعنى أحسن وأعمّ .

---

(١) (رواية مسلم برقم / ٥٥٦) إلا أنها تختلف في الآتي :

١ – كلمة : (السَّمَوَاتِ) بدلًا من (السَّمَاءِ) في جملة : (والحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ – أَو تَمْلأُ – مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ) .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٢٦)

١- فضل الطهور والحث على الطهور الحسي والمعنوي ، وجه ذلك أنه قال : " الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيْمَانِ "

٢- أن الإيمان يتبعض ، فبعضه فعل وبعضه ترك .

٣- الإيمان قول وعمل يزيد بالأعمال الصالحة والطاعة ، وينقص بالمعاصي الآثام .

٤- الرد على المرجئة الذين يخرجون الأعمال عن مسمَّى الإيمان .

(المعنى)

" والحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الميزانَ ، وسُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ – أَو تَمْلأُ – مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ "

(وَالحَمْدُ للهِ تَمْلأُ المِيزَانَ) : يعني قول القائل : الحمد لله يمتلئ الميزان بها ، أي الميزان الذي توزن به الأعمال

(المِيزَان) : كفة الحسنات فيما يوزن به أعمال العباد يوم القيامة .

(وسُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ) : فيها نفي وإثبات . النفي في قوله : " سُبْحَانَ اللهِ " أي تنزيهًا لله عزّ وجل عن كل ما لا يليق به .

(وَالحَمْدُ للهِ) : الحمد يكون على صفات الكمال ، فالحمد هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم ، فتكون هذه الجملة : " سُبْحَانَ اللهِ ، والحَمْدُ للهِ " فيها : نفي النقص ، وإثبات الكمال .

(تَمْلآنِ – أو تَمْلأُ –) : لو قدر ثوابهما جسمًا لملأ ما بين السماء والأرض ، لتضمنهما التنزيه والثناء على الله عز وجل و (أو) للشك من الراوي يعني هل قال : تملآن ما بين السماء والأرض ، أو قال : تملأ ما بين السماء والأرض . والمعنى لا يختلف ، ولكن لحرص الرواة على تحرّي الألفاظ يأتون بمثل هذا .

(مَا بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ) : والذي بين السماء والأرض مسافة لا يعلمها إلا الله عزّ وجل . وظاهر الحديث : أنها تملأُ ما بين السماء والأرض ليس في منطقتك وحدك ، بل في كل المناطق .

(المستفاد)

٥- فضيلة حمد الله عزّ وجل حيث قال : إنها تملأ الميزان .

٦- إثبات الميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة ، والميزان جاء ذكره في القرآن عدة مرات ، جاء ذكره مجموعًا وذكره مفردًا .

٧- الأعمال توزن يوم القيامة ولها ثقل .

٨- فضيلة الجمع بين سبحان الله والحمد لله لقوله : " سُبحَانَ الله وَ الحَمدُ لِلهِ تَملآنِ مَا بَينَ السَمَاءِ وَالأَرضِ " ووجه ذلك أن الجمع بينهما جمع بين نفي العيوب والنقائص وإثبات الكمالات .

ففي " سُبحَانَ الله " نفي العيوب والنقائص ، وفي " الحَمدُ لِلهِ " إثبات الكمالات .

(المعنى)

" وَالصَّلاةُ نُورٌ ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ "

(وَالصَّلاةُ نُورٌ) : أي صلاة الفريضة والنافلة نور ، يستنير بها قلب المؤمن في الدنيا ، وربما يظهر على وجهه البهاء ، ونور في القبر ، ونور في الحشر ، وتكون له نورًا في ظلمات يوم القيامة لأن الحديث مطلق .

(والصَّدَقَةُ) : الصدقة : بذل المال للمحتاج تقرّبًا إلى الله عزّ وجل .

(بُرْهَانٌ) : أي دليل على صدق إيمان المتصدّق ، لأن المنافق يمتنع منها لكونه لا يعتقد الثواب فيها .

(وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ) : الصبر: حبس النفس عما يجب الصبر عنه وعليه .

(وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ) : ولم يقل : إنه نور ، والصلاة قال : إنها نور . وذلك لأن الضياء فيه حرارة ، كما قال الله عزّ وجل : (جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً) (يونس / ٥) ففيه حرارة ، والصبر فيه حرارة ومرارة ، لأنه شاق على الإنسان ، ولهذا جعل الصلاة نورًا ، وجعل الصبر ضياءً لما يلابسه من المشقة والمعاناة .

(المستفاد)

٩- أن الصلاة نور .

١٠- الحث على الصدقة ، لقوله : " الصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ " .

١١- أن بذل المحبوب يدل على صدق الباذل ، والمحبوب الذي يُبذَل في الصدقة هو المال .

١٢- الحث على الصبر وأنه ضياء وإن كان فيه شيء من الحرارة ، لكنه ضياء ونور لقوله : " وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ " .

١٣- عظم ثواب الصلاة والصدقة والصبر .

(المعنى)

(والقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَو عَلَيْكَ) : القرآن هو كلام الله عزّ وجل الذي نزل به جبريل الأمين القوي على قلب – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من عند الله تعالى ، لا تبديل فيه ولا تغيير .

هذا القرآن كلام الله ، تكلّم به حقيقة ، وسمعه جبريل عليه السلام ، ونزل به على قلبه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – . هذا القرآن الكريم هو كلام الله ، لفظه ومعناه ، فالأمر والنهي والخبر والاستخبار والقصص كلها كلام الله .

(القُرآنُ حُجَّةٌ لكَ) : يدلك على النجاة إن عملت به .

(أَو عَليكَ) : إن أعرضت عنه ، فيدل على سوء عاقبتك . ويكون حجة عليك .

(المستفاد)

١٤- الإقبال على قراءة القرآن الكريم بفهم وتدبر معناه ، والعمل بمقتضاه لأنه يشفع للعبد يوم القيامة .

١٥- أن من تبع القرآن قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره وأعرض عنه قذف في النار .

١٦- أن حامل القرآن إما غانم وإما غارم ، ويتفرع على هذه الفائدة :

أن يحاسب الإنسان نفسه هل عمل بالقرآن فيكون حجة له ، أو لا ، فيكون حجة عليه فليستعتب .

١٧- عظمة القرآن وأنه لن يضيع هكذا سدىً ، بل إما للإنسان وإما على الإنسان .

(المعنى)

" كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَو مُوبِقُهَا "

(كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو) : أي كل الناس يخرج مبكرًا في الغدوة في الصباح وهذا من باب ضرب المثل .

(والغدو) : الذهاب ما بين طلوع الفجر وشروق الشمس .

(فَبَائِعٌ نَفْسَهُ) : أي الغادي يبيع نفسه ، ومعنى يبيع نفسه أنه يكلفها بالعمل ، لأنه إذا كلفها بالعمل أتعب النفس فباعها لله بطاعته ، أو لشيطانه بمعصيته لله تعالى .

ينقسم هؤلاء الباعة إلى قسمين : معتق و موبق .

(فَمُعْتِقُهَا) : مخلصها من الخزي والعذاب ، فيكون بيعه لنفسه إعتاقًا من العذاب إذا قام بطاعة الله .

(أَو مُوبِقُهَا) : مهلكها ببيعها للشيطان والهوى باتباعهما . والذي أوبقها هو الذي لم يقم بطاعة الله عزّ وجل حيث أمضى عمره خسرانًا ، فهذا موبق لها أي مهلك لها .

(المستفاد)

١٨- بيان حال الناس وأن كل الناس يعملون من الصباح ، وأنهم يبيعون أنفسهم .

١٩- إن كل إنسان إما ساع في إهلاك نفسه ، أو في فكاكها ، فمن سعى في طاعة الله فقد با ع نفسه لله . وأعتقها من عذابه ، ومن سعى في معصية الله فقد با ع نفسه بالهوان ، وأوبقها بالآثام الموجبة لغضب الله وعقابه .

٢٠- الحديث دليل على أن الشخص له إرادة واختيار ، بها يختار إعتاق النفس من النار أو يرضى بإهلاكها .

٢١- الحديث دليل على أن الأعمال تنسب للفاعل ، فهو الذي يعتق نفسه ، وهو الذي يهلك نفسه وهذا مذهب أهل السنة والجماعة .

٢٢- مجاهدة النفس على العمل الصالح .

٢٣- التحذير من الأعمال السيئة .

٢٤- على المسلم أن يستفيد من وقته وعمره في طاعة الله عز وجل ولا ينشغل عنه بغيره .

٢٥- هناك مناسبة ظاهرة بين نهاية الحديث مع أوله فبعد أن ذكر جملة من الأعمال من الطهور والتحميد والتسبيح والصلاة والصدقة والصبر والقرآن ذكر أن من عمل هذه الأعمال أعتق نفسه ومن تركها وتهاون أهلك نفسه .

٢٦- أن الحرية حقيقة هي القيام بطاعة الله عزّ وجل ، وليس إطلاق الإنسان نفسه ليعمل كل سيء أراده ، قال ابن القيم - يرحمه الله - في النونية :

هَرَبُوا مِن الرّقِّ الذي خُلِقُوا لَهُ ... فَبُلُوا بِرِقّ النَّفْسِ والشَّيطانِ

فكل إنسان يفر من عبادة الله فإنه سيبقى في رق الشيطان . وأما قوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَو مُوبِقُهَا " ، فمعناه : كل إنسان يسعى بنفسه فمنهم من يبيعها لله عز وجل بطاعته فيعتقها من العذاب ، ومنهم من استجاب للعمل بما مضى في الحديث ، والتحذير والوعيد لمن أعرض ولم يرفع لذلك رأسًا .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : كيف يكون الطهور شطر الإيمان ؟

ج : الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيْمَانِ أي نصفه ، وذلك أن الإيمان – كما يقولون – تخلية وتحلية .

التخلية : بالطهور ، والتحلية : بفعل الطاعات .

فوجه كون الطهور شطر الإيمان : أن الإيمان إما فعل وإما ترك .

والتّركُ تَطَهُّرٌ ، والفعل إيجاد .

فقوله : " شَطْرُ الإِيْمَانِ " قيل في معناه : التخلي عن الإشراك لأن الشرك بالله نجاسة كما قال الله تعالى : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَس) (التوبة / ٢٨) فلهذا كان الطهور شطر الإيمان ، وهذا المعنى أحسن وأعمّ .

وقيل : شطر الإيمان : نصف الإيمان ، لأن خصال الإيمان على قسين : أحدهما : يطهر القلب ويزكيه ، والآخر : يطهر الظاهر ، فهما نصفان بهذا الاعتبار ، و في توجيه كون الطهور شطر الإيمان أقوال أخر ، والله أعلم بمراد رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

س : هذا الميزان هل هو حسي أو معنوي ؟

ج : القول الصحيح : إنه حسي ، له كفتان وله لسان ، توزن به الأعمال الصالحة والسيئة .

س : كيف يوزن العمل وهو ليس بجسم ، وكيف الحمد تملأ الميزان وهي ليست بجسم ؟

ج : الجواب عن كل هذا سهل ، وهو : أن الله عزّ وجل قادر على أن يجعل الأعمال أجسامًا والمعاني أجسامًا ، فإنه على كل شيء قدير عزّ وجل ، ألم يثبت عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنه أخبر أن البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان تظلان صاحبهما ، وهما عمل ، لكن الله على كل شيء قدير .

الحديث الرابع والعشرون

عَنْ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِي – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عَن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فيمَا يَرْويه عَنْ رَبِّهِ عزَّ وجل أَنَّهُ قَالَ : (يَا عِبَادِيْ ، إِنِّيْ حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِيْ ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوْا ، يَا عِبَادِيْ ، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَاسْتَهْدُوْنِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِيْ ، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِيْ ، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُوْنِيْ أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِيْ ، إِنَّكُمْ تُخْطِئُوْنَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوْبَ جَمِيْعًا ، فَاسْتَغْفِرُوْنِيْ أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِيْ ، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوْا ضَرِّيْ فَتَضُرُّوْنِيْ ، وَلَنْ تَبْلُغُوْا نَفْعِيْ فَتَنْفَعُوْنِيْ ، يَا عِبَادِيْ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوْا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِيْ مُلْكِيْ شَيْئًا . يَا عِبَادِيْ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوْا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِيْ شَيْئًا ،

يَا عِبَادِيْ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوْا فِيْ صَعِيْدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُوْنِيْ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِيْ إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ ، يَا عِبَادِيْ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيْهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيْكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُوْمَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ) رواهُ مسلمٌ (١) .

المعنى الإجمالي

هذا حديث جليل القدر ، عظيم الفوائد ، اشتمل على جُمَلٍ من القواعد والفوائد ؛ منها :

تحريم الظلم للنفس والغير ، تفويض الأمور كلها لله ، والتوكُّل عليه في طلب أمور الهداية والمعاش ، طلب المغفرة من الله تعالى وسَعَة عفوه ورحمته ، إثبات إرادة العبد واختياره ، فلا هو مجبور كما تقول الجبرية ، ولا هو خالقٌ لأفعاله كما تقول القدرية .

– وهو من الأحاديث القدسية ، والحديث القدسي : هو مايرويه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن ربه عز وجل ، وتسمى الأحاديث الإلهية ، وهي أكثر من مائة حديث ، وقد جمعها بعض الأئمة منهم : علي بن بلبان في كتابه المسمى : " المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية " جمع فيه مائة حديث .

● وسمي القدسي بذلك : نسبةُ إلى الذات الإلهية المقدسة ، وقيل : لأنه يتناول ما يتعلق بتقديس الله وتنزيهه ، وبيان قدرته وانفراده بشئون الخلق والأمر والتدبير والحُكْم .

فموضوعها الكشف عن عظمة الله تعالى وما يتعلق بذلك من صفاته جل وعلا .

وأما الأحاديث النبوية فتشمل ذلك وتزيد عليه في التشريعات و الأمور الاجتماعية وغير ذلك ، وتستمدّ نسبتها من قائلها – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فنِسْبَتها إلى النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – . (*) .

---

(١) (رواية مسلم برقم / ٦٧٣٧) إلا أنها تختلف في الآتي :

١ – كلمة : (مِنْكُمْ) في جملة (كَانُوْا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ) ليست موجودة في الأصل .

٢ – كلمة : (وَاحِدٍ) في جملة (فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ) في الأصل (فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ) .

(*) ● فائدة :

ومن الحِكَم في وجود الأحاديث القدسية : =

توضيح الحديث

(المعنى)

(عَن النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فيمَا يَرْوِيه عَنْ رَبِّهِ عزَّ وجل) : هذا ما يعرف بالحديث القدسي ، وهو ما يرويه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن الله – عز وجل – .

= تخصيص الأمة الإسلامية وتفضيلها ، لأن الله تعالى أعطاها ما أعطى مَنْ سبقها مِنْ الأمم مِنْ كلامه ، مجردًا عن خاصية الإعجاز ، وزادها بإنزال الكتاب المُعْجِز إتمامًا للفضل .

● فائدة :

وساغتْ نِسْبة الحديث القدسي إلى الله تعالى ، رغم أنَّ لفظه من الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

باعتبار مضمونه لا باعتبار ألفاظه ، كما تقول : قال الشاعر ، وتقول كلامًا منثورًا أو تحكي مقالة فلان نثرًا ، كما ذكر القرآن مضمون كلام موسى وفرعون وغيرهما بألفاظ غيرألفاظهم وأسلوب غير أسلوبهم ونَسَبَ ذلك إليهم . وبناءً على ذلك : لا يسمى الحديث النبوي قدسيًا . وإن كان معناه أيضًا من عند الله و لا تخرج الأحاديث النبوية بجملتها عن الوحي لكن ليس معنى هذا أن كل حديث بعينه موحى إليه كما هو الحال في الحديث القدسي ؛ بل قد ينطق – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مجتهدًا فيقره الوحي على الصواب ، و يقومه إذا لم يوفق في الحال .

وقال البعض : إن الحديث القدسي لا يختلف عن الحديث النبوي إلا في إسناد الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – له عن ربه .

● فرع : في الفرق بين الحديث القدسي والقرآن :

١ – القرآن نزل للتحدي والإعجاز ، بخلاف الحديث القدسي

٢ – القرآن عن الله لفظًا ومعنىً ، وأما الحديث القدسي فعن الله معنىً دون اللفظ ، وقيل : اللفظ من الله أيضًا .

ولكن يرد عليه أنه لو كان كذلك لكان أعلى سندًا من القرآن في بعض الأحيان ، وذلك إذا رواه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن ربه بدون واسطة ، وكذلك لو كان اللفظ والمعنى من عند الله لكانت الحكمة تقتضى تساويه مع القرآن في الحكم ، حيث اتفقا في الأصل ومعلوم ما بينهما من فرق .

ثم لو قيل إن الأولى ترك الخوض في هذا خوفًا من أن يكون من التنطع الهالك فاعله ، والاقتصارعلى القول بأن الحديث القدسي ما رواه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن ربه وكفى ، لكان كذلك كافيًا ولعله أسلم ؛ بل ذلك أحسن ما يقال في الحديث القدسي ، و لانبحث هل هو من قول الله لفظًا ومعنى ، أو من قول الله معنى ومن لفظ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ؛ لأن هذا فيه نوع من التكلف وقد نهينا عن التكلف ، ونهينا عن التنطع .

٣ – يحرم حمل القرآن وقرأته على الجنب ، ولا يحرم ذلك في الحديث القدسي .

٤ – القرآن كله قطعي الثبوت بالتواتر ونقل الكافة له ، والحديث القدسي لا يشترط أن يكون قطعيًا .

٥ – القرآن متعبد به بخلاف الحديث القدسي .

٦ – القرآن ينزل به المَلَك وحيًا بخلاف الحديث القدسي فإنه ينزل به المَلَك وقد يكون إلهامًا ومنامًا وغير ذلك .

● فرع : وأما الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي :

١– الحديث القدسي من الله معنىً لا لفظًا ، والثاني من النبي لفظًا ومعنىً .

٢ – الحديث القدسي يصدر بالرواية عن الله بخلاف النبوي ، ولذا قيل في تعريف الحديث القدسي : هو ما يرويه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن الله تبارك وتعالى بواسطة جبريل عليه السلام ، وتارة بالوحي والإلهام والمنام مفوّضًا إليه التعبير بأية عبارة شاء من أنواع الكلام .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ١١٨)

١– أن من السُنَّة ما هو من كلام الله [1] ، وهو ما يرويه النبي عن ربه ، وهو ما يعرف بالحديث القدسي .

٢– رواية النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن ربه عزّ وجل ، وهذا أعلى مراتب السند ، لأن غاية السند : إما الرب عزّ وجل وهذا في الأحاديث القدسية ، وإما النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وهذا في الأحاديث المرفوعة ، وإما عن الصحابة وهذا في الأحاديث الموقوفة ، وإما عن التابعين ومن بعدهم وهذا في الأحاديث المقطوعة .

٣– إن أحسن ما يقال في الحديث القدسي : إنه ما رواه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن ربه عزّ وجل ، ونقتصر على هذا ولا نبحث هل هو من قول الله لفظًا ومعنى ، أو من قول الله معنى ومن لفظ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، لأن هذا فيه نوع من التكلّف وقد نهينا عن التكلّف ، ونهينا عن التنطّع وعن التعمّق .

(المعنى)

(يَا عِبَادِي) : يشمل كل من كان عابدًا بالعبودية العامة والعبودية الخاصة .

(المستفاد)

٤– إثبات القول لله عزّ وجل وهذا كثير في القرآن الكريم ، وهو دليل على ما ذهب إليه أهل السنة من أن كلام الله يكون بصوت ، إذ لا يطلق القول إلا على المسموع .

٥– عظيم رحمة الله بعباده ورفقه بهم حيث ناداهم بهذا اللفظ (يا عبادي) المشعر بالرحمة والرفق والحث .

٦– يربي في نفس المسلم رحمة الله سبحانه وتعالى وهذا ظاهر في جميع ألفاظ الحديث .

---

(١) فيه إثبات صفة القول لله تعالى ، وأنه – سبحانه – يتكلم بحرف وصوت يسمع . ما جاء في إثبات صفة القول وهو والكلام عبارتان عن معنى واحد .

أولًا من الكتاب :

قال الله عز وجل : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني) . وقال تعالى : (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) .

وقال جَلَّ وعلا : (ما يبدَّل القول لدي) . وقال جَلَّ جلاله : (ومن أصدق من الله قيلا) . وقال تبارك وتعالى : (ومن أصدق من الله حديثًا) .

وقال تعالى : (سلام قولا من رب رحيم) . وقال عز وجل : (قوله الحق) . وقال جَلَّ وعلا : (فالحق والحق أقول) ؛ فأثبت الله جل ثناؤه لنفسه صفة القول في هذه الآيات .

ثانيًا من السنة : – عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدْعُو مِنَ اللَّيْلِ : " اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِنَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قَوْلُكَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ أَنْتَ إِلَهِي لاَ إِلَهَ لِي غَيْرُكَ " . (خ / ٧٣٨٥ ، م / ٧٦٩) .

– عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ ، وَعَلَا صَوْتُهُ ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ : " صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ " ، وَيَقُولُ : " بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ " ، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ ، وَالْوُسْطَى ، وَيَقُولُ : " أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " ثُمَّ يَقُولُ : " أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ " . (م / ٨٦٧) .

وذكر البخاري في باب كَيْفَ فُرِضَتِ الصَّلاَةُ فِي الإِسْرَاءِ ، فَذَكَرَ مُرُورَهُ عَلَى مُوسَى ، وَأَمْرُهُ إِيَّاهُ بِمَسْأَلَةِ التَّخْفِيفِ ، وَذَكَرَ مُرَاجَعَتَهُ فِي ذَلِكَ حَتَّى صَارَ إِلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ ، وَأَنَّهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " يَا رَبِّ ، أُمَّتِي ضِعَافٌ أَجْسَادُهُمْ ، وَقُلُوبُهُمْ ، وَأَسْمَاعُهُمْ ، وَأَبْصَارُهُمْ ، فَخَفِّفْ عَنَّا ، فَقَالَ : إِنِّي لا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ، هِيَ مَا كَتَبْتُ عَلَيْكَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ، وَلَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، هِيَ خَمْسُونَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ، وَهِيَ خَمْسٌ عَلَيْكَ .

(خ / ٣٤٩) .

٧- أن لفظ (يا عبادي) فيه تذكير للعباد بالحكمة التي من أجلها خلقوا وهي عبادة الله .

قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

٨- يورث الحياء من الله ، فمع غناه الكامل وعظمته إلّا أنه ينادي عباده بنداء لطيف لدعائه وعبادته واستغفاره .

٩- أن جميع الثقلين عباد لله مؤمنهم وكافرهم ، وهذه هي العبودية العامة .

(المعنى)

(إِنِّي حَرَّمتُ الظُّلمَ عَلَى نَفسِي)

(حَرَّمْتُ) : منعت .

(الظُّلْمَ) : وهو لغة : وضع الشيء في غير موضعه ، وهو مجاوزة الحد والتصرف في حق الناس بغير حق وهو مستحيل على الله تعالى .

(عَلَى نَفْسِيْ) : فضلا مني ، وجود و إحسانًا إلى عبادي ، فلا أعاقب البريء على ما لم يفعل من السيئات ، ولا أعاقب أحدًا بذنب غيره ، ولا أنقص المحسن شيئًا من جزاء حسناته ، ولا أحكم بين الناس إلا بالعدل والقسط .

(إِنِّي حَرَّمتُ الظُّلمَ عَلَى نَفسِي) : أي منعته مع قدرتي عليه ، وإنما قلنا : مع قدرتي عليه لأنه لو كان ممتنعًا على الله لم يكن ذلك مدحًا ولا ثناءً ، إذ لا يُثنى على الفاعل إلا إذا كان يمكنه أن يفعل أو لا يفعل .

(المستفاد)

١٠- أن لله عزّ وجل يحرم على نفسه ما شاء لأن الحكم إليه ، فنحن لا نستطيع أن نحرم على الله لكن الله يحرم على نفسه ما شاء ، كما أنه يوجب على نفسه ما شاء .

١١- أن الله تعالى قادر على الظلم لكنه حرّمه على نفسه لكمال عدله ، وجه ذلك : أنه لو كان غير قادر عليه لم يثن على نفسه بتحريم الظلم لأنه غير قادر .

١٢- تنزيه الله عن الظلم ، ومن صوره أن يعذب أحدًا بذنب غيره .

١٣- أن من صفات الله ما هو منفي مثل الظلم ، ولكن اعلم أنه لا يوجد في صفات الله عزّ وجل نفي إلا لثبوت ضده ، فنفي الظلم يعني ثبوت العدل الكامل الذي لا نقص فيه .

١٤- الرد على الجبرية الذين يقولون إن الظلم من الله هو الممتنع لذاته ، وإن كل ممكن فإنه يجوز على الرب .

١٥- الله يحب المدح ولذلك مدح نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وحتى الصفات المنفية عن الله كالنوم والسنة والموت تتضمن مدحًا فلا ينام سبحانه لكماله ولا يموت لقيوميته وحياته سبحانه ، وهذا الحديث كله مدح لله فهو أهل للمدح .

١٦- إطلاق النفس على الذات لقوله : " عَلَى نَفْسِيْ " والمراد بنفسه ذاته عزّ وجل ، كما قال تعالى : (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) (آل عمران / ٢٨) وليس النفس صفة كسائر الصفات : كالسمع والعلم والقدرة ، فالنفس يعني الذات ، وكلمة النفس أصوب من كلمة ذات لكن شاع بين الناس إطلاق الذات دون إطلاق النفس ، ولكن الأصل العربي : النفس .

(المعنى)

(وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا) : أي صيّرته بينكم محرمًا وحكمت بتحريمه عليكم .

(فَلا تَظَالَمُوا) : بتشديد الظاء وبتخفيفها أصله تتظالموا ، لا يظلم بعضكم بعضًا .

(المستفاد)

١٧- تحريم الظلم بين الناس لقوله (فلا تظالموا) ، وذلك متفق عليه في كل ملة ، لاتفاق سائر الملل على مراعاة حفظ النفس والأنساب والأعراض والعقول والأموال ، والظلم يقع في هذه أو بعضها ، وأعظم الظلم الشرك ، قال تعالى : (إن الشرك لظلم عظيم) .

١٨- أن شرائع الله مبنية على العدل .

١٩- إقامة العدل في التعامل بين الناس وتحريم الظلم فيما بينهم من أهم مقاصد الإسلام .

٢٠- أن الله تعالى حرّم الظلم بيننا فقال : " وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا " وهذا يشمل ظلم الإنسان نفسه وظلم غيره ، لكن هو في المعنى الثاني أظهر لقوله : " فَلا تَظَالَمُوا " أي فلا يظلم بعضكم بعضًا .

(المعنى)

(ضَالٌّ) : أي تائه عن الطريق المستقيم .

(إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ) : أي علمته ووفقته لا متثال الأمر واحتناب النهي ، و علمته : هذه هداية الإرشاد ، ووفقته : هداية التوفيق .

(فَاستَهدُونِي) : أي اطلبوا مني لا من غيري الهداية والدلالة على طريق الحق والإيصال إليها .

(أَهدِكُمْ) : وهذا جواب الأمر ، أنصب لكم أدلة ذلك الواضحة ، وأوفقكم لها ، وهذا كقوله : (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (غافر / ٦٠) .

(المستفاد)

٢١- أن الإنسان ضال إلا من هدى الله ، ويتفرع على هذه الفائدة :
أن تسأل الله الهداية دائمًا حتى لا تضلّ ، وعلى المرء أن يسير في طريق الهداية .

٢٢- الحثّ على طلب العلم ، لقوله : "كُلُّكُم ضَالٌّ " ولا شكّ أن طلب العلم من أفضل الأعمال ، بل قد قال الإمام أحمد – يرحمه الله – : (العلم لا يعدله شيء لمن صحت نيته) لا سيما في هذا الزمن الذي كثر فيه الجهل ، وكثر فيه الظن وأفتى من لا يستحق أن يفتي ، فطلب العلم في هذا الزمان متأكد .

٢٣- أن لا تطلب الهداية إلا من الله لقوله : " فَاستَهدُونِي أَهدِكُم " .

٢٤- يجب على المسلم أن يعمل بأسباب الهداية وأن يحرص عليها .

قوله : " يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ... " فيه فوائد منها :

٢٥- أن الأصل في المكلّفين : الضلال ، وهو الجهل بالحق وترك العمل به ، ويشهد لذلك قوله تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (الأحزاب / ٧٢) .

ب – أن ما يحصل للعباد من علم أو اهتداء ، فبهداية الله وتعليمه .

٢٦– الإرشاد إلى طلب الهدى من الله لقوله : " فاستهدوني " ، والهداية من الله نوعان :

أ – هداية البيان والإرشاد : وهي عامة لسائر المكلفين ، وهي مقدورة للخلق كما قال تعالى : (وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (الشورى / ٥٢) .

ب – وهداية التوفيق لقبول الحق والعمل به : وهي هداية خاصة ولا يقدر عليها إلا الله عز وجل ، قال تعالى :

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (القصص / ٥٦) والهداية في هذا الحديث يحتمل أن تكون هي الهداية الخاصة ويحتمل أن تكون شاملة للنوعين ، وهو أظهر ، لقوله تعالى :

(اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ) (الفاتحة / ٦) .

٢٧– أن الدعاء سبب لهداية الله .

٢٨– أن الهدى من الله وحده .

٢٩– أن من يهديه الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .

٣٠– الرد على القدرية في قولهم باستقلال العبد في إيمانه وكفره وهداه وضلاله .

(المعنى)

(يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ) : أي كلكم جائع إلا من أطعمه الله ، وهذا يشمل ما إذا فقد الطعام ، أو وجد ولكن لم يتمكن الإنسان من الوصول إليه .

(فَاسْتَطْعِمُونِي) : أي اطلبوا مني الإطعام ، وإذا طلبتم ذلك ستجدونه .

(أُطْعِمْكُمْ) : أطعم : فعل مضارع مجزوم على أنه جواب الأمر .

(المستفاد)

٣١– أن العباد في الأصل جياع ، لأنهم لايملكون أن يخلقوا ما تحيى به الأجساد ويتفرع على هذه الفائدة قوله :

" فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ " أي اسألوني الطعام أطعمكم ، وعليه فلا تلجأ في طلب الرزق إلا من الله عزّ وجل .

٣٢– وقوله : " اسْتَطْعِمُونِي " يشمل سؤال الله عزّ وجل الطعام ، ويشمل السعي في الرزق وابتغاء فضل الله عزّ وجل وإلا فمن المعلوم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا درهمًا ولا خبزًا ، بل لابد من السعي .

وقوله : " يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته .. " فيه فوائد منها :

٣٣ – تعريف العباد بفقرهم وحاجتهم إلى الله من جميع الوجوه .

٣٤ – فقر العباد إلى الله في طعامهم وشرابهم .

٣٥ – الإرشاد إلى طلب ذلك من الله .

٣٦ – أن الدعاء سبب لنيل ما عند الله .

٣٧ – مشروعية الدعاء في مطالب الدنيا والآخرة ، وهو لا ينافي الأخذ بالأسباب الأخرى حسب السنن الكونية كالتجارة والزراعة والصناعة .

٣٨ – أن الله تعالى هو الذي يطعم العباد ويسقيهم ، كما قال إبراهيم – عليه السلام – :
(وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ) (الشعراء / ٧٩) ، وقال تعالى : (الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) (قريش / ٤) وقال تعالى : (كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ) (البقرة / ٦٠) .

٣٩ – أن كل طعام يحصل للعبد فهو بإطعام الله ، ولو حصل على يد بعض العباد .

٤٠ – دفع القدر بالقدر ، ومنه دفع الجوع بالدعاء وبالأكل .

٤١ – أن من لم يطعمه الله فلا مطعم له .

(المعنى)

(يَا عِبَادِي كُلُّكُم عَارٍ) : فكلنا عار ، لأننا خرجنا من بطون أمهاتنا عراة .
(إِلاّ مَنْ كَسَوتُهُ فَاستَكْسُونِي أَكْسُكُمْ) : سواء أكان من فعل الإنسان كالكبير يشتري الثوب ، أم من فعل غيره كالصغير يُشترى له الثوب ، وربما يقال : إنه يشمل لباس الدين ، فيشمل الكسوتين : كسوة الجسد الحسيّة ، وكسوة الروح المعنوية .

(المستفاد)

٤٢ – أن الأصل في الإنسان العري حتى يكسوه الله عزّ وجل ، وسبق شرح أنه في الأصل العري الحسي ، وقد يراد به المعنوي أيضًا .
وقوله : " يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ " فيه فوائد منها :

٤٣ – فقر العباد إلى الله في كسائهم .

٤٤– الإرشاد إلى طلب ذلك من الله .

٤٥– مشروعية الدعاء حتى في منافع الدنيا من الطعام والشراب والكسوة .

٤٦– أن الله هو الذي يكسو العباد بما يخلقه لهم وييسره بما يستر عوراتهم ويتجملون به كما قال تعالى :
(يَا بَنِي ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) (الأعراف / ٢٦) .

٤٧– أن ما يحصل للعبد من لباس وزينة فهو من الله ولو كان ذلك بسبب من الأسباب ،أو على يد بعض العباد .

٤٨– دفع القدر بالقدر ، ومن ذلك دفع العري بالدعاء وبما يسر الله من اللباس .

٤٩– أن من لم يكسه الله فلا كاسيَ له .

٥٠– أن الهدى من الضلال أهم من الغذاء والكساء فبالهدى حياة الروح وسعادتها ، وبالغذاء والكساء حياة البدن وجماله .

٥١– يربي التفكر في حياة الإنسان نفسه ، في طعامه وشرابه ولباسه ، فمن تفكر فيها وكيف أتته ؟ ومن ساقها إليها ؟ قاده ذلك إلى شكرها والاعتراف بفضل المنعم بها .

(المعنى)

(يَا عِبَادي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ) : بضم التاء على الرواية المشهورة ، أي تجانبون الصواب ، لأن الأعمال إما خطأ وإما صواب ، فالخطأ مجانبة الصواب وذلك إما بترك الواجب ، وإما بفعل المحرّم ، أو تأثمون .

(بِاللَّيْلِ) : الباء هنا بمعنى : (في) كما هي في قول الله تعالى : (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ) (الصافات / ١٣٧ ، ١٣٨) أي وفي الليل .

(وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) : أي أسترها وأتجاوز عنها مهما كثرت ، ومهما عظمت ، غير الشرك وما لا يشاء مغفرته ، ولكن تحتاج إلى الاستغفار .

(فَاستَغفِرُونِي أَغْفِر لَكُم) : أي اطلبوا مغفرتي ، إما بطلب المغفرة كأن يقول : اللهم اغفر لي ، أو : أستغفر الله وأتوب إليه . وإما بفعل ما تكون به المغفرة ، سلوني المغفرة ، وهي ستر الذنب ومحو أثره . وأمن عاقبته .

(المستفاد)

٥٢- كرم الله عزّ وجل حيث يعرض على عباده بيان حالهم وافتقارهم إليه ، ثم يدعوهم إلى دعائه عزّ وجل حتى يزيل عنهم ما فيهم من الفقر والحاجة .

٥٣- أن ابن آدم خطَّاء ، أي كثير الخطأ ، كما قال الله عزّ وجل : (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (الأحزاب / ٧٢) .

وقوله : " يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ " فيه فوائد منها :

٥٤- كثرة تعرض العباد للذنوب .

٥٥- أن من صفات الله مغفرة الذنوب .

٥٦- أنه سبحانه وتعالى يغفر جميع الذنوب لمن تاب ، ويشهد لهذا الحديث من القرآن قوله تعالى :
(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزمر / ٥٣) والمراد لمن تاب .

٥٧- الأمر بالاستغفار وأنه سبب المغفرة ، فإن كان الاستغفار متضمنًا للتوبة كان الوعد بالمغفرة وعدًا محققًا ، وإن لم يكن متضمنًا للتوبة فالوعد بالمغفرة مقيد بالمشيئة وذلك فيما دون الشرك كما قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء) (النساء / ٤٨) فإن الله يغفر لمن يشاء ويتوب على من تاب .

٥٨- الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره إذا استغفر صاحبه ولو كان الشرك لقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " وأنا أغفر الذنوب جميعًا " .

٥٩- أهمية الاستغفار من الذنوب وأنه مهما كثرت الذنوب والخطايا فإن الله تعالى يغفرها ، لكن يحتاج الإنسان أن يستغفر

٦٠- فيه تربية للناس على الاستغفار والإكثار منه ومداومته لفرط الحاجة إليه لقوله : " فاستغفروني أغفر لكم " .

٦١- وجوب الاستغفار من الذنوب كلها .

٦٢- قوله : " تخطئون بالليل والنهار " يربي مراقبة الله في قلب المسلم حيث علم الله ذنوبه وعدها ، ومن راقب الله نهى النفس عن الهوى .

٦٣- دل على أن العبد محتاج إلى الله سبحانه في أمور الدنيا من سد جوع وعطش ولباس ، ومحتاج إليه في أمور الآخرة من هداية ومغفرة ذنوب .

٦٤- فيه عظم حلم الله سبحانه حيث تأتيه المعاصي والذنوب والخطايا من الخلق بالليل والنهار ومع ذلك لم يعاجلهم بعقوبة .

٦٥- قوله : " وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا " يزيد من منزلة الرجاء عند المؤمن .

٦٦- أن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا ، وهذا لمن استغفر ، لقوله عزّ وجل : " فَاسْتَغْفِرُونِيْ " أما من لم يستغفر فإن الصغائر تكون مكفرة بالأعمال الصالحة لقول النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " الصلَواتِ الخَمسُ وَالجُمُعَة إلى الجُمُعَةِ وَرَمَضَان إلى رَمَضَان مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَينَهُنَّ مَا اجتَنَبَ الكَبَائِرَ " ، وأما الكبائر فلابد لها من توبة خاصة ، فلا تكفرها الأعمال الصالحة ، أما الكفر فلابد له من توبة بالإجماع .

(المعنى)

(يَا عِبَادِيَ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّيْ فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفعِي فَتَنْفَعُونِي) : أي لن تستطيعوا أن تضروني ولا أن تنفعوني ، لأن الضار والنافع هو الله عزّ وجل والعباد لا يستطيعون هذا ، وذلك لكمال غناه عن عباده عزّ وجل .

(المستفاد)

٦٧- الطاعات لا تنفع إلا أصحابها ، ولا تضر إلا إياهم ، أما الله فلا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين " يا عبادي لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني " .

٦٨- كمال سلطان الله عزّ وجل وغناه عن خلقه ، فلم يخلقهم ليتقوى بهم من ضعف ، أو يتكثر بهم من قلة ، أو يتعزز بهم من ذلة ، بل خلقهم لعبادته ، كما قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) (الذاريات / ٥٦ – ٥٨)
و لقوله عزّ وجل : " إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوْا ضَرِّيْ ... وَلَنْ تَبْلُغُوْا نَفْعِيْ " .

٦٩- الحديث يدل على عظمته سبحانه المطلقة ، وهذا ظاهر في قوله :
" لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني " .
وقوله : " يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي " فيه فوائد منها :

٧٠- أن الله تعالى لا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصين .

٧١- أنه تعالى لا يلحقه ضرر في ذاته وأسمائه وصفاته ولا في أفعاله ولا في ملكه ، بل الضرر ممتنع في حقه بخلاف الأذى فإنه جائز عليه سبحانه وواقع من بعض العباد بما يقولون أو يفعلون مما يكرهه سبحانه كما قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) (الأحزاب / ٥٧) وقال تعالى في الحديث القدسي : " يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر " . وقال : " ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله تعالى " .

٧٢- أن أمره تعالى ونهيه تعود مصلحته إلى العباد ، فمنفعة طاعاتهم ومضرة معاصيهم لهم وعليهم .

٧٣- وجوب الإقبال على المولى في جميع ما ينزل بالإنسان لافتقار سائر الخلق إليه وعجزهم عن جلب منافعهم ودفع مضارهم إلا بتيسيره . فيجب إفراده بأنواع العبادة : من السؤال والتضرع والاستعانة وغيرها ، فإنه المتفرد بخلق العبد وبهدايته وبرزقه ، وإحيائه وإماتته ، ومغفرة ذنوبه .

٧٤- ضعف المخلوقين وعدم مقدرتهم على ضر الخالق أو نفعه .

٧٥- جميع الخلق مضطرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم ودفع مضارهم في أمور الدين والدنيا .

٧٦- كرمه سبحانه وتعالى في رزق الخلق جميعًا وجلب المنافع ودفع المضار مع أن منهم الكافر والعاصي والطائع الذي قصر في طاعته .

٧٧- كمال غناه سبحانه عن العباد .

(المعنى)

(يَا عِبَادِيَ لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتقَى قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا) : يعني لو أن كل العباد من الإنس والجن الأولين والآخرين كانوا على أتقى قلب رجل ما زاد ذلك في ملك الله شيئًا ، وذلك لأن ملكه عزّ وجل عام واسع لكل شيء ، للتقيّ والفاجر .

ووجه قوله : " مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلكِي شَيئًا " أنهم إذا كانوا على أتقى قلب رجل واحد كانوا من أولياء الله ، وأولياء الله عزّ وجل جنوده ، وجنوده يتسع بهم ملكه .

ثم قال : " يَا عِبَادِيَ لَو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفجَرِ قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِن مُلْكِي شَيْئًا " ووجه ذلك : أن الفاجر عدو لله عزّ وجل فلا ينصر الله ، ومع هذا لاينقص من ملكه شيئًا لأن الله تعالى غني عنه .

(المستفاد)

٧٨- يدل على أن الجن مكلفون بعبادة الله سبحانه كالأنس وسيحاسبهم الله سبحانه .

٧٩- التقوى والفجور محلها القلب ولذلك قال : " على أتقى قلب رجل واحد منكم " وقال :
" على أفجر قلب رجل واحد منكم " فعلى الإنسان أن يهتم بقلبه ويراعي حاله وتقواه ويزيل أمراضه .

٨٠- أن تقوى العباد كلهم لا يزيد في ملك الرب شيئًا .

٨١- أن فجور العباد كلهم لا ينقص من ملكه شيئًا .

٨٢- أن متعلّق التقوى والفجور القلب .

(المعنى)

(يَا عِبَادِيَ لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعطَيتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسأَلَتَهُ) : أي إذا قاموا في أرض واحدة منبسطة ، ومقام واحد ، وذلك لأنه كلما كثر الجمع كان ذلك أقرب إلى الإجابة .

(مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحرَ) : المِخيط : بكسر الميم وسكون المعجمة وفتح الياء ، أي : الإبرة . وهذا من باب المبالغة في عدم النقص ، لأن كل واحد يعلم أنك لو أدخلت المخيط وهو الإبرة الكبيرة في البحر ثم أخرجتها فإنها لا تنقص البحر شيئًا ولا تغيره .

(المستفاد)

٨٣- أن ما عنده سبحانه لا ينفد بكثرة العطاء ، بل لا ينقص ما عنده مهما بلغ عطاؤه للسائلين .

٨٤- أرزاق البشر جميعًا والدنيا والأموال وكل ما في الكون لا ينقص مما عند الله شيء ، فسبحان من لا تغيضه نفقة ولا ينقص ما عنده ، لقوله : " ما نقص مما عندي شيئا " .

٨٥- تصوير هذه المعاني وتقريبها بالفرض والتقدير .

٨٦- الترغيب في سؤال الله جميع الحوائج مع حسن الظن وقوة الرجاء .

٨٧- تقريب المعاني بضرب الأمثال ، وفي الحديث شاهد لتأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله :
" إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر " .

٨٨- جواز المبالغة بالقول ، لقوله : " إلا كَمَا يَنقُصُ المِخيطُ إِذَا أُدخِلَ البَحرَ " وهذا له نظير كما في قوله تعالى :
(لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) (الأعراف / ٤٦) .

٨٩- أن الاجتماع على الدعاء من أسباب الإجابة كما في صلاة الاستسقاء والجمعة والعيدين .

٩٠- كمال غنى الله عزّ وجل وسعة غناه ، لقوله : " يَا عِبادِيَ لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَ إِنسكُم وَ جِنكُم قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ ... " .

٩١- قوله " قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئًا مرادف لقوله :
(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ) (سورة الحجر / ٢١) .

٩٢- أنه يظهر أن اجتماع الناس في مكان واحد أقرب إلى الإجابة من تفرقهم .

٩٣- كمال فعله تعالى لتنزيهه عن الظلم وكمال ملكه فلا يزاد بالطاعة ولا ينقص بالمعاصي . وكمال غناه فإن خزائنه لا تنفد ولا تنقص بالعطاء . وكمال إحسانه إلى عباده فإنه يجب أن يسألوه جميع مصالحهم الدينية والدنيوية كما يسألونه الهداية والمغفرة ، فله تعالى الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله .

(المعنى)

(يَا عِبَادِيَ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ) : هذه جملة فيها حصر طريقه : (إنما) أي ما هي إلا أعمالكم .

(أُحْصِيْهَا لَكُمْ) : أي أضبطها تمامًا بالعدّ لا زيادة ولا نقصان ، وأحفظها بعلمي وملائكتي . لأنهم كانوا في الجاهلية لا يعرفون الحساب فيضبطون الأعداد بالحصى ، وفي هذا يقول الأَعْشَى :

وَلَسْتَ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى ... وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

يعني أن عددكم قليل ، وإنما العزة للغالب في الكثرة .

(ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا) : أعطيكم جزاءها وافيًا تامًا . أي في الدنيا والآخرة ، وقد يكون في الدنيا فقط ، وقد يكون في الآخرة فقط .

فالتوفيه تكون في الدنيا دون الآخرة للكافر ، أما المؤمن فتكون في الدنيا والآخرة جميعًا ، أو في الآخرة فقط .

(فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا) : ثوابًا ونعيمًا بأن وفق لأسبابهما . أو حياة طيبة هنيئة . أو من وجد خيرًا من أعماله فليحمد الله على الأمرين : على توفيقه للعمل الصالح ، وعلى ثواب الله له .

(فَلْيَحْمَدِ اللهَ) : على توفيقه للطاعات التي ترتب عليها ذلك الخير والثواب ، فضلا منه ورحمة .

(وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ) : أي وجد شرًا أو عقوبة .

(فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفسَهُ) : واللوم : أن يشعر الإنسان بقلبه بأن هذا فعل غير لائق وغير مناسب ، وربما ينطق بذلك بلسانه ، فلا يلومن إلا نفسه : لأنه لم يُظلم ، فإنها آثرت شهواتها على رضا رازقها ، فكفرت بأنعمه ، ولم تذعن لأحكامه .

(المستفاد)

٩٤- إثبات فعل العبد ، والرد على الجبرية .

٩٥- الثواب والعقاب يكون على الأعمال ويتجاوز الله عن السيئات ويعفو عمن يشاء ، ويدخل الجنة من يشاء بفضله .

٩٦- إحصاء الله لأعمال العباد كما قال تعالى : (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (المجادلة / ٦) وقال تعالى : (هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (الجاثية / ٢٩) .

٩٧- في الحديث أن الله سبحانه يحصي جميع الأعمال لقوله " أحصيها لكم : " فنسأل الله أن يتجاوز عنا .

٩٨- أن الغاية من إحصائها هو الجزاء عليها .

٩٩- مجازاة الله العباد بأعمالهم ، وتوفيتهم جزاءها .

١٠٠- أن جزاء الإحسان الإحسان ، وجزاء السوء بمثله ، كما قال تعالى : (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) (النجم / ٣١) .

١٠١- أن من أحسن وجد جزاءه خيرًا ، ومن أساء وجد جزاءه شرًا .

١٠٢- أن من أحسن فبتوفيق الله ، وجزاؤه فضل من الله فله الحمد .

١٠٣- أن من أساء فلا حجة له على الله ، وما صار إليه من الشر فبسبب نفسه قال تعالى : (مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ) (النساء / ٧٩) وقد أخبر سبحانه وتعالى أن أهل الجنة يحمدونه إذا دخلوها، وأن أهل النار يعترفون بذنوبهم قال تعالى عن أهل الجنة : (وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) (الأعراف / ٤٣) وقال عن أهل النار : (فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ) (الملك / ١١) وقال سبحانه : (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ) (المؤمنون / ١٠٦) .

١٠٤- على الإنسان أن يرجع سبب ما يصيبه من خير إلى الله سبحانه ، وما يصيبه من شر إلى نفسه ويتهمها في ذلك كما قال : (مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِك) (سورة النساء / ٧٩) وقد قال في حديث الباب : " إنما هي أعمالكم " .

١٠٥– أن من بلاغة الكلام التصريح بالمحبوب الممدوح والإبهام في المكروه ، لقوله : " فمن وجد خيرًا " و " ومن وجد غير ذلك " ونظيره ما تقدم في حديث النية " فهجرته إلى الله ورسوله " وفي الآخر : " فهجرته إلى ما هاجر إليه " .

١٠٦– أن الله عزّ وجل يحصي أعمال العباد ، أي يضبطها بالعدد فلا ينقص أحدًا شيئًا .

١٠٧– في قوله : " فاستهدوني أهدكم " مع قوله : " إنما هي أعمالكم " تأصيل لمذهب أهل السنة والجماعة في باب القدر أن الهداية بيد الله يؤتيها الله من يشاء ، والعبد له قدره واختيار وعمله ينسب له .

١٠٨– أن الله عزّ وجل لا يظلم أحدًا شيئًا ، بل من عمل عملاً وجده ، لقوله : " ثُمَّ أُوَفِّيْكُمْ إِيَّاهَا " .

١٠٩– وجوب الحمد لله عزّ وجل على من وجد خيرًا ، وذلك من وجهين :

الأول : أن الله عزّ وجل يسره حتى عمله .   الثاني : أن الله تعالى أثابه

١١٠– جواز تحدث الإنسان عن نفسه بصيغة الغائب ، لقوله : " فَمَن وَجَدَ خَيرًا فَلَيَحمد الله " دون أن يقال : فمن وجد خيرًا فليحمدني ، والعدول عن ضمير المتكلم إلى أن تكون الصيغة للغائب من باب التعظيم .

١١١– أن من تخلف عن العمل الصالح ولم يجد الخير فاللوم على نفسه .

١١٢– في الحديث إشارة إلى محاسبة النفس والندم على الذنوب في قوله : " فلا يلومن إلا نفسه " .

١١٣– يجمع الحديث عددًا كبيرًا من أعمال القلوب ويزيدها مثل : التوكل والاستعانة والمحاسبة والصدق والإخلاص والتعلق والخوف والمحبة والرجاء ... وغير ذلك كلها اهتم بها الحديث لأنها من الإيمان .

١١٤– يربي في النفس المؤمنة الافتقار إلى الله والتذلل له والمسكنة وتمام الحاجة إليه .

١١٥– يربي في قلب المسلم محاسبة نفسه وأعماله .

١١٦– جمع الحديث أعمال القلوب الثلاثة :

الأولى : المحبة وهذا في جميع ألفاظ الحديث فإنها تزيد من محبة الله .

الثانية : الرجاء وهذا في قوله : " وأنا أغفر الذنوب جميعًا " .

الثالث : الخوف وهذا في قوله : " إنما هي أعمالكم أحصيها لكم " .

١١٧– دخول الجنة يكون بفضل الله ورحمته وليس بمجرد الأعمال ، ولهذا قال في الحديث :

" فمن وجد خيرًا فليحمد الله " أي يحمده لأن الخير بفضل الله لا بمجرد العمل .

١١٨– يزيد من محبته سبحانه في القلوب المؤمنة فمن لم يزدد محبة لله بعد هذا الحديث فليتهم قلبه لأن جميع ألفاظ الحديث ومعانيه تزكي المحبة في القلب وتحركها .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : هل يقدر الله أن يظلم الخلق ؟

ج : نعم ، لكن نعلم أن ذلك مستحيل بخبره ، حيث قال تعالى : (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (الكهف / ٤٩) .

س : أليس الله تعالى يقول : (وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ) (المجادلة / ٨) وهذا قول يقولونه بقلوبهم ؟

ج : بلى ، لكن هذا القول مقيد (وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ) وأما إذا أطلق القول فالمراد به ما يُسمع .

س : هل يحرم على الله شيء ، وهل يجب على الله شيء ؟

ج : أما إذا كان هو الذي أوجب على نفسه أو حرم فنعم ، لأن له أن يحكم بما شاء .

قال ابن القيم – يرحمه الله – في النونية :

ما للعباد عليه حقٌّ واجبٌ   هو أوجبَ الأجرَ العظيم الشانِ
كلاًّ ولا عملٌ لديه ضائعٌ   إن كانَ بالإخلاصِ والإحسانِ

والإحسان يعني المتابعة .

س : النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أخبر أن " مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ " (خ / ١٣٥٨) ، وهنا يقول : "كُلُّكُمْ ضَالٌّ " فكيف هذا ؟

ج : النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ " لكن قال : " فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ " (خ / ١٣٥٨) وهنا يخاطبُ عزّ وجل المكلّفين الذين قد تكون تغيرت فطرتهم إلى ما كان عليه آباؤهم ، فهم ضلاَّلٌ حتى يهديهم الله عزّ وجل .

س : هل نقول إن قوله : " فَاستَهدُونِي " يدل على أن المراد هداية التوفيق ، أو نقول إنه يشمل الهدايتين ، وهداية الدلالة تكون باتِّباع الوسائل التي جعلها الله عزّ وجل سببًا للعلم ؟

ج : الثاني ، أي العموم .

س : قول من يقول : إذا كنا مهتدين ، فكيف نسأل الهداية ؟

ج : لأن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم ، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه ، وما لا نقدر عليه – مما نريده – كذلك ، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله ، أمر يفوق الحصر .

الحديث الخامس والعشرون

عَنْ أَبِي ذَرٍّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَيضًا أَنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالوا للنَّبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَارَسُولَ الله : ذَهَبَ أَهلُ الدثورِ بِالأُجورِ ، يُصَلُّوْنَ كَمَا نُصَلِّيْ ، وَيَصُوْمُوْنَ كَمَا نَصُوْمُ ، وَيَتَصَدَّقُوْنَ بِفُضُوْلِ أَمْوَالِهِمْ ، قَالَ : " أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُوْنَ ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيْحَةٍ صَدَقَة . وَكُلِّ تَكْبِيْرَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَحْمِيْدَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَهْلِيْلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوْفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ ، وَفِيْ بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ "
قَالُوا : يَا رَسُوْلَ اللهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُوْنُ لَهُ فِيْهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ :
" أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِيْ حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١) .

المعنى الإجمالي

الحديث يدل على ما كان عليه الصحابة الكرام – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – من الحرص على الطاعات والدرجات العُلى،وتسابقهم في الخيرات ، حتى تألم الفقراء منهم ألاّ يجدوا ما ينفقون فيسبقهم الأغنياء بفضول الأموال التي يتصدقون بها . و كان من شأنهم – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – التألم و البكاء إذا تعذر عليهم فعل الشيء من الخير ، ونظيره من القرآن : قوله عز وجل : (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ) (التوبة / ٩٢) .

وفيه حثٌّ على اللجوء إلى أهل العِلم لوصف الدواء لما يقع في النفوس من أدواء وأسئلة ، كما ذهب الناس إلى رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، يشكون إليه حالهم ، فدلهم على السبيل .

وفي الحديث بيانٌ لطائفةٍ من وجوه الخير ، ومنزلة هذه الوجوه حيث خصَّها بالذكر دونَ غيرها .

وأن الإنسان يؤجر على بعض المباح ، خاصةً إذا كان في تركه أو العدول عنه إلى الحرام إثمًا .

توضيح الحديث

(المعنى)

(نَاسًا) : هم فقراء المهاجرين ، كما في الرواية الأخرى .

(مِنْ أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –) : جمع صاحب بمعنى الصحابي : و هو من اجتمع بمحمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بعد النبوة وقبل وفاته مؤمنًا به ومات على ذلك ، وإن لم يره كابن أم مكتوم .

(الدُّثُورِ) : بضم الدال و بالمثلثة ، جمع دَثْر بفتح فسكون ، وهو المال الكثير .

(بِفُضُوْلِ أَمْوَالِهِمْ) : بالزائد من كفايتهم وحاجتهم .

---

(١) (رواية مسلم برقم / ٢٣٧٦) إلا أن فيها :
–كلمة : (نَاسًا) بدلًا من (أُنَاسًا) وذلك في جملة : (أَنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –) .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٤٥)

١- حرص الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – على الأعمال الصالحة وقوة رغبتهم في الخير بحيث كان أحدهم يحزن على ما يتعذر عليه من الخير مما يقدر عليه غيره . فكان الفقراء يحزنون على فوات الصدقة بالمال التي يقدر عليها الأغنياء .

٢- بيان لحال الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – ورفعة همتهم ، وما كان يشغلهم ويدور في خواطرهم ، حيث كان الهم الأكبر لدى الواحد منهم ألا يسبقه أحد في فعل الصالحات .

٣- مسارعة وتنافس الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – وتسابقهم إلى العمل الصالح .

٤- تنافس الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – وتسابقهم خالٍ عن الغل والحسد ، بل مجرد غبطة على ما آتاه الله من فضله لبعضهم دون البعض ، ولذلك لم يجرحوهم أو يسبوهم أو يتمنوا زوال ما عندهم .

٥- ينبغي على المسلم المسارعة إلى الخيرات والأعمال الصالحات .

٦- المنافسة في الخير والبر .

٧- الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – كانوا يحزنون إذا تعذر على الواحد منهم عمل من أعمال الخير كما وصفهم الله بقوله :
(وعلى الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) (التوبة / ٩٢) .

٨- أن الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم– يستعملون أموالهم فيما فيه الخير في الدنيا والآخرة ، وهو أنهم يتصدقون .

٩- أن الأعمال البدنية يشترك فيها الغني والفقير ، لقولهم : " يُصَلونَ كَمَا نُصَلي ، وَيَصومُونَ كَمَا نَصوم " وهو كذلك ، وقد يكون أداء الفقير أفضل وأكمل من أداء الغني .

١٠- فضل الصدقة بالمال .

١١- استحباب التصدق بفضول الأموال وهي مازاد عن الحاجة ، ويدل له قوله تعالى :
(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (البقرة / ٢١٩) .

(المعنى)

(تَصَدَّقُوْنَ) : الرواية في هذه اللفظة بتشديد الصاد والدال جميعًا ، ويجوز في اللغة تخفيف الصاد .

(التسبيحة) : قول : سبحان الله . (التكبيرة) : قول : الله أكبر .

(التحميدة) : قول : الحمد لله . (التهليلة) : قول : لا إله إلا الله .

(وَأَمرٌ بِالمَعروفِ صَدَقَةٌ) : إذا أمرت من رأيته مقصرًا في شيء من الطاعات فهي صدقة .

(وَنَهيٌ عَن مُنكرٍ صَدَقَةٌ) : إذا رأيت شخصًا على منكر ونهيته فهي صدقة .

(بُضْعِ) : بضم فسكون ، يطلق على الجماع وعلى الفرج نفسه ، وكلاهما تصلح إرادته هنا .

(المستفاد)

١٢- أن مجرد نية الخير والرغبة فيه لا تبلغ منزلة الفعل والبذل .

١٣- أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فتح للفقراء أبوابًا من الخير ، لقوله :
" أَوَلَيسَ قَد جَعَلَ اللهُ لَكُم مَا تَصَّدَّقونَ بِهِ " .

١٤- تقرير المخاطب بما لا يمكنه إنكاره ، لقوله : " أَوَلَيسَ قَد جَعَلَ اللهُ لَكُم مَا تَصَدَّقونَ بِهِ " لأن هذا أبلغ في إقامة الحجة عليه .

١٥- أن الصدقة لا تختص بالمال بل ربما كانت الصدقة بغيره أفضل ، مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنه دعاء إلى طاعة الله وكف عن معاصيه ، وذلك خير من النفع بالمال ، وكذلك تعليم العلم النافع ، وإقراء القرآن ، وإزالة الأذى عن الطريق ، والسعي في جلب النفع للناس ودفع الأذى عنهم ، والدعاء للمسلمين ، والاستغفار لهم .

١٦- فضيلة التسبيح والتكبير و التحميد والتهليل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

١٧- دلَّ الحديث على أن الشخص إذا كان لا يستطيع فعل شيء يذهب إلى باب آخر من أبواب الخير ، فلما كان فقراء الصحابة لا يجدون ما يتصدقون به دلهم النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على أبواب أخرى من العبادة من التسبيح والتحميد وغيره .

١٨- أن الصدقة لها معنى خاص وهي الصدقة بالمال ومعنى عام وهي فعل عموم الطاعات القولية والفعلية ، وسميت الطاعة صدقة لأنها تدل على صدق إيمان العبد وهي صدقة منه على نفسه ، وما كان نفعها متعديًا فهي أيضًا صدقة على غيره .

١٩- على العالم أن يفتح ويعدد أبواب الخير على الناس حتى يعمل كل واحد بما يستطيع فعله ولذلك نوَّع النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الصحابة أبواب الخير ما بين صدقة وذكر وأمر بمعروف .

٢٠- على العالِم أن يسهل فعل الخير للناس ولا يضع بينهم وبينه حواجز ، بل يجعل فعل الخير أقرب لهم من كل قريب كما فعل – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مع فقراء الصحابة .

٢١- سائر أنواع الذكر إنما هي صدقات يتصدق بها المرء على نفسه .

٢٢- أن العمل الصالح صدقة ، وقد قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " كل معروف صدقة " .

٢٣- على المسلم أن ينوع العبادات من صلاة وصيام وإنفاق وغير ذلك حتى يفوز بقبول الله سبحانه ، لأنه لا يعلم أي أعماله تقبل .

٢٤- دل على تنوع شعب الإيمان وتعددها مما يجعل الشخص مشغولا طوال عمره في تحصيلها وتتبعها .

٢٥- الحكمة في معالجة المواقف وإدخال البشرى على النفوس وتطييب الخواطر .

٢٦- يربي الحديث في نفس المسلم حفظ الوقت ، فما دام أن التهليل والتكبير والتحميد والذكر عامة صدقة ، بل كل فعل خير صدقة فإن ذلك يجعل المسلم حريصًا على ألا يصرف وقته إلا في فعل الصدقات .

٢٧- سعة فضل الله تعالى وكثرة أبواب الخير التي فتحها لعباده .

٢٨- عفة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والصحابة حيث إنهم ذكروا كنايات عن الشهوة فقال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " وفي بضع أحدكم صدقة " وقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كذلك " وضعها في حرام " وقال الصحابة " يأتي أحدنا شهوته " فكنوا في مثل هذه الألفاظ ولم يصرحوا لكمال عفتهم .

(المعنى)

(قَالُوا يَا رَسُوْلَ اللهِ أَيَأْتِيْ أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُوْنُ لَهُ فِيْهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ : أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِيْ حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ) .

(شَهْوَتَهُ) : لذته .

(وِزْرٌ) : إثم وعقاب .

(المستفاد)

٢٩- أن الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنهُم – لا يتركون شيئًا مشكلاً إلا سألوا عنه ، لقولهم : " أَيأتي أَحَدُنَا شَهوَتَهُ وَيَكُون لَهُ فيهَا أَجر " ، وبه نعلم أن كل شيء لم يسأل عنه الصحابة مما يُظن أنه من أمور الدين فإن السؤال عنه بدعة ، لأنه لو كان من دين الله لقيض الله من يسأل عنه حتى يتبين .

٣٠- سؤال المستفتي عن بعض ما يخفى من الدليل ، إذا علم من حال المسئول أنه لا يكره ذلك ، ولم يكن فيه سوء أدب .

٣١- الحث على السؤال عما ينتفع به المسلم ويرتقي به في مراتب الكمال .

٣٢- ذكر العالم دليلا لبعض المسائل التي تخفى ، وتنبيه المفتي على مختصر الأدلة .

٣٣- حسن تعليم النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حيث ضرب المثل الذي يقتنع به المخاطب ، وهذا من حسن التعليم أن تقرب الأمور الحسيّة بالأمور العقلية ، وذلك في قوله : " أَرَأَيتُمْ لَو وَضَعَهَا فِي الحَرامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزرٌ ، فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلالِ كَانَ لَهُ أَجرٌ " .

٣٤- تحريم الزنا .

٣٥- الترغيب في إحصان المسلم نفسه وزوجه وأن ذلك سبب للأجر .

٣٦- أن من الطاعات ما يكون موافقًا للطبع لكن لا يكون طاعة إلا بالنية .

٣٧- العادات المباحة والشهوات المشروعة تصبح طاعة وعبادة بالنية الصالحة ، قال النووي – يرحمه الله – : " وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات ، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله به ، أو طلب ولد صالح ، أو إعفاف نفسه ، أو إعفاف الزوجة ومنعهما جميعًا من النظر إلى الحرام أو الفكر فيه ، أو الهم به أو غير ذلك من المقاصد الصالحة " .

٣٨- كرامة المسلم عند الله حيث جعل حتى في أمور الفطرة له أجر فيها .

٣٩- أن إتيان الحلال استغناء عن الحرام يجعل الحلال قربة وصدقة .

٤٠- جواز القياس . وما نقل عن السلف من ذم القياس : المراد به القياس المصادم للنص .

٤١– أن القياس حجة ، فقياس الموافقة كثير جدًا ولا إشكال فيه بأن تقيس هذا الشيء على هذا الشيء في حكم من الأحكام .

٤٢– إثبات قياس العكس وهو إعطاء الشيء نقيض حكم نقيضه لثبوت نقيض علته فيه ، وإيضاح ذلك في الحديث أن وضع النطفة في الحرام موجب للوزر ، ووضعها في الحلال موجب للأجر فثبت للوطء الحلال ضد ما ثبت للوطء الحرام . فالأصل في هذا القياس هو الوطء الحرام ، والحكم ثبوت الوزر ، والعلة كونه حرامًا ، والفرع هو الوطء الحلال ، والحكم ثبوت الأجر ، والعلة كونه حلالاً ، فالعلتان والحكمان متناقضان .

٤٣– حسن تعليم النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بإيضاح ما أشكل بالقياس ، قياس الطرد وهو بيان حكم الشيء بذكر حكم نظيره ، أو قياس العكس ببيان حكم الشيء بذكر حكم نقيضه .

٤٤– أن الاكتفاء بالحلال عن الحرام يجعل الحلال قربة وصدقة ، لقوله : " وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ " .

٤٥– فيه فضل الغني الشاكر والفقير الصابر ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : مَنْ كان تقيًا فهو أفضل .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : الحسد مذموم ، فكيف يصدر من هؤلاء الفضلاء ، وفي وجود النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ولا ينكر ؟

ج : أولًا : الذي صدر من هؤلاء الفضلاء ليس بحسد إذ الحسد هو : تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ المحسودة عَنْ صَاحِبِهَا ، وهذا هو حقيقة الحسد ، وهو مذموم شرعًا وعرفًا وَهَذَا حَرَامٌ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ ، وأيضًا من الحسد أن يعتقد أن هذا الذي أنعم الله عليه ليس بأهل لهذه النعمة ، ولا يستحق فضل الله – جل وعلا – ولهذا فحقيقة الحسد اعتراض على قضاء الله – جل وعلا – وعلى قَدَرِه ونعمته ؛ فالحسد يذهب بعض حسنات صاحبه ؛ لأنه ينطوي على اعتقاد خبيث وعلى ظن سوء بالله – جل وعلا – حيث قام في قلبه أن هذا ليس بأهل لفضل الله – جل وعلا – ونعمته ، ونحو هذا ما يستعمله بعض العامة حيث يقول بعضهم : هذا حرام أن يعطى كذا وكذا ، هذا حرام أن تكون عنده هذه النعمة ، هذا حرام أن يكون عنده المال ، وأشباه ذلك مما فيه ظن سوء بالله – جل وعلا – واعتراض على قدر الله ، وعلى نعمته ، وعلى رزقه الذي يصرفه كيف يشاء .

ومما اشتهر على ألسنة العوام من أمثلة شعبية قولهم : (يعطي الحلق للِّي بلا وِدان) ويقصدون : أن الله يعطي القِرط – الذي تتزين به المرأة في أُذُنِها – ، والبعض يسميه (الحَلَق) الله يعطيه لمن هو بغير أُذُن ، وهذا فيه اتِّهام لله بعدم الحكمة ، وأنه يعطي من لا يَسْتَحِق – تعالى الله عما يقولون – .

فالواجب إذن على المسلم أن يفرح لأخيه المسلم بما أنعم الله عليه ، و في الحديث : " لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ " (خ / ١٣) ، والحسد بضد ذلك ، فإن الحاسد لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بل إما أن يتمنى زوال النعمة عن أخيه ، أو أنه يعتقد ، ويظن أن أخاه ليس بأهل لما أعطاه الله – جل وعلا– .

ثانيًا : هذا من باب تنافس الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – وتسابقهم لفعل الخيرات ، وتسابقهم هذا خالٍ عن الغل والحسد ، بل مجرد غبطة على ما آتاه الله من فضله لبعضهم دون البعض ، ولذلك لم يجرحوهم أو يسبوهم أو يتمنوا زوال ما عندهم .

الحديث السادس والعشرون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَومٍ تَطْلُعُ فِيْهِ الشَّمْسُ : تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ ، وَتُعِيْنُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُ لَهُ عَلَيْهَا أَو تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيْهَا إِلَى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ ، وَتُمِيْطُ الأَذى عَنِ الطَّرِيْقِ صَدَقَةٌ " رواهُ البخاريُّ ومسلمُ (١) .

المعنى الإجمالي

الحديث يفتح بابًا لعمل الجوارح والأعضاء ؛ ليستزيد المسلم من الحسنات ، وفيه حثٌّ على الاستزادة من الصدقات والحسنات كل يوم تطلع فيه الشمس .

وفيه فضل الإصلاح بين الناس ، وغيره من الآداب والخصال .

توضيح الحديث

(المعنى)

(كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ) : سُلامَى بضم السين المهملة وتخفيف اللام مع القصر ، والمعنى : كل مفصل عليه صدقة ، السلامى هي المفاصل ، وقيل : العظام ، والمعنى واحد لا يختلف ، لأن كل عظم مفصول عن الآخر بفاصل فإنه يختلف عنه في الشكل ، وفي القوة ، وفي كل الأمور وهذا من تمام قدرة الله عزّ وجل .

(عَلَيْهِ) : تذكير الضمير مع عوده إلى المؤنث (سُلامَى) باعتبار المعنى وهو المِفصل .

(صَدَقَةٌ) : في مقابلة ما أنعم الله به عليه في تلك السلاميات ، إذ لو شاء لسلبها القدرة وهو في ذلك عادل . فإبقاؤها يوجب دوام الشكر بالتصدق ، إذ لو فقد له عظم واحد ، أو يبس ، أو لم ينبسط أو ينقبض لاختلت حياته ، وعظم بلاؤه ، والصدقة تدفع البلاء .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٤٢)

١– أن كل جزء من بدن الإنسان نعمة من الله على العبد .

٢– أن تركيب عظام الآدمي وسلامتها ، نعمة من الله يجب على الإنسان شكرها بأنواع الطاعات ليتم شكر تلك النعمة .

٣– الترغيب في تجديد الشكر كل يوم لدوام تلك النعم .

---

(١) وهذه أقرب إلى رواية مسلم برقم (٢٣٨٢) إلا أنها تختلف في الآتي :

١ –كلمة : (اثْنَيْنِ) هنا نكرة ، وفي رواية مسلم (الاِثْنَيْنِ) وذلك في جملة : " تَعْدِلُ بَيْنَ الاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ "

٢ – جملة : (فَتَحْمِلُ لَهُ عَلَيْهَا) ، وفي رواية مسلم (فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا) .

٣ –كلمة : (وَبِكُلِّ) ، وفي رواية مسلم (وَكُلُّ) ، وذلك في جملة :(وَكُلُّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ) .

٤- وجوب الصدقة على كل إنسان كل يوم تطلع فيه الشمس عن كل عضو من أعضائه ، لأن قوله : " عَلَيهِ صَدَقَة " وعلى للوجوب .

٥- شكر الله عز وجل كل يوم على نعمة الأعضاء .

٦- التفكر في النفس من سمات المؤمنين كما قال تعالى : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) (الذاريات / ٢١) .

(المعنى)

(كُلُّ يَومٍ تَطْلُعُ فِيْهِ الشَّمسُ) : يعني كل يوم يصبح على كل عضو من أعضائنا صدقة ، أي ثلاثمائة وستون في اليوم ، فيكون في الأسبوع ألفين وخمسمائة وعشرين .

(تَطْلُعُ فِيْهِ الشَّمسُ) : أتى بهذا القيد لئلا يتوهم أن المراد باليوم هنا المدة الطويلة ، كما يقال : يوم صفين . وهو أيام كثيرة . أو مطلق الوقت كما في آية : (يوم يأتيهم ليس مصروفًا عنهم) .

(المستفاد)

٧- المداومة على النوافل كل يوم ، وأن العبادة إذا وقعت في يوم لا يغني عن يوم آخر ، فلا يقول القائل مثلا : قد فعلت أمس فأجزأ عني اليوم ، لقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " كل يوم تطلع فيه الشمس " .

٨- أن الشمس هي التي تدور على الأرض ، فيأتي النهار بدل الليل ، لقوله : " تَطْلُعُ فِيْهِ الشَّمْسُ " وهذا واضح أن الحركة حركة الشمس ، ويدل لهذا قول الله تعالى : (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَال) (الكهف / ١٧) .

(المعنى)

(تَعْدِلُ بَينَ اثنَيْنِ صَدَقَة) : تعدل أي تفصل بينهما ، أي بين : متحاكمين ، أومتخاصمين ، أو متهاجرين ، إما بصلح وإما بحُكم ، والأولى العدل بالصلح إذا أمكن ما لم يتبين للرجل أن الحكم لأحدهما .

(صَدَقَة) : عليهما لوقايتهما مما يتسبب على الخصام من قبيح الأقوال والأفعال .

(المستفاد)

٩- فضيلة العدل بين الاثنين ، وقد حث الله عزّ وجل على الصلح ، والعدل بين الخصمين في الحكم واجب .

١٠- الحث على العدل لأنه به قامت السماوات والأرض .

١١- المجتمع الإسلامي لا يرضى بوجود المخاصمات والتناحر بين أفراده بل يصلح بينهم فإن عجز شخص عن الإصلاح شارك غيره وهكذا حتى يلتئم الصف ويتوحد الشمل ، ولذلك جعل الإصلاح بين الاثنين صدقة حتى يشارك الناس كلهم في هذه الصدقة .

١٢- فضل الإصلاح بين الناس .

١٣- جعل الله من شكر نعمه في خلق الأعضاء أن يعين بها عباد الله وأن يتصدق عليهم باستخدامها في مصالحهم .

(المعنى)

(وَتُعِيْنُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ) : أي بعيره مثلًا .

(تَحْمِلُهُ عَلَيْهَا) : إذا كان لايستطيع أن يركب تحمله أنت وتضعه على الرحل هذا صدقة .

(وتَحْمِلُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ) : متاعه ما يتمتع به في السفر من طعام وشراب وغيرهما ، تحمله على البعير وتربطه ، هذا صدقة .

(المستفاد)

١٤- الحث على معونة الرجل أخاه ، لأن معونته إياه صدقة ، سواء أفي المثال الذي ذكره الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أم في غيره .

١٥- الحرص على خدمة المسلمين .

١٦- أفضل الصدقات ماكان متعديًا نفعه مثل : أن تعدل بين اثنين وأن تحمل متاع أخيك أو تعينه على حمله وإماطة الأذى عن الطريق .

١٧- يربي جانب الأخوة بين المسلمين في تعاونهم وتعاضدهم وتآخيهم لقوله :

" وَتُعِيْنُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُ لَهُ عَلَيْهَا أَو تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ " .

١٨- شكر النعم يكون بتسخيرها في طاعة الله كما قال الله آمرًا آل داوود (اعملوا آل داوود شكرًا) (سبأ /١٣) .

(المعنى)

(وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ) : أي كلمة طيبة ، سواء أكانت طيبة في حق الله كالتسبيح والتكبير والتهليل ، أم في حق الناس كحُسن الخُلق صدقة .

(المستفاد)

١٩- فضل الكلمة الطيبة وأنها صدقة .

٢٠- الحث على الكلمة الطيبة لقوله : " وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ " والله لا أطيب من كلام الله عزّ وجل القرآن ، كل كلمة في القرآن فهي صدقة .

والكلمة الطيبة تكون طيبة في أسلوبها ، وفي موضوعها ، وفي إلقائها ، وفي نواح أخرى ، والقاعدة : كل كلمة طيبة فهي صدقة .

٢١- المسلم طيب لا يخرج من لسانه إلا الكلمة الطيبة من سلام وذكر ودعوة وقرآن وغير ذلك وكل هذا من الصدقة .

(المعنى)

(وَبِكُلِّ خُطوَةٍ تَخْطُوهَا إِلَى الصَّلاةِ صَدَقَة) : سواء أبعدت المسافة أم قصرت ، وخطوة : بفتح الخاء : المرة الواحدة ، وبضمها : ما بين القدمين .

(المستفاد)

٢٢- فضل المشي إلى المساجد ، ففي كل خطوة صدقة .

٢٣- فضل صلاة الجماعة .

٢٤- الحث على حضور الجماعات والمشي إليها ، وعمارة المساجد بذلك ، إذ لو صلى في بيته فاته الأجر المذكور في الحديث .

(المعنى)

(وَتُمِيطُ الأذَى عَنِ الطَّرِيْقِ صَدَقَةٌ) : تميط : بضم أوله : تنحى . أي تزيل الأذى وهو ما يؤذي المارة من حجر أو زجاج أو قاذورات فأي شيء يؤذي المارين إذا أميط عن طريقهم فإنه صدقة .

(المستفاد)

٢٥- وجوب احترام طرق المسلمين بتجنب ما يؤذيهم أو يضر بهم .

٢٦- فضل إماطة الأذى عن الطريق ، وأنه صدقة .

٢٧- الترغيب في إماطة الأذى ، وفي معناه : توسيع الطرق التي تضيق على المارة ، وإقامة من يبيع ويشتري في وسط الطرق العامة .

٢٨- أن إزالة الأذى عن الطريق صدقة ، وبقياس العكس نقول : وضع الأذى في الطريق جريمة وأذية ، ويتفرع على هذه الفائدة :

إذا كان إماطة الأذى عن الطريق الحسّي صدقة فإماطة الأذى عن الطريق المعنوي أبلغ وذلك ببيان البدع والمنكرات وغيرها .

٢٩- الحديث يجعل المسلم مشاركًا متفاعلًا في قضايا مجتمعه من إصلاح أو نظافة أو تقديم خدمة فليس متوانيًا أو مُسَوِّفًا أو كسولًا اتكاليًا على غيره انعزاليًا عما حوله .

٣٠- الحث على نظافة المرافق العامة .

٣١- على المسلم ألا يحتقر أي عمل يحتسبه عند الله سبحانه ، فمجرد رفع متاع إنسان على دابته وإعانته على ذلك وإماطة الأذى عن الطريق يعتبر صدقة وهما عملان قد يحتقرهما الشخص قبل سماع الحديث .

٣٢- أن الصدقة لا تنحصر في المال .

٣٣- الحديث يحث المسلم على الاستمرار في الأعمال الصالحة في كل الأيام لا يقف عند حد ، ولا يمل منها ، وذلك لقوله : "كل يوم تطلع فيه الشمس ، تعدل ..... ، " وذكر أنواع الأعمال الصالحة .

٣٤- أن قليل الخير يحصل به كثير الأجر بفضل الله تعالى .

٣٥- للبدن زكاة كما أن للمال زكاة ، وزكاته أعمال الخير والصدقات وأبوابها كثيرة .

٣٦- الحث على إصلاح ذات البين والتعاون والكلمة الطيبة والمشي إلى الصلاة وإماطة الأذى عن الطريق .

٣٧- يربي في النفس التواضع حيث يحمل المسلم متاع أخيه ويحمله على دابته ويميط الأذى ، فهذا كله يطرد الكبر من القلب .

٣٨- أن كل ما يُقرِّب إلى الله عزّ وجل من عبادة وإحسان إلى خلقه فإنه صدقة .

٣٩- يدل الحديث على أن المسلم نافع مبارك في جميع أحواله ، فإن كان لوحده ذكر الله فكان له بذلك صدقة ، وإن التقى مع غيره من المسلمين أعانهم وأحسن صحبتهم ، وإن كان في طريق أماط الأذى فكان له بالجميع صدقة .

٤٠- ينبغي للإنسان أن يستغل أمور حياته الاعتيادية ليكسب من ورائها صدقات .

٤١- الإسلام يُعوِّد المسلم على المسؤولية عن كل ما يكون حوله فهو مسؤول عن أخيه المسلم وحاجاته ومسؤول عن الطريق فيميط ما فيه من أذى ، ومسؤول عن المتخاصمين فيسعى للإصلاح بينهم فالإسلام لا يربي الناس على الأنانية وحب الذات فقط .

٤٢- كثرة طرق الخير .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : كلمة (سُلامَى) مؤنثة ، وكلمة (عَلَيْهِ) الضمير للمذكر ، فكيف قال : (عَلَيْهِ) ولم يقل : (عَلَيْها) ؟

ج : تذكير الضمير مع عوده إلى المؤنث باعتبار المعنى وهو المفصل .

س: لماذا قال : " كُلُّ يَومٍ تَطْلُعُ فِيْهِ الشَّمْسُ " مع أن المعلوم أن كل يوم تطلع فيه الشمس فلماذا أتى بهذا القيد ؟

ج : أتى بهذا القيد لئلا يتوهم أن المراد باليوم هنا المدة الطويلة ، كما يقال : يوم صفين . وهو أيام كثيرة . أو مطلق الوقت كما في آية : (أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ) (هود / ٨) .

س : فإن قال قائل : قد يكون في إحصاء ذلك صعوبة ؟

ج : صح عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنه يجزئ من ذلك – أي بدلاً عنه ، لأن (من) هنا بدليّة بمعنى بدل ذلك – ركعتان يركعهما من الضحى ، فإذا ركعت ركعتين من الضحى صار الباقي نفلاً وتطوعًا . ويؤخذ من هذه الرواية : أنه ينبغي للإنسان أن يداوم على ركعتي الضحى ، وجه ذلك : أنها تأتي بدلاً عن هذه الصدقات أي بدلاً عن ثلاثمائة وستين صدقة ، وهذا القول هو الراجح : أنه تسن المداومة على ركعتي الضحى .

ووقتها : من ارتفاع الشمس قيد رمح في رأي العين ، إلى قبيل الزوال يعني بعد طلوع الشمس بنحو ثلث ساعة إلى قبيل الزوال بعشر أو خمس دقائق ، وآخر الوقت أفضل .

وأقلها ركعتان وأكثرها لا حد له ، فصلِّ ما شئت فأنت على خير .

الحديث السابع والعشرون

عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال :
" الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ " . رواه مسلم / ٦٦٨٠
و عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : أتيت رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فقال :
" جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ ؟ " قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : " اسْتَفْتِ قَلْبَكَ ؛ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ " (١) .
قال الشيخ – يرحمه الله– حديثٌ حسنٌ ، رويناه في مُسنَديّ الإمام أحمد بنِ حنبل ، و الدارميّ بإسنادٍ حسن (٢).

المعنى الإجمالي

فسَّرَ الحديثُ البرَّ بأنه حُسْنُ الخُلُق ، وهو شامل لفعل جميع ما مِنْ شأنه أن يُوصف بالحُسْن من الأخلاق ، سواء فيما بين العبد وربّه ، أو ما بين العبد وأخيه المسلم ، أو ما بينه وبين عموم الناس مسلمهم وكافرهم .

أو هو ما اطمأنَّتْ إليه النفس كما في الحديث الثاني ، والنفس تطمئنّ إلى الحَسَن من الأعمال و الأقوال ، وسواء في الأخلاق أو في غيرها .

والإثم ما تردَّد في النفس ، فهو كالشُّبهة تَرَدَّدُ في النفس فمن الورع تركها و الابتعاد عنها ، حمايةً للنفس من الوقوع في الحرام . فالورع ترك ذلك كله ، والاتّكاء على ما اطمأن إليه القلب .

توضيح الحديث

(المعنى)

(الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ)

قوله (الْبِرُّ) : بكسر الموحدة ، وهو اسمٌ جامع للخير وكل فعل مُرْضٍ ، أو هو عبارة عما اقتضاه الشرع وجوبًا أو ندبًا .

(حُسْنُ الْخُلُقِ) : الْخُلُقِ ، بضم الخاء ، وضم اللام وسكونها ، وحسن الخلق : التخلق بالأخلاق الشريفة والتأدب بآداب الله التي شرعها لعباده من امتثال أمره وتجنب نهيه ، وترك الرذائل .

(حُسْنُ الْخُلُقِ) : أي حسن الخلق مع الله ، وحسن الخلق مع عباد الله ، فأما حسن الخلق مع الله فأن تتلقى أحكامه الشرعية بالرضا والتسليم ، وأن لا يكون في نفسك حرج منها ولا تضيق بها ذرعًا وأيضًا حسن الخلق مع الله في أحكامه القدرية وتقوم بما أمرت به وتنزجر عما نهيت عنه .

أما حسن الخلق مع الناس : وهو الإنصاف في المعاملة ، والرفق في المجادلة ، والعدل في الأحكام ، والبذل و الإحسان في اليسر ، والإيثار في العسر ، وغير ذلك ، من الصفات الحميدة كبذل الندى وكف الأذى والصبر على الأذى ، وطلاقة الوجه .

---

(١) قال الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب / ١٧٣٤ : (حسن لغيره) .

(٢) (هذه الرواية أقرب لرواية الدارمي برقم / ٢٥٣٣) .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٣٨)

١ – أن النَّبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أعطي جوامع الكلم ، يتكلم بالكلام اليسير وهو يحمل معاني كثيرة لقوله " الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ "كلمة جامعة مانعة .

٢– ضابط البر والإثم .

٣– الحث على حسن الخلق والترغيب فيه ، وأنك متى أحسنت خلقك فإنك في بر .

٤– التخلق بمكارم الأخلاق لأن حسن الخلق من أعظم خصال البر .

٥– الأخلاق تختلف في الحسن ، وكلما كان الخلق حسنًا كلما كان أعظم في البر .

(المعنى)

" وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ "

(وَالإِثْمُ) : الذنب .

(مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ) : ما حاك : من حاك يحيك ، وهو التأثير ومنه ما يحيك كلامك في فلان أي ما يؤثر فيه .

قال النووي : حاك : تردَّدَ ولم ينشرح له الصدر وحصل منه الشك خوف كونه ذنبًا . قال ابن رجب :

" والمراد ما أثر في القلب ضيقًا وحرجًا ونفورًا " .

(المستفاد)

٦– إن المؤمن الذي قلبه صافٍ سليم يحوك في نفسه الإثم وإن لم يعلم أنه إثم بل يتردد فيه .

٧– أن الحق والباطل لا يلتبس أمرهما على المؤمن البصير ، بل يعرف الحق بالنور الذي في قلبه ، وينفر عن الباطل فينكره .

٨– أن الإثم يجلب القلق للنفس .

٩– أن الإثم مستقبح عند ذوي الفطر السليمة .

١٠– أن ذا الفطرة السوية لا يجاهر بالإثم بل يستتر به .

١١– البر عليه نور يعرفه كل أحد ، والإثم يسبب شكًا وقلقًا .

١٢– من علامات الإثم أنه يسبب حرجًا للنفس وضيقًا لها ، ويكره إطلاع الناس عليه .

١٣– البر لا يُستحى من فعله في خلوات الإنسان وفي المجتمعات العامة بخلاف الإثم فإن فعله في الخلوة يسبب الحرج والضيق وفعله في العلانية يستحى منه ، ولهذا قال عن الإثم : " مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ " .

١٤– المعاصي والذنوب تجلب الشقاء للإنسان لأنها من الإثم الذي يتردد في الصدر ويسبب الحرج والضيق .

١٥– أن صاحب القلب السليم ، يضطرب قلبه ويخاف عند فعل الحرام أو الشك به .

١٦– القلب المؤمن يطمئن للحلال ويضطرب للحرام .

١٧– الشريعة في مجملها واضحة من حيث البر والإثم بحيث لا يلتبس الحق بالباطل .

(المعنى)

(وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ) : لأنه محل ذم وعيب ، فتجدك مترددًا فيه وتكره أن يطلع الناس عليك وهذه الجملة إنما هي لمن كان قلبه صافيًا سليمًا ، فهذا هو الذي يحوك في نفسه ما كان إثمًا ويكره أن يطلع عليه الناس .

أما المتمردون الخارجون عن طاعة الله الذين قست قلوبهم فهؤلاء لا يبالون ، بل ربما يتبجحون بفعل المنكر والإثم ، فالكلام هنا ليس عامًا لكل أحد بل هو خاص لمن كان قلبه سليمًا طاهرًا نقيًا .

(المستفاد)

١٨- إن الرجل المؤمن يكره أن يطلع الناس على آثامه لقوله : " وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ " أما الرجل الفاجر المتمرد فلا يكره أن يطلع الناس على آثامه .

(المعنى)

" جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ ؟ " قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : " اسْتَفْتِ قَلْبَكَ ؛ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ "

(اسْتَفْتِ قَلْبَكَ) : أي اسأل والاستفتاء طلب الإفتاء وهو بمعنى الخبر لأن الإفتاء إخبار عن حكم شرعي فأحاله النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على قلبه .

(اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ) : سكنت إليه النفس الطيبة ، اطمأن يعني : استقر فما استقر إليه القلب ورضي به وانشرح به واطمأنت إليه النفس أيضًا لا تحدثك نفسك بالخروج عنه فهذا هو البر ولكن لمن قلبه سليم ونيته صادقه .

(أَفْتَاكَ النَّاسُ) : علماؤهم ،كما في الرواية ، (وإن أفتاك المفتون) .

(وَأَفْتَوْكَ) : بخلافه ، لأنهم إنما يقولون على ظواهر الأمور دون بواطنها .

(وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ) : وهذا من باب التوكيد يعني حتى لو أفتاك وأفتاك وأفتاك فلا ترجع إلى فتواهم ما دام قلبك لم يطمئن ولم يستقر فلا تلتفت للفتوى .

(المستفاد)

١٩- حسن خلق النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حيث يتقدم للسائل بما في نفسه ليستريح ويطمئن لقوله : (جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ ؟) .

٢٠- حرص الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – على معرفة الحلال والحرام والبر والإثم .

٢١- الطاعات تجلب السعادة للمؤمن لأنها من البر الذي تطمئن إليه النفس .

٢٢- دلَّ على أن الإكثار من أعمال البر والخير يزيد النفس طمأنينة وسكونًا وانشراحًا .

٢٣- أن الله فطر عباده على معرفة الحق والسكون إليه .

٢٤- أن الدين يمنع من اقتراف الإثم .

٢٥- طمأنينة القلب السليم للخير .

٢٦- نفور القلب السليم من الشر .

٢٧- دلَّ على أن النفس تطمئن للخير والبر ، ولذلك يصلح لها وحَيَاتها .

٢٨- أن البر يجلب الطمأنينة .

٢٩- جواز الرجوع إلى القلب والنفس لكن بشرط أن يكون هذا الذي رجع إلى قلبه ونفسه ممن استقام دينه ؛ فإن الله عز وجل يؤيد مَنْ عَلِمَ الله منه صدق النية .

٣٠- الله فطر عباده على معرفة الحق والسكون إليه وقبوله ، والنفرة من ضده وذلك في الجملة ، ولهذا قال في الحديث : " الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ " .

٣١- أن المدار في الشرعية على الأدلة لا على ما اشتهر بين الناس لأن الناس قد يشتهر عندهم شيء ويفتون به وليس بحق .

٣٢- من علامات البر ارتياح النفس له واطمئنانها به وسكونها إليه في داخلها ، وهذا مجرد علامة لا أن ذلك دليل ، وإنما في جملة الأمر إذا كان من البر فيسبب راحة للضمير .

٣٣- أن الفتوى لا تزيل الشبهة إذا كان المستفتي ممن شرح الله صدره .

٣٤- النظر في الفتوى قبل العمل بها واتباع الأتقى والأورع في الدين فالفتوى لا تزيل الشبهة .

٣٥- أن الدين وازع ومراقب داخلي .

٣٦- الحديث أصل في باب الورع .

٣٧- اهتمام الإسلام بتربية الوازع الديني الداخلي في قلب الإنسان المؤمن واستفتاؤه قبل العمل .

٣٨- البِرُّ يشمل القيام بحقوق الله ، والقيام بحقوق الخلق ، ويدل على ذلك اختلاف الروايتين في تفسير البر فقال في الرواية الأولى " الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ " وهذا القيام بحقوق الخلق ، وفي الرواية الثانية " الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ " وهذا القيام بحقوق الله ، لأنه فيما بين الإنسان وبين ربه .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : (حَاكَ فِي صَدْرِكَ) (اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفسُ) (وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ) (حَاكَ فِي النَّفْسِ) (وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ) ما الفرق بين (الصَّدْر) ، (النَّفْس) ، (الروح) (العقل) (الْقَلْب) ، (الفؤاد) والفرق بين القلب والبال) و ما الفرق بين (حَاكَ) ، (تَرَدَّدَ) ؟

ج : (الفرق بين القلب والفؤاد)

قال بدر الدين العينى في عمدة القاري شرح صحيح البخاري تحت شرحه لحديث : " أَتَاكُمْ أَهْلُ اليَمَنِ، هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً وَأَلْيَنُ قُلُوبًا، الإِيمَانُ يَمَانٍ وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ ... "(خ / ٤٣٨٨) :

قَالَ الْخطابِيّ : وصف الأفئدة بالرقة والقلوب باللين لِأَن الْفُؤَاد غشاء الْقلب إِذا رق نفذ القَوْل فِيهِ وخلص إِلَى مَا وَرَاءه ، وَإِذا غلظ تعذر وُصُوله إِلَى دَاخله ، فَإِذا صَادف الْقلب شَيْئًا علق بِهِ ، أَي : إِذا كَانَ لينًا ، وَالْمَشْهُور أَن الْفُؤَاد هُوَ الْقلب ، فعلى هَذَا تكْرَار لفظ الْقلب بلفظين أولى من تكريره بِلَفْظ وَاحِد ، وَقيل: الْفُؤَاد غير الْقلب وَهُوَ عين الْقلب ، وَقيل : بَاطِن الْقلب ، وَقيل : غشاء الْقلب .

وقال د / فاضل السامرائي في لمسات بيانية :

الفؤاد بعضهم قال هو القلب نفسه فالفؤاد هو القلب . وبعضهم قال لا ، الفؤاد ليس القلب أي اللب وإنما غشاء القلب . غشاء القلب هو الفؤاد هذا الغشاء لأن العربية دقيقة أحيانًا تسمي الأجزاء كل جزء تسميه باسمه . فالذي يترجح لدينا من وجود حديث للرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يترجح أن الفؤاد هو غشاء القلب لكن لما يتحدث عن الفؤاد يعني الغشاء وما في داخله لأن هو أصل ، والفؤاد من التفؤد ويعني التوقّد والإشتعال والحرقة فكأن القلب هو موضع هذه الأشياء فلذلك استعمل هكذا في هذا المكان . والفؤاد في اللغة : يقال : فأد الخبز في الملّة يفأدها فأدًا شواها . القلب يشتوي أحيانًا بما يسمع وما يقال له وليس على سبيل الشواء الحقيقي والفؤاد القلب لتفؤده وتوقده وقيل وسطه وقيل الفؤاد غشاء القلب وهذا الذي اخترناه عندما نقول اخترنا هذا المعنى لا نعني أننا نلغي المعاني الأخرى لأن هذا كلام وآراء علمائنا ، لكن لنا أن نختار عندما يقال كذا وكذا وعندنا أكثر من رأي للعلماء من خلال اطلاعهم على لغة العرب . الشاهد الذي بين أيدينا يقوي الإختيار : ففي الحديث " أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبًا " ذكر الفؤاد والقلب وذكر الفؤاد بالرقّة وهي الشفافية الشيء الرقيق واللين للشيء السميك الذي له بُعد فالقلب ليّن والفؤاد رقيق . واستعمل القرآن فؤاد وقلب مع أم موسى (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (القصص / ١٠) الفؤاد المغلّف يقصد ما بداخله والعرب عندما تستعمل الفؤاد ، تستعمل القلب ، تستعمل اللب تعني الموضع الذي يكون فيه الفكر والعاطفة وجاء في القرآن (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) هل المراد على وجه التعيين هي هذه العضلة ؟ أم هناك شيء في الصدر لا نعلمه ؟ لأن العلم كل يوم يكتشف شيئًا جديدًا ونحن نؤمن بكلام ربنا كما هو فإلى الآن هو عمى البصيرة يعني الموضع الذي يكون فيه الفكر والبصر هو الذي يعمى .

الفؤاد هو الغشاء الذي يغطي والحديث الذي بين أيدينا يوضح ذلك بشكل لا لبس فيه لأنه استعمل الكلمتين في مكان واحد استعمل للفؤاد الرقة وللقلب اللين واللين غير الرقة والله أعلم .

العرب تستعمل القلب والفؤاد بمعنى واحد ولكن الحديث فرّق بين الإثنين فجعل الفؤاد للغشاء " أرقّ أفئدة وألين قلوبًا" فأخذنا بقول " اللسان " أنه يكون الغشاء هو الفؤاد وهذا لا يتعارض مع الآية ففراغ فؤاد أم موسى يتضمن فراغ القلب أيضًا وليس فراغًا حقيقيًا وفيه إشارة إلى عدم الإنشغال فهي لم تعد منشغلة . وقوله تعالى : (لولا أن ربطنا على قلبها) أي صبّرناها لأن الربط على القلب بمعنى التصبير ، ربط على قلبه أي صبّره هكذا هي في المعجم .

و الله تعالى قد خص الفؤاد بالرؤية . كما جاء في قوله تعالى : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) ، والفؤاد يلي القلب في المقام ، ومحله وسط القلب ، فإذا كان القلب هو محل نور الإيمان ومحل العقل والعلم ، فإنه يحتاج مع كل هذا إلى التأييد حتى تتولد الطمأنينة والسكينة ، وذلك لا يتم إلا بالرؤية والمعاينة ، وهي من عمل الفؤاد ، ولذا يحدث الفراغ للفؤاد ولا يحدث للقلب ، كما قال تعالى : (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا) .

والمعنى أنها لما سمعت بوقوع موسى في يد فرعون طار عقلها ، لما دهمها من الخوف ، فوصف الله الفؤاد بالفراغ وفضله على القلب ، إذ كان القلب يحتاج إلى الربط والفؤاد يرى ويعاين والقلب يعلم ، وليس الخبر كالمعاينة .

والفؤاد وإن وجد عند كل إنسان ، إلا أن عيني الفؤاد لا تنفتح للرؤية إلا حين يتحد في القلب نور الحياة مع نور الإيمان ، في وحدة لا انفصام لها ، حينها يحيا القلب بالله ، وتنفتح عينا الفؤاد على العالم ، فيتطابق العلم القلبي مع الرؤية فيصبح حتى الغيب عند المؤمنين عينًا .

ما الفرق بين القلب والروح والنفس والعقل ؟

قال الإمام الغزالى فى كتابه " إحياء علوم الدين " فى شرح عجائب القلب :

اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل فى هذه الأبواب ، ويقل فى فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامى واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها ، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامى واشتراكها بين مسميات مختلفة ، ثم أخذ يتحدث عن كل منها بما موجزه :

١ – القلب يطلق لمعنيين :

أحدهما : اللحم المعروف الذى يضخ الدم .

والثانى : هو لطيفة ربانية روحانية لها تعلق بهذا القلب الجسمانى وهذه اللطيفة هى حقيقة الإنسان والمدرك العام العارف منه والمخاطب بالتكليف ، والمجازى عليه ولم يستطع أن يدرك العلاقة بين هذين المعنيين للقلب لأن ذلك من علوم المكاشفة التى لا تفيد معها الحواس المعروفة ، ولأنه يؤدى إلى إفشاء سر الروح الذى لم يتكلم فيه الرسول فغيره أولى .

وقال : إذا استعملنا لفظ القلب فى الكتابة والشرح فالمراد به اللطيفة الربانية لا القلب العضوى .

٢– الروح لها معنيان :

أحدهما : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى يسرى فى جميع أجزاء البدن سريان نور السراج إلى كل أجزاء البيت ، فالحياة مثل النور الواصل للجدران والروح مثل السراج ، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثل حركة السراج فى جوانب البيت . وهذا المعنى يهتم به الأطباء .

والمعنى الثانى للروح : هو لطيفة عالمة مدركة من الإنسان ، وهو المعنى الثانى للقلب ، وما أراده الله بقوله :

(قل الروح من أمر ربى) (الإسراء / ٨٥) ، وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته .

٣- النفس : لفظ مشترك بين عدة معان ، يهمنا منها اثنان :

أحدهما : أن يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان ، ويهتم أهل التصوف بهذا المعنى ، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فلابد من مجاهدتها .

والمعنى الثانى : هى اللطيفة التى ذكرناها ، التى هى الإنسان بالحقيقة ، وهى نفس الإنسان ذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ، فإذا سكنت تحت الأمر وفارقها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة ، قال تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية) (الفجر / ٢٧) ، والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله فهى مبعثرة عنه وهى من حزب الشيطان .

وإذ لم يتم سكونها ودافعت الشهوات واعترضت عليها سميت النفس اللوامة ، وإن تركت المدافعة والاعتراض وأطاعت الشهوة والشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء .

٤ – العقل : وهو أيضًا مشترك لمعان مختلفة ذكرناها فى كتاب العلم ، ويهمنا هنا معنيان .

أحدهما : أنه يراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون العقل عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب .

والثانى : أنه المدرك للعلوم ، فيكون هو القلب بمعنى اللطيفة الربانية المدركة العالمة .

ثم يقول الغزالى بعد ذلك : إن معانى هذه الأسماء موجودة ، وهى القلب الجسمانى والروح الجسمانى والنفس الشهوانية والعلوم " كذا " فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ، ومعنى خامس وهى اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها ، فالمعانى خمسة والألفاظ أربعة وكل لفظ أطلق لمعنيين ، وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها ، فتراهم يتكلمون فى الخواطر ويقولون : هذا خاطر العقل وهذا خاطر الروح وهذا خاطر القلب وهذا خاطر النفس ، وليس يدرى الناظر اختلاف معانى هذه الأسماء .

ثم يقول : وحيث ورد فى القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذى يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء ، وقد يكنى عنه بالقلب الجسمانى الذى هو فى الصدر لأن بينهما علاقة .

أما الفارق بين العقل والقلب : فالعقل يراد به الغريزة التي بها يعلم الإنسان ، وقيل : هو نور في القلب يعرف الحسن والقبيح والحق والباطل ، والقلب هو محل العلم والإرادة ، قال تعالى :

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (الحج / ٤٦) .

قال ابن تيمية : إن العقل له تعلق بالدماغ والقلب معًا ، حيث يكون مبدأ الفكر والنظر في الدماغ ، ومبدأ الإرادة والقصد في القلب ، فالمريد لا يكون مريدًا إلا بعد تصور المراد . انتهى بتصرف .

ولهذا يمكن أن يقال : إن القلب موطن الهداية ، والعقل موطن الفكر ، ولذا قد يوجد في الناس من فقد عقل الهداية الذي محله القلب واكتسب عقل الفكر الذي محله الدماغ والعكس ، فهذا بعض ما قيل في الفرق بين العقل والقلب ، وقد قيل غير ذلك .

ما الفرق بين القلب والنفس والفؤاد .

النفس تطلق على أمور منها الروح كما قال الجوهري مستشهدًا بقول أبي خراش :

نجا سالما والنفس منه بشدقه **** ولم ينج إلاجفن سيف ومئزر .

ومنه قوله تعالى : (أخرجوا أنفسكم) . كما تطلق النفس على الدم لخبر : " ما لا نفس له سائلة " .

وتطلق أيضًا على الذات كلها كما في قوله تعالى : (فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) (النور / ٦١) . وسميت النفس نفسًا إما لنفاستها أومن تنفس الشىء إذا خرج ودخل ، كما قال ابن القيم : وإنما سمي الدم نفسًا لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس ، كما قال السموأل :

تسيل على حد الظبات نفوسنا **** وليست على غير الظبات تسيل .

واختلف هل النفس واحدة أم لا ؟ فمن قائل إن النفوس ثلاثة : نفس مطمئنة ، ونفس لوامة ، ونفس أمارة .

قال ابن القيم : والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم . أما القلب والفؤاد فقد جاء في صحيح مسلم : " جاءكم أهل اليمن هم ألين قلوبًا وأرق أفئدة " . قال النووي وابن الصلاح : المشهور أن الفؤاد هو القلب ، فعلى هذا يكون قد كرر ذكر القلب مرتين بلفظين وهو أولى من تكريره بلفظ واحد . وقيل : الفؤاد غير القلب . وهو عين القلب ، وقيل : الفؤاد باطن القلب ، وقيل : هو غشاء القلب . قال العيني : وإنما سمي القلب قلبًا لتقلبه ، وقال الليث : مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط وسمى قلبًا لتقلبه . وقال الخطابي : وصف القلوب باللين والأفئدة بالرقة لأن الفؤاد غشاء القلب إذا رق نفذ القول فيه وخلص إلى ماوراءه . وكلاهما يطلق على الآخر عند الافتراق قال تعالى : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) (النجم / ١١) ، قال المفسرون أي رآه بقلبه فوعى عنه لأن القلب رئيس جميع الأعضاء فهي تعي بوعيه كما قال الألوسي رحمه الله . والله أعلم .

الفرق بين القلب والبال : أن القلب اسم للجارحة وسمي بذلك لأنه وضع في موضعه من الجوف مقلوبًا ، والبال والحال وحال الشئ عمدته فلما كان القلب عمدة البدن سمي بالًا فقولنا بال يفيد خلاف ما يفيده قولنا قلب لأن قولنا بال يفيد أنه الجارحة التي هي عمدة البدن وقولنا قلب يفيد أنه الجارحة التي وضعت مقلوبة أو الجارحة التي تتقلب بالأفكار والعزوم ، ويجوز أن يقال إن البال هو الحال التي معها ولهذا يقال اجعل هذا على بالك وقال امرؤ القيس :

فأصبحت معشوقًا واصبح أهلها * عليه القيام سئ الظن والبال

أي سئ الحال في ذكرها وتقول هو في حال حسنة ولا يقال في بال حسن فيفرق بذلك .

س : ما الفرق بين (أَفْتَاكَ ، وَأَفْتَوْكَ) ؟

ج : يعني إن أفتاك الناس بأنه ليس فيه إثم ، وأفتوك مرة بعد مرة .

وجملة : " وإن أفتاك " معطوفة على مقدر : أي إن لم يفتك الناس وإن أفتاك ، وقوله : (وأفتوك) هو بمعنى ما قبله كرر للتأكيد .

س : إذا كان الإثم هو الذي " حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ " مع أننا نرى بعض العصاة يفعلون المعاصي جهارًا نهارًا ، علانيةً أمام الناس ، بل ويتبجح بها ويفاخر بها ويخبر بها مَنْ لم يره ، فهو في هذه الحالة لم يحك في صدره ولم يكره أن يطلع عليه الناس ، فهل هذا ليس بإثم ؟

ج : هذه الجملة إنما هي لمن كان قلبه صافيًا سليمًا ، فهذا هو الذي يحوك في نفسه ما كان إثمًا ويكره أن يطلع عليه الناس .

أما المتمردون الخارجون عن طاعة الله الذين قست قلوبهم فهؤلاء لا يبالون ، بل ربما يتبجحون بفعل المنكر والإثم ، فالكلام هنا ليس عامًا لكل أحد بل هو خاص لمن كان قلبه سليمًا طاهرًا نقيًا .

س : " الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ " ، " الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ " اختلف تعريف البر ، فهل المقصود به ما كان في حق الخالق ، أم في حق المخلوق ؟

ج : البِرُّ يشمل القيام بحقوق الله ، والقيام بحقوق الخلق ، ويدل على ذلك اختلاف الروايتين في تفسير البر فقال في الرواية الأولى " الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ " وهذا القيام بحقوق الخلق ، وفي الرواية الثانية " الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ " وهذا القيام بحقوق الله ، لأنه فيما بين الإنسان وبين ربه .

الحديث الثامن والعشرون

عَن أَبِي نَجِيحٍ العرباضِ بنِ سَارِيَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : وَعَظَنا رَسُولُ اللهِ مَوعِظَةً وَجِلَت مِنها القُلُوبُ وَذَرَفت مِنهَا العُيون . فَقُلْنا : يَارَسُولَ اللهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوصِنَا ، قَالَ :

" أُوْصِيْكُمْ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ وَالسَّمعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافاً كَثِيرًا ؛ فَعَلَيكُمْ بِسُنَّتِيْ وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فإنَّ كلّ مُحدثةٍ بدعة ، وكُلّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ "

رواهُ أبو داود والتِرْمِذِيُّ وقال : حديثٌ حسنٌ صحيح (١) (٢) .

المعنى الإجمالي

الحديث أصلٌ عظيم في " الوعظ ، والإرشاد ، والتوجيه " ، وهو من جوامع كَلِمه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

وكان من عادته – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أن يتخوَّل أصحابه بالموعظة ، استجابة لقوله تعالى :

(وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا) (النساء / ٦٣) .

وقال في " قواعد الأحكام " : الوعظ : هو الأمر بجلب المصالح الخالصة أو الراجحة ، أو النهي عن ارتكاب المفاسد الخالصة أو الراجحة " .

– وهو أصل في تمييز البدعة من السنة ، والهدى من الرشاد ، فما وافق الشرع والسنة فهو السنة ، وما خالف الشرع فهو البدعة الحادثة ، وكل مالم يُشرع فهو من البدع .

– والحديث أصلٌ في الحرص على الجماعة ونبذ الفرقة و الاختلاف ، وفيه بيانٌ لما ينبغي فِعْله عند الاختلاف ، وما يلزم سلوكه للنجاة والهداية من ويلات الخلافات و المحدثات .

---

(١) أما رواية أبي داود فهي كالتالي : قَالَ الْعِرْبَاضُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذَاتَ يَوْمٍ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا موعظةً بليغة ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا فَقَالَ : " أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِى فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِى وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ " . (٤٦٠٩) .

وأما رواية الترمذي فهي كالتالي : عن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يومًا بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل : إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله ؟ قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبد حبشي فإنه من يعش منكم يرى اختلافا كثيرا وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ " .

قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح (٢٦٧٦) .

(٢) قال الشيخ الألباني في (صحيح أبي داود / ٤٦٠٧) ، (صحيح الترمذي / ٢٦٧٦) : صحيح .

– وهناك رواية لابن ماجة وهي : وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – مَوْعِظَةً ، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ ، فَمَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا ؟ قَالَ : " قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا ، لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلاَّ هَالِكٌ ، فَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي ، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا ، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الأَنِفِ ، حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ " . قال الشيخ الألباني في (صحيح ابن ماجة / ٤٣) : صحيح ، الصحيحة (٩٣٧) ، الظلال أيضًا .

توضيح الحديث

(المعنى)

" وَعَظَنا رَسُولُ اللهِ مَوعِظَةً وَجِلَت مِنهَا القُلُوبُ وَذَرَفَت مِنهَا العُيون "

" وَعَظَنا " نصحنا وذكَّرنا ، الوعظ : التذكير بما يلين القلب سواء كانت الموعظة ترغيبًا أو ترهيبًا ، وكان النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يتخول أصحابه بالموعظة أحيانًا .

موعظة : تنويهًا للتعظيم ، أي موعظة جليلة ، والموعظة : التذكير بالعواقب المقرون بالتخويف غالبًا .

(وَجِلَت مِنهَا القُلُوبُ) : بكسر الجيم ؛ أي خافت منها القلوب كما قال الله تعالى :

(الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) (الأنفال / ٢) .

" وَذَرَفَت مِنهَا العُيون" سالت بالدموع ، وهو كناية عن البكاء .

(فَقُلنَا يَا رَسُول الله : كَأَنَّهَا) : أي هذه الموعظة

" مَوعِظَةَ مُوَدِّعٍ " وذلك لتأثيرها في إلقائها ، وفي موضوعها ، وفي هيئة الواعظ لأن كل هذا مؤثر ؛ فتأثير المواعظ له أسباب منها : الموضوع ، وحال الواعظ ، وانفعاله ، فهموا ذلك من مبالغته – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في تخويفهم وتحذيرهم ، فظنوا أن ذلك لقرب مفارقته لهم ، فإن المودع يستقصي ما لا يستقصي غيره في القول والفعل .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٦٧)

١– أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –كان يعظ أصحابه بالترغيب والترهيب .

٢– تأثر الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – بالموعظة وشدة خوفهم من الله .

٣– فضل الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – ، وخشيتهم لربهم سبحانه ، فبسماعهم المواعظ توجل قلوبهم وتذرف عيونهم .

٤– استحباب الوعظ والتذكير .

٥– على الإمام والعالم وطالب العلم أن يتعاهدوا الناس بالمواعظ كما كان يفعل – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مع الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – .

٦– ينبغي للإنسان أن يستمع المواعظ بين فترة وأخرى لأنها نافعة للقلب .

٧– أن من صفات المؤمنين عند سماع المواعظ ، البكاء والخوف .

٨– مشروعية الموعظة ، ولكن ينبغي أن تكون في محلها ، وأن لا يكثر فيُمِل ، ولهذا كان النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يتخول أصحابه بالموعظة ، وكان بعض الصحابة يعظ أصحابه كل يوم خميس ، يعني في الأسبوع مرة .

٩– أثر موعظة الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في نفوس أصحابه وهي نموذج يستفيد منه الدعاة إلى الله .

١٠– أنه ينبغي للواعظ أن تكون موعظته مؤثرة باختيار الألفاظ الجزلة المثيرة ، وهذا على حسب الموضوع .

١١– المبالغة في الموعظة ، لما في ذلك من ترقيق القلوب ، فتكون أسرع إلى الإجابة .

١٢– فقه الصحابي العرباض بن سارية – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – حيث قدم قوله : " وَجِلَت مِنهَا القُلُوبُ " على قوله : " ذرفت منها العيون " لأن القلب هو الأصل .

١٣– أن المخاطب بالموعظة إذا كانت بليغة فسوف يتأثر لقوله : " وَجِلَت مِنهَا القُلُوبُ ، وَ ذَرَفَت مِنهَا العُيونُ " .

١٤– البكاء في مجالس الوعظ والذكر إذا غلب على الإنسان لا يكون رياءً ، كما بكى الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – في حديث الباب .

١٥– أن القلب إذا خاف بكت العين ، وإذا كان قاسيًا ، نسأل الله عزّ وجل أن يبعدنا وإياكم من قسوة القلب ، لم تدمع العين .

١٦– فيه بيان لعلاقة القلب مع الجوارح فمتى تأثر القلب وخشع تأثرت العيون فذرفت وبكت من خشية الله .

١٧– الكلام النافع هو الذي يخالط القلب فيؤثر عليه لصدق قائله وإخلاصه في نصحه .

١٨– أن وجل القلب ودمع العين علامة التأثر بالموعظة رغبة ورهبة .

(المعنى)

(فَقُلْنَا : يَارَسُولَ اللهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوصِنَا قَالَ : " أُوْصِيْكُمْ بِتَقْوَى اللهِ "

(فَأَوصِنَا) : وصية جامعة كافية .

(بِتَقْوَى اللهِ) : امتثال أوامره ، و اجتناب نواهيه .

(المستفاد)

١٩– يرشد الحديث إلى سُنَّة الوصية عند الوداع بما فيه المصلحة وسعادة الدنيا والآخرة .

٢٠– الاعتماد على القرائن في بعض الأحوال ، لأنهم إنما فهموا توديعه إياهم بإبلاغه في الموعظة أكثر من العادة .

٢١– أنه جرت العادة أن موعظة المودع تكون بليغة مؤثرة ، لأن المودع لن يبقى عند قومه حتى يكرر عليهم الموعظة فيأتي بموعظة مؤثرة يُذكر بها بعد ذلك لقولهم : " كَأَنَّهَا مَوعِظَةُ مودِّعٍ " .

٢٢– طلب الصحابة الوصية من النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

٢٣– فهم الصحابة وفطنتهم لما قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، ولذلك قالوا : " يا رسول الله كأنها موعظة مودع " ففهموا من خلال الألفاظ أنها وصية مودع ، وهذا الفهم يحصل بالتركيز والانتباه ، أما السهو والغفلة أثناء الوعظ فتضيع الفائدة على صاحبها .

٢٤– طلب الإنسان من العالم أن يوصيه .

٢٥– استحباب طلب الوصية من العالِم وأنها ليست من السؤال المذموم ، وكذلك السؤال عن العلم ، لقولهم – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – " فَأَوصِنَا " .

٢٦– يشرع للمسلم أن يطلب الوصية من غيره ، ويجب على الآخر أن ينصح له في وصيته ولا يغشه فيها .

٢٧– على الإنسان أن يتحرى أهل العلم والفضل ويطلب منهم النصيحة لأن نصيحتهم ووصيتهم أفضل من غيرهم .

٢٨– أنه ينبغي سؤال الواعظ الزيادة في الوعظ والتخويف والنصح .

(المعنى)

" أُوْصِيْكُمْ بِتَقْوَى اللهِ عز وجل وَالسَّمعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ "

ومعنى التقوى : طاعة الله بامتثال أمره واجتناب نهيه على علم وبصيرة .

ولهذا قال بعضهم في تفسيرها : أن تعبد الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك ما حرم الله ، على نور من الله ، تخشى عقاب الله .

(وَالسَّمعُ والطَّاعَة) : لولاة الأمور ، فيجب الإصغاء إلى كلام ولي الأمر ، ليفهم ويعرف ، وتجب طاعته ، بدليل قوله : " وَإِن تَأمَّر عَليكُم " ، والسمع والطاعة بأن تسمع إذا تكلم ، وأن تطيع إذا أمر .

(وَإِن تَأمَّر عَليكُم) : أي صار أميرًا .

(عبد) : أي مملوكًا .

(المستفاد)

٢٩- أن أهم ما يوصى به العبد تقوى الله عزّ وجل لقوله : " أُوصيكُم بِتَقوَى الله " .

٣٠- فضيلة التقوى حيث كانت أهم وأولى وأول ما يوصى به العبد .

٣١- الأمر بتقوى الله والسمع والطاعة ، وفي هذه الوصية سعادة الدنيا والآخرة ، أما التقوى فهي وصية الله للأولين والآخرين ، وأما السمع والطاعة فبهما تنتظم مصالح العباد في معاشهم ، ويستطيعون إظهار دينهم وطاعاتهم

٣٢- أعظم الوصية على الإطلاق الوصية بتقوى الله لأنها تعني فعل الطاعات وترك المنهيات ، فهي الدين بكامله .

٣٣- وصية النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بالسمع والطاعة لولاة الأمور ، ما لم يأمر بمعصية وإن لم يكن ذا حسب ولا نسب .

٣٤- السمع والطاعة لولي أمر المسلمين من تقوى لله سبحانه وتعالى ، فيطاع عبادة لله ولذلك ذكر – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – السمع والطاعة بعد قوله : " أوصيكم بتقوى الله ".

٣٥- ثبوت إمرة العبد ، لقوله : " وَإِن تَأمرَ عَليكُم عَبدٌ " .

٣٦- وجوب طاعة الأمير وإن لم يكن السلطان ، لقوله : " وَإِن تَأمرَ عَليكُم " ومعلوم أن الأمة الإسلامية من قديم الزمان فيها خليفة وهو السلطان ، وهناك أمراء للبلدان ، وإذا وجبت طاعة الأمير فطاعة السلطان من باب أولى .

٣٧- ضابط طاعة ولي أمر المسلمين ما كان في حدود تقوى الله سبحانه ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وهذا الضابط والقيد يؤخذ من الربط بين قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أوصيكم بتقوى الله " مع قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد " .

٣٨- الحديث يعالج تفرق وشق الصف وذلك بالاجتماع على تقوى الله وعلى إمام واحد .

(المعنى)

" فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا ؛ فَعَلَيكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ "

(فَإِنَّهُ مَن يَعِش مِنكُم) : أي تطول به الحياة .

(فَسَيَرى) : والسين هنا للتحقيق .

(اختِلافًا كثيرًا) : في الاعتقادات ، والأقوال والأعمال ، وفي المنهج ، وهذا الذي حصل ، فالصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – الذين عاشوا طويلاً وجدوا من الاختلاف والفتن والشرور ما لم يكن لهم في الحسبان .

(فَعَلَيكُم بِسُنَّتي) : عليكم : اسم فعل أمر بمعنى الزموا واستمسكوا .

أي الزموا التمسك بسنتي ، والمراد بالسنة هنا : الطريقة التي هو عليها ، فلا تبتدعوا في دين الله عزّ وجل ما ليس منه ، ولا تخرجوا عن شريعته .

(وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ) : الخلفاء الذين يخلفون رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في أمته ، والذين عرفوا الحق واتبعوه ، والمراد بالخلفاء الراشدين : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – .

(الرَّاشِدِينَ) : جمع راشد وهو من عرف الحق واتبعه .

(المَهْدِيِّينَ) : صفة مؤكدة لما سبق ، لأنه يلزم من كونهم راشدين أن يكونوا مهديين ، إذ لا يمكن رشد إلا بهداية ، وعليه فالصفة هنا ليست صفة احتراز ولكنها صفة توكيد وبيان علة ، يعني أنهم رشدوا لأنهم مهديون .

(عَضُّوا عَلَيهَا) : عضوا : فعل أمر من عض يَعَض هو بفتح العين ، وضمها غلط . أي عَضُّوا على سنتي وسنة الخلفاء .

(بالنَّوَاجِذِ) : جمع ناجذ وهو آخر الأضراس ، ومن المعلوم أن السُّنة ليست جسمًا يؤكل ، لكن هذا كناية عن شدة التمسك بها ، أي أن الإنسان يتمسك بهذه السنة حتى يعض عليها بأقصى أضراسه .

(المستفاد)

٣٩– ظهور آية من آيات النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وعلم من أعلام النبوة ، فإنه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أخبر بما يقع بعده في أمته من كثرة الاختلاف فقد وقع الأمر كما أخبر به النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

٤٠– وجوب التمسك بسنة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عند الاختلاف ، لقوله : " فَعَلَيكُم بِسنَّتي " والتمسك بها واجب في كل حال لكن يتأكد عند وجود الاختلاف .

٤١– التمسك بالسنة والصبر على ما يصيب المتمسك من المضض في ذلك ، وقد قيل : إن هذا هو المراد بعض النواجذ عليها .

٤٢– أن الواحد من الخلفاء الراشدين إذا قال قولا وخالفه فيه غيره كان المصير إلى قول الخليفة أولى .

٤٣– أنه يجب على الإنسان أن يتعلم سنة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

٤٤– العلاج عند الاختلاف ، وهو التمسك بالسنة لقوله : " فعليكم بسنتي " .

٤٥– الواجب عند الاختلاف الاعتصام بسنة الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فإن لم تكن فبسنة الخلفاء الراشدين .

٤٦- أن للخلفاء سنة متبعة بقول النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وعلى هذا فما سَنَّه الخلفاء الراشدون اعتُبر سُنَّة للرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بإقراره إياهم ، ووجه كونه أقره أنه أوصى باتباع سنة الخلفاء الراشدين .

٤٧- فضل الخلفاء الراشدين المهديين للأمر بالأخذ بسنتهم ووصفهم بالرشد والهدى ، والمراد بهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – . وقد صار هذا الوصف علمًا عليهم .

٤٨- فيه تزكية للخلفاء الأربعة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – أجمعين لقوله : " الراشدين المهديين " .

٤٩- أنه إذا كثرت الأحزاب في الأمة فلا تنتم إلى حزب ، فقد ظهرت طوائف من قديم الزمان مثل الخوارج والمعتزلة والجهمية والرافضة ، ثم ظهرت أخيرًا إخوانيون وسلفيون وتبليغيون وما أشبه ذلك ، فكل هذه الفرق اجعلها على اليسار وعليك بالإمام وهو ما أرشد إليه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في قوله : " عَلَيكُم بِسُنَّتي وَسُنَّة الخُلَفَاء الرَاشِدين " .

٥٠- الحث على التمسك بسنة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وسنة الخلفاء الراشدين تمسكًا تامًا ، لقوله : " عضوا عَلَيهَا بالنَّوَاجِذِ " .

٥١- في الحديث التشديد على التمسك بالسنة وذلك : –

٥٢- لقوله : " فعليكم بسنتي " ففيها أمر .

٥٣- ولقوله : " عضوا عليها " فلفظ العض يدل على التمسك في معناه .

٥٤- ولقوله : " النواجذ " وهي الأضراس وهي أقوى الأسنان ، فيشعر ذلك بقوة التمسك .

٥٥- ذكر في الحديث علاجًا للفتن والافتراق والاختلاف بين المسلمين ، ويتلخص العلاج في أمور :

الأولى : تقوى الله " أوصيكم بتقوى الله "

الثانية : السمع والطاعة " والسمع والطاعة "

الثالثة : التمسك بالسنة " فعليكم بسنتي " .

الرابع : هجر البدع " وإياكم ومحدثات الأمور " .

(المعنى)

" وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فإنَّ كلّ مُحدثةٍ بدعة ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ "

(وَإيَّاكُم) : أي اجتنبوها ، لما حث على التمسك بالسنة حذر من البدعة .

(وَمُحدَثَاتِ الأُمور) : الأمور التي ليس لها أصل في الشريعة الإسلامية وهي مذمومة .

والمراد بالأمور هنا الشئون ، والمراد بالشئون شئون الدين ، لا المحدثات في أمور الدنيا ، لأن المحدثات في أمور الدنيا منها ما هو نافع فهو خير ، ومنها ما هو ضار فهو شر ، لكن المحدثات في أمور الدين كلها شر ، ولهذا قال : " فَإِنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَة " لأنها ابتدعت وأنشئت من جديد .

(كُل بِدعَةٍ ضَلالَة) : (البدعة) : لغة : ما اخترع على غير مثال سابق .

شرعًا : هي ما أحدث على خلاف أمر الشارع ، ودليله الخاص أو العام .

ضلالة : بُعد عن الحق .

(المستفاد)

٥٦- التحذير من ابتداع الأمور التي ليس لها أصل في الشرع ، أما ما كان مبنيا على قواعد الأصول ومردودا إليها . فليس ببدعة ولا ضلالة .

٥٧- الرد على من يقسم البدعة إلى حسنة وسيئة .

٥٨- التحذير من البدع ، أي من محدثات الأمور ، لأن (إيًّا) في قوله " وَإِيَّاكم " معناها التحذير من محدثات الأمور لكن في الدين ، أما في الدنيا إما مطلوب وإما مذموم حسب ما يؤدي إليه من النتائج .

٥٩- أن جميع البدع ضلالة ليس فيها هدى ، بل هي شر محض حتى وإن استحسنها من ابتدعها فإنها ليست حسنى ، بل ولا حسنة لقول النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : "كُلَّ بِدعَةٍ ضَلالَة " ولم يستثنِ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – شيئًا .

٦٠- فيه بيان تام لتعريف البدعة حيث ذكرها بعد قوله " فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء " فدل على أن كل ما ليس بسنة عنهم فهو بدعة .

٦١- في الحديث التشديد على هجر البدع ، وذلك :-

٦٢- لقوله " إياكم " : وهي كلمة تحذير .

٦٣- ولقوله "كل " : وهي من ألفاظ العموم وقد أضيفت لما بعدها " بدعة " فاجتمع صيغتان للعموم "كل " والإضافة .

٦٤- ولقوله " ضلالة " : وهي وصف لجميع البدع بالضلال ، وهذا من الذم والتحذير .

٦٥- البدعة لا يستحسن منها شيء أبدًا لأنها ضلالة ، فلا يغتر الإنسان بتحسين من حسنها أو زعم فيها مصالح ليست في غيرها .

٦٦- الجمع بين الترغيب والترهيب ؛ لقوله في الترغيب : " فعليكم " ، وفي الترهيب : " وإيَّاكم " .

٦٧- أن المرجع في مسائل الدين كلها إلى ما جاء به الرسول .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : لماذا قدَّم فعل القلب (وَجِلَت) على فعل العين (ذَرَفت) " وَجِلت مِنهَا القُلُوبُ وَذَرَفَت مِنهَا العُيون " ؟

ج : لأن القلب هو الأصل ، وهو ملك الأعضاء وبأمره يأتمرون ، وبصلاحه تصلح سائر الأعضاء كما قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أَلَّا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ " . (خ / ٥٢) ، (م / ١٠٧) .

س : هل يلزم طاعة الأمير في كل شيء ، أو فيما يتعلق بالحكم ؟

ج : الثاني ، أي فيما يتعلق بالحكم ورعاية الناس ، فلو قال لك الأمير مثلاً : لا تأكل اليوم إلا وجبتين . أو ما أشبه ذلك فلم يجب عليك أن توافق إلا أنه يحرم عليك أن تنابذ ، بمعنى أن تعصيه جهارًا لأن هذا يفسد الناس عليه .

الحديث التاسع والعشرون

عَن مُعَاذِ بن جَبَلٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قُلتُ يَا رَسُولَ الله أَخبِرنِي بِعَمَلٍ يُدخِلُني الجَنَّةَ وَيُبَاعدني مِنِ النار ، قَالَ : " لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيْمٍ ، وَإِنَّهُ لَيَسِيْرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ : تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئَا ، وَتُقِيْمُ الصَّلاة ، وَتُؤتِي الزَّكَاة ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ البَيْتَ " . ثُمَّ قَالَ : " أَلا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ ؟ : الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيْئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ ، وَصَلاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، ثُمَّ تَلا : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) حَتَّى بَلَغَ : (يَعْمَلُونَ) (السجدة / ١٦–١٧) " ثُمَّ قَالَ : " أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ ؟

" قُلْتُ : بَلَى يَارَسُولَ اللهِ ، قَالَ : " رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ ، وَذِروَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ "

ثُمَّ قَالَ : " أَلا أُخبِرُكَ بِمِلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟ " قُلْتُ : بَلَى يَارَسُولَ اللهِ . فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ : "كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا " .

قُلْتُ يَانَبِيَّ اللهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ : " ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَامُعَاذُ . وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَو قَالَ : عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِمْ ؟ " رواهُ التِّرْمِذِيُّ وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ (١) (٢) .

المعنى الإجمالي

الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الدين ؛ لاشتماله على أصول الإسلام وقواعده ، سواء من ناحية علاقة المسلم بربّه في شهادة الإسلام و الصلاة والصيام ونحو ذلك ، أو علاقته بالآخرين ، سواء في ميدان الجهاد بالسيف ، أو ميدان الكلمة واللسان .

وبَيَّنَ الحديث خطورة الكلمة على صاحبها ، وقد مضى بيان ذلك أيضًا في حديث " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت " .

---

(١) أما رواية الترمذي فهي كالتالي : عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي سَفَرٍ ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ ، قَالَ : لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ البَيْتَ، ثُمَّ قَالَ : أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ : الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ ، وَصَلاَةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ قَالَ : ثُمَّ تَلاَ {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} ، حَتَّى بَلَغَ {يَعْمَلُونَ}، ثُمَّ قَالَ : أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ : أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمَلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ : كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا ، فَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللهِ ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَو عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ .

(٢) قال الشيخ الألباني في (صحيح الترمذي / ٢٦١٦) : صحيح .

توضيح الحديث

منزلة الحديث

هذا الحديث من الأهمية بمكان ، ويظهر هذا من صيغة السؤال " أخبرني عن عمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار " ومن بداية الجواب " لقد سألت عن عظيم " ولذلك جعله الإمام النووي – يرحمه الله – من الأحاديث الأربعين لأنه يجمع أصولًا عديدة .

(المعنى)

(عَن مُعَاذ بن جَبَلٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قُلتُ يَا رَسُولَ الله أَخبِرنِي بِعَمَلٍ يُدخِلُني الجَنَّةَ وَيُبَاعدني منِ النار قَالَ : " لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيْمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيْرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ") .

(لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيْمٍ) : عن عمل عظيم ، لأن دخول الجنة والنجاة من النار أمر عظيم جدًا ، لأجله أنزل الله الكتب ، وأرسل الرسل .

(مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ) : بتوفيقه إلى القيام بالطاعات على ما ينبغي .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٩٧)

١– حرص الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – على العلم ، ولهذا يكثر منهم سؤال النبي– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عما يفيدهم وينفعهم ، وهذا من علو همتهم ورفعتهم .

٢– حرص الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – على الأعمال التي تؤدي بهم إلى الجنة .

٣– الإنسان يسأل عن ما يريد ولو كان أمرًا عظيمًا .

٤– السؤال يورد للعمل بالجواب ولذلك قال : (أَخبِرنِي بِعَمَلٍ يُدخِلُني الجَنَّةَ وَيُبَاعدني منِ النار) .

٥– علو همة معاذ بن جبل – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – حيث لم يسأل عن أمور الدنيا ، بل عن أمور الآخرة ، حيث قال : (أَخْبِرنِي عَنْ عَمَلٍ يُدخِلُني الجَنَّةَ ويُبَاعِدُنِي مِنَ النَّار) .

٦– شدة اهتمام معاذ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – بالأعمال الصالحة .

٧– أن هذا السؤال الذي صدر من معاذ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– سؤال عظيم ، لأنه في الحقيقة هو سر الحياة والوجود ، فكل موجود في هذه الدنيا من بني آدم أو من الجنّ غايته إما الجنة وإما النار ، فلذلك كان هذا السؤال عظيمًا .

٨– إثبات الجنة والنار ، والإيمان بهما أحد أركان الإيمان الستة كما سبق .

٩– أن العمل يدخل الجنة ويباعد عن النار ، لأن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أقره على هذا .

١٠– المعلم ينبغي أن يمدح صاحب السؤال الجيد تشجيعًا له على سؤاله ، ولذلك قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لما سئل السؤال : " لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيْمٍ " .

١١– أن للنجاة من النار ودخول الجنة أسبابًا .

١٢– أن هذه الأسباب إنما تعرف بخبر الرسل .

١٣- المعلم يستعمل بعض الأساليب في تربيته مثل : -

١٤- التشجيع " لقد سألت عن عظيم " .

١٥- التشويق " وَإِنَّهُ لَيَسِيْرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ " مع قوله قبل ذلك " عظيم " .

١٦- عظم شأن هذه الأسباب وأنها شاقة إلا على من يسرها الله عليه ، ففيه شاهد لقوله : " حفت الجنة بالمكاره " .

١٧- التوفيق كله بيد الله ومن عنده سبحانه يرزقه من يشاء ويمنعه ممن يشاء ولذلك قال :
" وَإِنَّهُ لَيَسِيْرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ " وهذا يوجب الالتجاء إليه سبحانه وطلبها منه وبذل الوسع في ذلك .

١٨- أن هذا وإن كان عظيمًا فهو يسير على من يسره الله عليه .

١٩- أن العمل بأسباب السعادة إنما يكون بتيسير الله .

٢٠- أن أسباب السعادة في الآخرة أهم المهمات .

٢١- أن من الحزم والعقل الاهتمام بمعرفة هذه الأسباب .

٢٢- أن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة ، كما قال تعالى : (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (الزخرف / ٧٢) وأما قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لن يدخل الجنة أحد منكم بعمله " ، فالمراد أن العمل بنفسه لا يستحق به أحد الجنة ، لولا أن الله جعله بفضله ورحمته سببا لذلك ، والعمل نفسه من فضل الله ورحمته على عبده ، فالجنة وأسبابها كل من فضل الله ورحمته .

٢٣- أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله تعالى التيسير ، أن ييسر أموره في دينه ودنياه .

٢٤- أن أعظم ما يسأل عنه هو أسباب دخول الجنة ، وأسباب الابتعاد عن النار ، لأن من دخل الجنة ونجا من النار فقد فاز الفوز العظيم .

(المعنى)

" تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيْمُ الصَّلاة ، وَتُؤْتِي الزَّكَاة ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ البَيْتَ " .

(تَعبُدَ اللهَ) : توحده ، بمعنى تتذلل له بالعبادة حبًا وتعظيمًا ، فبالمحبة تفعل الطاعات ، وبالتعظيم تترك المعاصي .

(لا تُشرِك بِهِ شيئًا) : أي شي يكون حتى الأنبياء ، بل الأنبياء ما جاؤوا إلا لمحاربة الشرك ، فلا تشرك به شيئًا لا ملكًا مقربًا ، ولا نبيًا مرسلًا .

(وَتُقيم الصَلاةَ ، وَتُؤتِي الزَكَاةَ ، وَتَصوم رَمَضَانَ ، وَتَحُج البَيتَ) : هذه أركان الإسلام الخمسة ، وقد مرت .

(المستفاد)

٢٥- دلّ الحديث على أن الأعمال من الإيمان .

٢٦- تفسير الشهادتين العملي هو " تَعْبُدُ اللهَ لاتُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا " بحيث تصرف جميع أنواع العبادة لله وحده .

٢٧- أن أصول أسباب النجاة هي مباني الإسلام الخمسة .

٢٨- ترتب دخوله الجنة على الإتيان بأركان الإسلام الخمسة ، وهي : التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج .

٢٩- توحيد الله عز وجل وأداء الفرائض سبب دخول الجنة .

٣٠- ذكر أركان الإسلام الخمسة ، في قوله : " تَعْبُدَ اللهَ لا تُشرِكْ بهِ شَيئًا ، وَتُقِيْمَ الصّلاةَ ، وَتُؤتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ البَيْتَ " ولم يذكر الرسالة ، لأن عبادة الله تتضمن الرسالة ، إذ لا يمكن أن يعبد الإنسان ربه إلا بما شرع نبيه .

٣١- أن أصل الدين عبادة الله وحده لا شريك له .

٣٢- أن أغلى المهمّات وأعلى وأول الواجبات وأعظمها هو عبادة الله وحده لاشريك له ، أي التوحيد .

٣٣- أن أعظم واجب بعد التوحيد الصلوات الخمس ثم الزكاة وبعدهما الصوم والحج .

(المعنى)

" أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ : الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيْئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ ، وَصَلاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ثُمَّ تَلا : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) حَتَّى بَلَغَ : (يعملون) (السجدة / ١٦- ١٧) " .

(أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبوَابِ الخَيرِ) : أبواب أي مسائل ، وأبواب تستعمل في الباب الذي يفتح للداخل والخارج ، وتستعمل في المسائل ، ومن هذا قول العلماء في مؤلفاتهم : هذا الباب في كذا وكذا . وقول المحدثين : لا يصح في هذا الباب شيء ، أي لا يصح في هذه المسألة شيء ، " أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبوَابِ الخَيرِ " من النوافل ، لأنه قد دله على واجبات الإسلام قبل .

(أَبوَابِ الخَيرِ) : أي مسائل الخير ، ويجوز أن يكون المراد به الباب المعروف الذي يكون منه الدخول والخروج .

(الصَّومُ جُنَّةٌ) : الصوم : التعبد لله تعالى بالإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

(جُنَّةٌ) : بضم الجيم وقاية لصاحبه من المعاصي في الدنيا ، ومن النار في الآخرة . أي مانع يمنع صاحبه في الدنيا ويمنع صاحبه في الآخرة .

أما في الدنيا فإنه يمنع صاحبه من تناول الشهوات الممنوعة في الصوم ، وأما في الآخرة فهو جُنَّةٌ من النار ، يقيك من النار يوم القيامة . الصوم : الإكثار من نفله ، لأن فرضه مَرَّ ذكره قريبًا .

(وَالصَّدَقَة تُطفِيء الخَطِيئَة كَمَا يُطفِيء المَاءُ النَّارَ) : الصدقة مطلقًا سواء أكانت الزكاة الواجبة أم التطوع ، وسواء أكانت قليلة أم كثيرة . وقيل : الصدقة : نفلها ، لأن فرضها مَرَّ .

(تُطفِئ الخَطِيئَة) : أي خطيئة بني آدم ، وهي المعاصي .

(كَمَا يُطفِئ المَاءُ النَّارَ) : والماء يطفئ النار بدون تردد ، فشبه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الأمر المعنوي بالأمر الحسي .

(وَصَلاةُ الرّجُل فِي جَوفِ اللَّيلِ) : هذه معطوفة على قوله " الصدقة " أي وصلاة الرجل في جوف الليل تطفئ الخطيئة ، وجوف الليل وسطه كجوف الإنسان ، والمرأة مثل الرجل في ذلك ، وإنما خص الرجل بالذكر لغلبة الخير في الرجال ، أو لأن السائل رجل .

(تلا) : النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، ليبين فضل صلاة الليل .

(تَتَجَافَى) : تتنحى : ترتفع أجسامهم وتبتعد عن الفراش والمراقد وتهرع إلى الصلاة .

(الْمَضَاجِعِ) : مواضع الاضطجاع للنوم .

(المستفاد)

٣٤- فيه نشر العلم لقوله " ألا أدلك على أبواب الخير .... " .

٣٥- الداعية عليه أن يختار الأسلوب الأمثل لنشر الخير بين الناس ودلالتهم عليه وتحبيبهم إليه ، فقد قال الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " ألا أدلك على أبواب الخير ؟ " فجمع عدة أساليب كالتحضيض والحث والاستفهام والتشويق .

٣٦- العالم عليه أن يزيد في الجواب إن رأى الفائدة في ذلك ، كما فعل النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في الحديث حيث زاد على الجواب .

٣٧- ينبغي للمسلم أن يحرص على معرفة أبواب الخير لكي يكثر منها .

٣٨- أن العبادات منها فرائض ومنها نوافل .

٣٩- رحمة الله بعباده أن فتح لهم أبواب الخير ليتزودوا من أسباب الأجر ومغفرة الذنوب .

٤٠- فيه فضل الصوم وأنه حماية عن الشهوات والمحرمات وعلاج لها ، ولذلك قال : " الصوم جنة " وأطلق ولم يقيده .

٤١- أن الصوم جنة وبناء على هذا فمن لم يكن صومه جنة له فإنه ناقص ، ولهذا يحرم على الإنسان تناول المعاصي في حال الصوم .

٤٢- أن الصوم وقاية للعبد من العذاب والشرور .

٤٣- فيه فضل الصدقة وأنها تطفئ الخطيئة .

٤٤- جعل النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الصدقة بمنزلة الماء الذي فيه الحياة والنماء ، والصدقة كذلك فيها نماء للمال وتطهير له ولصاحبه من آفات الذنوب .

٤٥- أن الصدقة تطفئ الخطيئة ، ففيه الحث على الصدقة فإذا كثرت خطاياك فأكثر من الصدقة فإنها تطفئ الخطيئة .

٤٦- أن الصدقة تكفر بها السيئات .

٤٧- أن الخطيئة فيها شيء من الحرارة لأنه يعذب عليها الإنسان بالنار ، والماء فيه شيء من البرودة ، ولهذا شبه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذلك بالماء يطفئ النار .

٤٨- جعل النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الخطيئة بمنزلة النار التي تحرق وتدمر ، والخطيئة كذلك على صاحبها .

٤٩- فيه فضل صلاة الليل على النهار وأنها تطفئ الخطيئة .

٥٠- الحث على صلاة الليل ، وبيان أنها تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار .

٥١- على المسلم أن ينوع العبادات ما بين صلاة وصيام وصدقة ونوافل حتى يفوز بجميع الفضائل التي ذكرت في الحديث .

٥٢- الحديث فيه حث على الإكثار من أعمال السر التي لا يطلع عليها إلا الله كالصيام والصدقة والصلاة في جوف الليل ، وذلك لأنها أدعى للقبول والإخلاص والصدق .

٥٣- فضل التقرب بالنوافل بعد أداء الفرائض .

٥٤- الأعمال الصالحة تكفر الأعمال السيئة ، فمن زلت به القدم في فعل محرم فليتبعه بحسنة .

٥٥- حسن تعليم النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وما أكثر ما يمر علينا حسن تعليمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

٥٦- استدلال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بالقرآن والاستشهاد من القرآن أثناء الكلمة مع أن القرآن أنزل عليه ، لكن القرآن يستدل به لأن كلام الله تعالى مقنع لكل أحد ، ولهذا تلا هذه الآية : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ) (السجدة / ١٦) .

٥٧- أن الاستدلال بآيات القرآن لا تشرع له الاستعاذة .

٥٨- السنة تفسر القرآن ، فقد فسَّر النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قوله (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) بأنها صلاة الرجل في جوف الليل .

٥٩- فضيلة أولئك القوم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، لأنهم يشتغلون بالصلاة يدعون ربهم خوفًا وطمعًا .

٦٠- ومن فوائد الآية التي استشهد بها النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : أنه ينبغي للإنسان أن يكون عند دعوة الله عزّ وجل خائفًا راجيًا ، لقوله : (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) (السجدة / ١٦) .

٦١- فضل إيثار ما يحبه الله على حظ النفس لقوله تعالى : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) (السجدة / ١٦) .

٦٢- الجمع بين الخوف والرجاء في العبادة والدعاء لقوله تعالى : (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) (السجدة / ١٦) .

٦٣- الجمع في الذكر بين الصلاة والصدقة فرضًا أو تطوعًا ، لقوله تعالى : (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (السجدة / ١٦) . والمراد دعاء العبادة ودعاء المسألة .

٦٤- ومن فوائد الآية المذكورة في الحديث : فضيلة الإنفاق مما رزق الله العبد ، لقوله :
(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (السجدة / ١٦) .

(المعنى)

" أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ " .

(أَلا أُخبِرُكَ بِرَأسِ الأَمرِ ، وَعَمودِهِ ، وذِروَةِ سِنَامِهِ) : ثلاثة أشياء :

" قُلتُ : بَلَى يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : رَأسُ الأَمرِ الإِسلام " أمر الإنسان الذي من أجله خُلِقَ ، رأسه الإسلام ، أي أن يسلم لله تعالى ظاهرًا وباطنًا بقلبه وجوارحه .

(برأس الأمر) : الذي سألت عنه .

(وَعَمودِهِ الصلاة) : أي عمود الإسلام الصلوات ، والمراد بها الصلوات الخمس .

(وَذِروَةِ سِنَامِهِ الجِهَاد في سَبيلِ الله) : ذروة : بضم الذال وكسرها الطرف الأعلى . السنام ما ارتفع من ظهر الجمل .
وذكر الجهاد أنه ذروة السنام ، لأن الذروة أعلى شيء ، قال الله تعالى :
(وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين) (آل عمران / ١٣٩) .

(الجهاد) : يعني في سبيل الله عزّ وجل والجهاد في سبيل الله بينه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أتم بيان ، فقد سئل عن الرجل يقاتل حمية ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل ليرى مكانه ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : " مَن قَاتَلَ لِتَكونَ كَلِمَةُ اللهِ هي العُليَا فَهوَ في سَبيلِ اللهِ " .

(المستفاد)

٦٥- أن رأس الأمر - أي أمر الدنيا والآخرة - الإسلام . والإسلام هوما بعث به النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، إذ بعد بعثته لا إسلام إلا ما كان على شريعته .

٦٦- أن الصلاة عمود الدين ، والعمود لا يستقيم البناء إلا به .

٦٧- فيه فضل الصلاة والجهاد في الإسلام ولذلك كانتا عمود الأمر وذروة سنامه .

٦٨- أن الجهاد ذروة سنام الإسلام ، والذروة هو الشيء العالي ، لأنه إذا استقام الجهاد فمقتضاه أن المسلمين تكون كلمتهم هي العليا ، وهذا ذروة السنام .

ولكن يقيد هذا الإطلاق بما إذا كان الجهاد في سبيل الله عزّ وجل يتعيّن .

٦٩- فضل الجهاد في سبيل الله في حفظ الإسلام وإعلاء كلمة الله وأنه أفضل أنواع التطوع .

(المعنى)

" أَلا أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ "

(بملاك ذلك كله) : بمقصوده وجماعه ، وما يعتمد عليك . والملاك بكسر الميم وفتحها ، ملاك الشيء ما يملك به ، والمعنى ما تملك به كل هذا .

(المستفاد)

٧٠- أن ملاك هذا كله كف اللسان ، لقول النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " أَلا أُخْبِرُكَ بِملاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ "

٧١- أصل الخير كله كف اللسان لقوله : " ألا أخبرك بملاك ذلك كله " .

(المعنى)

" قُلتُ : بَلَى يَا رَسُول الله ، قَالَ : فَأَخذ بِلِسانِهِ وَقَالَ : كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا ، فَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللهِ ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ " .

(فأخذ بلسانه) : أمسك النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لسان نفسه . أي لاتطلقه في القيل والقال ، وقد تقدم قوله : " مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَليَقُل خَيرًا أَو لِيَصمُت " فلا تتكلم إلا بخير .

(كف عليك) : عنك . أو ضمن ((كف)) معنى أحبس . كف عليك هذا : احبس لسانك أن ينطق الشر .

(قُلتُ : يَا نَبِيَّ اللهِ وَإنَّا لَمؤاخِذونَ بِمَا نَتَكلّم بِهِ) : والمعنى : أإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ يعني أن معاذًا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - تعجب كيف يؤاخذ الإنسان بما يتكلم به .

(ثَكِلَتكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذ) : ثكلتك : فقدتك . ولم يقصد رسول الله حقيقة الدعاء . بل جرى ذلك على عادة العرب في المخاطبات ، وهذه الكلمة يقولها العرب للإغراء والحث ، ولا يقصدون بها المعنى الظاهر ، وهو أن تفقده أمه .

(وَهَل) : استفهام إنكار ، بمعنى النفي . أي ما يحصدون بألسنتهم من الأقوال .

(يَكُبُّ) : بضم الكاف يصرع .

(النَّاسَ) : أكثرهم .

(أَو قَالَ عَلَى منَاخِرِهِم) : هذا شك من الراوي .

(إِلا حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِم) : ما يقتطعونه من الكلام الذي لا خير فيه .

(المستفاد)

٧٢- خطر اللسان والمؤاخذة على عمله و أنه يورد النار بحصائده .

٧٣- فيه فضيلة إمساك اللسان عن الخوض فيما لا ينبغي الخوض فيه .

٧٤- من أساليب التعليم : الإشارة أو التعليم المباشر . كما أخذ النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لسانه بيده وفي رواية " فأشار إلى لسانه " .

٧٥- التعليم بالقول وبالفعل ، لقوله : " أَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ : كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا " .

٧٦- أن كف اللسان وضبطه وحبسه هو أصل الخير كله ، فإن معصية النطق يدخل فيها الشرك الذي هو أعظم الذنوب عند الله عز وجل ، والقول على الله بغير علم ، وهو قرين الشرك وشهادة الزور والسحر والقذف والغيبة والنميمة ، وسائر المعاصي القولية . بل المعاصي الفعلية لا تخلو غالبًا من قول يقترن بها يكون معينًا عليها .

٧٧- دل على أن أكثر أسباب دخول النار هو اللسان فيجب الحذر منه .

٧٨- يربي الحديث المسلم على محاسبة لسانه قبل النطق بأي عبارة هل تقوده إلى النار على وجهه أم لا ؟ .

٧٩- الشريعة تربي أصحابها على العمل والفعل دون الكلام الذي لا معنى له ولذلك ذكر النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في أول الحديث أعمال كثيرة من الإيمان وختم الحديث بالتحذير من اللسان ويقصد مفاسده .

٨٠- العالم يراعي الفروق بين طلاب العلم ، ولهذا لما كان السائل هنا معاذ بن جبل - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهو طالب علم شهد له النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بذلك أكثر له في الجواب وأوسع لعلمه بحاجته لذلك ، ولما يكون السائل أعرابيًا مثلاً يعطيه النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جوابًا يناسبه ، وهذا من العلم بحال الطلاب .

٨١- أن الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم - لا يبقون في نفوسهم إشكالاً ولا قلقًا ، بل يسألون عنه حتى ينكشف الأمر.
ومن هنا نأخذ فائدة عظيمة وهي :

٨٢- أن ما لم يسأل عنه الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم - ولم يرد في الكتاب والسنة من مسائل الاعتقاد فالواجب الكفّ عنها ، فإذا سألك إنسان عن شيء في الاعتقاد ، سواء أكان في أسماء الله ، أم صفات الله أم أفعال الله ، أم في اليوم الآخر أم غيره ولم يسأل عنه الصحابة فقل له : هذا بدعة ، لو كان خيرًا لسبقونا إليه لأنهم - والله - أحرص منا على العلم ، وأشد منا خشية لله تعالى .

٨٣- جواز إطلاق القول الذي لا يقصد وإنما يدرج على اللسان ، لقوله : " ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَامُعَاذُ " هذه الكلمة دعاء ، لكنها تجري على الألسن لقصد الحث لا للدعاء ، وهي موافقة للقاعدة الشرعية ، وهي أن الله تعالى لا يؤاخذ باللغو ، وعلى هذا فما يجري على اللسان من الأيمان لا يؤاخذ به الإنسان .

٨٤- أن أهل النار – والعياذ بالله – قد يكبون في النار على وجوههم ، لقوله : " وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّار عَلَى وُجُوهِهِم أو قال : عَلَى مَنَاخِرِهِم " وهذا اختلاف لفظ والمعنى واحد ، لأن المنخر في الوجه ، واسمع قول الله عزّ وجل : (أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ) (الزمر / ٢٤) العادة أن الإنسان يتقي العذاب بيده ، لكن أهل النار – أجارنا الله منها بمنّه وكرمه – لا يستطيعون ، تلفح وجوههم النار ، يتقي بوجهه سوء العذاب .

٨٥- الحذر من إطلاق اللسان ، وقد مرّ علينا في الأحاديث السابقة .

٨٦- كثرة الذنوب التي تكون باللسان .

٨٧- أن لدخول النار أسبابًا .

٨٨- إثبات الأسباب والرد على من أنكرها من الجهمية ومن تبعهم .

٨٩- حسن تعليمه وبيانه لمسائل الدين وذلك يظهر في الحديث من وجوه :

٩٠- تعظيمه لسؤال معاذ لعظمة المسؤول عنه .

٩١- البشارة بتيسيره على من شاء الله .

٩٢- ذكره لأسباب دخول الجنة من الفرائض والنوافل .

٩٣- ذكر مراتب الأعمال .

٩٤- تشبيهه المعقول بالمحسوس في قوله : " والصدقة تطفئ الخطيئة " .

٩٥- تأكيد خطر اللسان بالقول والفعل .

٩٦- تحرّي ما نقل في الحديث من أقوال رسول الله حيث قال : " عَلَى وُجُوهِهِم أو مَنَاخِرِهِم " وهذا يدلّ على الأمانة التامّة في نقل الأحاديث .

٩٧- الانسان يوم القيامة يحصد ما زرع في الدنيا ، يؤخذ هذا من قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " حصائد ألسنتهم " فليقم الإنسان على زرعه اليوم وليتعاهده وليصلح منه حتى يكون الحصاد يوم القيامة ثمرًا ناضجًا .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : هل الأعمال سبب لدخول الجنة ، كما قال تعالى : (وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الزخرف / ٧٢) ؟ فما الجواب عن قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – (لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ) قال الألباني في تخريج الطحاوية / ٤٩٤ : صحيح ؟

ج : قيل : النجاة من النار بعفو الله ، ودخول الجنة برحمته ، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال .

وفي صحيح مسلم / بَابُ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ بَلْ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى حديث رقم ٧١

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ قَالَ : " لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ " قَالَ رَجُلٌ : وَلَا إِيَّاكَ ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : " وَلَا إِيَّايَ ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ ، وَلَكِنْ سَدِّدُوا " .

(شرح محمد فؤاد عبد الباقي)

" لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ " اعلم أن مذهب أهل السنة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا إيجاب ولا تحريم ولا غيرهما من أنواع التكليف ولا تثبت هذه كلها ولا غيرها إلا بالشرع ومذهب أهل السنة أيضًا أن الله تعالى لا يجب عليه شيئ – تعالى الله – بل العالم ملكه والدنيا والآخرة في سلطانه يفعل فيهما ما يشاء فلو عذب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النار كان عدلا منه وإذا أكرمهم ونعمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل منه ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة كان له ذلك ولكنه أخبر وخبره صدق أنه لا يفعل هذا بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب الكافرين ويخلدهم في النار عدلا منه وفي ظاهر هذه الأحاديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته وأما قوله تعالى :

(ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النَّحل / ٣٢) ، (وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الزخرف / ٧٢) ونحوها من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة فلا يعارض هذه الأحاديث بل معنى الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال ثم التوفيق للأعمال و الهداية للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل وهو مراد الأحاديث ويصح أنه دخل بالأعمال أي بسببها وهي من الرحمة (يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ) أي يلبسنيها ويغمدني بها ومنه أغمدت السيف وغمدته إذا جعلته في غمده وسترته به (سَدِّدُوا) اطلبوا السداد واعملوا به والسداد الصواب وهو ما بين الإفراط والتفريط فلا تغلوا ولا تقصروا) .

قال الشيخ الألباني في (موسوعة الألباني في العقيدة ٩ / ٥٥٤) :

اعلم أن هذا الحديث قد يشكل على بعض الناس ، ويتوهم أنه مخالف لقوله تعالى : (وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (الزخرف / ٧٢) ونحوها من الآيات والأحاديث الدالة على أن دخول الجنة بالعمل ، وقد أجيب بأجوبة أقربها إلى الصواب : أن الباء في قوله في الحديث : " بعمله " هي باء الثمنية ، والباء في الآية باء السببية ، أي أن العمل الصالح سبب لابد منه لدخول الجنة ، ولكنه ليس ثمنًا لدخول الجنة ، وما فيها من النعيم المقيم والدرجات .

الحديث الثلاثون

عَنْ أَبِيْ ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ جُرثُومِ بنِ نَاشِرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَن رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلا تَعْتَدُوهَا وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلا تَبْحَثُوا عَنْهَا " حديثٌ حسنٌ رواهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وغيرُه [(١)] [(٢)] .

المعنى الإجمالي

هذا الحديث من جوامع كَلِمِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وقد قَسَّمَ الأحكام إلى فرائض وحدود ومحرمات وحذَّر من إتيان المحرمات ، وانتهاك الحدود ، وإضاعة الفرائض ، وذَكَرَ قسمًا أخيرًا وهو المسكوت عنه من الأشياء ، وأمر بالسكوت عنها وعدم البحث فيها اتِّبَاعًا لسكوت المولى سبحانه وتعالى عن هذه الأشياء .

وفي الحديث الحثّ على الالتزام بالفرائض والأحكام كما هي ، ووضع الأمور في مواضعها ، والاتباع في العبادات ، والوقوف فيها عند أحكام الشرع بلا زيادة أو نقصان .

وفي الحديث الأمر بحفظ الحدود ، والنهي عن تضييعها ، وتعدِّيها ، والحدود لفظٌ شاملٌ لجميع حدود الشرع وأوامره ، وليس المراد قصره على الحدود الشرعية للعصاة ومرتكبي الكبائر كالسرقة ونحوها ، إنما المراد : جميع حدود الدين وأوامره ونواهيه ، بأركانه وفروعه .

توضيح الحديث

(المعنى)

" إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوهَا "

(فَرَضَ) : أي أوجب قطعًا ، لأنه من الفرض وهو لغةً : القطع والتقدير .

واصطلاحًا : ما يُثاب على فعله ويُعاقب على تركه .

(فَرَائِضَ) : أمور مقدَّرة محدودة بأوقات معينة . وهي ما فرض الله على عباده ، وألزمهم القيام به ، مثل الصلوات الخمس ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وما لا يحصى .

(فَلا تُضَيِّعُوهَا) : بالترك أو التهاون فيها حتى يخرج وقتها ، بل قوموا بها كما فرض عليكم .

ولا تهملوها فتضيع ، بل حافظوا عليها .

---

(١) لَفْظُ يَعْقُوبَ (٤/١٨٥) :

"إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوهَا وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلا تَنْتَهِكُوهَا وَحَدَّ حُدُودًا فَلا تَعْتَدُوهَا وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلا تَبْحَثُوا عَنْهَا ".

(٢) قال الشيخ الألباني في تحقيق رياض الصالحين / ١٨٤١ : (ضعيف) ، وفي ضعيف الجامع / ١٥٩٧ (ضعيف) ، وفي غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام : (ضعيف) ، وفي مشكاة المصابيح / ٥٨ (ضعيف) ، وفي تخريج شرح العقيدة الطحاوية / ٣٣٨ : (حسن لغيره) .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٣٢)

١- وجوب الإيمان بالشرع .

٢- إثبات أن الأمر لله عزّ وجل وحده ، فهو الذي يفرض ، وهو الذي يوجب ، وهو الذي يحرم ، فالأمر بيده ، لا أحد يستطيع أن يوجب مالم يوجبه الله ، أو يحرم مالم يحرمه الله ، لقوله : " إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِض " ... وقَالَ : " وَحَرَّمَ أَشيَاء " .

٣- أن حق التشريع لله وحده ، والرسول مبلغ عنه : (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ) .

٤ - وجوب المحافظة على فرائض الله عزّ وجل ، مأخوذ من النهي عن إضاعتها ، فإن مفهومه وجوب المحافظة عليها.

(المعنى)

" وَحَدَّ حُدُودًا فَلا تَعْتَدُوهَا "

(وَحَدَّ حُدودًا) :

الحد في اللغة : المنع ، والحاجز بين الشيئين . ومنه : الحد بين الأراضي لمنعه من دخول أحد الجارين على الآخر .

وشرعًا : هو المقدار الذي جعله الله مبينًا لما شرع من الأحكام ، فلا نتعدى ما بَيَّنَهُ الله لنا وحدَّهُ في الطلاق والعدة والميراث والصوم والاعتكاف ، وغيرها من الأحكام ، ويدخل في عموم الحدود شرعًا ما شرعه الله تعالى على سبيل العقوبة والزجر . وقيل في الاصطلاح : إن المراد بالحدود الواجبات والمحرمات .

فالواجبات حدود لا تُتعدى ، والمحرمات حدود لا تقرب .

وقال بعضهم : المراد بالحدود العقوبات الشرعية كعقوبة الزنا ، وعقوبة السرقة وما أشبه ذلك .

ولكن الصواب الأول ، أن المراد بالحدود في الحديث محارم الله عزّ وجل الواجبات والمحرمات ، لكن الواجب نقول : لا تعتده أي لاتتجاوزه ، والمحرم نقول : لا تقربه ، هكذا في القرآن الكريم لما ذكر الله تعالى تحريم الأكل والشرب على الصائم قال : (تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا) (البقرة / ٢٢٩) ولما ذكر العدة وما يجب فيها قال : (تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلا تَقرَبُوهَا) (البقرة / ١٨٧) .

أو هي جملة ما أذن الله في فعله ، سواء أكان على طريق الوجوب أم الندب أم الإباحة .

فَلا تَعتَدوها : فلا تجاوزوا ما حد لكم بمخالفة المأمور وارتكاب المحظور .

(المستفاد)

٥- أن الله عزّ وجل حد حدودًا ، بمعنى أنه جعل الواجب بيّنًا والحرام بيّنًا :

٦- تحريم تعدي حدود الله ، لقوله : " فَلا تَعتَدوهَا " .

٧- أنه لا يجوز تجاوز الحد في العقوبات .

٨- وجوب الوقوف عند حدود الله فيما فرض أو حرم أو أباح ، بعدم الزيادة على ما أوجب أو حرم ، وعدم مجاوزة ما أباح إلى ما حرَّم .

(المعنى)

" وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلا تَنْتَهِكُوهَا "

(وَحَرَّمَ أَشيَاء فَلَا تَنتَهِكوهَا) : أي فلا تفعلوها ، لا تتناولوها ولا تقربوها ، والانتهاك المبالغة في طرْق محارم الشرعِ .

مثل : الزنا ، وشرب الخمر ، والقذف ، وأشياء كثيرة لا تحصى .

(المستفاد)

٩- وجوب اجتناب المحرمات وتحريم مواقعتها .

١٠- أنه يحرم على الإنسان أن ينتهك محارم الله عزّ وجل .

وطرق التحريم كثيرة ، منها : النهي ، ومنها : التصريح بالتحريم ، ومنها: ذكر العقوبة على الفعل ، ولإثبات التحريم طرق .

(المعنى)

" وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلا تَبْحَثُوا عَنْهَا "

(وَسَكَتَ عَنْ أَشيَاء) : سكت عن أشياء أي لم يحرمها ولم يفرضها .

قال : سكت بمعنى لم يقل فيها شيئًا ، ولا أوجبها ولا حرمها .

(رَحمَةً لَكُمْ) : بعدم تحريمها حتى يعاقب على فعلها ، وعدم إيجابها حتى يعاقب على تركها .

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) (مريم / ٦٤) ولكن رحمة بالخلق حتى لا يضيق (غَيْرَ نسيَان) : أي أنه عزّ وجل لم يتركها ناسيًا عليهم .

(فَلا تَبحَثوا عَنهَا) : أي لا تسألوا ، مأخوذ من بحث الطائر في الأرض ، أي لا تُنَقِّبُوا عنها ، بل دعوها ، لأن ذلك ربما يفضي إلى التكليف الشاق .

(المستفاد)

١١- أن ما لم يُنص عليه في الشرع فهو عفو ، أي معفو عنه فلا يجب ولا يحرم .

١٢- أن الأصل في الأشياء الإباحة .

١٣- ثبوت البراءة الأصلية .

١٤- المباحات في شريعة الإسلام أكثر بكثير من المنهيات ولذلك لم تذكر في الحديث لكبر حجمها ، بل كل ما لم يكن منهيًا عنه فهو مباح .

١٥- جواز إضافة السكوت إلى الله ، والمراد به هنا ترك الخطاب بالحكم .

١٦- إثبات صفة الرحمة لله عز وجل .

١٧- فيه بيان رحمة الله سبحانه بعباده لقوله : " وسكت عن أشياء رحمة بكم " .

١٨- أن تركه تعالى للإيجاب والتحريم فيما شاء رحمة بعباده .

١٩- تنزيه الله عن النسيان ، كما قال تعالى : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) (مريم / ٦٤) .

٢٠- إثبات كمال العلم لله عز وجل .

٢١- النهي عن السؤال عمّا لم يأت الشرع فيه بشيء إيجابًا ولا تحريمًا ، وذلك في وقت نزول الوحي ، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) (المائدة / ١٠١) .

وقال : " إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ " (خ / ٧٢٨٩) .

٢٢- وصف الله عزّ وجل بالسكوت ، هذا من تمام كماله عزّ وجل ، أنه إذا شاء تكلم وإذا شاء لم يتكلم .

٢٣- أن ما سكت الله عنه فلم يفرضه ، ولم يحده ، ولم ينه عنه فهو الحلال ، لكن هذا في غير العبادات ، فالعبادات قد حرم الله عزّ وجل أن يشرع أحد الناس عبادة لم يأذن بها الله عزّ وجل ، فتدخل في قوله : " حَرَّمَ أَشيَاء فَلاَ تَنتهِكُوهَا " . لأن الأصل في العبادات المنع حتى يقوم دليل عليها ، وغير ذلك الأصل فيه الإباحة ، فما سُكِتَ عنه فهو مباح.

٢٤- أنه لا ينبغي البحث عما سكت الله تعالى عنه ورسوله .

٢٥- إثبات رحمة الله عزّ وجل في شرعه ، لقوله : " رَحمَةً بِكُم " وكل الشرع رحمة ، لأن جزاءه أكثر بكثير من العمل ، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومع ذلك فالله عزّ وجل خفف عن العباد ، وسكت عن أشياء كثيرة لم يمنعهم منها ولم يلزمهم بها .

٢٦- انتفاء النسيان عن الله عزّ وجل ، لقوله : " غَيرَ نسيَان " وقد جاء ذلك في القرآن الكريم ، فقال الله عزّ وجل : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) (مريم / ٦٤) وقال موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون لما سأله ما بال القرون الأولى : (قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) (طه / ٥٢) .

٢٧- حسن بيان النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حيث ساق الحديث بهذا التقسيم الواضح البين .

٢٨- الحديث قسم الأحكام إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : الفرائض .

القسم الثاني : الحدود التي حَدَّها الشرع .

القسم الثالث : المحرمات التي حرمها الشارع . القسم الرابع : المسكوت عنه .

٢٩- أن الشرع أمر ونهي وإباحة .

٣٠- دل الحديث على كمال الشريعة الإسلامية من جميع النواحي ولذلك تناسب جميع الناس على مر السنين ، ومختلف العصور .

٣١- يدل على سهولة الشريعة الإسلامية ، وأنها خالية من أمور تعجيزية بل هي باختصار فرائض تؤدي ومحرمات تترك .

٣٢- دل الحديث على أن الإيجاب والتحريم كله من عند الله ، فإذا استشعر المسلم ذلك صعب عليه القول على الله بلا علم ، وتبين له خطر الفتوى .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : ما الجواب عن قول الله تعالى : (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) (التوبة / ٦٧) فأثبت لنفسه النسيان ؟

ج : المراد : النسيان هنا نسيان الترك ، يعني تركوا الله فتركهم . فهؤلاء تعمدوا الشرك وترك الواجب ، ولم يفعلوا ذلك نسيانًا . إذًا : (نَسُوا اللَّهَ) (التوبة / ٦٧) أي تركوا دين الله (فَنَسِيَهُمْ) أي فتركهم .

أما النسيان الذي هو الذهول عن شيء معلوم فهذا لا يمكن أن يوصف الله عزّ وجل به ، بل يوصف به الإنسان ، لأن الإنسان ينسى ، ومع ذلك لا يؤاخذ بالنسيان لأنه وقع بغير اختيار .

س : هل هذا النهي (فلا تبحثوا عنها) في عهد الرسالة ، أم إلى الآن ؟

ج : في هذا قولان للعلماء منهم من قال : هذا خاص في عهد الرسالة ، لأن ذلك عهد نزول الوحي ، فقد يسأل الإنسان عن شيء لم يُحرَّم فيحرم من أجله ، أو عن شيء لم يَجِب فيوجب من أجله .

أما بعد عهد الرسالة فلا بأس أن يبحث الإنسان .

ولكن الصواب في هذه المسألة أن النهي حتى بعد عهد الرسالة إلا أنه إذا كان المراد بالبحث الاتساع في العلم كما يفعله طلبة العلم ، فهذا لا بأس به ، لأن طالب العلم ينبغي أن يعرف كل مسألة يحتمل وقوعها حتى يعرف الجواب ، وأما إذا لم يكن كذلك فلا يبحث ، بل يمشي على ما كان عليه الناس .

الحديث الحادي والثلاثون

عَنْ أَبِي العَباس سَعدِ بنِ سَهلٍ السَّاعِدي – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : يَا رَسُول الله : دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمَلتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ ، وَأَحبَّنِي النَاسُ ؟ فَقَالَ : " ازهَد في الدُّنيَا يُحِبَّكَ [1] اللهُ ، وازهَد فيمَا عِندَ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ " حديثٌ حسنٌ رواهُ ابنُ ماجة وغيرُه بأسانيدٍ حَسَنَة [2] [3] .

المعنى الإجمالي

مدار الحديث على سفر القلب من وطن الدنيا ، وسيره في منازل الآخرة ، وبعبارة أخرى :

هو إيثار الآخرة ومطالبها على الدنيا وملذاتها .

وهو مما يُقرّب العبد من ربِّه ؛ لعدم انشغاله بغيره ، ويقرّبه من الخَلْق بعدم الطمع فيما في أيديهم ، أو منازعتهم عليه .

ولقد جمع هذا الحديث خيري الدنيا والآخرة ، وحصَّل للإنسان سعادة أولاه وأخراه ، وذلك كله يجتمع في شيء يسير ، ألا وهو ترك الطمع ، وقصر الأمل ، وانتظار الثواب من الله ، والإقبال على الآخرة وترك الدنيا ، وهذه حقيقة الزهد .

---

(١) يُحبْ هذه مجزومة ، ولكن لأجل التقاء الساكنين صارت مفتوحة ، ولا تقرؤها بالضم ؛ لأن المعنى يتغير ، كما تقول لم يُحبْ فلان كذا ؛ لأنها إذا كان الحرف مشددًا ، فإنه إذا دخل عليه جازم يصبح مفتوحًا ؛ لأجل التقاء الساكنين ، وكما هو معلوم في النحو ، ويحبك مجزوم جواب الطلب ، أو جواب الأمر .

(٢) أما رواية ابن ماجة فهي كالتالي : عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : أَتَى النَّبِيَّ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – رَجُلٌ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – : " ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاس " . (٤١٠٢) .

(٣) قال الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجة / ٤١٠٢ : (صحيح) .

(٤) أثناء مطالعتي لشروح النووية ، طالعت كتيِّب موسوم بـ (الأربعين النووية مفردات وفوائد للأخ المفضال / محمد مرعي – سدده الله وحفظه ووفقه لما يحبه ويرضاه – إلا أنني وجدت فيه شيئًا أردت أن أنبِّه عليه ، وأرجو من أخي أن يسامحني على إساءة الأدب ، فيعلم الله أني قد حاولت الوصول إليه ، ففشلت في ذلك ، على العموم الذي أردت أن أنبِّه عليه ، ما ذكره أخي المفضال في حديث رقم (٣١) ذكر في المفردات معنى (أحبني الله : بإرادة الثواب والإحسان) كذا قال – عفا الله عنه – ، وأنا أحسن الظن به أنه ما قصد مخالفة عقيدة أهل السنة والجماعة بتأويل صفة المحبة لله عز وجل ، ولعل هذا سبق قلم منه لعله يتداركه إن شاء الله .

قال فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في شرح الأربعين النووية :

وهذا السؤال يدل على علو الهمة ؛ لأن محبة الله – جل وعلا – غاية المطالب ومحبة الناس للمرء ، أو للعبد معناها أداء حقوقهم ، والدين قائم على أداء حقوق الله وأداء حقوق العباد ، فمن أدى حق الله – جل وعلا – أحبه الله ، ومن أدى حقوق العباد وعاملهم بالعدل والإحسان ، فإنه يثوب بمحبة الناس له ، وهذا الذي يجمع بين الطرفين هو الصالح من عباد الله ؛ لأن الصالح هو الذي يقوم بحق الله وحق العباد ، والصلاح هو القيام بحقوق الله وحقوق الناس .

فهذا الحديث فيه ما يحصل به محبة الرب – جل وعلا – للعبد فقال : (دلني على عمل إذا عملته أحبني الله) وهذا فيه تنبيه إلى أصل ، وهو أن همة المرء ينبغي أن تكون مصروفة لما به يحب الله العبد ، وليس أن تكون مصروفه لمحبته هو لله – جل وعلا – ، فالعباد كثيرون منهم من يحبون الله – جل وعلا – ، بل كل متدين بالباطل أو بالحق ، فإنه ما تدين إلا لمحبة الله – جل وعلا – ، وليس هذا هو الذي يميز الناس ، وإنما الذي يميز الناس عند الله – جل وعلا – هو من الذي يحبه الله ، – جل وعلا – . =

توضيح الحديث

(المعنى)

" دُلَّني عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمَلتُهُ أَحَبَّني اللهُ ، وَأَحبَّني النَاسُ ؟ "

(دُلَّني) : أرشدني .

(أَحَبَّني اللهُ) : الله يُحب من شاء من عباده ، حُبًّا يليق بجلاله وكماله [٤] .

(وَأَحبَّني النَاسُ) : مالوا إليَّ ميلًا طبيعيًا ، لأن محبتهم تابعة لمحبة الله تعالى ، فإذا أحبه الله ألقى محبته في قلوب خلقه .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٢٩)

١- مشروعية السؤال عن فضائل الأعمال وحرص الصحابة على ذلك .

٢- علو همم الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – ، فلا تكاد تجد أسئلتهم إلا لما فيه خير في الدنيا أو الآخرة أو فيهما جميعًا . وكانوا يسألون عن الأمور العظيمة التي تقربهم إلى الله .

٣- يجب على المؤمن أن يسعى لأن يكون محبوبًا عند الله وعند الناس .

٤- إثبات محبة الله عزّ وجل ، أي أن الله تعالى يحب محبة حقيقية .

٥- أنه لا بأس بالسعي فيما تكتسب به محبة العباد مما ليس بمحرم ، بل هو مندوب إليه ، كما يدل عليه الأمر بإفشاء السلام ، وغير ذلك من جوالب المحبة التي أمر بها الشارع .

٦- أن الإنسان لا حرج عليه أن يطلب محبة الناس ، أي أن يحبوه ، سواء أكانوا مسلمين أم كفارًا حتى نقول : لا حرج عليه أن يطلب محبة الكفار له ، لأن الله عزّ وجل قال : (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ) (الممتحنة / ٨) ومن المعلوم أنه إذا بَرَّهم بالهدايا أو الصدقات فسوف يحبونه ، أو عدل فيهم فسوف يحبونه ، والمحذور أن تحبهم أنت .

٧- البحث عن محبة الناس لا يناقض محبة الله ولا يعارضها فإن المسلم طيب محبوب عند الله ومحبوب عند الناس وفي المجتمع .

= وقد قال بعض أئمة السلف – يرحمهم الله – : ليس الشأن أن تحِب ، ولكن الشأن كل الشأن أن تُحَب ، يريد أن محبة العبد لربه – جل وعلا – هذه تحصل إما بموافقة مراد الله ، أو بمخالفة مراد الله ، فالنصارى يحبون الله ، وعُبَّاد اليهود يحبون الله ، وعباد الملل يحبون الله ، وعباد جهلة المسلمين يحبون الله ، ولكن ليس هؤلاء بمحبوبين لله – جل وعلا – إلا إذا كانوا على ما يحبه الله – جل وعلا – ويرضاه من الأقوال والأعمال .

إذًا فحصل من ذلك أن السعي في محبة الله للعبد هذا هو المطلب ، وهذا إنما بالرغب في العلم ومعرفة ما يحبه الله – جل وعلا – ويرضاه ، فإذا عرفت كيف يحب الله العبد ، أو إذا عرفت بما يحب الله – جل وعلا – العبد ، حصل لك السعي في محبة الله – جل وعلا – . قال هنا : (دلني على عمل إذا عملته أحبني الله) وفي قوله : (دلني على عمل) ما يُشعِر أن الصحابي فَقِه أن محبة الله – جل وعلا – للعبد تكون بالعمل ، وهذا خلاف ما يدعيه بعضهم أنه يكتفي بما يقوم في القلب ، وإن كانت الأعمال مخالفة لذلك ، بل إنما يحصل حب الله – جل وعلا – للعبد بعمل قلبي وعمل بدني من العباد .

(المعنى)

" ازهَد في الدُّنيَا يُحِبَّكَ اللهُ (١) "

(ازهَد في الدُّنيَا) : ازهد : من الزهد بضم الزاي وقد تفتح . ازهد في الدنيا : اقتصر على قدر الضرورة منها .

والزهد لغة : الإعراض عن الشيء احتقارًا واستصغارًا ، وارتفاع الهمة عنه لاحتقاره . من قولهم : " شيء زهيد " ؛ يعني قليل . وفي القرآن : (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) (يوسف / ٢٠) .

وشرعًا : أخذ قدر الضرورة من الحلال المتيقن الحل .

(الدُّنيَا) : هي هذه الدار التي نحن فيها ، وسميت بذلك لوجهين :

الوجه الأول : دنيا في الزمن .

الوجه الثاني : دنيا في المرتبة .

فهي دنيا في الزمن لأنها قبل الآخرة ، ودنيا في المرتبة لأنها دون الآخرة بكثير جدًا ، قال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لَمَوضِعُ سَوطِ أَحَدِكُم فِي الجَنَّةِ خَيرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا "وقال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " ركعَتَا الفَجرِ خَيرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا " إذًا الدنيا ليست بشيء .

سُميت بذلك لدناءتها ، أو لدنوها قبل الآخرة .

والزهد في الدنيا الرغبة عنها ، وأن لا يتناول الإنسان منها إلا ما ينفعه في الآخرة ، وهو أعلى من الورع ، لأن الورع : ترك ما يضر من أمور الدنيا ، والزهد : ترك مالا ينفع في الآخرة ، وترك ما لا ينفع أعلى من ترك ما يضر .

(يُحِبَّكَ الله) : لإعراضك عما أمر بالإعراض عنه . يحبك الله : بالجزم على أنه جواب : ازهَد .

---

(١) تنبيه مهم جدًا : قال ابن دقيق العيد في شرح الأربعين : وقد أرشد رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – السائل إلى تركها بالزهد فيها ووعد على ذلك حب الله تعالى وهو رضاه عنه فإن حب الله تعالى لعباده رضاه عنهم . قلت : (والقائل / عماد) : هذا مخالف لعقيدة أهل السنة والجماعة الذين يثبتون ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الأربعين النووية / ٢٥١ : (يحبك الله) : وحب الله – جل وعلا – صفة من صفاته ، التي يثبتها أهل السنة والجماعة له على الوجه الذي يليق بجلال الله – جل وعلا – وعظمته ، وقد جاء إثباتها في القرآن في آيات كثيرة ، وكذلك في السنة ، فهو – جل وعلا – يحب كما يليق بجلاله وعظمته ، يحب لا حاجة لمحبوبه ، أو لضعفه مع محبوبه ، وإنما يحب – جل وعلا – لخير يسوقه إلى من يحب ، فحبه – جل وعلا –كمال لا لحاجة ، بل هو عن كمال غني ، وعن كمال اقتدار فيحب عبده ؛ لتقرب العبد منه ، وحب – جل وعلا – للعبد من ثمراته أن يكون مع العبد المعية الخاصة .

* : فيه إثبات صفة المحبة لله وأنه يُحِب ، ويُحَب :

وذلك بقوله تعالى على سبيل المثال لا الحصر : (وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة / ١٩٥) ، وقوله : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ) (آل عمران / ٣١) ، وقوله : (فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (المائدة / ٥٤) ، وقوله : (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) (البروج / ١٤) ، في هذه الآيات الكريمات : إثبات محبة الله – تعالى – لعباده المؤمنين ، ومحبتهم له ، وهذا أصل دين الخليل – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إمام الحنفاء ، وهذا هو الذي جاء به الكتاب والسنة ، واتفق عليه سلف الأمة ، وعليه مشايخ المعرفة ، وعموم المسلمين : أن الله يُحِب ، ويُحَب .

وفي هذه الآيات أيضًا أن من الأعمال ما يحبه الله – تعالى– و الأعمال التي يحبها من الواجبات ، والمستحبات الظاهرة ، والباطنة كثيرة ومعروفة .

وهذه الآيات ، وأشباهها تقتضي أن الله يحب أصحاب هذه الأعمال . =

= واسمه – سبحانه – الودود ، ومعناه : المحب ، فإنه هو الذي يود من شاء من خلقه . وصفة المحبة من الصفات الفعلية الاختيارية ، فإن كل ما تعلق بالمشيئة مما يتصف به الرب فهو من الصفات الاختيارية الفعلية وأهل السنة يثبتون هذا النوع من الصفات كسائر ما وصف الله به نفسه ، فإن من أعظم الأصول معرفة الإنسان بما نعت الله به نفسه من الصفات الفعلية ، أما من ينفي الصفات من الجهمية ، والمعتزلة فهم ينفون قيام الفعل به ، وكذلك ينفيها طائفة من مثبتة الصفات ، فإن ابن كلاب ، والأشعري ، وغيرهما ينفونها .

و أول مَنْ عُرِف في الإسلام أنه أنكر أن الله يُحِبُّ ، ويُحَبُّ الجهم بن صفوان ، وشيخه الجعد بن درهم . والمخالفون للسلف في هذه الصفة الجليلة طائفتان في الجملة : الأولى : من أنكر أن يُحِبَّ الله عباده ، أو يحبه عباده ، وهذا مذهب الجهمية ، فقد أنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين .

الثانية : من أثبت محبة العبد ربه ، وأنكر محبة الله لعباده ، وهذا قول الأشعرية ، وطائفة أخرى من الصفاتية ، وهم من يثبت لله – تعالى – الصفات في الجملة ، ثم هؤلاء الذين أنكروا حقيقة المحبة لم يمكنهم إنكار لفظها ؛ لأنه جاء في الكتاب ، والسنة ، فأوَّل الجهمية محبة العبد ربه بعبادته ، وطاعته ، وامتثال أمره ، أو محبة أوليائه ، وأما محبة الله – تعالى – لعباده فقد تأول الجهمية ، ومن اتبعهم من أهل الكلام – محبة الله لعبده على أنها الإحسان إليه ، فتكون من الأفعال ، وطائفة أخرى من الصفاتية قالوا : هي إرادة الإحسان .

ويجب أن يكون اعتمادنا في الأمور الغيبية على الأدلة السمعية ، لكن لا مانع من أن نستدل بأدلة عقلية ، لإلزام من أنكر أن تكون المحبة ثابتة بالأدلة العقلية ، مثل الأشاعرة ، يقولون : لا يمكن أن تثبت المحبة بين الله وبين العبد أبدًا ، لأن العقل لا يدل عليها ، وكل ما لا يدل عليه العقل ، فإنه يجب أن ننزه الله عنه .

فنحن نقول : نثبت المحبة بالأدلة العقلية ،كما هي ثابتة عندنا بالأدلة السمعية ، احتجاجًا على من أنكر ثبوتها بالعقل ، فنقول وبالله التوفيق :

إثابة الطائعين بالجنات والنصر والتأييد وغيره ، هذا يدل بلا شك على المحبة ، ونحن نشاهد بأعيننا ونسمع بآذاننا عمن سبق وعمن لحق أن الله عز وجل أيد من أيد من عباده المؤمنين ونصرهم وأثابهم ، وهل هذا إلا دليل على المحبة لمن أيدهم ونصرهم وأثابهم عز وجل ؟! .

قال الشيخ العثيمين في شرح الأربعين النووية ١ / ٣٢١ : إثبات محبة الله عزّ وجل ، أي أن الله تعالى يحب محبة حقيقية .

ولكن هل هي كمحبتنا للشيء ؟

الجواب : لا ، حتى محبة الله لنا ليست كمحبتنا لله ، بل هي أعلى وأعظم ، وإذا كنا الآن نشعر بأن أسباب المحبة متنوعة ، وأن المحبة تتبع تلك الأسباب وتتكيف بكيفيتها فكيف بمحبة الخالق ؟!! لا يمكن إدراكها .

الآن نحب الأكل ، ونحب من الأكل نوعًا نقدمه على نوع ، وكذلك يقال في الشرب ، ونحب الجلوس إلى الأصحاب ، ونحب الوالدين ، ونحب النساء ، فهل هذه المحبات في كيفيتها وحقيقتها واحدة ؟

الجواب : لا ، تختلف . فمحبة الخالق – عزّ وجل لنا – ليست كمحبتنا إياه ، بل هي أعظم وأعظم ، لكنها حقيقية .

زعم أهل التعطيل الذين حكموا على الله بعقولهم وقالوا : ما وافق عقولنا من صفات الله تعالى أثبتناه وما لا فلا ، ولهذا قاعدتهم في هذا ، يقولون : ما أقرته عقولنا من صفات الله أقررناه ، وما خالف عقولنا نفيناه ، وما لم توافقه ولم تخالفه فأكثرهم نفاه وقالوا :

لا يمكن أن نثبته حتى يشهد العقل بثبوته ، وبعضهم توقف فيه . وأقربهم إلى الورع الذين توقفوا ومع ذلك فلم يسلكوا سبيل الورع ، إذ سبيل الورع أن نثبت ما أثبته الله تعالى لنفسه مطلقًا ، سواء أدركته عقولنا أم لا ، وأن ننفي ما نفاه الله تعالى عن نفسه مطلقًا ، سواء أثبتته عقولنا أو لا ، وما لم ترد عقولنا بإثباته أو نفيه نثبته إن أثبته الله تعالى لنفسه ، وننفيه إن نفاه الله تعالى عن نفسه . وعلى هذا فمحبة الله تعالى للعباد ثابتة بالقرآن والسنة وإجماع السلف الصالح ، قال الله تعالى : (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (المائدة / ٥٤) وقال عزّ وجل : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (التوبة / ٤)

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا) (الصف / ٤) وآيات متعددة .

فيقول أهل العقل الذين حكموا على الله بعقولهم : محبة الله يعني إثابته على العمل .

فنقول : الإثابة على العمل أليس من لازمها المحبة ؟ لأنه لا يمكن أن يثيب على عمل إلا وهو يحبه ، إذ العقل لا يمكن أن يحكم بأن أحدًا يثيب على عمل وهو لا يحب العمل ، العقل ينفي هذا ، فإذا رجعنا إلى العقل صار العقل دليلاً عليه .

وحينئذ يجب أن نثبت المحبة بدون واسطة ، فنقول : هي محبة حقيقية .

فلو أنكروا المحبة وقالوا : إن الله لا يحب فقد كذبوا القرآن ، ولذلك نقول : إنكار حقيقة الصفات إن كان إنكار تكذيب وجحد فهو كفر ، وإن كان إنكار تأويل فهذا فيه تفصيل :

١– إن كان للتأويل مساغ لم يكفر ، لكنه خالف طريق السلف ، فيكون بهذا الاعتبار فاسقًا مبتدعًا .

٢ – وإن كان التأويل لا مساغ له لم يقبل منه أبدًا ، ولهذا قال العلماء في الأيمان لو قال شخص : والله لا أشتري الخبز ، وذهب واشترى خبزًا ، فقلنا له : عليك كفارة ، فقال : لا ، أنا أردت بالخبز الثوب ، فلا يقبل منه ، لأن هذا ليس له مساغ في اللغة . =

= لكن لو قال : والله لا أنام إلا على فراش ثم خرج إلى الصحراء ونام عليها ، وقلنا له : حنثت لأنك لم تنم على فراش ، قال : أردت بالفراش الأرض كما قال الله عزّ وجل : (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا) (البقرة / ٢٢) فإنه يقبل ، لأن هذا سائغ .

وعلى كل حال : طريق السلامة ، وطريق الأدب مع الله ، وطريق الحكمة أن نثبت لله ما أثبته لنفسه ، سواء أدركته عقولنا أم لم تدركه ، وأن ننفي ما نفاه الله عن نفسه سواء أدركته عقولنا أم لم تدركه ، وأن نسكت عما سكت الله عنه .

قال الشيخ الغنيمان في شرح كتاب التوحيد ٢٥ / ١٦ :

إثبات صفة المحبة لله تعالى خلافًا للجهمية ومن أخذ عنهم .

المحبة من الصفات التي ذكر الله عز وجل كثيرًا أنه يتصف بها ، ولكن الجهمية أنكروها ، فالله جل وعلا إذا أخبر عن نفسه بخبر وجب قبوله وتصديقه ، وكذلك كونه جل وعلا مخالفًا لخلقه : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى /١١) تعالى وتقدس ، فهو يحب ، ولكن محبته ليست كمحبة العباد التي تكون مقتضية للحاجة والفقر ، فالرب جل وعلا يحب ، وهو غني عن كل ما سواه ، والخلق كلهم فقراء إليه ، ولكنه كريم جواد ، فهو يحب المتقين والمؤمنين ، ويحب التوابين ، ويحب الصابرين ، ويحب من اتبع رسوله ، وكذلك يحب من امتثل أوامره واجتنب نواهيه ، ولذلك من أنكر المحبة كهؤلاء فالواقع أنه ينكر الإسلام عمومًا .

وشبهتهم التي زعموا هي مبنية على التشبيه الذي ارتسم على أذهانهم ولم ينطقوا به ، وزعموا أنهم ينزهون الله ، وذلك أنهم قالوا : المحبة هي الميل إلى الملائم ، والميل إلى الملائم يقتضي الفقر ، فلو لم يكن عنده فقر ما مال إلى الملائم .

فعلى هذا قالوا : لا يجوز أن نصف الله جل وعلا بالمحبة ؛ لئلا يكون متصفًا بالميل إلى الملائم .

فيقال لهم : هذه المحبة التي تكون فيكم أنتم ، وهي محبة الخلق ، أما محبة الله جل وعلا فهي تليق به بجلاله وعظمته ، لا يجوز أن تكون مثل محبة المخلوق ، تعالى الله وتقدس . فالذين يؤولون المحبة هم الأشعرية ، فهم لا ينكرونها مثل الجهمية ، ولكنهم يؤولونها ، والتأويل يقول بعض العلماء : هو شر من فعل الجهمية . لأن كثيرًا من المسلمين اغتر بقولهم ؛ لأنهم زعموا أن الحق معهم ، وأن هذا هو معنى ما أخبر به الله جل وعلا عن نفسه بأنه يحب . وتأويلهم إياها يكون على نوعين : أحدهما : أن يؤولوها بصفة أخرى كالإرادة ، فيقولون : (يحب المتقين) معناه : يريد منهم التقوى ، و(يحب المحسنين) يريد منهم الإحسان .

النوع الثاني : يؤولونها بشيء مخلوق لا يتصف الله جل وعلا به ، وهو إرادة الإثابة ، أي : يثيبهم ، فـ(يحبهم) يعني : يثيبهم ويجزيهم .

ومعلوم أن الإثابة والجزاء شيء منفصل عن الله جل وعلا ، بل هو شيء مخلوق ، فلا يجوز أن يكون المخلوق صفة لله جل وعلا ، كل هذا باطل ، بل المحبة يجب أن يوصف الله جل وعلا بها على ظاهرها ، مع تنزيه الله جل وعلا عن خصائص المخلوقين ، وأنه ليس كمثله شيء تعالى وتقدس .

قال صاحب معارج القبول عن الصفات :

نُمِرُّهَا صَرِيحَةً كَمَا أَتَتْ ... مَعَ اعْتِقَادِنَا لِمَا لَهُ اقْتَضَتْ
مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلِ ... وَغَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلِ
بَلْ قَوْلُنَا قَوْلُ أَئِمَّةِ الْهُدَى ... طُوبَى لِمَنْ بِهَدْيِهِمْ قَدِ اهْتَدَى

(المستفاد)

٨- فضيلة الزهد في الدنيا ، ومعنى الزهد : أن يترك مالا ينفعه في الآخرة .

٩- طلب الكفاية من الدنيا واجب ، والزهد وعدم التعلق بها والحرص عليها .

١٠- أن الزهد مرتبته أعلى من الورع .

١١- أن الزهد من أسباب محبة الله عزّ وجل لقوله : " ازهَد في الدنيَا يُحِبكَ اللهُ " ومن أسباب محبة الله للعبد وهو أعظم الأسباب : اتباع النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لقوله تعالى :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (آل عمران / ٣١) .

لأن الإنسان لا يزهد في الدنيا حقيقة إلا من أيقن بالجنة .

١٢- إثبات صفة المحبة لله والرد على النفاة .

١٣- أنَّ الخيرَ للعبد في محبَّة الله إيَّاه .

١٤- من زهد في الدنيا تعلق بما عند الله لأن القلب لا بد له من متعلق يتعلق به ويثق به ويطمئن إليه ولهذا مَنْ زهد في الدنيا أحبه الله .

١٥- دلّ على أن من تعلَّق بالدنيا وقدَّمها لم يحبه الله ، لأنه سيقدم الدنيا على أمر الله .

١٦- القناعة بالرزق الحلال والرضا به ، والتعفف عن الحرام والاحتياط للشبهات .

١٧- غنى النفس وتعففها والتضحية بالمال والنفس في سبيل الله تعالى يمثل حقيقة الزهد .

١٨- الدنيا مبغضة لأولياء الله محببة لأهلها فمن شاركهم بمحبوبهم أبغضوه .

١٩- فضل الزهد في الدنيا ، وهو ترك ما لا ينفع منها في الآخرة وهو أعلى من الورع لأن الورع ترك ما يضر .

٢٠- دل على أن الزهد في ما عند الناس يجلب محبة الناس .

٢١- الزهد من أعمال القلب كما قاله أحمد رحمه الله .

(المعنى)

" وازهَد فيمَا عِندَ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ "

(وازهَد فيمَا عِندَ النَاس يُحِبكَ النَّاس) : أي لا تتطلع لما في أيديهم ، ارغب عما في أيدي الناس يحبك الناس ، وهذا يتضمن ترك سؤال الناس أي أن لا تسأل الناس شيئًا ، لأنك إذا سألت أثقلت عليهم ، وكنت دانيًا سافلًا بالنسبة لهم ، فإن اليد العليا المعطية خير من اليد السفلى الآخذة .

(وازهَد فيمَا عِندَ النَّاسِ) : يعني اترك الطمع فيما عند الناس من حطام الدنيا .

(يُحِبَّكَ النَّاسُ) : لأن قلوبهم مجبولة على حب الدنيا ، ومن نازع إنسانا في محبوبه كرهه و قلاه ، ومن لم يعارضه فيه أحبه .

(المستفاد)

٢٢- الحث والترغيب في الزهد فيما عند الناس ، لأن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – جعله سببًا لمحبة الناس لك ، وهذا يشمل أن لا تسأل الناس شيئًا ، وأن لا تتطلع وتعرِّض بأنك تريد كذا .

٢٣- طلب محبة الناس والتسبب لذلك بما ليس عبادة لله .

٢٤- أن الاستغناء عمّا في أيدي الناس يجلب مودتهم .

٢٥- أن منازعة الناس في دنياهم مما يجلب بغضهم وحسدهم ، ومن ذلك سؤالهم . كما قيل : وبُني آدم حين يُسأل يغضب .

٢٦- دل على أن الناس يكرهون من طلب منهم وسألهم ما في أيديهم ، وهذا مستقر في فطر الناس وقلوبهم .

٢٧- الحديث بيَّن حقيقة الناس وأنهم يحبون ما في أيديهم ويبغضون من سألهم إياه ، ويسعون لمصالحهم ولو على حساب دين غيرهم ، ولا يؤدون الحقوق الواجبة منهم ، هذه حالهم فمن عرفها كيف يتعلق بهم ويرجوهم ويقدم طاعتهم على طاعة الله ؟!!

٢٨- أن الرسول أوتي جوامع الكلم .

٢٩- الإيجاز في جواب السؤال مالم تدع الحاجة إلى التفصيل .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : هل الله يُحِب ؟

ج : عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله يُحِب ، وأدلة ذلك كثيرة في القرآن والسنة ، والإجماع .

فمن القرآن : قَالَ تَعَالَى : (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (المائدة / ٥٤) ، و (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (آل عمران / ٣١) ، (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) (النساء /١٢٥) .

قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة / ١٩٥) ، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (البقرة / ٢٢٢) ، (فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (آل عمران / ٧٦) ، (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران / ١٣٤) ، (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) (آل عمران / ١٤٦) ، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران / ١٥٩) ، (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (آل عمران : ٣١) ، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (المائدة / ٤٢) ، (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) (التوبة / ١٠٨) ، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ) (الصف / ٤) ، (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) (البروج / ١٤) ، وغير ذلك .

و أما من السنة : عَنْ سَهْل بن سَعْدٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ : " لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ قَالَ فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ : " أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؟ فَقِيلَ : هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ ، قَالَ : " فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ " فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ عَلِيٌّ : يَا رَسُولَ اللهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟ فَقَالَ : " انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ " . (خ / ٤٢١٠) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ " . (خ / ٦٥٠٢) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :
" إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ " (خ /٢٩٧٠) ، (م /٤٧٧٢) ، وغير ذلك .

وأما الإجماع : أجمع السلف على ثبوت المحبة لله ، يُحِب ، ويُحَب ، فيجب إثبات ذلك حقيقة من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل .

قال أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (المتوفى : ٧٢٨هـ) في كتابه مجموع الفتاوى :
فَإِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَإِجْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ : أَثْبَتَتْ مَحَبَّةَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَحَبَّتَهُمْ لَهُ – ثم ذكر أدلة –

وَقَدْ أَجْمَعَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا عَلَى إثْبَاتِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَحَبَّتِهِمْ لَهُ وَهَذَا أَصْلُ دِينِ الْخَلِيلِ إمَامِ الْحُنَفَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

والخلة مرتبة أعلى من المحبة ، فالخلة هي الغاية والمنتهى في مراتب المحبة ، والخلة أخص من مطلق المحبة وتخصيصها – أي : الخلة – من وجهين : الوجه الأول : أن الخلة تكون محبة لذات الشيء ، أي : محبة ليست لغرض وإنما لكون المحبوب مستحقًا للمحبة .

الوجه الثاني : أن الخلة تمنع الشركة ، فلا شركة في الخلة ، بخلاف المحبة فإنها تقبل الشركة .

وهذان الوجهان واضحان في قول النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا " . (خ / ١٢١٦) .

أي : صيرني خليلًا له جل وعلا ، فهو خليل الرحمان ، فتبرأ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من كل خلة ؛ لأن الخلة لا تقبل الشريك ، ولأن المحبوب سبحانه وتعالى محبوب لذاته ، فهذا ما اختصت به الخلة .

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(يُحِبُّهُمْ) !.. هذا عجيب ، لأنه غني عنهم ، وهم فقراء إليه ، ولا يعتمد عليهم ، ويعتمدون عليه ، ولا يطلب شيئًا منهم ، وهم يطلبونه في كل شئ .

وعجيب أن يحبهم وهم مخلوقون ، وهو الذي خلق ، ومرزوقون وهو الذي رزق .

(وَيُحِبُّونَهُ) .. ليس بعجيب ، فقد صورهم وهم أجنة ، ثم أخرجهم من بطون أمهاتهم وله المنة ، ثم هداهم بالكتاب والسنة .

ويحبونه ؛ لأنه أعطاهم القلوب ، والأسماع ، والأبصار ، وسخر لهم الشمس والقمر والنهار ، وحماهم من الأخطار في القفار والبحار .

ولو قال : يحبهم ، وسكت لتوهم منهم الجفاء ، ولو قال : يحبونه ، وسكت ، لقيل ليس لهم عنده احتفاء ، فلما قال : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) ، تم الوداد والصفاء ، وظهر الوفاق والوفاء .

فمما ذكر نرى إثبات صفة المحبة لله عز وجل ، والمحبة صفة فعلية اختيارية ؛ لأنه يحب من يشاء متى شاء ، فهي صفة معلقة بمشيئة الله ، فهو يُحِب من يُحِب ، ويبغض من يبغض جل وعلا . وهي محبة حقيقية تليق بالله تعالى . وقد فسرها أهل التعطيل بالثواب ، أو غير ذلك كما سنبين .

إن صفة المحبة من الصفات الفعلية الثابتة لله عز وجل بأدلة من الكتاب و السنة و الإجماع .

س : نحن نعلم أن الحب ينبع من القلب فهل لله قلب يُحِب به ؟

ج : عقيدة أهل السنة والجماعة أن نثبت لله ما أثبته لنفسه من الصفات ، وما أثبته الله له رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، من غير تكييف وَلَا تَمْثِيل وَمن غير تَحْرِيف وَلَا تَعْطِيل وَلَا نمثل صِفَاته بِصِفَات خلقه ، وَمذهب السّلف إِثْبَات بِلَا تَشْبِيه وتنزيه بِلَا تَعْطِيل . وَمِمَّا اسْتُحْسِنَ مِنْ إِمَامِ دَارِ الْهِجْرَةِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ – يرحمه الله تعالى – أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْله تَعَالَى : (الرَّحْمَن على الْعَرْش اسْتَوَى) كَيفَ اسْتَوَى ؟ فَقَالَ : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ ،

أو قال كما هُوَ مَشْهُور عَنه : " الكيف غير مَعْقُول ، الاسْتوَاء مِنْهُ غير مَجْهُول ، وَالْإِيمَان بِهِ وَاجِب ، وَالسُّؤَال عَنهُ بِدعَة " وَعَن شَيْخه ربيعَة أَنه قَالَ : " الاسْتوَاء غير مَجْهُول والكيف غير مَعْقُول وَمن الله الرسَالَة وعَلى الرَّسُول الْبَلَاغ وعلينا التَّصْدِيق " . فَذَهَبت هَذِه المقولة أصلا من أصُول أهل السّنة وَهِي أَن الاسْتوَاء مَعْلُوم معنى ، لِأَن الاسْتوَاء فِي اللُّغَة : الْعُلُوّ والارتفاع . أما كَيْفيَّة استِوَاء الخَالِق على الْعَرْش فَهِيَ مَجْهُولَة وَلَا نعقل كَيفَ يكون ذَلِك ، وَالْإِيمَان بالاستواء وَاجِب شرعًا لوُرُود النُّصُوص العديدة بِهِ .

وَعدم الْعلم بكيفية الصِّفَات لَا يَنْفِي الصِّفَات وَلَا يقْدَح فِي الْإِيمَان بهَا وإثباتها . لِأَن الله عز وَجل أخبرنَا بِالصّفةِ وَلم يخبرنا بالكيفية وَطلب منا الْإِيمَان بهَا وَلَا تنَافِي فِي ذَلِك ، فَإِن هُنَاكَ أَشْيَاء عديدة نؤمن بهَا من مخلوقات الله وَنحن لَا نَعْرِف كيفيتها، مِنْهَا الرّوح الَّتِي فِي الْإِنْسَان فَإِن الْإِنْسَان عَاجز عَن معرفَة كنهها وحقيقتها مَعَ أَن الْإِنْسَان يحس ويشعر بهَا وَقد أخبرنَا الله بهَا فِي قَوْله : (وَيَسْأَلونكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (الْإِسْرَاء / ٨٥) ، فَأخْبرنَا عَن الرّوح وَلم يخبرنا عَن كيفيتها ، فَنحْن نؤمن بهَا بِدُونِ أَن نَعْرِف كيفيتها وَهَذَا لَا يقْدَح فِي إيمَاننَا بهَا ، فَكَذَلِك وَللَّه الْمثل الْأَعْلَى صِفَات الله – عز وَجل – فجهلنا بكيفيتها لَا ينفيها وَلَا يقْدَح فِي إيمَاننَا بهَا .

وعَلى هَذَا فَمن كَيَّف صِفَات الله تَعَالَى فقد افترى على الله – عز وَجل – ، وَقَفَا مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ علم ، قَالَ جلّ وَعلا :
(وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا) (الْإِسْرَاء / ٣٦) .

فنثبت لله صفة الحب ، فالله يُحِب ، ويُحَب فنثبت الصفة ، ونعلم معناها ونعتقده ، ونفوّض في كيفية الصفة ،
فالله يُحِب ، إلا أن الله قال عن نفسه : (لَيْسَ كمثله شَيْء وَهُوَ السَّمِيع الْبَصِير) (الشورى / ١١) لَا فِي ذَاته وَلَا فِي صِفَاته وَلَا أَفعاله بل يُوصف الله بِمَا يُوصف بِهِ نَفسه وَما وَصفه بِهِ رَسُوله من غير تكييف وَلَا تَمْثِيل وَمن غير تَحْرِيف وَلَا تَعْطِيل وَلَا نمثل صِفَاته بِصِفَات خلقه وَمذهب السّلف إِثْبَات بِلَا تَشْبِيه وتنزيه بِلَا تَعْطِيل ، فليس الحب عند الله ، كالحب عند المخلوقين ينبع من القلب ، ولم يذكر الله عن نفسه أن له قلبًا ، ولم يخبرنا بذلك رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فلا نثبته له .

س : ما علاقة الزهد بأن يحبه الله ولماذا الزهد سبب في محبة الله ؟

ج : مَنْ زهد في الدنيا تعلَّق بما عند الله لأن القلب لا بد له من متعلق يتعلق به ويثق به ويطمئن إليه ولهذا مَنْ زهد في الدنيا أحبه الله ، ومَنْ تعلق بالدنيا وقدّمها لم يحبه الله ، لأنه سيقدم الدنيا على أمر الله .

الحديث الثاني والثلاثون

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ " .

حَدِيثٌ حَسَنٌ ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ ، وَالدَّارَقُطْنِيُّ ، وَغَيْرُهُمَا مُسْنَدًا . وَرَوَاهُ مَالِكٌ فِي " الْمُوَطَّإِ " عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُرْسَلًا ، فَأَسْقَطَ أَبَا سَعِيدٍ ، وَلَهُ طُرُقٌ يُقَوِّي بَعْضُهَا بَعْضًا [1] [2] .

المعنى الإجمالي

الحديث يمثل قاعدة الإسلام في الشرائع وقواعد الأخلاق والتعامل بين الخلق ، وهي دفع الضرر عنهم بمختلف أنواعه ومظاهره ، فالضرر محرم وإزالة الضرر واجب ، والضرر لا يُزَال بالضرر ، والمضار محرمة .

والحديث يقتضي رعاية المصالح إثباتًا والمفاسد نفيًا .

كما أنه أصلٌ في القاعدة الفقهية المشهورة : " الضرر يُزال " وكذا : " الضرر لا يُزَال بالضرر " .

قال الشاطبي : " قوله عليه الصلاة و السلام : " لا ضرر ولا ضرار " داخلٌ تحت أصلٍ قطعيٍّ في هذا المعنى ، فإنَّ الضرر والضرار مبثوثٌ منعه في الشريعة كلِّها في وقائع جزئيات ، وقواعد كُلِّيات ؛ كقوله تعالى :

(وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا) (البقرة / ٢٣١) و(وَلَا تُضَارُّوهُنَّ) (الطلاق / ٦) .

وذكر الشاطبيُّ في هذا المعنى النهي عن " التعدي على النفوس والأموال والأعراض وعن الغضب والظلم وكل ما هو في المعنى إضرار وأضرار " .

توضيح الحديث

(المعنى)

(لا ضرر) : الضرر لغة : الأذى مِنْ كل شيءٍ ماديًا أو معنويًا أو كل ما يلحق مفسدة بالغير ، أي لا يضر الرجل أخاه ابتداء ، أي لا يضر الرجل أخاه فينقصه شيئًا من حقه . والضرر : إلحاق الأذى بمن لم يؤذه .

(ولا ضرار) : الضرار : على معنيين . الأول : كالضرر ، فهما مترادفان ، ويكون الجمع بينهما للتأكيد ، الثاني : مقابلة بالضرر ، وليسا من الكلمات الاصطلاحية الشرعية ، وإنما هما عُرْفِيَّان لغويان .

أي لا يجازي من ضره بأكثر من المقابلة بالمثل ، والانتصار بالحق ، وقيل الضرار : إلحاق الأذى بمن قد أذاه على وجه غير مشروع وكلاهما غير جائز . وفي تفسير (لا ضرر ولا ضرار) أقوال غير هذا لا نطيل بذكرها .

---

(١) قلت : هذه رواية الدارقطني / ٤٥٩٧ ، (رواية ابن ماجة : عن ابن عباس / ٢٣٤١ ، عن عبادة بن الصامت / ٢٣٤٠) .

(٢) قال الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجة / ٢٣٤٠ : صحيح ، وقال في إرواء الغليل / ٢٥٤: صحيح بمجموع طرقه أخرجه ابن ماجة والدارقطني .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٢٦)

١- ورود النفي بمعنى النهي .

٢- تحريم الضرار بالقول أو الفعل أو بالترك .

٣- تحريم الضرر والضرار بالعدوان على الغير بالنفس أو المال أو العرض مباشرةً أو تسببًا ، ومن ذلك تصرف الجار في ملكه بما يضر جاره ، وكذلك التصرف في الطرق العامة ونحوها بما يضر الناس ، من حفر وغيره .

٤- تحريم ما يضر به الإنسان نفسه أو ماله أو عرضه من تصرف بفعل أو ترك أو مطعوم أو مشروب أو غير ذلك .

٥- يحرم الإضرار بالغير بجميع الصور والأشكال ، ولذلك أطلق الضرر في الحديث ولم يقيد بقيد .

٦- تحريم الضرار بمنع الحقوق أو التسبب في ذلك ، ومن هذا مطل الغني غريمه ، ومضارة الموصي لورثته ، ومن ذلك مضارة أحد الوالدين للآخر بولدهما ومضارة الشاهد والكاتب للمتداينين ، ومضارة المتداينين للشاهد والكاتب .

٧- أن الضرر يزال ، وينبني على ذلك كثير من أبواب الفقه ، كالرَّدِّ بالعيب ، وغيره مما يدخل تحت هذه القاعدة المأخوذة من الحديث .

٨- دليل على رفع الحرج في الشريعة الإسلامية .

٩- يدل على يسر الإسلام وسهولة أحكامه .

١٠- أحكام الإسلام الشرعية وتكاليفه لا ضرر فيها .

١١- من مقاصد الإسلام منع الضرر قبل وقوعه ورفعه بعد وقوعه .

١٢- الفرق بين الضرر والضرار ، وهذا أليق ببيانه ، وأكثر فائدة ، وأحسن ما قيل في الفرق : أن الضرر إلحاق ما يَضر بالغير مطلقًا ، والضرار ما كان مجازاة لكن بغير حق ، فيكون الضرر أعم ، فعطف الضرار عليه من عطف الخاص على العام .

١٣- منع التصرف في ملك الإنسان بما يتعدى ضرره إلى الغير على غير الوجه المعتاد ، مثل أن يؤجج في أرضه نارًا في يوم عاصف فيحترق ما يليه ، فإنه متعد بذلك وعليه الضمان .

١٤- النهي عن المجازاة بأكثر من المثل .

١٥- أن ما أمر الله به عباده هو عين صلاح دينهم ، ودنياهم . وما نهاهم عنه هو عين فساد دينهم ، ودنياهم ، ولم يأمرهم بشيء يضرهم ، ولذلك أسقط الطهارة بالماء عن المريض ، وأسقط المطالبة بالدين عند إعسار المدين إلى الميسرة ، إلى غير ذلك مما يدل على أن شريعتنا سمحة .

١٦- الحذر من ظلم الغير .

١٧- الدين حماية للنفس والمال .

١٨- يتفرع من قاعدة لا ضرر ولا ضرار مجموعة من القواعد :

أ – الضرر يدفع بقدر الإمكان .

ب – الضرر لا يزال بمثله .

ج – الضرر الأشد لا يزال بالضرر الأخف .

د – درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

هـ – يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام .

فلا يضر من ضره أويسب من سبه ، ولا يضرب من ضربه ، بل يطلب حقه من الحاكم من غير مسابة .

١٩– أن الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أوتي جوامع الكلم وشواهد هذا كثيرة ، وهو من خصائصه .

٢٠– أن من بلاغة الكلام الإيجاز .

٢١– أن دين الإسلام دين السلامة ، ويشهد له قوله : " الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ " (خ / ١٠) .

٢٢– بيان كمال الشريعة وحسنها في رفع الضرر والإضرار .

٢٣– يربي في النفس عدم حب الذات ولو على حساب غيره من الناس .

٢٤– يدل المسلم على مراعاة غيره من الناس واحترامهم في جميع أمور الحياة وشؤونها .

٢٥– يزرع الألفة بين المسلمين والمحبة والأخوة لأنه ينفي الضرر بجميعه .

٢٦– يعتبر الحديث قاعدة عامة فكل أمر كان فيه ضرر فيحرم شرعًا .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : ما الفرق بين الضرر والضرار ؟

ج : أحسن ما قيل في الفرق بين الضرر والضرار : أن الضرر إلحاق ما يَضُرُّ بالغير مطلقًا ، والضرار ما كان مجازاة لكن بغير حق ، فيكون الضرر أعم ، فعطف الضرار عليه من عطف الخاص على العام .

الحديث الثالث والثلاثون

عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :
" لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدعوَاهُمْ ؛ لادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَومٍ وَدِمَاءَهُمْ ، وَلَكِنِ البَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي ، وَاليَمينُ عَلَى مَن أَنكَر " حديثٌ حسنٌ رواهُ البَيهَقِيُّ هكذا ، وبعضُه في الصحيحين (١) (٢) .

المعنى الإجمالي

الحديث أصلٌ في قبول الدعوى المجردة عن الأدلة والقرائن ، وتحليف المُنْكِر ؛ تحقيقًا للعدل ، وإقامة للحق ، وصونًا للنفس والمال .

وهذه الدعوى الخالية عن الدليل والبرهان مردودةٌ أيًّا كان مجالها المعنوي أو الحسي ، وسواءٌ أكانت في الحقوق والمعاملات أم في مسائل الإيمان والعلم .

توضيح الحديث

(المعنى)

" لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدعوَاهُمْ لادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَال قَومٍ وَدِمَاءهُمْ "

(لو) : حرف امتناع لامتناع ، أي : تقتضي امتناع الجواب لامتناع الشرط .

(لَو يُعطَى) : المعطي هو من له حق الإعطاء كالقاضي مثلًا والمصلح بين الناس .

(بِدَعوَاهُم) : أي بادّعائهم الشيء ، سواء أكان إثباتًا أم نفيًا ، كإخبارهم عن لزوم حق لهم على آخرين عند حاكم .

(لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدعوَاهُمْ) : يعطون ما ادّعوا أنه حقهم وطالبوا به لمجرد القول والطلب دون ما يثبت ذلك .

(لادَّعَى) : لأخذ ، وعبر بالدعوى لأنها السبب في الأخذ ، أو لاستباح بعض الناس أموال ودماء غيرهم وطلبوها دون حق . المراد بهم الذين لا يخافون الله تعالى ، وأما من خاف الله تعالى فلن يدعي ما ليس له من مال أو دم .

والمعنى : امتنع أخذ رجال أموال غيرهم لامتناع الإعطاء بمجرد الدعوى .

(رِجَال) : خُصُّوا بالذكر لأن ذلك من شأنهم غالبًا .

---

(١) قلت : هذه الرواية بحروفها في (السنن الصغرى للبيهقي / ٤٣٧١) .

وهذه الجملة : " لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ " (خ / ٤٥٥٢) .

وهذه الرواية " لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ وَلَكِنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ " (م / ٤٥٦٧) .

(٢) قال الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح / ٣٧٥٨ : " لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ وَلَكِنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ " .

رواه مسلم وفي " شرحه للنووي " أنه قال : وجاء في رواية " البيهقي " بإسناد حسن أو صحيح زيادة عن ابن عباس مرفوعًا :

" لَكِن البَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي ، وَاليَمينُ عَلَى مَن أَنكَر " ، وقال في الإرواء / ٢٦٦١ : (صحيح) .

(أَموَال قَوم) : أي بأن يقول هذا لي ، هذا وجه .

ووجه آخر أن يقول : في ذمة هذا الرجل لي كذا وكذا ، فيدعي دينًا أو عينًا .

(وَدِمَاءهُم) : بأن يقول : هذا قتل أبي ، هذا قتل أخي وما أشبه ذلك ، أو يقول : هذا جرحني ، فإن هذا نوع من الدماء . فلا يتمكن المدعى عليه من صون دمه وماله .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٣٣)

١- هذا الحديث أصل عظيم في القضاء ، وهو قاعدة عظيمة في القضاء ينتفع بها القاضي وينتفع بها المصلح بين اثنين وما إلى ذلك .

٢- أن دم المعصوم وماله لا يُستحل ولا يُستحق بمجرد الدعوى ، فالأصل براءة ذمة المعصوم .

٣- يدل الحديث على أن أحكام الشريعة معللة أي لها علة وحكمه ، فالبينة قررت في الشريعة حتى لا يدّعي رجال دماء رجال وأموالهم .

٤- يدل أيضًا على أن الله حكيم بعبادة خبير بهم شرع لهم من الأحكام ما يناسبهم ويتناسب مع طبيعتهم .

٥- قد يوجد من الناس من لا رادع عنده ولا تقوى فيدّعي دماء أناس وأموالهم .

٦- أنه لا يحكم لأحد بمجرد دعواه .

٧- أنه لا يجوز الحكم إلا بما رتبه الشرع ، وإن غلب على الظن صدق المدعي .

٨- يربي الناس على وجوب التثبت حتى في صغائر الأمور .

٩- دل على أن كل دعوى لا دليل عليها لا تقبل .

١٠- حرص الإسلام على حفظ الحقوق .

١١- أن الشريعة جاءت لحماية أموال الناس ودمائهم .

١٢- حب النفوس للمال .

١٣- يقيد الحديث إطلاق التهم على الناس ورواج الشائعات بوجود البينة ، فمن وجد بينه فله الحق في الادعاء ، أما بمجرد الظن والخرص فلا يبيح للإنسان الدعوى .

١٤- غلبة الظلم والكذب على كثير من الناس .

١٥- أن الدعوى تكون في الدماء والأموال ، لقوله : " أَموَال قَوم وَدِمَاءهُم " وهو كذلك ، وتكون في الأموال الأعيان ، وفي الأموال المنافع ، وذكرهما خرج مخرج الغالب ، كأن يدعي أن هذا أجره بيته لمدة سنة فهذه منافع ، وتكون أيضًا في الحقوق كأن يدعي الرجل أن زوجته لا تقوم بحقه أو بالعكس ، فالدعوى بابها واسع ، لكن هذا الضابط ، وذكر المال والدم على سبيل المثال ، وإلا قد يدعي حقوقًا أخرى .

(المعنى)

" وَلَكِنِ البَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي ، وَاليَمِينُ عَلَى مَن أَنكَر "

(وَلَكِنِ البَيِّنَةُ) : البينة : ما يبين به الحق ، وتكون في إثبات الدعوى ، مأخوذة من البيان وهو الكشف والإظهار ، قال ابن القيم : " البينة في كلام الله ورسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والصحابة اسم لكل ما يبين الحق ، فهي أعم من البيّنة في اصطلاح الفقهاء ، حيث خصُّوها بالشاهدين ، أو الشاهد واليمين ، وذكر ابن القيم – يرحمه الله – أنَّ من البينةِ في الحديث : " ما يبين الحق من شهودٍ أو دلالة " . قال : " ولا يقف ظهور الحق على أمرٍ معين " .

(عَلَى المُدَّعِي) : هو من يذكر أمرًا خفيًا يخالف الظاهر ، أو من يدعي الحق على غيره ويطلبه .

(وَاليَمين) : الحلف ، أي دفع الدعوى ، لأن الأصل براءة ذمته ، مما طلب منه وهو متمسك به .

(وَاليَمين عَلَى مَنْ أَنكَر) : أي من أنكر دعوى المدعي ، وهو المدعى عليه .

(المستفاد)

١٦– أن الدعوى لا تقبل إلا ببينة .

١٧– أنه لا فرق في ذلك بين الرجل العدل وغيره .

١٨– الحكم بالبينة .

١٩– الأصل براءة الإنسان المسلم من كل تهمة ونقيصة حتى تثبت بينة .

٢٠– أن البينة على المدعي ، أي يقيم المطالب الدليل على صدقه ويُظهر الحجة ، ومن البينة الشهود ، الذين يشهدون على صدقه .

٢١– البدء بالمدعي في الحكم .

٢٢– القاضي يحكم بما ظهر له من الأمر ببينه أو يمين ، ولا يأثم إن بذل وسعه واجتهد لكنه خالف حقيقة الأمر وباطنه .

٢٣– أن اليمين على المدعى عليه مطلقًا .

٢٤– براءة المدَّعى عليه بيمينه إذا لم تكن للمدعي بينة .

٢٥– أنه إذا لم يجد المدعي بينة ولا شهودًا ، فإن القاضي يطلب من المدعَى عليه أن يحلف أن ما ادعاه عليه المدعي غير صحيح ويكون الحكم له بيمينه .

٢٦– أن البينة عامة في كل ما يبين الحق من شهود وقرائن .

٢٧– أن القاضي لا يحكم بعلمه .

٢٨– الشرع يوازن بين الحفاظ على حرمات المسلمين ولذلك حرم مجرد إطلاق التهم ، وبين إيصال الحقوق لهم ولذلك أوجب البينة ، وهذا هو العدل الذي أمر الله به .

٢٩– فيه أنه لو أنكر المنكر وقال لا أَحلف فإنه يقضي عليه بالنكول ، ووجه ذلك أنه إذا أبى أن يحلف فقد امتنع مما يجب عليه ، فيحكم عليه بالنكول .

٣٠– أن نكول المدَّعى عليه عن اليمين دليل للمدعي فيحكم له بيمينه كما يُحكم له بالشاهد واليمين .

٣١- صيانة الشريعة للحقوق من ظلم الظالمين .

٣٢- الشرع يربي الناس على تعظيم الله ومراقبته ولذلك اكتفى من المدعى عليه بمجرد اليمين لأن المسلم يعظم الله والحلف به ، فلديه الرضا بأن يغرم شريطة ألاّ يحلف بالله كاذبًا .

٣٣- الحديث يربي المسلم على الرضا بالحلف بالله ، فالمدعي إذا لم يكن له بينة وحلف المدعى عليه فعليه أن يرضى تعظيمًا لليمين .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

فإذا قلنا : البينة على المدعي واليمين على من أنكر وقلنا البينة ليست الشاهد ، بل ما أبان الحق اختلف الحكم .

ولو قلنا إن البينة الشاهد لقلنا للمُدَّعين هاتوا بينة على أن فلانًا قتله وإلا فلا شيء لكم ، ولكن السنة جاءت على خلاف هذا ، جاءت بأن المُدَّعين يحلفون خمسين يمينًا على هذا الرجل أنه قتل صاحبهم ، فإذا حلفوا فهو كالشهود تمامًا ، فيأخذونه برمته ويقتلونه .

وهذه وقعت في عهد النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وقضى بها هكذا ، على أنه إذا حلف خمسون رجلًا من أولياء المقتول فإنهم يستحقون قتل المدعى عليه ، وهذا هو الحق ، وإن كان بعض السلف والخلف أنكر هذا وقال :كيف يُحكم لهم بأيمانهم وهم مدعون .

س : لماذا كررت الأيمان خمسين يمينًا ؟

ج : لعظم شأن الدماء ، فليس من السهل أن نقول احلف مرة واقتل المدعى عليه .

س : كيف يحلف أولياء المقتول على شخص معين وهم لا يدرون عنه ؟

ج : أننا لا نسلم أنهم لا يدرون عنه ، فربما يكونون شاهدوه وهو يقتل صاحبهم ، وإذا سلمنا جدلًا أو حقيقة أنهم لم يشاهدوه فلهم أن يحلفوا عليه بناء على غلبة الظن وتتم الدعوى ، والحلف بناء على غلبة الظن جائز .

ولذلك القسامة قال عنها بعض العلماء : إنها تخالف القياس من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن الأيمان صارت في جانب المُدَّعين ، والأصل أن اليمين في جانب المنكر .

الوجه الثاني : أنها كررت إلى خمسين يمينًا .

الوجه الثالث : أن أولياء المقتول يحلفون على شخص قد لا يكونون شاهدوا قتله .

وسبق الجواب عن هذا ، وأن القسامة مطابقة تمامًا للقواعد الشرعية .

الحديث الرابع والثلاثون

عَنْ أَبِي سَعيدٍ الخُدريّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : سَمِعتُ رِسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقولُ :
" مَن رَأى مِنكُم مُنكرًا فَليُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَستَطعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَستَطعْ فَبِقَلبِه ؛ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ "
رواهُ مسلمُ . (م / ١٨٦) .

المعنى الإجمالي

يشتمل الحديث على قاعدةٍ عظيمة من قواعد الدين ، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتي بها تستقيم الأمور ، وتُحْفَظُ الحرمات والأركان ، وبدون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تضطرب البلاد والعباد ،
وهو واجبٌ على كلِّ مكلَّفٍ قادر حسب استطاعته ، باليد أو اللسان أو القلب ، وقد يكون كل من الأمر والنهي واجبًا على الأعيان إذا لم يعلم بالمنكر أحدٌ سواه ، فإذا علمه جماعة من الناس وجب عليهم إنكاره على الكفاية فحيث قام به البعض سقط وجوبه عن الباقين ، ويأثم الجميع إذا لم يقم به أحد ، ولذلك لاينبغى للشخص أن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواجب على الكفاية إلا إذا غلب على ظنِّه قيام غيره به وكفايته له .

توضيح الحديث

(المعنى)

" مَن رَأى مِنكُم مُنكرًا فَليُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ "

(مَن رَأى) : أي : عَلِمَ ؛ سواءٌ أبصر ذلك بنفسه ، أو علمه بطريقٍ يعتمد عليه .

(مِنكُم) : أي : أي معشر المكلفين القادرين ، فخرج نحو صبيٍّ و مجنون وعاجز ، والخطاب شاملٌ لجميع الأمة حاضرهم وغائبهم ، والمرأة والرجل فيه سواء ، وإنما ذَكَّر الضمير على عادة النصوص في تذكير الضمائر تغليبًا للذكورة على الأنوثة ، وليس المراد اختصاص الرجال بذلك .

(مُنْكَرًا) : المنكر : هو ما نهى الله عنه ورسوله ، لأنه ينكر على فاعله أن يفعله ، أو شيئًا قبحه الشرع فعلا وقولا ، ولو صغيرًا .

(فَلْيُغَيِّرْهُ) : أي يغير هذا المنكر بيده ، يعنى يُزيله ، وجوبًا عينيًا إن انفرد بعلمه مع القدرة عليه ، وكفائيًا إن شاركه غيره .
وقوله : " مُنْكَرًا " لابد أن يكون منكرًا واضحًا يتفق عليه الجميع ، أي المُنْكِر والمُنْكَر عليه ، أو يكون مخالفة المنكر عليه مبينة على قول ضعيف لا وجه له .
أما إذا كان من مسائل الاجتهاد فإنه لا ينكره .

(بِيَدِهِ) : برفع المنكر وإزالته باليد حيث كان مما يزال بها ، ككسر آلة لهو ، وآنية خمر .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٤٨)

١- أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ولى جميع الأمة إذا رأت منكرًا أن تغيره ، ولا يحتاج أن نقول : لابد أن يكون عنده وظيفة ، فإذا قال أحد : من الذي أمرك أو ولاك ؟ يقول له : النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لقوله : " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ " .

٢- يُربِّي الحديث جميع المسلمين على تحمل المسؤولية ، وأن كل شخص منهم يعنيه أمر غيره ومجتمعه ولذلك قال : " مَن رَأَى مِنكُم مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ " .

٣- يُربِّي المجتمع على معالجة الأخطاء التي يروها وألاّ يقف الشخص حائرًا كأن الأمر لا يعنيه .

٤- يدل على أن المنكرات تقع في المجتمع الإسلامي لكن يجب ألاّ تقر وتصبح مألوفة .

٥- قوله " من رأى " يدل على أن المنكر مشاهد وظاهر ، أما إن أسره صاحبه وأخفاه فلا يجوز التصنت والتتبع إلّا إن دلّت (القرائن) والشواهد فيكون في حكم الظاهر .

٦- الأمر بتغيير المنكر .

٧- وجوب تغيير المنكر ، وذلك بإزالته أو تخفيفه وبإقامة العقوبة الشرعية على فاعله .

٨- أنه لا يجوز إنكار المنكر حتى يتيقن المنكر ، وذلك من وجهين : الوجه الأول : أن يتيقن أنه منكر .
والوجه الثاني : أن يتيقن أنه منكر في حق الفاعل ، لأن الشيء قد يكون منكرًا في حد ذاته ، لكنه ليس منكرًا بالنسبة للفاعل .

٩- خطر ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

١٠- أنه لا بد أن يكون المنكر منكرًا لدى الجميع ، فإن كان من الأمور الخلافية فإنه لا ينكر على من يرى أنه ليس بمنكر ، إلا إذا كان الخلاف ضعيفًا لا قيمة له ، فإنه ينكر على الفاعل ، وقد قيل :

وليس كل خلاف جاء معتبرًا ... إلا خلافًا له حظ من النظر

١١- مجاهدة أهل الباطل وإنكار المنكر واجب يفرضه الإسلام على كل مسلم حسب طاقته وقدرته .

١٢- أن المطلوب تغيير المنكر لا مجرد الإنكار ، فإن أدى إلى منكر أكبر منه فإنه يصير الإنكار حينئذ منكرًا ، ويكون التغيير – والحالة هذه – غير مستطاع .

١٣- الرضا بالخطيئة والمعصية كبيرة من كبائر الذنوب .

١٤- أن اليد هي آلة الفعل ، لقوله : " فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ " لأن الغالب أن الأعمال باليد ، ولذلك تضاف الأعمال إلى الأيدي في كثير من النصوص .

١٥- أن أعلى مراتب تغيير المنكر تغييره باليد ، وذلك إذا اقتضى عملًا كإتلاف آلة المنكر ، والعين المحرمة وعقوبة فاعله ، ومن ذلك إقامة الحدود والتعزيرات ، مما هو إلى السلطان .

(المعنى)

" فَإِنْ لَمْ يَستَطعْ فَبِلِسَانِهِ "

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ) : أي إن لم يستطع أن ينكره بيده ، لكون فاعله أقوى منه ، ويلحقه الضرر بالتغيير باليد .

(فَبِلِسَانِهِ) : أي فلينكره بلسانه بالقول : ويكون ذلك : بالتوبيخ ، والزجر ، والتذكير ، و النصيحة ، والخطابة وما أشبه ذلك ، ولكن لا بد من استعمال الحكمة .

(المستفاد)

١٦- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الجميع لصيغة العموم في الحديث " مَنْ " لكن يقيد على حسب الاستطاعة والقدرة لقوله : " فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ " حيث علق الأمر على الاستطاعة .

١٧- أن من شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الاستطاعة .

١٨- إذا لم يستطع المسلم أمرًا من الأمور فعليه أن يبحث عن أمر آخر يقدر عليه ولذلك قال في الحديث " فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ " مرتين في الحديث .

١٩- أنه ليس في الدين من حرج ، وأن الوجوب مشروط بالاستطاعة ، لقوله : (فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ) وهذه قاعدة عامة في الشريعة ، قال الله تعالى : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) (التغابن / ١٦) وقال عزّ وجل : (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة / ٢٨٦) وقال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " مَا نَهَيتُكُم عَنهُ فَاجتَنِبوهُ ، وَمَا أَمَرتُكُم بِهِ فَأتوا مِنهُ مَا استَطَعتُم " وهذا داخل في الإطار العام أن الدين يسر .

٢٠- درجات تغيير المنكر دليل على أن الله لا يكلف الإنسان إلاّ ما يستطيع ، أما ما كان خارجًا عن قدرته فلا يطالب شرعًا به .

(المعنى)

" فَإِنْ لَمْ يَستَطعْ فَبِقَلبِه وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ "

(فَإِنْ لَمْ يَستَطِعْ) : ذلك بلسانه لوجود مانع ، كخوف فتنة ، أو خوف على نفس ، أو نحو ذلك .

(فَبِقَلْبِهِ) : أي فلينكره بقلبه ، وجوبا بأن يكرهه ، ويبغضه ويتمنى زواله ويلزم من ذلك مفارقة مكان المنكر ، وهجران أهله ، ويعزم أنه لو قدر يقول ، أو فعل لقال وفعل .

(وَذَلِكَ) : أي الإنكار بالقلب .

(أَضْعَفُ الإِيْمَانِ) : يعنى أدناه ، أي أضعف مراتب الإيمان في هذا الباب أي في تغيير المنكر أي أقله ثمرة .

(المستفاد)

٢١- أن الإنسان إذا لم يستطع أن يغير باليد ولا باللسان فليغير بالقلب ، وذلك بكراهة المنكر وعزيمته على أنه متى قدر على إنكاره بلسانه أو يده فعل .

٢٢- في هذا الحديث بيان كيفية تغيير المنكر ودرجاته .

٢٣- مراتب تغيير المنكر .

٢٤- أن تغيير المنكر فرض كفاية على من علم به وقدر على تغييره بيده أو لسانه ، وأما التغيير بالقلب ففرض عين .

٢٥- أن المرتبة الثانية التغيير باللسان ، وذلك ببيان حكم المنكر والزجر عنه ولوم فاعله ودعوته للتوبة .

٢٦- أن المرتبة الثالثة التغيير بالقلب ، وذلك ببغض المنكر والرغبة الصادقة في زواله والعزم على تغييره بالقول والفعل لو أمكن ذلك .

٢٧- أنه لا عذر عن التغيير بالقلب .

٢٨- أن من لم يغير بقلبه فلا حظَّ له من هذا الإيمان ، وهو تغيير المنكر وجهاد أهله .

٢٩- قوله " فبقلبه " يدل على أن المنكِر لا يرضى به ولا يقر ولو بالقلب الذي لا يطلع عليه إلاّ الله .

٣٠- أن مناط ترتيب هذه المراتب هو الاستطاعة ، فلا يُصار إلى المرتبة الدنيا مع القدرة على ما فوقها .

٣١- أن من غيَّر بما يستطيع فقد قضى ما عليه كما قال أبو سعيد ، وبرئت ذمته .

٣٢- أن الإيمان عمل ونية ، لأن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – جعل هذه المراتب من الإيمان ، والتغيير باليد عمل ، وباللسان عمل ، وبالقلب نية ، وهو كذلك ، فالإيمان يشمل جميع الأعمال ، وليس خاصًا بالعقيدة فقط ، لقول النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " الإيمَانُ بِضعٌ وَسَبعُونَ شُعبَة ، أو قال : وَستونَ شُعبَة ، أَعلاهَا : قَولُ لا إِلهَ إِلا الله ، وَأَدناهَا إِماطَةُ الأَذَى عَنِ الطَرِيقِ " .

٣٣- أن للقلب عملًا ، لقوله : " فَإِن لَم يَستَطِع فَبِقَلبِهِ " عطفًا على قوله : " فَليُغَيرْهُ بيَدِهِ " وهو كذلك .
فالقلب له قول وله عمل ، قوله عقيدته ، وعمله حركته بنية أو رجاء أو خوف أو غير ذلك .

٣٤- الحديث دليل على أن القلب له عمل في الإيمان ، فمِن عمله إنكار المنكر وعدم الرضا به .

٣٥- العمل ثمرة الإيمان ، وإزالة المنكر ثمرة من ثمار الإيمان .

٣٦- أن تغيير المنكر من الإيمان .

٣٧- يدل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص فمن أنكر بقلبه ليس كمن قدر على تغييره .

٣٨- أن العمل من الإيمان ؛ عمل القلب أو الجوارح .

٣٩- الرد على المرجئة حيث قصروا الإيمان على الإقرار باللسان والتصديق بالجنان [١] .

٤٠- أن الواجب يختلف باختلاف القدرة .

٤١- أن مناط الوجوب القدرة ، فلا واجب مع العجز .

٤٢- أن هذه المراتب في مقدار الواجب لا في مرتبة المكلَّف ، فقد يكون من يغير بقلبه مع العجز أكملَ مِمّن يغير بيده أو لسانه لما يقوم بقلبه من صدق الإرادة ، وبهذا يظهر معنى " أضعف الإيمان " ، وأن المراد أقل ما يجب ، ومثله قوله في الحديث الآخر " ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " .

---

(١) قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان في التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية : القول الحق : أن الإيمان قول باللسان ، واعتقاد بالقلب ، وعمل بالجوارح ، فالأعمال داخلة في حقيقة الإيمان ، وليست بشيء زائد عن الإيمان ، فمن اقتصر على القول باللسان والتصديق بالقلب دون العمل ، فليس من أهل الإيمان الصحيح .

فالإيمان –كما قال العلماء – : قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالجوارح ، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان . =

٤٣- وجوب تغيير المنكر بكل ما أمكنه مما ذكر ، فلا يكفي الوعظ لمن تمكنه إزالته بيده ، ولا القلب لمن تمكنه إزالته باللسان .

٤٤- الإنكار بالقلب فرض على كل مسلم ، والإنكار باليد واللسان بحسب القدرة .

٤٥- أن الإنكار إنما يتعلق بتحقيق الشيء ، وليس على الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر اقتحام الدور بالظنون ، إلا إذا أخبره من يثق بقوله : أن رجلا خلا برجل ليقتله ، أو بامرأة ليزني بها ، أو نحو ذلك مما لا يتدارك ، فإنه يجب عليه البحث خوف الفوات .

٤٦- أن من قدر على خصلة من خصال الإيمان ، وفعلها أفضل ممن تركها عجزًا .

٤٧- أن عدم إنكار المنكر بالقلب دليل على ذهاب الإيمان منه ، ولهذا قال ابن مسعود – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – : (هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر)

٤٨- في الحديث شاهد ليسر الإسلام في شرائعه .

= قال تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (الأنفال / ٢) وقال : (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا) (التوبة / ١٢٤) وقال : (وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا) (المدثر / ٣١) هذه الآيات تدل على زيادة الإيمان والنقص ، كما في قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَن رَأى مِنكُم مُنكَرًا فَليُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإنْ لَمْ يَستَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإنْ لَمْ يَستَطِعْ فَبِقَلبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ " (م / ١٨٦) فدل على أن الإيمان ينقص . وفي رواية : " وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ " (م / ١٨٨) دل على أن الإيمان ينقص ، حتى يكون على وزن حبة خردل .

وكما في الحديث الصحيح : " انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ " (خ / ٧٥١٠) .

فالإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان ، هذا تعريفه الصحيح المأخوذ من الكتاب والسنة .

فليس كما تقوله الحنفية : قول باللسان واعتقاد بالجنان فقط .

وليس كما تقوله الكرامية : قول باللسان فقط .

وليس كما تقوله الأشاعرة : اعتقاد القلب فقط .

وليس كما تقوله الجهمية : هو المعرفة بالقلب فقط .

فالمرجئة أربع طوائف ، أبعدها الجهمية ، وعلى قولهم يكون فرعون مؤمنًا ؛ لأنه عارف ، وإبليس يكون مؤمنًا ؛ لأنه عارف بقلبه .

وعلى قول الأشاعرة : إنه التصديق بالقلب ، يكون أبو لهب وأبو طالب وأبو جهل وسائر المشركين يكونون مؤمنين ؛ لأنهم موقنون بقلوبهم ومصدقون ، يصدقون النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في قلوبهم ، ولكن منعهم الكبر والحسد من اتباعه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

واليهود يعترفون أنه رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في قلوبهم ، ولكن الحسد والكبر : (الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) (البقرة / ١٤٦) ، وقال في المشركين : (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) (الأنعام / ٣٣) ، فمعنى (لاَ يُكَذِّبُونَكَ) أي أنهم يصدقونك .

وأبو طالب يقول :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : " مَنْ رَأَى " هل المراد مَنْ عَلِم وإن لم يرَ بعينه فيشمل مَنْ رأى بعينه ومن سمع بأذنه ومن بلغه خبر بيقين وما أشبه ذلك ، أو نقول : الرؤيا هنا رؤية العين ، أيهما أشمل ؟

ج : الأول ، فيحمل عليه ، وإن كان الظاهر الحديث أنه رؤية العين لكن مادام اللفظ يحتمل معنى أعم فليحمل عليه .

س : وقوله : " بِلِسَانِهِ " هل نقيس الكتابة على القول ؟

ج : نعم ، فيغير المنكر باللسان ، ويغير بالكتابة ، بأن يكتب في الصحف أو يؤلف كتبًا يبين المنكر .

س : هل قوله : " فَلْيُغَيِّرْهُ بيدهِ " على إطلاقه ، بمعنى أنه مع القدرة يغير على كل حال ؟

ج : لا ، إذا خاف في ذلك فتنة فلا يغير ، لأن المفاسد يدرأ أعلاها بأدناها ، كما لو كان يرى منكرًا يحصل من بعض الأمراء ، ويعلم أنه لو غير بيده استطاع ، لكنه يحصل بذلك فتنة : إما عليه هو ، وإما على أهله ، وإما على قرنائه ممن يشاركونه في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهنا نقول : إذا خفت فتنة فلا تغير ، لقوله تعالى :
(وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) (الأنعام / ١٠٨)

س : هل يكفي في إنكار القلب أن يجلس الإنسان إلى أهل المنكر ويقول : أنا كاره بقلبي ؟

ج : لا ، لأنه لو صدق أنه كاره بقلبه ما بقي معهم ولفارقهم إلا إذا أكرهوه ، فحينئذٍ يكون معذورًا .

س : قوله : " فَلْيُغَيرهُ بيَدِهِ " هل هذا لكل إنسان ؟

ج : ظاهر الحديث أنه لكل إنسان رأي المنكر ، ولكن إذا رجعنا إلى القواعد العامة رأينا أنه ليس عامًا لكل إنسان في مثل عصرنا هذا ، لأننا لو قلنا بذلك لكان كل إنسان يرى شيئًا يعتقده منكرًا يذهب ويغيره وقد لا يكون منكرًا فتحصل الفوضى بين الناس . نعم راعي البيت يستطيع أن يغير بيده ، لأنه هو راعي البيت ، كما أن راعي الرعية الأكبر أو من دونه يستطيع أن يغير باليد .

وليعلم أن المراتب ثلاث : دعوة ، أمر ، تغيير ، فالدعوة أن يقوم الداعي في المساجد و في أي مكان يجمع الناس ويبين لهم الشر ويحذرهم منه ويبين لهم الخير ويرغبهم فيه .

والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر هو الذي يأمر الناس ويقول : افعلوا ، أو ينهاهم ويقول لهم : لا تفعلوا . ففيه نوع إمرة . والمغير هو الذي يغير بنفسه إذا رأى الناس لم يستجيبوا لدعوته ولا لأمره ونهيه .

الحديث الخامس والثلاثون

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" لا تَحَاسَدُوا ، وَلا تَنَاجَشُوا ، وَلا تَبَاغَضُوا ، وَلا تَدَابَرُوا ، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا . الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لا يَظْلِمُهُ ، وَلا يَخْذُلُهُ ، وَلا يَكْذِبُهُ (١) ، ولا يَحْقِرُهُ . التَّقْوَى هَا هُنَا " . – وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ – " بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ " .

(رواهُ مسلمُ / ٦٧٠٦) .

المعنى الإجمالي

ينهانا النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في هذا الحديث عن كل ما من شأنه أن يجلب فساد ذات البين بين المسلمين ، ومن ذلك الحسد ، والتناجش ، والتباغض ، والتدابر ، وأن يبيع البعض على بيع بعض ، كما ينهانا عن أن يظلم أحدنا أخاه ، أو يخذله ، أو يكذبه ، أو يحقره ، فيوصينا إجمالًا بمحاسن الأخلاق وكامل الآداب .

ويرشدنا إلى تحريم دم المسلم وعِرْضه وماله إلا بحقٍ ، وينبه على أن القلب هو الأساس في بناء التقوى .

توضيح الحديث

(المعنى)

" لا تَحَاسَدُوا ، وَلا تَنَاجَشُوا ، وَلا تَبَاغَضُوا ، وَلا تَدَابَرُوا ، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا "

(لا تَحَاسَدوا) : أي لا يحسد بعضكم بعضًا .

والحسد : قال بعض أهل العلم هو : تمني زوال نعمة الله عزّ وجل على الغير ، أي أن يتمنى أن يزيل نعمته على الآخر ، سواء أكانت النعمة مالًا أم جاهًا أم علمًا أم غير ذلك .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله – الحسد : كراهة ما أنعم الله به على الغير وإن لم يتمن الزوال .

ومن المعلوم أن من لازم الكراهة أن يتمنى الزوال ، لكن كلام الشيخ – يرحمه الله – أدق ، فمجرد ما تكره أن الله أنعم على هذا الرجل بنعمة فأنت حاسد .

(وَلا تَنَاجَشوا) : أي لا ينجش بعضكم على بعض ، وهذا في المعاملات ، ففي البيع المناجشة : أن يزيد في السلعة وهو لا يريد شراءها ، لكن يريد أن يخدع بذلك غيره ممن يرغب فيها أويريد الإضرار بالمشتري أو نفع البائع ، أو الأمرين معًا .

(وَلا تَبَاغَضوا) : أي لا يبغض بعضكم بعضًا ، والبغضاء لا يمكن تعريفها ، تعريفها لفظها : كالمحبة والكراهة ، والمعنى : لا تتعاطوا أسباب التباغض .

وإذا وقع في قلوبكم بغض لإخوانكم فاحرصوا على إزالته وقلعه من القلوب .

---

(١) وَلا يَكْذِبُهُ : ليست في الأصل عند مسلم ، وإنما هي عند (الترمذي / ١٩٢٧) .

(وَلَا تَدَابَرُوا) : لا يعط أحد منكم أخاه دبره حين يلقاه مقاطعة له . إما في الظهور بأن يولي بعضكم ظهر بعض ، أولا تدابروا في الرأي ، بأن يتجه بعضكم ناحية والبعض الآخر ناحية أخرى ، أي : لا تتقاطعوا أو لا يهجر بعضكم بعضًا .

(وَلاَ يَبِع بَعضُكُم عَلَى بَيعِ بَعضٍ) : بأن يقول لمن اشترى سلعة في مدة الخيار : افسخ هذا البيع ، وأنا أبيعك مثله بأرخص من ثمنه ، أو أجود منه بثمنه . أو يكون المتبايعان قد تقرر الثمن بينهما وتراضيًا ، ولم يبق إلا العقد فيزيد عليه ، أو يعطيه بأنقص ، وهذا بعد استقرار الثمن ، أما قبل الرضا فليس بحرام .

(وَكونوا عِبَادَ اللهِ إِخوانًا) : أي صيروا مثل الإخوان،ومعلوم أن الإخوان يحب كل واحد منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، أي تعاملوا معاملة الأخوة في المودة ، والرفق والشفقة والملاطفة ، والتعاون في الخير ، ونحو ذلك مع صفاء القلوب .

(عِبَادَ اللهِ) : جملة اعتراضية،المقصود منها الحث على هذه الإخوة .

(المُسلِمُ أَخو المُسلِمِ) : أي مثل أخيه في الولاء والمحبة والنصح وغير ذلك .

لأنه يجمعهما دين واحد ، قال تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات / ١٠) .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٦٤)

١- أن هذا الحديث العظيم ينبغي للإنسان أن يسير عليه في معاملته إخوانه ، لأنه يتضمن توجيهات عالية منه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

٢- تحريم الحسد لقوله " لاَ تَحَاسَدوا " .

٣- تحريم المناجشة ولو من جانب واحد ، وسبق أن النجش في البيع : هو أن يزيد في السلعة وهو لا يريد شراءها .

٤- النهي عن التباغض ، وإذا نُهي عن التباغض أمر بالتحاب ، وعلى هذا فتكون هذه الجملة مفيدة لشيئين :

الأول : النهي عن التباغض ، وهو منطوقها .

والثاني : الأمر بالتحاب ، وهو مفهومها .

٥- النهي عن التدابر ، سواء بالأجسام أو بالقلوب .

٦- تحريم بيع الرجل على بيع أخيه .

٧- النهي عن تعاطي أسباب البغضاء ، وكذا كلُّ ما يترتَّب على ذلك من تقاطع وتهاجر بين المسلمين .

٨- وجوب الأُخوَّة الإيمانية ، لقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " وَكونوا عِبَادَ اللهِ إِخوَانًا " .

٩- إثبات الأخوة بين المسلمين .

١٠- أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لما أمر أن نكون إخوانًا بيّن حال المسلم مع أخيه .

١١- أن من تحقيق العبودية لله رعاية الأخوة الإيمانية .

١٢- حثُّ المسلمين جميعًا على أن يكونوا إخوةً متحابِّين متآلفين .

١٣- أنَّ الأخوَّةَ بين المسلمين تقتضي إيصالَ الخير إليهم ودفع الضرر عنهم .

١٤- الحديث يربي المجتمع المسلم على الأخوة الحقة .

١٥- الأخوة الشرعية الحقيقية هي التي لا تباغض فيها ولا تحاسد ولا تقاطع .

١٦– دل على أن الأخوة بين المسلمين وجمع الكلمة أمر مقصود من مقاصد الشريعة .

١٧– الشرع يحرم كل ما من شأنه خدش الأخوة من حسد وتقاطع وغيره .

١٨– المعاملات الدنيوية من بيع وشراء ونكاح يجب أن يراعى فيها جانب الأخوة ولذلك حرم الشرع بيع المسلم على بيع أخيه وشراؤه ونكاحه على أخيه المسلم لما يتسبب فيه ذلك من قطع للمودة وزرع للبغضاء .

١٩– دل على وجوب النصح للمسلم وصفاء القلب له .

٢٠– النهي عن أذية المسلم بأي وجه من الوجوه من قول أو فعل .

٢١– الأمر باكتساب ما يصير به المسلمون إخوانًا على الإطلاق ، ويدخل في ذلك أداء حقوق المسلم على المسلم : كَرَدِّ السلام ، وابتدائه ، وتشميت العاطس ، وعيادة المريض ، وتشييع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، والنصح .

٢٢– ليس الإسلام عقيدة وعبادة فحسب ، بل هو أخلاق ومعاملة أيضًا .

(المعنى)

" لا يَظْلِمُهُ ، وَلا يَخْذُلُهُ ، وَلا يكْذِبُهُ ، ولا يَحْقِرُهُ "

(لا يَظْلِمُهُ) : أي لا ينقصه حقه بالعدوان عليه ، أو جحد ما له ، سواء أكان ذلك في الأمور المالية ، أم في الدماء ، أم في الأعراض ، أم في أي شيء . لا يدخل عليه ضررًا في نفسه ، أو دينه ، أو عرضه ، أو ماله بغير إذن شرعي .

(وَلا يَخْذُلُهُ) : أي لا يهضمه حقه في موضوع كان يجب أن ينتصر له . لا يترك نصرته المشروعة ، لأن من حق حقوق أخوة الإسلام : التناصر .

(وَلا يكْذِبُهُ) : بفتح ياء المضارعة ، وتخفيف الذال المكسورة على الأشهر ، ويجوز ضم أوله وإسكان ثانية : لا يخبره بأمر خلاف الواقع . أي لا يخبره بالكذب ، الكذب القولي أو الفعلي .

(وَلا يَحْقِرُهُ) : بالحاء المهملة والقاف : لا يستصغر شأنه ويضع من قدره ، لأن الله لما خلقه لم يحقره بل رفعه وخاطبه وكلفه . أي لا يستصغره ، ويرى أنه أكبر منه .

(المستفاد)

٢٣– تحريم الظلم .

٢٤– أن ظلم المسلم ينافي صدق الأخوة الإسلامية .

٢٥– أن من حقوق المسلم على المسلم نصره إذا احتاج إليه ، سواء أكان ذلك الأمر دنيويًا مثل أن يقدر على دفع عدو يريد أن يبطش به ، فيجب عليه دفعه ، أم دينيًا مثل أن يقدر على نصحه عن غيه بنحو وعظ فيجب عليه حينئذ النصح ، وتركه هو الخذلان المحرم .

٢٦– أن ترك نصرة المسلم مما ينافي الأخوة ، وقد قال : " انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا " .

٢٧- التحذير من تحقير المسلم ، فإن الله لم يحقره إذ خلقه ، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض ، وسماه مسلمًا ، ومؤمنًا ، وعبدًا ، وجعل الرسول منه إليه محمدًا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فمن حقر مسلمًا من المسلمين فقد حقر ما عظمه الله تعالى .

٢٨- أنه لا يحل ظلم المسلم بأي نوع من أنواع الظلم ، والظلم ظلمات يوم القيامة .

٢٩- وجوب نصرة المسلم ، وتحريم خذلانه ، لقوله : " وَلا يَخذلهُ " ويجب نصر المسلم ، سواء أكان ظالمًا أم مظلومًا ، كما قال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " انصُر أَخَاكَ ظَالِمًا أَو مَظلُومًا " قَالوا : يَارَسُول الله هَذا المَظلوم ، فَكَيفَ نَنصُرُ الظَالِمَ ؟ قَالَ : " تَمَنَعهُ مِنْ الظلم فَذلِكَ نَصرُكَ إِيَّاهُ " وأنت إذا منعته من الظلم فقد نصرته على نفسه ، وأحسنت إليه أيما إحسان .

٣٠- يحرم ظلم المسلم لأخيه وخذلانه له والكذب عليه واحتقاره ، لأنها جميعًا تخالف معنى الأخوة الشرعي .

٣١- تربية النفس على الأخوة الشرعية يعالج الكبر الذي هو غمط الناس واحتقارهم ، فإذا نظر إليهم على أنهم أخوة له فيجب عليه محبتهم ونصرتهم ذهب عنه بإذن الله الكبر .

٣٢- وجوب الصدق فيما يخبر به أخاه ، وأن لا يكذب عليه ، بل ولا غيره أيضًا ، لأن الكذب محرم حتى ولو كان على الكافرين .

٣٣- أن من دواعي ترك الكذب رعايةَ الأخوة الإسلامية .

٣٤- وجوب الصدق والتناصر والتواضع وتحريم الظلم بين المسلمين .

٣٥- أنه لا يجني عليه بأي جناية تريق الدم أو بأي جناية تنقص المال ، سواء أكان بدعوى ما ليس له أم بإنكار ما عليه .

(المعنى)

" التَّقْوَى هَا هُنَا " . – وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ – " بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ "

(التَّقوى هَا هُنا) : التقوى : اجتناب عذاب الله بفعل المأمور ، و ترك المحظور . يعني تقوى الله عزّوجل في القلب وليست في اللسان ولا في الجوارح ، وإنما اللسان والجوارح تابعان للقلب .

(وَيُشيرُ إِلَى صَدرِهِ ثَلاثَ مِرَاتٍ) : يعني قال : التقوى هاهنا ، التقوى هاهنا ، التقوى هاهنا ، تأكيدًا لكون القلب هو المدبر للأعضاء .

(بِحَسبِ امرُىءٍ مِنَ الشَّرِّ) : الباء هذه زائدة ، وحسب بمعنى كافٍ و " أَن يَحْقِر أخاه " مبتدأ والتقدير حقر أخيه كافٍ في الشر ، وهذه الجملة تتعلق بقوله : " وَلا يحقِرُهُ " أي يكفي الإنسان من الإثم ويكفيه من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، لأن حقران أخيك المسلم ليس بالأمر الهين . يعني يكفي فاعله عقوبة هذا الذنب .

(كُل المُسلِمِ عَلَى المُسلِمِ حَرَام) : ثم فسر هذه الكلية بقوله : " دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرضُهُ " يعني أنه لا يجوز انتهاك دم الإنسان ولا ماله ولا عرضه ، كله حرام .

(وَعِرْضُهُ) : حسبه ، وهو مفاخره ومفاخر آبائه ، وقد يراد به النفس . أو موضع المدح والذم .

(المستفاد)

٣٦- أن عمدة التقوى ما في القلب من عظمة الله ، وخشيته ومراقبته ، ولا اعتبار بمجرد الأعمال الصالحة بدون ذلك .

٣٧- القلب هو منبع خشية الله تعالى والخوف منه .

٣٨- أن أصل التقوى وحقيقتها في القلب ، وما يظهر على الجوارح من طاعة الله أثر لها وفرع عنها ، ويشهد لهذا قوله تعالى : (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) (الحج / ٣٢) .

٣٩- أن من تقوى الله القيام بحق المسلم على المسلم فعلاً وتركًا .

٤٠- الميزان في الإسلام ميزان التقوى ، والتفاضل يكون بينهم على أساسها ، وليس لأي أمر من أمور الدنيا ، ولذلك قال : " التَّقوى هَاهُنَا " .

٤١- محل التقوى في القلب وتظهر آثارها على الجوارح ، ولهذا أشار إلى صدره عندما ذكر التقوى .

٤٢- توضيح المعنى المراد بالفعل ، لقوله : " وأشار إلى صدره ".

٤٣- أن الانحراف الظاهر في القول والعمل يدل على ضعف تقوى القلب .

٤٤- أن التقوى محلها القلب ، لقوله : " التَّقوى هَاهُنَا ، وَأَشَارَ إِلَى صَدرِهِ " يعني في قلبه .

٤٥- أن الفعل قد يؤثر أكثر من القول في المخاطبات ، لأن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بإمكانه أن يقول : التقوى في القلب ، لكنه قال : " التَّقوى هَاهُنَا ، وَأَشَارَ إِلَى صَدرِهِ " .

٤٦- الإسلام لا يقيم لأمور الدنيا من مال وجاه أي اعتبار في حال التفاضل بين المسلمين ، لأنها من فضل الله يؤتيه الله من يشاء ، فلا يغتر الإنسان بما آتاه الله وإنما الاعتبار للتقوى فليحاسب الإنسان نفسه عنها .

٤٧- دل على من أعطي من الدنيا لا يدل على فضله عند الله ، وإنما الفضل لمن أعطي من أمور الآخرة من التقوى والعمل الصالح .

٤٨- الرد على أولئك المجادلين بالباطل الذين إذا فعلوا معصية بالجوارح ونُهوا عنها قالوا : التقوى هاهنا ، فما جوابنا على هذا الجدلي ؟ .

جوابنا أن نقول : لو اتقى ما هاهنا لاتقت الجوارح ، لأن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال :
" أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضغَةً إِذَا صَلَحَت صَلحَ الجَسَدُ كُلهُ ، وَإِذا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُهُ أَلا وَهِيَ القَلب " .

٤٩- عظمة احتقار المسلم ، لقوله : " بِحَسبِ امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أَن يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسلِم " .

٥٠- تحريم احتقار المسلم مهما بلغ في الفقر وفي الجهل ، فلا تحتقره ، قال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" رُبَّ أَشعَثَ أَغبَرَ مَدفوعٌ بالأَبوابِ لَو أَقسَمَ عَلَى اللهِ لأَبرَّهُ "

٥١- أن من حق المسلم على المسلم ألا يحقره .

٥٢- بيّن الحديث خطر احتقار المسلم لأخيه المسلم ، لأنه ينافي المحبة الواجبة له إضافة إلى أنه نوع كبر وقد حرمه الله .

٥٣- أن احتقار المسلم لأخيه شر عظيم ومجلبة للشر .

٥٤- وجوب احترام المسلم في هذه الأمور الثلاثة : دمه وماله و عرضه .

٥٥- تحريم دماء المسلمين ، وأموالهم وأعراضهم .

٥٦- تحريم دم المسلم وماله وعرضه على المسلم .

٥٧- أن للمسلم حرمة عظيمة عند الله ، من أجل ذلك حرّم منه ما حرّم ، ويشهد لهذا قوله :

" إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا " .

٥٨- يحرم الاعتداء على المسلمين سواء بمالهم أو أعراضهم أو دمائهم وأنفسهم .

٥٩- يجب حفظ غيبة الأخ المسلم في حال غيابه خاصة ، فلا يُستغل غيابه ويستباح عرضه بل يجب حفظ عرضه في غيبته كما في حال حضوره .

٦٠- تحريم عرض المسلم ، يعني غيبته ، فغيبة المسلم حرام .

٦١- فضل المسلم على الكافر .

٦٢- الحديث يقتضي إيصال النفع للأخ المسلم .

٦٣- تقوى الله تقتضي حفظ حقوق الأخوة الإسلامية ، ولذلك نص عليها النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في هذا الحديث بقوله : " التَّقوَى هَاهُنَا " وذكر قبلها وبعدها شيئًا من الحقوق الإسلامية .

٦٤- الإسلام يحارب جميع الأخلاق الذميمة وذلك لأثرها السيء في المجتمع الإسلامي .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : ما يَرد على القلب أحيانًا من محبة كون الإنسان أعلى من أخيه ، فهل يدخل في الحسد ؟

ج : لا ، لأن الرجل لم يكره نعمة الله عزّ وجل على هذا العبد ، لكن أحب أن يفوقه ، وهذا شيء طبيعي .

س : فإن وقع في قلبه حسد لشخص ولكنه يدافعه ولم يعتد على الشخص ، فهل يؤاخذ به ؟

ج : لا يؤاخذ ، لكنه ليس في حال الكمال ، لأن حال الكمال أن لا تحسد أحدًا ، وأن ترى نعمة الله عزّ وجل على غيرك كنعمته عليك ، لكن الإنسان بشر قد يقع في قلبه أن يكره ما أنعم الله به على هذا الشخص من علم أو مال أو جاه أو ما أشبه ذلك ، لكنه لا يتحرك ولا يسعى لإضرار هذا المحسود ، فنقول : هذا ليس عليه شيء ، لأن هذا أمر قد يصعب التخلص منه ، إلا أنه لو لم يكن متصفًا به لكان أكمل وأطيب للقلب .

والحسد على مراتب :

الأولى : أن يتمنى أن يفوق غيره ، فهذا جائز ، بل وليس بحسد .

الثانية : أن يكره نعمة الله عزّ وجل على غيره ، ولكن لا يسعى في تنزيل مرتبة الذي أنعم الله عزّ وجل عليه ويدافع الحسد ، فهذا لا يضره ، ولكن غيره أكمل منه .

الثالثة : أن يقع في قلبه الحسد ويسعى في تنزيل مرتبة الذي حسده ، فهذا هو الحسد المحرم الذي يؤاخذ عليه الإنسان .

والحسد من خصال اليهود ، كما قال الله تعالى : (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) (البقرة / ١٠٩) قال الله تعالى في ذمهم :

(أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا) (النساء / ٥٤) .

الحديث السادس والثلاثون

عَنْ أَبِي هُرَيرَة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :
" مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤمِن كُربَةً مِن كُرَبِ الدُّنيَا ، نَفَّسَ اللهُ عَنهُ كُربَةً مِنْ كُرَبِ يومِ القيامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ على مُعسرٍ ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيهِ فِي الدُّنيَا والآخِرَة ، وَمَنْ سَتَرَ مُسلِمًا ، سَتَرَهُ الله فِي الدُّنيَا وَالآخِرَة ، وَاللهُ فِي عَونِ العَبدِ مَا كَانَ العَبدُ فِي عَونِ أخيهِ ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلتَمِسُ فيهِ عِلمًا ، سَهَّلَ اللهُ لهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ ، وَمَا اجتَمَعَ قَومٌ فِي بَيتٍ مِنْ بيوتِ اللهِ ، يَتلونَ كِتابَ اللهِ ، وَيتَدارَسونهَ بَينَهُم إلا نَزَلَت عَلَيهُم السَّكِينَة ، وَغَشيَتهم الرَّحمَة ، وحَفَتهُمُ المَلائِكة ، وَذَكَرهُم اللهُ فيمَن عِندَهُ ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ " رواهُ مسلمٌ بهذا اللفظ .

المعنى الإجمالي

قال النووي : " وهو حديث عظيم جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب ، وفيه : فضل قضاء حوائج المسلمين ، ونفعهم بما تَيَسَّرَ من عِلْمٍ أو مال أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة وغير ذلك ، وفضل السّتر
على المسلمين ، وفضل إنظار المعسر ، وفضل المشي في طلب العلم ، وفضل الاجتماع على تلاوة القرآن في المسجد ، ويلحق بالمسجد في تحصيل هذه الفضيلة الاجتماع في مدرسة ورباط ونحوهما إن شاء الله تعالى ، وقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : "ومن بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه " معناه : من كان عمله ناقصًا ، لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال ، فينبغي ألا يتكل على شرف النسب ، وفضيلة الآباء ، ويقصر في العمل " .

توضيح الحديث

(المعنى)

" مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤمِن كُربَةً مِن كُرَبِ الدُّنيَا نَفَّسَ اللهُ عَنهُ كُربَةً مِنْ كرَبِ يوم القيامَةِ "
(مَنْ نَفَّسَ) : أي وسع و أزال وفرَّج .
(كُربَةً) : الكربة ما يكرب الإنسان ويتضايق منه ، وهي أيضًا الشدة العظيمة ، وهي ما أهمَّ النفس ، وغَمَّ القلب .
(مِنْ كُربِ الدنيَا) : أي من الكرب التي تكون في الدنيا وإن كانت من مسائل الدِّين ، لأن الإنسان قد تصيبه كربة من كرب الدين فينفس عنه .
(نَفَّسَ اللهُ عَنهُ كُربَةً مِنْ كُرَبِ يَومِ القيامَة) : الجزاء من جنس العمل من حيث الجنس ، تنفيس وتنفيس ، لكن من حيث النوع يختلف اختلافًا عظيمًا ، فكرب الدنيا لا تساوي شيئًا بالنسبة لكرب الآخرة ، فإذا نفس الله عن الإنسان كربة من كرب الآخرة كان ثوابه أعظم من عمله .

(يومِ القيامَة) : هو الذي تقوم فيه الساعة ، وسمي بذلك لثلاثة أمور :

الأول : أن الناس يقومون فيه من قبورهم لله عزّ وجل ، قال الله تعالى : (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (المطففين / ٦) .

الثاني : أنه تقام فيه الأشهاد ، كما قال الله تعالى :

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) (غافر / ٥١) .

الثالث : أنه يقام فيه العدل ، لقول الله تعالى :

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) (الأنبياء / ٤٧) .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٦٤)

١- فضل قضاء حاجات المسلمين ونفعهم بما تيسر من علم . أو جاه أو مال ، أو إشارة ، أو نصح ، أو دلالة على خير ، أو إعانة بنفسه ، أو بوساطته ، أو الدعاء بظهر الغيب .

٢- قوله : " من نفَّس " : التنفيس : التخفيف ، فيدل على أن المسلم عليه أن يسعى في تخفيف الكرب عن المسلمين ولو لم تزل الكربة بكاملها .

٣- كلما أكثر العبد في تنفيس الكرب عن المؤمنين نفّس الله عنه كربًا كثيرة يوم القيامة ، ففي ظاهر الحديث حث على التكثير من السعي في تفريج الكرب .

٤- الترغيب والحث على تنفيس الكرب عن المؤمنين ، لقوله : " مَنْ نَفَّس عَنْ مُؤمِن كُربَةً مِن كُرَبِ الدُّنيَا نَفَّسَ اللهُ عَنهُ كُربَةً مِنْ كُرَبِ يَوم القيامَةِ " .

٥- أن الجزاء من جنس العمل ، تنفيس بتنفيس ، وهذا من كمال عدل الله عزّ وجل ولكن يختلف النوع ، لأن الثواب أعظم من العمل .

٦- يقتضي الحديث تفقد المسلمين من حيث الحوائج والكرب والإعسار ، فيكون المؤمن حي القلب تجاه إخوانه يسمع أخبارهم ، ويتفقد حوائجهم .

٧- يربي المجتمع على المحبة والأخوة بينهم ، فإن مساعدة المحتاج وتفريج الكربات من الإيمان .

٨- فيه فضل تنفيس الكربات والتيسير على المعسر والستر على المسلم .

٩- إثبات يوم القيامة ، لقوله : " نَفّسَ اللهُ عَنهُ كُربَةً مِنْ كُرَبِ يَوم القيامَةِ " .

١٠- أن في يوم القيامة كربًا عظيمة ، لكن مع هذا والحمد لله هي على المسلم يسيرة ، لقول الله تعالى :

(وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) (الفرقان / ٢٦) وقال الله عزّ وجل : (عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) (المدثر / ١٠) وقال عزّ وجل : (يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) (القمر / ٨) .

أما المؤمن فإن الله عزّ وجل ييسره عليه ويخففه عنه والناس درجات ، حتى المؤمنون يختلف يسر هذا اليوم بالنسبة إليهم حسب ما عندهم من الإيمان والعمل الصالح .

(المعنى)

" وَمَنْ يَسَّرَ على مُعسرٍ يَسَّرَ الله عَلَيهِ في الدُّنيَا والآخِرَة "

(وَمَنْ يَسَّرَ) : أي سهل . بإنظاره إلى الميسرة ، أو بإعطائه ما يزول به إعساره ، أو بالوضع عنه إن كان غريمًا .

(يَسَّرَ الله عَلَيهِ) : أموره ومطالبه .

(مُعسر) : أي ذي إعسار كما قال الله تعالى : (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَة) (البقرة / ٢٨٠) ، من أثقلته الديون وعجز عن وفائها .

(يَسَّرَ اللهُ عَلَيهِ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَة) : أموره ومطالبه وحفظه من الزلات في الدنيا وإن فرط في شئ لم يفضحه في الدنيا ولم يؤاخذه في الآخرة .

ويشمل هذا التيسير تيسير المال ، وتيسير الأعمال ، وتيسير التعليم وغير ذلك ، أي نوع من أنواع التيسير .

وهنا ذكر الجزاء في موضعين : الأول : في الدنيا ، والثاني : في الآخرة .

(المستفاد)

١١- الحث والترغيب على التيسير على المعسر ، وأنه ييسر عليه في الدنيا والآخرة .

١٢- والمعسر تارة يكون معسرًا بحق خاص لك ، وتارة يكون معسرًا بحق لغيرك .

١٣- فضل التيسير على المعسر بإنظاره أو إبرائه .

١٤- أن التيسير على المعسر فيه أجران : أجر في الدنيا وأجر في الآخرة .

١٥- يبين الحديث حياة المجتمع المسلم بين أفراده ، الغني يساعد الفقير ، الجار يسعى لكسب مودة جاره والموسر يوسع على المعسر ، بخلاف المجتمع الغربي اليوم ، الوالد لا يعرف ابنه فضلاً عن جاره ، الحي الواحد متفكك ، الواحد منهم يسعى ويكدح ويتفانى لكن لنفسه فقط ، ولا يعرف إلاَّ نفسه ، فالحمد لله الذي فضلنا بالإسلام .

(المعنى)

" وَمَنْ سَتَرَ مُسلِمًا سَتَرَهُ الله في الدُّنيَا وَالآخِرَة "

(وَمَنْ سَتَرَ مُسلِمًا) : أي أخفى وغطَّى ، ومنه الستارة تخفي الشيء وتغطيه ، والمقصود ستر مسلمًا ارتكب ما يعاب . إما في المروءة والخُلُق ، وإما في الدين والعمل ، لم يعرف بأذى ، أو فساد ، بأن علم منه وقوع معصية فيما مضى ، لم يخبر بها أحدًا .

(سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَة) : بألا يعاقبه على ما فرط منه .

(المستفاد)

١٦– الترغيب في ستر المسلم ؛ ستر عيوبه أو ذنوبه ما لم يكن في الستر مفسدة راجحة ، كالذي لم يكن معروفًا بالفساد ، أما المعروف الذي لا يبالي ما ارتكب منه ، ولا بما قيل له ، فلا يستر عليه ، بل ترفع قضيته إلى ولي الأمر إن لم يخف من ذلك مفسدة ، لأن الستر على ذلك يطغيه في الفساد وانتهاك الحرمات ، ويجعل غيره جريئًا على مثل فعله . وهذا كله إنما هو في معصية انقضت ، أما التي رآه عليها وهو بعد متلبس بها فتجب المبادرة بإنكارها ، ومنعه منها على من قدر على ذلك ، ولا يحل له التأخير ، فإن عجز لزمه رفع ذلك إلى ولي الأمر إذا لم تترتب على ذلك مفسدة .

١٧– الحث على الستر على المسلم لقوله : " وَمَنْ سَتَرَ مُسلِمًا سَتَرَهُ الله في الدُّنيَا وَالآخِرَة " .

ولكن دلت النصوص على أن هذا مقيد بما إذا كان الستر خيرًا ، والستر ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أن يكون خيرًا .

والقسم الثاني : أن يكون شرًا .

والقسم الثالث : لا يدرى أيكون خيرًا أم شرًا .

أما إذا كان خيرًا فالستر محمود ومطلوب .

أما إذا كان الستر ضررًا فهنا ستره مذموم ويجب أن يكشف أمره لمن يقوم بتأديبه ، إن كانت زوجة فترفع إلى زوجها ، وإن كان ولدًا فيرفع إلى أبيه ، وإن كان مدرسًا يرفع إلى مدير المدرسة ، وهلم جرًا .

المهم : أن مثل هذا لا يستر ويرفع إلى من يؤدبه على أي وجه كان ، لأن مثل هذا إذا ستر– نسأل الله السلامة – ذهب يفعل ما فعل ولم يبال .

الثالث : أن لا تعلم هل ستره خير أم كشفه هو الخير : فالأصل أن الستر خير ، ولهذا يذكر في الأثر (لأن أخطىء في العفو أحب إليّ من أن أخطىء في العقوبة) ولكن في هذه الحال تتبَّع أمره ، لا تهمله ، لأنه ربما يتبين بعد ذلك أن هذا الرجل ليس أهلًا للستر .

١٨– الحديث يدل على أن المسلم عليه ألَّا يتبع عثرة أخيه المسلم وسقطته ومن ثم ينشرها ويشهرها ، بل يسترها .

(المعنى)

" وَاللهُ في عَونِ العَبدِ مَا كَانَ العَبدُ في عَونِ أخيهِ "

(وَاللهُ في عَونِ العَبدِ) : إعانته وتسديده .

(مَا كَانَ العَبدُ في عَونِ أخيهِ) : ما كان العبد : ما دام . يعني أنك إذا أعنت أخاك كان الله في عونك كما كنت تعين أخاك .

(المستفاد)

١٩– فضل إعانة المسلم لأخيه في أمور دينه ودنياه .

٢٠– الحديث تفسير عملي لقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " فمعونة الأخ تقتضي تفقد حوائجه ومساعدته وتفريج كربته .

٢١- من أراد معونة الله وتوفيقه فليسع في إعانة غيره من المسلمين لأن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

٢٢- أن العبد إذا عزم على معاونة أخيه فينبغي له أن لا يجبن عن إنفاذ قوله وصدعه بالحق ، إيمانا بأن الله تعالى في عونه .

٢٣- أن الله تعالى في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ففيه الحث على عون إخوانه من المسلمين في كل ما يحتاجون إلى العون فيه حتى في تقديم نعليه له إذا كان يشق على صاحب النعلين أن يقدمهما ، وحتى في إركابه السيارة ،
وحتى في إدناء فراشه له إذا كان في بَرّ أو ما أشبه ذلك . ولكن هذا مقيد بما إذا كان على برٍّ وتقوى ، لقول الله تعالى :
(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) (المائدة / ٢) .
وإن كان على شيء مباح فإن كان فيه مصلحة للمعان فهذا من الإحسان ، وهو داخل في عموم قول الله تعالى :
(وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (المائدة / ٩٣) وإن لم يكن فيه مصلحة للمعان فإن معونته إياه أن ينصحه عنه ،
وأن يقول : تجنب هذا ، ولا خير لك فيه .

٢٤- بيان كمال عدل الله عزّ وجل ، لأنه جعل الجزاء من جنس العمل ، وليتنا نتأدب بهذا الحديث ونحرص على تفريج الكربات وعلى التيسير على المعسر ، وعلى ستر من يستحق الستر ، وعلى معونة من يحتاج إلى معونة .

٢٥- أن الجزاء من جنس العمل ، بل الجزاء أفضل ، لأنك إذا أعنت أخاك كان الله في عونك ، وإذا كان الله في عونك كان الجزاء أكبر من العمل .

(المعنى)

" وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلتَمِسُ فيهِ عِلمًا سَهَّلَ اللهُ لهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ "

" وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا " أي دخله بالمشي بالأقدام إلى مجالس العلم ، ويتناول أيضًا الطريق المعنوي : كالحفظ والمذاكرة والمطالعة والتفهم .

(يَلتَمِسُ فيهِ عِلمًا) : أي يطلب علمًا شرعيًا ، قاصدًا به وجه الله تعالى .

(سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ) : يعني سهل الله له هداية التوفيق بالطريق إلى الجنة ، والمراد بالعلم هنا علم الشريعة وما يسانده من علوم العربية والتاريخ وما أشبه ذلك ، أو بتيسير ذلك العلم الذي طلبه والعمل بمقتضاه أو علوم أخرى توصله إلى الجنة ، ويحتمل أن يراد به تسهيل طريق الجنة الحسي يوم القيامة وهو الصراط .

(الجَنَّة) : هي الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه المتقين ، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وأوصافها وأوصاف ما فيها من النعيم موجود في الكتاب والسنة بكثرة .

(المستفاد)

٢٦- فضل الاشتغال بطلب العلم الشرعي وأنه سبب لتوفيق العبد لطريق الجنة .

٢٧- فيه تربية لطالب العلم على سلوك الطرق الموصلة للعلم ، والسفر ، والغربة لأجله .

٢٨- الحث على سلوك الطرق الموصلة للعلم ، وذلك بالترغيب فيما ذكر من ثوابه .

٢٩- فضل الرحلة في طلب العلم .

٣٠- طلب العلم الشرعي يوصل للجنة ، لأن العلم النافع يورث العمل الصالح .

٣١- الإشارة إلى النية الخالصة ، لقوله : " يَلتَمِسُ فيهِ عِلمًا " أي يطلب العلم للعلم ، فإن كان طلبه رياءً وهو مما يبتغى به غير وجه الله عزّ وجل كان ذلك إثمًا عليه .

٣٢- إطلاق الطريق الموصل للعلم ، فيشمل الطريق الحسي الذي تطرقه الأقدام ، والطريق المعنوي الذي تدركه الأفهام .

٣٣- أن الجزاء من جنس العمل ، فكلما سلك الطريق يلتمس فيه العلم سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة .

٣٤- أنه ينبغي الإسراع في إدراك العلم وذلك بالجِدِ والاجتهاد ، لأن كل إنسان يحب أن يصل إلى الجنة على وجه السرعة .

٣٥- أن الأمور بيد الله عزّ وجل ، فبيده التسهيل ، وبيده ضده ، وإذا آمنت بهذا فلا تطلب التسهيل إلا من الله .

(المعنى)

" وَمَا اجتَمَعَ قَومٌ في بَيتٍ مِنْ بيوتِ اللهِ يَتلونَ كِتابَ اللهِ وَيتَدارَسونهَ بَينَهُم إلا نَزَلَت عَلَيهُم السَّكينَة وَغَشيَتهم الرَّحمَة وحَفَتهُمُ المَلائِكة وَذَكَرهُم اللهُ فيمَن عِندَهُ "

(في بَيتٍ مِنْ بيوتِ اللهِ) : بيوت الله هي المساجد ، فإن المساجد هي بيوت الله عزّ وجل ،كما قال الله تعالى :

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ* رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) (النور / ٣٦ – ٣٧) .

(يَتلونَ كِتَابَ الله) : أي يقرؤونه لفظًا ومعنى .

(وَيَتَدارَسونَهُ بَينَهُم) : أي يدرس بعضهم على بعض هذا القرآن ، ويحاولون فهم معانيه .

(إلا نَزَلَت عَلَيهُم السَّكينَة) : أي طمأنينة القلب ، وانشراح الصدر والوقار .

(وَغَشِيَتهم الرَّحمَة) : أي غطتهم ، شملتهم من كل جهة . والرحمة هنا يعني رحمة الله عزّ وجل .

(وَحَفَّتهُم المَلائِكة) : الملائكة : عالم غيبي خلقوا من نور ، عملهم عبادة الله .

أي أحاطت بهم إكرامًا لهم بحيث لا يدعون للشيطان فرجة يتوصل منها للذاكرين .

(وَذَكَرَهُم اللهُ فيمَن عِندَهُ) : باهى بهم ملائكة السماء و أثنى عليهم وقبل عملهم ورفع شأنهم . أي أن هؤلاء القوم الذين اجتمعوا في المسجد يتدارسون كلام الله عزّ وجل يذكرهم الله فيمن عنده ، وهذا كقوله تعالى في الحديث القدسي :

" من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم " .

(فيمَن عِندَهُ) : من الملائكة .

(المستفاد)

٣٦- الترغيب والحث على الاجتماع في المساجد لتلاوة القرآن وتدارسه .

٣٧- في الحديث الحث على الجليس الصالح الذي يجتمع معه لتدارس كتاب الله .

٣٨- فيه الحرص على تتبع حلق العلم ومجالس الذكر لما فيها من الخير العظيم ، فمن حضر مجلس علم أو حلقة ذكر ثم تركها فقد حرم نفسه .

٣٩- فيه أن المسجد ليس خاصًا بالصلاة ، بل تعقد فيه مجالس العلم وحلق الذكر وحفظ القرآن وتدارس العلم لقوله " في بَيتٍ مِنْ بيوتِ اللهِ " فينبغي للأئمة أن يجعلوا المساجد والجوامع مجالس علم وذكر .

٤٠- المنهج السليم لقراءة القرآن وحفظه هو تلاوته ومن ثم تدارسه ومعرفة معانيه ، ولذلك قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم " .

٤١- فضل مجالس الذكر وتدارس العلم حيث تنزل عليهم السكينة وتغشاهم الرحمة وتحفهم الملائكة ويذكرهم الله فيمن عنده .

٤٢- إضافة المساجد إلى الله .

٤٣- فضل المساجد ، وذلك لإضافتها إلى الله تشريفًا لها لأنها محل ذكره وعبادته وتلاوة كتابه .

٤٤- أن رحمة الله عزّ وجل تحيط بهؤلاء المجتمعين على كتاب الله ، لقوله : " وَغَشيتهم الرَّحمَةُ " .

٤٥- أن حصول هذا الثواب لا يكون إلا إذا اجتمعوا في بيت من بيوت الله ، لينالوا بذلك شرف المكان ، لأن أفضل البقاع المساجد .

٤٦- أن تلاوة القرآن ومدارسته مجلبة للطمأنينة وغشيان الرحمة .

٤٧- إثبات الملائكة ، والملائكة عالم غيبي ، كما سبق الكلام عليهم في شرح حديث جبريل عليه السلام .

٤٨- تسخير الملائكة لبني آدم ، لقوله : " حَفَّتهم المَلائِكة " .

٤٩- أن التلاوة والمدارسة للقرآن سبب لقرب الملائكة ولذكر الله للعبد .

٥٠- محبة الملائكة للذكر وتعلم العلم وطلابه .

٥١- إثبات وجود الملائكة ، وأن منهم السيَّارة الذين يتبعون مجالس الذكر ، كما جاء في الحديث الصحيح .

علم الله عزّ وجل بأعمال العباد ، لقوله : " وَذَكَرَهُمُ اللهُ فيمَن عِنده " جزاء لذكرهم ربهم عزّ وجل بتلاوة كتابه .

٥٢- أن تلاوة القرآن وتعلم العلم الشرعي ذكر لله لأن من جزائه في هذا الحديث ذكر الله للتالين والمتدارسين ، وقد قال سبحانه : (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) (البقرة / ١٥٢) وفي الحديث القدسي :

" فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ " (م / ٧٤٠٥) .

(المعنى)

" وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ "

(بَطَّأَ) : بمعنى أخَّر ، وقصَّر به عمله عن رتبة الصالحين ، لِفَقْد بعض شروط الصحة أو الكمال . والمعنى : من أخَّره العمل لم ينفعه النسب ، لقوله تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات / ١٣) بطأ به عمله : كان عمله ناقصًا دون درجة الكمال .

(لَمْ يُسْرِعْ بهِ نَسَبُهُ) : لا يعلي من شأنه شرف النسب عند الله ، لأن المسارعة إلى السعادة بالأعمال لا بالأحساب .

(المستفاد)

٥٣- أن الجزاء إنما رتبه الله على الأعمال لا على الأنساب .

٥٤- أن العمل الصالح هو مناط الشرف والسبق .

٥٥- أن علو النسب لا يحصل به تقدم لمن أخّره عمله .

٥٦- أن التفاضل عند الله بالتقوى والعمل الصالح لا بالأنساب والأحساب .

٥٧- التحذير من الاغترار والافتخار بشرف النسب وأن يهتم بعمله الصالح حتى ينال به الدرجات العلى .

٥٨- التفاضل بين أهل الإسلام بالنسب غير معتبر شرعًا أبدًا فلا يقدم ولا يؤخر عند الله ، ولهذا كان التفاخر بالنسب من أمور الجاهلية التي حرمها الله .

٥٩- أن الأنساب متفاضلة لكن فيما بين الناس لا عند الله .

٦٠- أن شرف النسب مع صلاح العمل قد يوجب تقديمًا في بعض أحكام الشرع لا في زيادة الثواب ، كالإمامة العظمى ، فالأولى بها قريش ، ومثل ما خّص به بنو هاشم من الأحكام كتحريم الصدقة عليهم .

٦١- أن النسب لا ينفع صاحبه إذا أخره عن صالح الأعمال لقوله : " مَن بطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ " يعني أخَّره " لَمَ يُسرِع بِهِ نَسَبُهُ " .

٦٢- أنه ينبغي للإنسان أن لا يغتر بنسبه .

٦٣- دل على أن من ذكر الله ذكره الله في الملأ الأعلى .

٦٤- جزاء الله أعظم من عمل العبد ، وهذا من فضله سبحانه فالعبد يعمل العمل الصغير فيتقبله الله ثم يجازيه الجزاء الأعظم .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : إذا رأيت إنسانًا يفعل معصية ، هل أقوم بتغيير المنكر على حسب استطاعتي ، أم أَسْتُر عليه ؟

ج : أما التي رآه عليها وهو لا يزال متلبس بها فتجب المبادرة بإنكارها ، ومنعه منها على من قدر على ذلك ، ولا يحل له التأخير ، فإن عجز لزمه رفع ذلك إلى ولي الأمر إذا لم تترتب على ذلك مفسدة .

س : هل الحث على الستر مطلقًا ؟ وهل المقصود بالستر المعاصي الحالية أم السابقة ؟

ج : الترغيب في ستر المسلم ؛ ستر عيوبه أو ذنوبه ما لم يكن في الستر مفسدة راجحة ، كالذي لم يكن معروفًا بالفساد ، أما المعروف الذي لا يبالي ما ارتكب منه ، ولا بما قيل له ، فلا يستر عليه ، بل ترفع قضيته إلى ولي الأمر إن لم يخف من ذلك مفسدة ، لأن الستر على ذلك يطغيه في الفساد وانتهاك الحرمات ، ويجعل غيره جريئًا على مثل فعله . وهذا كله إنما هو في معصية انقضت .

س : " وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا " هل المقصود بالطريق ، الذي يمشي عليه بالأقدام ، أم يسلك طريق المذاكرة والحفظ ؟

ج : " وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا " أي دخله بالمشي بالأقدام إلى مجالس العلم ، ويتناول أيضًا الطريق المعنوي : كالحفظ والمذاكرة والمطالعة والتفهم والمدارسة .

س : " وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ " كيف وقد جاء في الصحيحين أن العذاب يخفف عن عمِّه أبي طالب ، فعَنْ الْعَبَّاس بْن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أنه قَالَ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ ؟ قَالَ : " هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّار " (خ / ٣٨٨٣) ، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ فَقَالَ : " لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ " (خ / ٣٨٨٥ ، م / ٥٣٥) ، فهل يخفف عن أبي طالب – وهو كافر – بسبب نسبه ؟ وجاء في البخاري أنه يخفف عن أبي لهب كل يوم اثنين بسبب عتقه لثويبة جاريته لمَّا بشرته بولادة المصطفى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

ج : الكفار لا ينالون الشفاعة لأن من شرط الشفاعة التي تقتضي إخراج المُعذَّب من النار أن يكون مسلمًا ، فالكافر لا شفاعة له ، أما شفاعة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لأبي طالب فتلك شفاعة خاصة لا بإخراجه من النار وإنما بتخفيف العذاب عنه ومع ذلك فإن أبا طالب يعذب في النار ، ولا يظنُّ أن أحد من أهل النار أشد عذابًا منه ، فقد ثبت

في الحديث الصحيح أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ ، تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ ، يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ " خ / ٦٥٦١ ، فهذه شفاعة خاصة بأبي طالب تنفعه في تخفيف العذاب عنه ، أما الخروج ، فلا تنفع الكافرَ شفاعةُ الشافعين ، فالمراد بها شفاعة تخفيف لا إخراج وهي خاصة بأبي طالب فقط وإلا فالأصل في عموم الكفار والمشركين أنهم لا تنفعهم الشفاعة ولا يأذن لأحد أصلاً بالشفاعة فيهم كما قال تعالى : (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) (المدثر / ٤٨) . غاية ما يستفيده الكافر في الآخرة مما قدم من عمل في دنياه ، ولم يستوف أجره فيها . أن يخفف به عنه من عذابه يوم القيامة ، وهذا لا يعلم في حق معين إلا بنص ، كما وقع لأبي طالب عَمِّ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

قال الإمام النووي فيما نقله عن الإمام البيهقي ، قال : " وما ورد من الآيات والأخبار في بطلان خيرات الكافر إذا مات على الكفر ورد في أنه لا يكون لها موقع التخلص من النار وإدخال الجنة ، ولكن يخفف عنه من عذابه الذي يستوجبه على جنايات ارتكبها سوى الكفر بما فعل من الخيرات " .

هذا غاية ما يمكن أن يحصله كافر في الآخرة ، أما أن يثاب . لتطلب له المثوبة . فلا .

فَالْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ فِي الْآخِرَةِ . وَلِهَذَا نُهِيَ عَنْ الِاسْتِغْفَارِ لِعَمِّهِ وَأَبِيهِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ الْكُفَّارِ وَنُهِيَ عَنْ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُنَافِقِينَ وَقِيلَ لَهُ : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) وَلَكِنَّ الْكُفَّارَ يَتَفَاضَلُونَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَتَفَاضَلُ أَهْلُ الْإِيمَانِ فِي الْإِيمَانِ قَالَ تَعَالَى : (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ) .

فَإِذَا كَانَ فِي الْكُفَّارِ مَنْ خَفَّ كُفْرُهُ بِسَبَبِ نُصْرَتِهِ وَمَعُونَتِهِ فَإِنَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتُهُ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنْهُ لَا فِي إسْقَاطِ الْعَذَابِ بِالْكُلِّيَّةِ . إنَّ الله تعالى قد أخبر أن الكافرين لا تنفعهم شفاعة الشافعين، ونبينا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أخبر أن شفاعته لأهل التوحيد خاصة . فشفاعتُه لعمه أبي طالب خاصة به وخاصة لأبي طالب .

وكان النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حريصًا على هدايته قبل موته ، ويستغفر له بعد موته حتى نهي عن ذلك ، لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِأَبِي طَالِبٍ : " يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ " فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ : هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) (التوبة / ١١٣) .

أما ما ورد أنه يُخفف عن أبي لهب كل يوم اثنين بسبب عتقه لثويبة جاريته لمَّا بشرته بولادة المصطفى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فهذه القصة رواها البخاري في الصحيح في كتاب النكاح ونقلها الحافظ ابن حجر في الفتح ...

وهي وإن كانت مرسلة إلا أنها مقبولة لأجل نقل البخاري لها واعتماد العلماء من الحفاظ لذلك ولكونها في المناقب والخصائص لا في الحلال والحرام .

والجواب : قال العلامة الأنصاري – يرحمه الله – في " القول الفصل " (ص٨٤ – ٨٧) :

(إن هذا الخبر لا يجوز الاستدلال به لأمور :

أولًا : أنه مرسل كما يتبين من سياقه عند البخاري في باب (وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ) ، (وَيَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ) من صحيحه فقد قال :

حَدَّثَنَا الحَكَمُ بْنُ نَافِعٍ ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ ، عَنِ الزُّهْرِيِّ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ زَيْنَبَ ابْنَةَ أَبِي سَلَمَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ أَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ انْكِحْ أُخْتِي بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ فَقَالَ : " أَوَتُحِبِّينَ ذَلِكَ " فَقُلْتُ نَعَمْ لَسْتُ لَكَ بِمُخْلِيَةٍ وَأَحَبُّ مَنْ شَارَكَنِي فِي خَيْرٍ أُخْتِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ ذَلِكِ لا يَحِلُّ لِي " ، قُلْتُ : فَإِنَّا نُحَدَّثُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَنْكِحَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ ، قَالَ : " بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ ؟ " قُلْتُ نَعَمْ ، فَقَالَ : " لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حَجْرِي مَا حَلَّتْ لِي إِنَّهَا لَابْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ فَلا تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ ، وَلا أَخَوَاتِكُنَّ " قَالَ عُرْوَةُ : وَثُوَيْبَةُ مَوْلاَةٌ لأَبِي لَهَبٍ كَانَ أَبُو لَهَبٍ أَعْتَقَهَا فَأَرْضَعَتِ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَلَمَّا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ أُرِيَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ بِشَرِّ حِيبَةٍ قَالَ لَهُ مَاذَا لَقِيتَ قَالَ أَبُو لَهَبٍ لَمْ أَلْقَ بَعْدَكُمْ غَيْرَ أَنِّي سُقِيتُ فِي هَذِهِ بِعَتَاقَتِي ثُوَيْبَةَ . (خ / ٥١٠١) .

ولهذا قال الحافظ ابن حجر " فتح الباري " (٤٩/٩) : (إن الخبر – أي المتعلق بتلك القضية – مرسل أرسله عروة ولم يذكر من حدثه به ... الخ) .

وبهذا نعلم أنه لا يجوز الاستدلال بهذا الخبر لأنه مرسل ، والمرسل من قسم الضعيف لأننا لا نعلم صدق من أخبر عروة بذلك الخبر ؛ والبخاري – يرحمه الله – لم يشترط الصحة في كتابه إلا على الأحاديث المتصلة السند .

ثانيًا : أن ذلك الخبر لو كان موصولًا لا حجة فيه لأنه رؤيا منام ورؤيا المنام لا يثبت بها حكم شرعي ذكر ذلك أيضًا الحافظ ابن حجر .

والنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قد بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة ونصح الأمة ، وترك للناس شريعة واحدة لا تحتاج إلى تتميم برؤيا في المنام ، والرؤيا المنامية ليست طريقًا للتشريع ولا مستندًا لحكم شرعي أصلًا لأن النائم لا يضبط لغفلته بمنامه فكيف يعتمد على رؤياه ... الخ) .

ثالثًا : أن ما في مرسل عروة هذا من أن إعتاق أبي لهب ثويبة كان قبل إرضاعها النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يخالف ما عند أهل السير من أن إعتاق أبي لهب إياها كان بعد ذلك الإرضاع بدهر طويل كما ذكر الحافظ ابن حجر في " الفتح " (٤٨/٩) وأوضحه في " الإصابة في تمييز الصحابة " (٢٥٠/٤) والحافظ ابن عبدالبر في " الاستيعاب في أسماء الأصحاب " (١٢/١) والحافظ ابن الجوزي في " الوفا بأحوال المصطفى " (١٠٦/١) .

رابعًا : أن هذا الخبر مخالف لظاهر القرآن كما أوضحه الحافظ ابن حجر في " الفتح " حيث قال في كلامه عليه (٤٩/٩) : (وفي الحديث دلالة على أن الكافر قد ينفعه العمل الصالح في الآخرة ؛ لكنه مخالف لظاهر القرآن ، قال الله تعالى : (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) (الفرقان / ٢٣) ثم نقل عن حاشية ابن المنير أن ما في ذلك المرسل من اعتبار طاعة الكافر مع كفره محال لأن شرط الطاعة أن تقع بقصد صحيح وذلك مفقود مع الكافر .

فإعتاق أبي لهب لثويبة ما دام الأمر كذلك لم يكن قربة معتبرة ، فإن قيل : إن قصة إعتاق أبي لهب ثويبة مخصوصة من ذلك كقصة أبي طالب ، قلنا : إن تخفيف العذاب عن أبي طالب ثبت بنص صحيح عن النبي

– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وأما ما وقع لأبي لهب في ذلك المرسل فمستنده مجرد كلام لأبي لهب في المنام فشتان ما بين الأمرين) انتهى كلام الأنصاري بتصرف .

خامسًا : قال الشيخ أبو بكر الجزائري في " الإنصاف فيما قيل في المولد " (ص٦٠) : (إن الفرح الذي فرحه أبو لهب بمولود لأخيه فرح طبيعي لا تعبدي ، إذ كل إنسان يفرح بالمولود يولد له ، أو لأحد إخوانه أو أقاربه ، والفرح إن لم يكن لله لا يثاب عليه فاعله ، وهذا يضعف هذه الرواية ويبطلها) اهـ .

سادسًا : قال العلامة التويجري – يرحمه الله – في " الرد القوي " (ص٥٦) :

(لم يجيء في هذه الرواية مع ضعفها أنه يخفف عن أبي لهب العذاب كل إثنين ولا أن أبا لهب أعتق ثويبة من أجل بشارتها إياه بولادة المصطفى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فكل هذا من التقول على البخاري) انتهى كلام العلامة التويجري بتصرف .

سابعًا : وقال العلامة التويجري – يرحمه الله – أيضًا في المصدر السابق :

(لم يثبت من طريق صحيح أن أبا لهب فرح بولادة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، ولا أن ثويبة بشرته بولادته ، فكل هذا لم يثبت ، ومن ادَّعى ثبوت شيء من ذلك فعليه إقامة الدليل على ما ادَّعاه . ولن يجد إلى الدليل الصحيح سبيلًا) انتهى بتصرف .

الحديث السابع والثلاثون

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – عَنِ النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِيْمَا يَرْوِيْهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ : " إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ ؛ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا ، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا ، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيْرَةٍ . وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا ، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً " رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيْحَيهِمَا بِهَذِهِ الحُرُوْفِ (١) .

المعنى الإجمالي

هذا حديث عظيم فيه جملةٌ من الفوائد ؛ منها : أن الهَمّ بالحسنة مع الحرص على عملها يكتب حسنة وإنْ لم تُعْمَل ، وإذا عُمْلَت الحسنة فإنها تُضَاعف بعشر أمثالها إلى أضعافٍ كثيرة ، ومَنْ هَمَّ بالسيئةِ ثم تَرَكها لله كُتِبَتْ له حسنة ، ومن عملَ سيئةً كُتِبَتْ له سيئةً واحدة ، ومَنْ هَمَّ بالسيئةَ ثم تركها لم تُكْتَبْ شيئًا ، وكل ذلك يدل على سَعَة رحمة الله سبحانه وتعالى ؛ حيث تَفَضَّلَ عليهم بهذا الفضْل العظيم ، والخير الجزيل .

توضيح الحديث

(المعنى)

(فِيْمَا يَرْوِيْهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ... " إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ ")

(تَبَارَكَ) : تعاظم .   (وَتَعَالَى) : تنزه عما لا يليق بكماله .

(كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِئَاتِ) : الكتابة بمعنى التدوين والإحصاء ، والمراد قدر وأثبت في سابق علمه على وفق الواقع . أي كتب وقوعها وكتب ثوابها ، فهي واقعة بقضاء الله وقدره المكتوب في اللوح المحفوظ ، وهي أيضًا مكتوب ثوابها كما سيبين في الحديث . أما وقوعها : ففي اللوح المحفوظ ، وأما ثوابها : فبما دل عليه الشرع .

(ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِك) : أي فصله للكتبة من الملائكة .

---

(١) قلت هذه رواية مسلم ، أما رواية البخاري فهي كالتالي : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً " . (خ / ٦٤٩١) . ، ونلحظ أنها تختلف في الآتي :

١ – زيادة كلمة (له) في جملة (كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً) .

٢ – حرف الفاء في كلمة (فإن) بدلًا من الواو (وإن) ، وزيادة كلمة (هو) في جملة (فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا) .

٣ – زيادة كلمة (له) في جملة (كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ) .

٤ –كلمة (وَمَنْ) بدلًا من كلمة (وَإِنْ) في جملة (وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ) .

٥ – زيادة كلمة (له) في جملة (كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً) .

٦ – حرف الفاء في كلمة (فإن) بدلًا من الواو (وإن) ، وزيادة كلمة (هو) في جملة (فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا) .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٤٦)

١- فيه دليل لمذهب أهل السنة والجماعة على أن الله كتب الحسنات والسيئات على الإنسان وقدرها وشاءها ، لقوله " إن الله كتب الحسنات " .

٢- كتابة الله لأعمال العباد في أم الكتاب ، وهي كتابة القدر السابق .

٣- اثبات كتابة الحسنات والسيئات وقوعًا وثوابًا وعقابًا .

٤- أن الحسنات الواقعة والسيئات الواقعة قد فرِغ منها وكتبت واستقرت .

٥- اثبات أفعال الله عزّ وجل لقوله : " كَتَبَ " .

٦- عناية الله عزّ وجل بالخلق حيث كتب حسناتهم وسيئاتهم قدرًا وشرعًا .

٧- بيان فضل الله العظيم على هذه الأمة ، إذ لولا ما ذكر في الحديث لعظمت المصيبة ، لأن عمل العباد للسيئات أكثر .

٨- إثبات الملائكة الموكلين بحفظ عمل العبد وكتابته قال تعالى : (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) (المطففين / ١٠) وقال تعالى : (وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) (الزخرف / ٨٠) .

٩- أن الحفظة يكتبون أعمال القلوب ، خلافا لمن قال إنهم لا يكتبون إلا الأعمال الظاهرة .

١٠- إحصاء الحسنات والسيئات على الإنسان .

١١- إحصاء أعمال العباد .

١٢- الإيمان باللوح المحفوظ .

١٣- أن التفصيل بعد الإجمال من البلاغة ، يعني أن تأتي بقول مجمل ثم تفصله ، لأنه إذا أتى القول مجملًا تطلّعت النفس إلى بيان هذا المجمل ، فيأتي التفصيل والبيان واردًا على نفس مشرئبة مستعدة ، فيقع منها موقعًا يكون فيه ثبات الحكم .

(المعنى)

" فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً "

(كَتَبَهَا اللهُ) : للذي هَمَّ بها ، أي أمر الحفظة بكتابتها .

(حَسَنَةً كَامِلَةً) : لا نقص فيها ، وإن نشأت عن مجرد الهم .

(هَمَّ) : أراد وقصد .

(بحسنة) : بطاعة واجبة أو مستحبة .

والمهم هنا ليس مجرد حديث النفس ، لأن حديث النفس لا يكتب للإنسان ولا عليه ، ولكن المراد عزم على أن يفعل ولكن تكاسل ولم يفعل ، فيكتبها الله حسنة كاملة .

(وَإِن هَمَّ بِهَا فعمَلَهَا) : تكتب عشر حسنات – والحمد لله – ودليل هذا من القرآن قول الله تعالى :

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (الأنعام / ١٦٠) .

(عَشرَ حَسَنَاتٍ) : هذه العشر حسنات كتبها الله على نفسه ووعد بها وهو لا يخلف الميعاد .

(إلى سَبعمِائةِ ضِعف) : بكسر الضاد مثل وقيل مثلين . وهذا تحت مشيئة الله تعالى ، فإن شاء ضاعف إلى هذا ، وإن شاء لم يضاعف .

(إلى أَضعَافٍ كَثيرةٍ) : يعني أكثر من سبعمائة ضعف . بحسب الزيادة في الإخلاص وصدق العزم ، وحضور القلب ، وتعدي النفع .

(المستفاد)

١٤- رحمة الله بعباده المؤمنين واسعة ومغفرته شاملة وعطاؤه غير محدود .

١٥- سعة فضل الله وجوده .

١٦- فضل الله عزّ وجل ولطفه وإحسانه أن من هم بالحسنة ولم يعملها كتبها الله حسنة ، والمراد بالهم : العزم ، لا مجرد حديث النفس .

١٧- اعتبار النية في الأعمال وأثرها .

١٨- فيه حث على النية الصادقة في فعل الخيرات ، فمن همّ بحسنة كتبها الله ولو لم يعملها الشخص فيكون المسلم ما بين عمل صالح ونية صادقة .

١٩- فيه اطلاع الله على مجرد هم الإنسان ومن باب أولى أعماله ، فسبحان من لا تخفى عليه خافيه .

٢٠- يزيد في جانب الحياء عند المؤمن لأن الله مطلع على سريرته بل وعمله السيئات ، فمن استحضر هذا زاد حياؤه من الله سبحانه .

٢١- أن الهم بالحسنة يكتب حسنة كاملة .

٢٢- كتابة الله لأعمال العباد إذا همُّوا بها أو عملوها ، وذلك بملائكته .

٢٣- يربي في المؤمن جانب الرجاء وهو من أعمال القلوب ، لأنه يورث حسن الظن بالله ويقود للعمل .

٢٤- أن من هم بالحسنة فعلمها كتبها الله عنده عشر حسنات ، إلا أن يشاء الزيادة على ذلك .

٢٥- فعل الحسنة بعد الهم بها أفضل من مجرد الهم ، ففرق بين حسنة يكتبها الله حسنة واحدة وبين أن تضاعف إلى أضعاف كثيرة .

٢٦- إثبات العِنْدِيَّة لله عز وجل لقوله : "كتبها الله عنده حسنة "، وهي عندية مكان أو عهد وضمان .

٢٧- على المسلم أن ينوي فعل الخير دائمًا وأبدًا لعله يكتب له أجره وثوابه ، ويروض نفسه على فعله إذا تهيأت له الأسباب .

٢٨- الحث على العمل الصالح والمسارعة فيه .

٢٩- مضاعفة الحسنات ، وأن الأصل أن الحسنة بعشر أمثالها ، ولكن قد تزيد إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة .

٣٠- أن التضعف لا يتقيد بسبعمائة .

٣١- يدل على كمال غنى الله سبحانه وتعالى ، فإنه يجازي بالهم بالحسنة وبمضاعفة الحسنة ولا ينقص مما عنده شيئًا .

(المعنى)

" وَإِن هَمَّ بِسَيئةٍ فَلَم يَعمَلهَا كَتَبَهَا اللهُ عِندَهُ حَسَنةً كَامِلَةً "

(بسيئة) : معصية صغيرة أو كبيرة .

جاء في الحديث : " وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ " (م / ١٨٥) أي من أجلي ، فتكتب حسنة كاملة ، لأنه تركها لله .

واعلم أن الهم بالسيئة له أحوال :

الحال الأولى : أن يهم بالسيئة أي يعزم عليها بقلبه ، وليس مجرد حديث النفس ، ثم يراجع نفسه فيتركها لله عزّ وجل ، فهذا هو الذي يؤجر ، فتكتب له حسنة كاملة ، لأنه تركها لله ولم يعمل حتى يكتب عليه سيئة .

الحال الثانية : أن يهم بالسيئة ويعزم عليها لكن يعجز عنها بدون أن يسعى بأسبابها ، فهذا يكتب عليه سيئة ، لكن ليس كعامل السيئة ، بل يكتب وزر نيته ، كما جاء في الحديث بلفظه : " فَهوَ بِنيَّتِهِ فَهُمَا في الوِزرِ سواء "

الحال الثالثة : أن يهم بالسيئة ويسعى في الحصول عليها ولكن يعجز ، فهذا يكتب عليه وزر السيئة كاملاً .

الحال الرابعة : أن يهم الإنسان بالسيئة ثم يعزف عنها لا لله ولا للعجز ، فهذا لا له ولا عليه ، وهذا يقع كثيرًا ، يهم الإنسان بالسيئة ثم تطيب نفسه ويعزف عنها ، فهذا لا يثاب لأنه لم يتركها لله ، ولا يعاقب لأنه لم يفعل ما يوجب العقوبة .

وعلى هذا فيكون قوله في الحديث : " كَتَبَهَا عِندَهُ حَسَنةً كَامِلَةً " أي إذا تركها لله عزّ وجل .

(وَإِن هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيئةً وَاحِدةً) : سَيئةً وَاحِدةً : تفضلا منه سبحانه ، حيث لم يأخذ عبده بمجرد الهم في جانب السيئة ، ولم يضاعفها عليه بعد وقوعها ، ولهذا قال الله عزّ وجل :

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) (الأنعام / ٥٤) ، وقال الله تعالى في الحديث القدسي : " إِنَّ رَحْمَتِيْ سَبَقَتْ غَضَبِيْ "

وهذا ظاهر من الثواب على الأعمال ، والجزاء على الأعمال السيئة .

– قال النووي – يرحمه الله – :

فانظر يا أخي وفَّقنا الله وإياك إلى عظيم لطف الله تعالى ، وتأمل هذه الألفاظ :

قوله : " عِندَهُ " إشارة إلى الاعتناء بها .

وقوله : " كَامِلَةً " للتأكيد وشدة الاعتناء بها .

وقال في السيئة التي هم بها ثم تركها " كَتَبَهَا اللهُ عِندَهُ حَسَنةً كَامِلَةً " فأكدها بكاملة وإن عملها كتبها سيئة واحدة ، فأكد تقليلها بواحدة ، ولم يؤكدها بكاملة ، فلله الحمد والمنة ، سبحانه لا نحصي ثناءً عليه .

(المستفاد)

٣٢– لا يؤاخذ الله تعالى على حديث النفس والتفكير في المعصية إلا إذا صدَّق ذلك العمل و التنفيذ .

٣٣– لا تعارض بين أن الله كتب السيئات على الإنسان وبين أنه يعاقبه عليها ، لقوله " فعملها " فنسب العمل للإنسان نفسه مع إرادته واختياره وبيان الله له أعظم بيان لفضل الحسنات وما أعده الله لمن عمل حسنة ، فمن ترك بعد ذلك وذهب للسيئات باختياره فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه .

٣٤– أن الهم بالسيئة من غير عمل يكتب حسنة ، لكن الترك الذي يثاب عليه هو الترك مع القدرة لوجه الله عز وجل ، لما في بعض روايات هذا الحديث " ...... إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ " (م / ١٨٥) .

٣٥– أن السيئة تكتب بمثلها من غير مضاعفة ولا ينافي ذلك أنها تعظم بشرف الزمان والمكان ، أو قوة معرفة الفاعل لله وقربه منه .

٣٦– أن السيئة لا تضاعف لكن قد تعظم بأسباب .

٣٧– أن من هم بسيئة فتركها لا لله ولا عجزًا لم تكتب له حسنة ولا سيئة ، فإن تركها عجزًا كتبت عليه سيئة .

٣٨– يكتب الله الحسنات والسيئات التي يعملها الإنسان حتى تقام الحجة عليه من نفسه وتحقيقًا لكمال العدل فلا يظن من عمل السيئات ونسيها أنها غابت وفاتت ونسيت بل كتبها الله وحفظها إن لم يتدارك نفسه بتوبة .

٣٩– أن الجزاء دائر بين الفضل والعدل .

٤٠– أن جزاء السيئة دائر بين العدل والعفو ، لقوله في حديث أبي ذر :
" وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ " (م / ٧٠٠٩) ما عدا الشرك الأكبر ، قال سبحانه :
(إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء) (النساء / ١١٦) .

٤١– يربي في المسلم الخوف من الله لقوله : " فمن هم بسيئة فلم يعملها " أي خوفًا من الله ، والخوف من مقامات القلوب .

٤٢– فيه فضل الخوف من الله ومراقبته سبحانه ، فقد كتب لمن ترك السيئة خوفًا من الله ، كتبها له حسنة فهذا الذي يورثه الخوف من الله سبحانه ومطالعته ومراقبته .

٤٣– الإنسان مع بيان فضل الله قد يغلبه هواه ونفسه والشيطان فيقع في الذنب ، لكن من فضل الله ورحمته أنه يكتبها عليه سيئة واحدة ، فإن تاب تاب الله عليه .

٤٤– أن من هم بالسيئة ولم يعملها كتبها الله حسنة كاملة ، وقد مر التفصيل في ذلك أثناء الشرح ، فإن هم بها وعملها كتبها الله سيئة واحدة .

ولكن السيئات منها الكبائر والصغائر ، كما أن الحسنات منها واجبات وتطوعات ولكلٍ منهما الحكم والثواب المناسب .

٤٥– أسلوب الترغيب والترهيب من أفضل أساليب التربية .

٤٦– من فضّل السيئات وعملها بعد هذا الحديث فقد فرّط أعظم تفريط ، وقامت عليه الحجة .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : كيف يُثاب وهو لم يعمل ؟

ج : يثاب على العزم ومع النية الصادقة تكتب حسنة كاملة . واعلم أن من هم بالحسنة فلم يعملها على وجوه :

الوجه الأول : أن يسعى بأسبابها ولكن لم يدركها ، فهذا يكتب له الأجر كاملاً ، لقول الله تعالى :

(وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) (النساء / ١٠٠)

الوجه الثاني : أن يهم بالحسنة ويعزم عليها ولكن يتركها لحسنة أفضل منها ، فهذا يثاب ثواب الحسنة العليا التي هي أكمل ، ويثاب على هَمِّه الأول للحسنة الدنيا .

الوجه الثالث : أن يتركها تكاسلاً ، مثل أن ينوي أن يصلي ركعتي الضحى ، فقرع عليه الباب أحد أصحابه وقال له : هيا بنا نتمشى ، فترك الصلاة وذهب معه يتمشى ، فهذا يثاب على الهَمِّ الأول والعزم الأول ، ولكن لا يثاب على الفعل لأنه لم يفعله بدون عذر ، وبدون انتقال إلى ما هو أفضل .

س : قوله : " إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ " هل في هذا حجة للعاصي على أن يعصي الله ؟

ج : ليس في هذا حجة للعاصي على معاصي الله ، لأن الله تعالى أعطاه سمعًا وبصرًا وفهمًا وأرسل إليه الرسل ، وبَيَّن له الحق وهو لا يدري ماذا كُتِبَ له في الأصل ، فكيف يقحم نفسه في المعاصي ، ثم يقول : قد كتبت عليَّ ، لماذا لم يعمل بالطاعات ويقول : قد كتبت لي ؟ !! فليس في هذا حجة للعاصي على معصيته .

الحديث الثامن والثلاثون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ . وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِيْ بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ . ولا يَزَالُ عَبْدِيْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِيْ يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِيْ يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِيْ بِهَا . وَلَئِنْ سَأَلَنِيْ لأُعطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِيْ لأُعِيْذَنَّهُ " رواهُ البخاريُّ (١) .

المعنى الإجمالي

يتضمن هذا الحديث بعض المعاني مثل : حفظ الله لأوليائه الصالحين ، أداء الواجبات أفضل القُرَب وأنفعها للعبد ، الاستكثار من النوافل بعد الفرائض من وسائل نيل محبة الله ، من أحبه الله جعل جوارحه جميعًا في طاعته وصرفتها عن معصيته ، و أكرمه بتيسير أموره ، وقضاء حاجاته ، وإجابة دعائه ، ونصرته وإعانته .

---

(١) قلت : رواية البخاري (٦٥٠٢) . في الأصل كالتالي : " مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ " . ، ونلحظ الآتي :

١ –كلمة (افْتَرَضْتُ) بدون (هاء ضمير في آخرها) في جملة (أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ) .

٢ – كلمة (وَمَا) بدلًا من (ولا) في جملة (وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ) .

٣ – كلمة (وَإِنْ) بدلًا من (وَلَئِنْ) في جملة (وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ) .

٤ – بقية الحديث – ولعل الإمام النووي – يرحمه الله – اقتصر على بعضه ، وهي كالتالي :

" وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ " .

– وَمَا تَرَدَّدْتُ : سئل شيخ الإسلام ابن تيمية مَا مَعْنَى تَرَدُّدِ اللَّهِ ؟ فَأَجَابَ : هَذَا حَدِيثٌ شَرِيفٌ قَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَهُوَ أَشْرَفُ حَدِيثٍ رُوِيَ فِي صِفَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَقَدْ رَدَّ هَذَا الْكَلَامَ طَائِفَةٌ وَقَالُوا : إنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ بِالتَّرَدُّدِ وَإِنَّمَا يَتَرَدَّدُ مَنْ لَا يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعَوَاقِبِ . وَرُبَّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّ اللَّهَ يُعَامِلُ مُعَامَلَةَ الْمُتَرَدِّدِ . وَالتَّحْقِيقُ : أَنَّ كَلَامَ رَسُولِهِ حَقٌّ وَلَيْسَ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِاَللَّهِ مِنْ رَسُولِهِ وَلَا أَنْصَحَ لِلْأُمَّةِ مِنْهُ وَلَا أَفْصَحَ وَلَا أَحْسَنَ بَيَانًا مِنْهُ فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ الْمُتَحَذْلِقُ وَالْمُنْكِرُ عَلَيْهِ مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ ؛ وَأَجْهَلِهِمْ وَأَسْوَئِهِمْ أَدَبًا بَلْ يَجِبُ تَأْدِيبُهُ وَتَعْزِيرُهُ وَيَجِبُ أَنْ يُصَانَ كَلَامُ رَسُولِ الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْ الظُّنُونِ الْبَاطِلَةِ ؛ وَالِاعْتِقَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَلَكِنَّ الْمُتَرَدِّدَ مِنَّا وَإِنْ كَانَ تَرَدُّدُهُ فِي الْأَمْرِ لِأَجْلِ كَوْنِهِ مَا يَعْلَمُ عَاقِبَةَ الْأُمُورِ لَا يَكُونُ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ بِمَنْزِلَةِ مَا يُوصَفُ بِهِ الْوَاحِدُ مِنَّا فَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ ثُمَّ هَذَا بَاطِلٌ ؛ فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنَّا يَتَرَدَّدُ تَارَةً لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِالْعَوَاقِبِ وَتَارَةً لِمَا فِي الْفِعْلَيْنِ مِنْ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ فَيُرِيدُ الْفِعْلَ لِمَا فِيهِ مِنْ الْمَصْلَحَةِ وَيَكْرَهُهُ لِمَا فِيهِ مِنْ الْمَفْسَدَةِ لَا لِجَهْلِهِ مِنْهُ بِالشَّيْءِ الْوَاحِدِ الَّذِي يُحِبُّ مِنْ وَجْهٍ وَيَكْرَهُ مِنْ وَجْهٍ كَمَا قِيلَ : الشَّيْبُ كُرْهٌ وَكُرْهٌ أَنْ أُفَارِقَهُ فَاعْجَبْ لِشَيْءٍ عَلَى الْبَغْضَاءِ مَحْبُوبُ وَهَذَا مِثْلُ إرَادَةِ الْمَرِيضِ لِدَوَائِهِ الْكَرِيهِ بَلْ جَمِيعُ مَا يُرِيدُهُ الْعَبْدُ مِنْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَكْرَهُهَا النَّفْسُ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَفِي الصَّحِيحِ " حُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ " وَقَالَ تَعَالَى : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ) (البقرة / ٢١٦) الْآيَةَ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَظْهَرُ مَعْنَى التَّرَدُّدِ الْمَذْكُورِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ فَإِنَّهُ قَالَ : " لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ " . فَإِنَّ الْعَبْدَ الَّذِي هَذَا حَالُهُ صَارَ مَحْبُوبًا لِلْحَقِّ مُحِبًّا لَهُ يَتَقَرَّبُ إلَيْهِ أَوَّلًا بِالْفَرَائِضِ وَهُوَ يُحِبُّهَا ثُمَّ اجْتَهَدَ فِي النَّوَافِلِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيُحِبُّ فَاعِلَهَا فَأَتَى بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ مَحْبُوبِ الْحَقِّ ؛ فَأَحَبَّهُ الْحَقُّ لِفِعْلِ مَحْبُوبِهِ مِنْ الْجَانِبَيْنِ بِقَصْدِ اتِّفَاقِ الْإِرَادَةِ بِحَيْثُ يُحِبُّ مَا يُحِبُّهُ مَحْبُوبُهُ وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُهُ مَحْبُوبُهُ وَالرَّبُّ يَكْرَهُ أَنْ يَسُوءَ عَبْدَهُ وَمَحْبُوبَهُ فَلَزِمَ مِنْ هَذَا أَنْ يَكْرَهَ الْمَوْتَ لِيَزْدَادَ مِنْ محاب مَحْبُوبِهِ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ قَضَى بِالْمَوْتِ فَكُلُّ مَا قَضَى بِهِ فَهُوَ يُرِيدُهُ وَلَا بُدَّ مِنْهُ فَالرَّبُّ مُرِيدٌ لِمَوْتِهِ لِمَا سَبَقَ بِهِ قَضَاؤُهُ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَارِهٌ لِمُسَاءَةِ عَبْدِهِ ؛ وَهِيَ الْمُسَاءَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بِالْمَوْتِ فَصَارَ الْمَوْتُ مُرَادًا لِلْحَقِّ مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا لَهُ مِنْ وَجْهٍ وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّرَدُّدِ وَهُوَ :

=

= أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ مُرَادًا مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا مِنْ وَجْهٍ وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَرَجُّحِ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ كَمَا تَرَجَّحَ إرَادَةُ الْمَوْتِ ؛ لَكِنْ مَعَ وُجُودِ كَرَاهَةِ مُسَاءَةِ عَبْدِهِ وَلَيْسَ إرَادَتُهُ لِمَوْتِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ كَإِرَادَتِهِ لِمَوْتِ الْكَافِرِ الَّذِي يُبْغِضُهُ وَيُرِيدُ مُسَاءَتَهُ . ثُمَّ قَالَ بَعْدَ كَلَامٍ سَبَقَ ذِكْرُهُ : وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْغَضُ ذَلِكَ وَيَسْخَطُهُ وَيَكْرَهُهُ وَيَنْهَى عَنْهُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ وَشَاءَهُ بِإِرَادَتِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَإِنْ لَمْ يُرِدْهُ بِإِرَادَةٍ دِينِيَّةٍ هَذَا هُوَ فَصْلُ الْخِطَابِ فِيمَا تَنَازَعَ فِيهِ النَّاسُ : مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هَلْ يَأْمُرُ بِمَا لَا يُرِيدُهُ . فَالْمَشْهُورُ عِنْدَ مُتَكَلِّمَةِ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ يَأْمُرُ بِمَا لَا يُرِيدُهُ وَقَالَتْ الْقَدَرِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَغَيْرُهُمْ : إنَّهُ لَا يَأْمُرُ إلَّا بِمَا يُرِيدُهُ . وَالتَّحْقِيقُ : أَنَّ الْإِرَادَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ نَوْعَانِ : إرَادَةٌ دِينِيَّةٌ شَرْعِيَّةٌ وَإِرَادَةٌ كَوْنِيَّةٌ قَدَرِيَّةٌ :
فَالْأَوَّلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) (البقرة / ١٨٥) وقَوْله تَعَالَى :
(وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ) (المائدة / ٦) ، وقَوْله تَعَالَى : (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ) (النساء / ٢٦) إلَى قَوْلِهِ :
(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) (النساء / ٢٧) فَإِنَّ الْإِرَادَةَ هُنَا بِمَعْنَى الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَى وَهِيَ الْإِرَادَةُ الدِّينِيَّةُ . وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ :
(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات / ٥٦) .
وَأَمَّا الْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ الْقَدَرِيَّةُ فَمِثْلُ قَوْله تَعَالَى : (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) (الأنعام / ١٢٥) وَمِثْلُ قَوْلِ الْمُسْلِمِينَ : مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ . فَجَمِيعُ الْكَائِنَاتِ دَاخِلَةٌ فِي هَذِهِ الْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ لَا يَخْرُجُ عَنْهَا خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ وَلَا عُرْفٌ وَلَا نُكْرٌ وَهَذِهِ الْإِرَادَةُ وَالْمَشِيئَةُ تَتَنَاوَلُ مَا لَا يَتَنَاوَلُهُ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ وَأَمَّا الْإِرَادَةُ الدِّينِيَّةُ فَهِيَ مُطَابِقَةٌ لِلْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ لَا يَخْتَلِفَانِ وَهَذَا التَّقْسِيمُ الْوَارِدُ فِي اسْمِ الْإِرَادَةِ يَرِدُ مِثْلُهُ فِي اسْمِ الْأَمْرِ وَالْكَلِمَاتِ ؛ وَالْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ وَالْكِتَابِ وَالْبَعْثِ وَالْإِرْسَالِ وَنَحْوِهِ ؛ فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ يَنْقَسِمُ إلَى كَوْنِيٍّ قَدَرِيٍّ وَإِلَى دِينِيٍّ شَرْعِيٍّ .
وَالْكَلِمَاتُ الْكَوْنِيَّةُ هِيَ : الَّتِي لَا يَخْرُجُ عَنْهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ وَهِيَ الَّتِي اسْتَعَانَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ :
" أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ " قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) (يس / ٨٢) .
وَأَمَّا الدِّينِيَّةُ فَهِيَ : الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " وَقَالَ تَعَالَى :
(وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ) (التحريم / ١٢) . وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ الدِّينِيُّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) (النساء / ٥٨)
وَالْكَوْنِيَّةُ : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا) (يس / ٨٢) . وَالْبَعْثُ الدِّينِيُّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ) (الجمعة / ٢)
وَالْبَعْثُ الْكَوْنِيُّ : (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا) (الإسراء / ٥) وَالْإِرْسَالُ الدِّينِيُّ كَقَوْلِهِ : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ) (التوبة / ٣٣)
وَالْكَوْنِيُّ : (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) (مريم / ٨٣) . وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . فَمَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ مِنْ الْمُنْكَرَاتِ هِيَ مُرَادَةٌ لِلَّهِ إرَادَةً كَوْنِيَّةً دَاخِلَةً فِي كَلِمَاتِهِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يُرِدْهَا إرَادَةً دِينِيَّةً وَلَا هِيَ مُوَافِقَةٌ لِكَلِمَاتِهِ الدِّينِيَّةِ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ فَصَارَتْ لَهُ مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهَةً . وَلَكِنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ بِمَنْزِلَةِ قَبْضِ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَكْرَهُهُ ؛ وَالْكَرَاهَةُ مُسَاءَةُ الْمُؤْمِنِ وَهُوَ يُرِيدُهُ لِمَا سَبَقَ فِي قَضَائِهِ لَهُ بِالْمَوْتِ فَلَا بُدَّ مِنْهُ وَإِرَادَتُهُ لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ لَهُ وَرَحْمَةٌ بِهِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : " أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْضِي لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ " . وَأَمَّا الْمُنْكَرَاتُ فَإِنَّهُ يُبْغِضُهَا وَيَكْرَهُهَا ؛ فَلَيْسَ لَهَا عَاقِبَةٌ مَحْمُودَةٌ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ إلَّا أَنْ يَتُوبُوا مِنْهَا فَيُرْحَمُوا بِالتَّوْبَةِ وَإِنْ كَانَتْ التَّوْبَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَسْبُوقَةً بِمَعْصِيَةِ ؛ وَلِهَذَا يُجَابُ عَنْ قَضَاءِ الْمَعَاصِي عَلَى الْمُؤْمِنِ بِجَوَابَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَمْ يَتَنَاوَلْهَا وَإِنَّمَا تَنَاوَلَ الْمَصَائِبَ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ إذَا تَابَ مِنْهَا كَانَ مَا تَعْقُبُهُ التَّوْبَةُ (خَيْرًا) فَإِنَّ التَّوْبَةَ حَسَنَةٌ وَهِيَ مِنْ أَحَبِّ الْحَسَنَاتِ إلَى اللَّهِ وَاَللَّهُ يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ إذَا تَابَ إلَيْهِ أَشَدَّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ الْفَرَحِ وَأَمَّا الْمَعَاصِي الَّتِي لَا يُتَابُ مِنْهَا فَهِيَ شَرٌّ . عَلَى صَاحِبِهَا وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ وَقَضَاهُ ؛ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ الْحِكْمَةِ كَمَا قَالَ : (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) (النمل / ٨٨) وَقَالَ تَعَالَى : (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) (السجدة / ٧) فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ إلَّا وَلِلَّهِ فِيهِ حِكْمَةٌ .
وَلَكِنَّ هَذَا بَحْرٌ وَاسِعٌ قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي مَوَاضِعَ وَالْمَقْصُودُ هُنَا : التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الشَّيْءَ . الْمُعَيَّنَ يَكُونُ مَحْبُوبًا مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا مِنْ وَجْهٍ وَأَنَّ هَذَا حَقِيقَةُ التَّرَدُّدِ وَكَمَا أَنَّ هَذَا فِي الْأَفْعَالِ فَهُوَ فِي الْأَشْخَاصِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . مجموع فتاوى ابن تيمية (٤ / ٩٥) .
– وَأَنَا أَكْرَهُ : فيه إثبات صفة الكره ، فمن صفات الأفعال صفة الكُرْه ، فالله سبحانه وتعالى يبغض ويكره ، يكره أشخاصًا ويكره أعمالًا ، فنحن نؤمن بذلك كما وصف نفسه بذلك في كتابه العزيز ، فهذه الصفة تتعلق ببعض الذوات وبعض الأفعال ، فبعض الذوات مكروهة لدى الله سبحانه وتعالى كأهل النار ، فإنه كرههم ومقتهم ، وكذلك بعض الأفعال مكروهة عند الله تعالى .
والكراهة ثابتة بالكتاب والسنة ، فالله تعالى يكره كما قال الله تعالى : (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) (الإسراء / ٣٨) ، وفي القراءة السبعية الأخرى : (كل ذلك كان سيئةً عند ربك مكروهًا) ، (وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ) فهذا الذي يكرهه الله عز وجل من الأعمال هو ما لا يرتضيه لعباده ، وهذا يشمل المحرمات التي حرمها عليهم ، والمكروهات التي نهاهم عنها نهيًا دون تحريم ، ولذلك صح عن الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنه قال : " إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ وَوَأْدَ الْبَنَاتِ وَمَنَعَ وَهَاتِ وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ " (خ / ٢٤٠٨ ، م / ٥٩٣) . فالمحرم والمكروه كلاهما مكروه بهذا المعنى ، وكلاهما متعلق بهذه الصفة التي هي صفة الكراهة . =

= – قال النووي : قَالَ الْعُلَمَاء : الرِّضَى وَالسُّخْط وَالْكَرَاهَة مِنْ اللَّه تَعَالَى الْمُرَاد بِهَا أَمْره وَنَهْيه ، وَثَوَابه وَعِقَابه ، أَوْ إِرَادَته الثَّوَاب لِبَعْضِ الْعِبَاد ، وَالْعِقَاب لِبَعْضِهِمْ . **(تنبيه مهم) (هذا تأويل لصفات الرِّضَى وَالسُّخْط وَالْكَرَاهَة) والصواب :**

اصطلح العلماء رحمهم الله أن يسموا هذه الصفات الصفات الفعلية ، لأنها من فعله سبحانه وتعالى .

وليس في إثباتها لله تعالى نقص بوجه من الوجوه بل هذا من كماله أن يكون فاعلاً لما يريد .

وأولئك القوم المحرفون يقولون : إثباتها من النقص ! ولهذا ينكرون جميع الصفات الفعلية ، يقولون : لا يجيء ولا يرضى ، ولا يسخط ولا يكره ولا يحب ، فينكرون كل هذه ، بدعوى أن هذه حادثة والحادث لا يقوم إلا بحادث وهذا باطل ، لأنه في مقابلة النص ، وهو باطل بنفسه ، فإنه لا يلزم من حدوث الفعل حدوث الفاعل .

– جاء في العقيدة الطحاوية (وَاللَّهُ يَغْضَبُ وَيَرْضَى ، لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى) وَمَذْهَبُ السَّلَفِ وَسَائِرُ الْأَئِمَّةِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْغَضَبِ ، وَالرِّضَى ، وَالْعَدَاوَةِ ، وَالْوِلَايَةِ ، وَالْحُبِّ ، وَالْبُغْضِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ ، الَّتِي وَرَدَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ ، وَمَنْعُ التَّأْوِيلِ الَّذِي يَصْرِفُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا اللَّائِقَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى . كَمَا يَقُولُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَسَائِرِ الصِّفَاتِ ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ فِيمَا تَقَدَّمَ بِقَوْلِهِ : " إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَةِ وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنًى يُضَافُ إِلَى الربوبية – بترك التَّأْوِيلِ ، وَلُزُومَ التَّسْلِيمِ ، وَعَلَيْهِ دِينُ الْمُسْلِمِينَ " .

وَانْظُرْ إِلَى جَوَابِ الْإِمَامِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صفة (الاستواء) : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ . وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – مَوْقُوفًا عَلَيْهَا ، وَمَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِيمَا تَقَدَّمَ : " مَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ " . وَيَأْتِي فِي كَلَامِهِ " أَنَّ الْإِسْلَامَ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ ، وَبَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ " .

فَقَوْلُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ : " لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى " – نَفْيُ التَّشْبِيهِ . وَلَا يُقَالُ : إِنَّ الرِّضَى إِرَادَةُ الْإِحْسَانِ ، وَالْغَضَبَ إِرَادَةُ الِانْتِقَامِ – فَإِنَّ هَذَا نَفْيٌ لِلصِّفَةِ . وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَإِنْ كَانَ لَا يُرِيدُهُ وَلَا يَشَاؤُهُ ، وَيَنْهَى عَمَّا يَسْخَطُهُ وَيَكْرَهُهُ ، وَيُبْغِضُهُ وَيَغْضَبُ عَلَى فَاعِلِهِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ شَاءَهُ وَأَرَادَهُ . فَقَدْ يُحِبُّ عِنْدَهُمْ وَيَرْضَى مَا لَا يُرِيدُهُ ، وَيَكْرَهُ وَيَسْخَطُ وَيَغْضَبُ لِمَا أَرَادَهُ .

وَقَدْ نَفَى الْجَهْمُ وَمَنْ وَافَقَهُ كُلَّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ ، مِنْ كَلَامِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَحُبِّهِ وَبُغْضِهِ وَأَسَفِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَقَالُوا : إِنَّمَا هِيَ أُمُورٌ مَخْلُوقَةٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ ، لَيْسَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُتَّصِفًا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ !!

وَعَارَضَ هَؤُلَاءِ مِنَ الصِّفَاتِيَّةِ ابْنُ كُلَّابٍ وَمَنْ وَافَقَهُ ، فَقَالُوا : لَا يُوصَفُ اللَّهُ بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلا ، و جَمِيعُ هَذِهِ الْأُمُورِ صِفَاتٌ لَازِمَةٌ لِذَاتِهِ ، قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ ، فَلَا يَرْضَى فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ ، وَلَا يَغْضَبُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ . كَمَا قَالَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ : " إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ " . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – ، عَنِ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" إن الله تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ . فيقولون : لبيك وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ . فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ! فَيَقُولُ : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُونَ : يَا رَبُّ ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا " (خ / ٦٥٤٩ ، م / ٢٨٢٩) ، فَيُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّهُ يُحِلُّ رِضْوَانَهُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ ، وَأَنَّهُ قَدْ يُحِلُّ رِضْوَانَهُ ثُمَّ يَسْخَطُ ، كَمَا يُحِلُّ السَّخَطَ ثُمَّ يَرْضَى ، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ أَحَلَّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانًا لَا يَتَعَقَّبُهُ سَخَطٌ .

وَهُمْ قَالُوا : لَا يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ ، وَلَا يَضْحَكُ إِذَا شَاءَ ، وَلَا يَغْضَبُ إِذَا شَاءَ ، وَلَا يَرْضَى إِذَا شَاءَ ، بَلْ إِمَّا أَنْ يَجْعَلُوا الرِّضَى وَالْغَضَبَ وَالْحُبَّ وَالْبُغْضَ هُوَ الْإِرَادَةُ ، أَوْ يَجْعَلُوهَا صِفَاتٍ أُخْرَى ، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَلَا يَتَعَلَّقُ شَيْءٌ مِنْ ذلك لَا بِمَشِيئَتِهِ وَلَا بِقُدْرَتِهِ ، إِذْ لَوْ تَعَلَّقَتْ بِذَلِكَ لَكَانَ مَحَلًّا لِلْحَوَادِثِ !! فَنَفَى هَؤُلَاءِ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةَ الذَّاتِيَّةَ بِهَذَا الْأَصْلِ ، كَمَا نَفَى أُولَئِكَ الصِّفَاتِ مُطْلَقًا بِقَوْلِهِمْ لَيْسَ مَحَلًّا لِلْأَعْرَاضِ . وَقَدْ يُقَالُ : بَلْ هِيَ أَفْعَالٌ ، وَلَا تُسَمَّى حَوَادِثُ ، كَمَا سُمِّيَتْ تِلْكَ صِفَاتٍ ، وَلَمْ تُسَمَّ أَعْرَاضًا .

ويتعلق بهذه الصفة ، صفة (المقت) : وهذه صفة فعلية أخرى موافقة في متعلقها للصفة السابقة ، فالمقت – نسأل الله السلامة والعافية – أشد من الكره ، والله سبحانه وتعالى يمقت بعض الذوات ويمقت بعض الأفعال ، فبعض الأفعال مقيتة عنده – أي : مكروهة عنده – وبعض الذوات كذلك مقيتة عنده ، ولذلك عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ : " أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا ، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... " (م / ٢٨٦٥) أي : مقت أهل الأرض جميعًا إلا بقايا من أهل الكتاب حافظوا على ديانتهم ، وبقوا في الأديرة والمتعبدات منقطعين عن الناس .

– ونلاحظ أن الصفتين السابقتين وهما (يكره ويمقت) ليستا من الصفات المتقابلة كما ذكرنا ، فبينهما توافق لا تقابل ، بخلاف : يخفض يرفع ، يعز ويذل ، فهذا فيه تقابل .

توضيح الحديث

(المعنى)

" إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ "

(مَنْ عَادَى) : من المعاداة ضد الموالاة ، أي اتخذه عدوًا له ، أو آذى وأغضب .

(وَلِيًّا) : وهو العالم به ، المواظب على طاعته ، المخلص في عبادته . ووليُّ الله عزّ وجل بيّنه الله عزّ وجل في القرآن ، فقال : (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (يونس / ٦٢ – ٦٣) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله – من كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًّا أخذه من قوله تعالى :

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (يونس / ٦٢ – ٦٣) .

(آذَنْتُهُ بالحَرْبِ) : أعلمته بأني محارب له . أي أعلنت عليه الحرب ، وذلك لمعاداته أولياء الله .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٨٣)

١– أن الله سبحانه وتعالى قدم الإعذار إلى كل من عادى وليًا أنه قد آذنه بأنه محاربه بنفس المعاداة . ولا يدخل في ذلك ما تقتضيه الأحوال في بعض المرات من النزاع بين وليين لله تعالى في محاكمة أو خصومة راجعة لاستخراج حق غامض ، فإن هذا قد وقع بين كثير من أولياء الله عز وجل .

٢– عظم قدر الولي إذا خرج من تدبير نفسه إلى تدبير ربه ومن انتصاره لنفسه إلى انتصار الله له .

٣– فضيلة أن يكون الإنسان وليًا من أولياء الله .

٤– وجوب موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه .

٥– تحريم معاداة أولياء الله .

٦– أن معاداة أولياء الله من كبائر الذنوب ، لقوله : " فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ " .

٧– التحذير من معاداة أولياء الله .

٨– أن موالاة أولياء الله تتضمن التواضع لهم .

٩– غيرة الله لأوليائه وكرامتهم عنده .

١٠– أن عداوة ولي من أولياء الله سبب لعداوة الله وحربه ، والمعاداة : البغض وإرادة إلحاق الأذى والضرر والسعي في ذلك ، فإن كان لدين ولي الله فهو كفر ، وإن كان لغير ذلك وكان بغير حق فهو كبيرة ، وإن كان بحق فمكروه ، كالعداوة الناشئة عن خصومة .

١١– أن الولاية تحصل بتحقيق العبادة ، وذلك بالتقرب إلى الله بمحابه .

١٢– فيه الحث على أن يكون الشخص من أولياء الله حتى يحصل له هذا الفضل .

١٣– يدل على منزلة الإنسان المؤمن الصادق عند ربه ، وأنها منزلة عالية حيث ينتقم الله له إن أوذي .

١٤– الولاية لله تختلف على حسب زيادة الإيمان والتقوى في القلب ، لأنها مأخوذة من الولي بسكون اللام وهو القرب ، ولا شك أن القرب إلى الله يختلف باختلاف الطاعات ، فعلى هذا كلما كان الشخص أكثر إيمانًا وأشد صدقًا وأعلى إخلاصًا كلما ارتفعت درجة ولايته .

١٥– فيه محبة الله لأوليائه حيث ينتصر لهم إذا مسوا بسوء .

١٦– يدل على عظيم غضب الله وشدته لكمال قوته سبحانه .

١٧– دل على أن تقصد إيذاء المؤمنين معصية من المعاصي وكبيرة من كبائر الذنوب لأن الله رتب عليها الحرب .

١٨– الحديث يبعث الطمأنينة والراحة للمؤمن لأن الله تكفل بالانتقام له ، والمطلوب منه فقط رعاية إيمانه وزيادته حتى ترتفع درجة ولايته فيكون المؤمن إذا ابتلي مشغولاً بالحفاظ على إيمانه وزيادته غير ناظر إلى عدوه لأن الله تكفل فيه .

١٩– إثبات أولياء الله عزّ وجل ، ولا يمكن إنكار هذا لأنه ثابت في القرآن والسنة .

واعلم أن ولاية الله عزّ وجل نوعان : عامة وخاصة .

فالعامة : ولايته على الخلق كلهم تدبيرًا وقيامًا بشؤونهم ، وهذا عام لكل أحد ، للمؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، ومنه قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) (الأنعام / ٦٢ – ٦٣) .

وولاية خاصة : وهي ولاية الله عزّ وجل للمتقين ، قال الله عزّ وجل :

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (البقرة / ٢٥٧) فهذه ولاية خاصة وقال الله عزّ وجل :

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (يونس ٦٢ / ٦٣) .

٢٠– الوعد بنصر الله لوليه .

٢١– إعلان الله الحرب على من يعادي وليًا من أوليائه ومن حاربه الله أدركه وأهلكه .

٢٢– فيه الوعيد الشديد لمن آذى عبدًا من عباد الله الصادقين حيث توعده الله بقوله : " فقد آذنته بالحرب " .

٢٣– إثبات الحرابة لله عزّ وجل ، لقوله : " آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ " .

(المعنى)

" وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِيْ بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ وَلا يَزَالُ عَبْدِيْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ "

(وَلا يَزَالُ) : هذا من أفعال الاستمرار ، أي أنه يستمر يتقرب إلى الله تعالى بالنوافل حتى يحبه الله عزّ وجل .

(عَبْدِيْ) : هذه الإضافة للتشريف .

(يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ) : يطلب القرب مني .

(بِالنَّوَافِلِ) : التطوعات التي تكون زائدة على الفرائض من جميع أصناف العبادات .

(حَتَّى) : هذه للغاية ، فيكون من أحباب الله .

(أُحِبَّهُ) : ظَاهِرُهُ أَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ تَقَعُ بِمُلَازَمَةِ الْعَبْدِ التَّقَرُّبَ بِالنَّوَافِلِ ، وَقَدْ اُسْتُشْكِلَ بِمَا تَقَدَّمَ أَوَّلًا أَنَّ الْفَرَائِضَ أَحَبُّ الْعِبَادَاتِ الْمُتَقَرَّبِ بِهَا إِلَى اللهِ فَكَيْفَ لَا تُنْتِجُ الْمَحَبَّةَ ؟ وَالْجَوَابُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ النَّوَافِلِ مَا كَانَتْ حَاوِيَةً لِلْفَرَائِضِ مُشْتَمِلَةً عَلَيْهَا وَمُكَمِّلَةً لَهَا ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ فِي رِوَايَةِ أَبِي أُمَامَةَ " اِبْن آدَم . إِنَّك لَنْ تُدْرِكَ مَا عِنْدِي إِلَّا بِأَدَاءِ مَا اِفْتَرَضْت عَلَيْك " وَقَالَ الْفَاكِهَانِيُّ : مَعْنَى الْحَدِيث أَنَّهُ إِذَا أَدَّى الْفَرَائِض وَدَامَ عَلَى إِتْيَان النَّوَافِل مِنْ صَلَاة وَصِيَام وَغَيْرهمَا أَفْضَى بِهِ ذَلِكَ إِلَى مَحَبَّة اللهِ تَعَالَى . وَقَالَ اِبْن هُبَيْرَة : يُؤْخَذ مِنْ قَوْله " مَا تَقَرَّب إِلَخْ " أَنَّ النَّافِلَة لَا تُقَدَّمُ عَلَى الْفَرِيضَة ، لِأَنَّ النَّافِلَة إِنَّمَا سُمِّيَتْ نَافِلَةً لِأَنَّهَا تَأْتِي زَائِدَةً عَلَى الْفَرِيضَةِ ، فَمَا لَمْ تُؤَدَّ الْفَرِيضَةُ لَا تَحْصُلُ النَّافِلَةُ ، وَمَنْ أَدَّى الْفَرْضَ ثُمَّ زَادَ عَلَيْهِ النَّفْل وَأَدَامَ ذَلِكَ تَحَقَّقَتْ مِنْهُ إِرَادَةُ التَّقَرُّبِ اِنْتَهَى . وَأَيْضًا فَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ التَّقَرُّبَ يَكُون غَالِبًا بِغَيْرِ مَا وَجَبَ عَلَى الْمُتَقَرِّب كَالْهَدِيَّةِ وَالتُّحْفَة بِخِلَافِ مَنْ يُؤَدِّي مَا عَلَيْهِ مِنْ خَرَاجٍ أَوْ يَقْضِي مَا عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ . وَأَيْضًا فَإِنَّ مِنْ جُمْلَة مَا شُرِعَتْ لَهُ النَّوَافِل جَبْر الْفَرَائِض كَمَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِم " اُنْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَتَكْمُلُ بِهِ فَرِيضَتُهُ " الْحَدِيث بِمَعْنَاهُ فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ التَّقَرُّب بِالنَّوَافِلِ أَنْ تَقَع مِمَّنْ أَدَّى الْفَرَائِضَ لَا مَنْ أَخَلَّ بِهَا .

(*) أُحِبَّهُ : فيه إثبات صفة المحبة لله وأنه يُحِب ، ويُحَب : والمحبة من صفات الله تعالى الثابتة له بالكتاب والسنة وإجماع السلف ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، وهي محبة حقيقية تليق بالله تعالى ، قال تعالى :
(فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (المائدة / ٥٤) ، وأما تفسيرها بالثواب أو بالرضا ونحو ذلك ، فهذا تعطيل ؛ لأنه خلاف ظاهر النصوص ، وخلاف طريقة السلف ، وليس عليه دليل . تقدَّم الكلام عنها في الحديث الأول .

(المستفاد)

٢٤– العبودية لله هي حقيقة الولاية ولهذا كرر كلمة " عبدي " مرتين .

٢٥– أن أداء الفرائض هو أحب الأعمال إلى الله تعالى ،وذلك لما فيها من إظهار عظمة الربوبية ، وذل العبودية .

٢٦– أن النافلة إنما تقبل إذا أديت الفريضة ، لأنها لا تسمى نافلة إلا إذا قضيت الفريضة .

٢٧– أن أولياء الله تعالى هم الذين يتقربون إليه بما يقربهم منه ، فظهر بذلك بطلان دعوى أن هناك طريقًا إلى الولاية غير التقرب إلى الله تعالى بطاعاته التي شرعها .

٢٨– من واظب على السنن وابتعد عن المعاصي وصل إلى محبة الله عز وجل .

٢٩– أن الأعمال الصالحة كلها محبوبة لله ، وبعضها أحب إليه من بعض ، وأحبها الفرائض .

٣٠– أن العبادات منها الفرض ومنها النفل .

٣١– أن أولياء الله صنفان :

الأول : مقتصرون على فعل الفرائض وترك المحارم وهم المقتصدون وأصحاب اليمين ، ويدل عليه قوله :

" وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِيْ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ " .

الثاني : المتقربون بالنوافل بعد الفرائض، وهم المقرَّبون والمسارعون في الخيرات ، ويدل عليه قوله :

" وَلا يَزَالُ عَبْدِيْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ".

٣٢- أن إكثار العبد من النوافل ومداومته عليها سبب لمحبة الله تعالى له محبة خاصة ، ففيه :

٣٣- الحث على كثرة النوافل .

٣٤- أن العبد فقير إلى الله لا يستغني عن عطاء ربه ، مهما بلغ في الولاية ، ولهذا مدح الله أنبياءه بدعائهم إياه ، فقال تعالى : (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) (الأنبياء / ٩٠) .

٣٥- أن أثر هذه المحبة تسديد الله للعبد وحفظ جوارحه عن المحارم والفضول ، فلا يتصرف العبد بجوارحه إلا على وفق الشرع ، وهذا معنى قوله : " كنت سمعه وبصره ويده ورجله " . ومعنى ذلك أنه سبحانه المصرف لها بموجَب أمره الشرعي وأمره الكوني ، كما قال في الحديث " أنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره " .

٣٦- أن من آثار هذه المحبة الخاصة إجابة دعائه وإعطاءه سؤله وإعاذته مما استعاذ منه .

٣٧- إثبات المحبة لله ، محبة تليق بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، لقوله :
" وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِيْ بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْته عَلَيْهِ " .

٣٨- تفاضل أولياء الله في حظهم من هذه المحبة .

٣٩- أن الأعمال الصالحة سبب لمحبة الله لعبده .

٤٠- دل الحديث على أن الفرائض أعلى من النوافل جميعًا لقوله :
" وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِيْ بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ " .

٤١- قوله : " وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِيْ بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَلا يَزَالُ عَبْدِيْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ " فيه تفسير لمعنى الولي ، وأن من أدى الفرائض ثم أتبعها بالنوافل حصل على ولاية الله وكلما كان حرصه على ذلك أكمل كلما كانت درجة ولايته أعلى إلى أن يصل إلى درجة الحديث وهي الإحسان .

٤٢- فيه رد على الصوفية الذين يزعمون أن الولي منزلة من بلغها سقطت عنه التكاليف ، فمن تأمل الحديث وجد أن من بلغ مرتبة الولاية فعليه أن يزداد حفاظًا على الفرائض والنوافل .

٤٣- الله يحب الطاعات وعلى رأسها الفرائض لقوله " وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه " .

٤٤- أداء النوافل يحتاج إلى استمرار ومحافظة ومداومة حتى يرتقي الشخص إلى درجة أكمل ولهذا قال " ولا يزال " وهي كلمة تدل على الاستمرارية .

٤٥- يدل على أن النوافل مما يتقرب بها إلى الله ، لا كما ينظر إليها بعض الناس اليوم أنه لا يأثم تاركها فنظروا إلى الإثم وعدمه وفاتهم أنها مما يقرب إلى الله .

٤٦- للنوافل فائدتان مذكورتان في الحديث :

الأولى : أنها تقرب إلى الله في المنزلة ، ولهذا قال " وَلا يَزَالُ عَبْدِيْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ " .

الثانية : تورث محبة الله سبحانه للعبد لقوله " حتى أحبه " .

٤٧- الحديث فتح الباب أمام المسلم ليعمل ما يستطيع من النوافل وأنواع العبادات ، ولهذا أطلق النوافل ولم يقيدها بقيد .

٤٨- الحديث يربي المسلم على العمل الصالح ليلتمس محبة الله لقوله " وَلاَ يَزَالُ عَبْدِيْ يَتَقَرَّبُ " وهذا هو شأن المسلم في حياته يصرفها في طاعة الله ومرضاته .

٤٩- فيه كرم الله سبحانه حيث يعين المؤمن على العمل الصالح ثم يقبله منه ويحبه لأجله فله الفضل أولًا وآخرًا.
٥٠- أن الأعمال الصالحة تقرب إلى الله عزّ وجل ، والإنسان يشعر هذا بنفسه إذا قام بعبادة الله على الوجه الأكمل من الإخلاص والمتابعة وحضور القلب أحس بأنه قَرُبَ من الله عزّ وجل . وهذا لا يدركه إلا الموفقون وشعور العبد بقربه من الله لاشك أنه سيؤثر في سيره ومنهجه .
٥١- أن أوامر الله عزّ وجل قسمان : فريضة ، ونافلة . والنافلة : الزائد عن الفريضة ، ووجه هذا التقسيم قوله :
" وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِيْ بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ . ولا يَزَالُ عَبْدِيْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ " .
٥٢- تفاضل الأعمال من حيث الجنس كما تتفاضل من حيث النوع . فمن حيث الجنس : الفرائض أحب إلى الله من النوافل . ومن حيث النوع : الصلاة أحب إلى الله مما دونها من الفرائض ، ولهذا سأل ابن مسعود
- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - رَسُولَ اللهِ - صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ - : أي الأعمال - أو العمل - أحب إلى الله ؟ فقال :
" الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا " .
٥٣- الحثّ على كثرة النوافل ، لقوله تعالى في الحديث القدسي : " وَلا يَزَالُ عَبدِيْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ " .
٥٤- في الحديث بيان لتوفيق الله لمن أحبه أيما توفيق ، فقد حاز الفلاح كله .
٥٥- ثمرات محبة الله للعبد تتجلى في أمور : -
أولًا : - يوفقه الله في سمعه فلا يسمع إلاّ ما يحبه الله .
ثانيًا : - يوفقه الله في بصره فلا ينظر إلى الحرام ، بل يطيع الله في عينيه .
ثالثًا : - يوفقه الله في يده فلا يتصرف إلاَّ بما يحب الله ويهجر ما نهى الله عنه .
رابعًا : - يوفقه الله في رجله فلا تخطو إلاَّ لما يرضاه الله .
خامسًا : - يستجاب دعاؤه ، حيث أكدَّ ذلك باللام والنون فقال " لأعطينَّه " .
سادسًا : - يعيذه الله من كل سوء ، حيث أكدّ الله ذلك باللام والنون فقال " لأعيذنه " . نسأل الله الكريم من فضله .
٥٦- الطاعات إذا فعلها الإنسان ثم استمر عليها تطرد من قلبه أي محبة غير الله .
٥٧- أن كثرة النوافل سبب لمحبة الله عزّ وجل ، لأن : (حتى) للغاية ، فإذا أكثرت من النوافل فأبشر بمحبة الله لك .
٥٨- أن من أسباب محبة الله كثرة النوافل لقوله (ولا يزال يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه) .
٥٩- فضل المداومة والاستمرار على العمل الصالح ، لقوله (ولا يزال عبدي يتقرب ..) فلا يعتبر الإنسان متقربًا إلى الله بالنوافل محافظًا عليها إلا باستمراره على هذه الطاعة ، وإلا فلا يعتبر متقربًا إلى الله بالنوافل .

(المعنى)

" فَإِذَا أَحْبَبتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِيْ يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِيْ يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِيْ بِهَا "
(كُنْتُ سَمْعَهُ) [1] :

---

(١) كُنْتُ سَمْعَهُ : من المعلوم أن الحديث ليس على ظاهره ، لأن سمع المخلوق حادث ومخلوق وبائن عن الله عزّ وجل ، فما معناه إذن ؟
المعنى أن الله يسدده في سمعه وبصره ويده ورجله ، ويكون المعنى : أن يُوفّق هذا الإنسان فيما يسمع ويبصر ويمشي ويبطش . وهذا أقرب ، أو أن المراد : تسديد الله تعالى العبد في هذه الجوارح ، أو كنت سمعه إلخ : المراد بهذا حفظ هذه المذكورات من أن تستعمل في معصية ، فلا يسمع ما لم يأذن له الشرع بسماعه ، ولا يبصر ما لم يأذن له في إبصاره ، ولا يمد يده إلى شيء لم يأذن له في مدها إليه ، ولا يسعى إلا فيما أذن الشرع في السعي إليه . وَقَدْ اُسْتُشْكِلَ كَيْفَ يَكُونُ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا سَمْعَ الْعَبْدِ وَبَصَرَهُ إلَخْ ؟ وَالْجَوَابُ مِنْ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ وَرَدَ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ ، وَالْمَعْنَى كُنْت سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ فِي إيثَارِهِ أَمْرِي فَهُوَ يُحِبُّ طَاعَتِي وَيُؤْثِرُ خِدْمَتِي كَمَا يُحِبّ هَذِهِ الْجَوَارِح . ثَانِيهَا : أَنَّ الْمَعْنَى كُلِّيَّته مَشْغُولَةٌ بِي فَلَا يُصْغِي بِسَمْعِهِ إلَّا إلَى مَا يُرْضِينِي ، وَلَا يَرَى بِبَصَرِهِ إلَّا مَا أَمَرْتُهُ بِهِ . ثَالِثهَا : الْمَعْنَى أُحَصِّلُ لَهُ مَقَاصِدَهُ كَأَنَّهُ يَنَالُهَا بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ إلَخْ . رَابِعهَا : كُنْت لَهُ فِي النُّصْرَة كَسَمْعِهِ وَبَصَره وَيده وَرِجْلِهِ فِي الْمُعَاوَنَة عَلَى عَدُوِّهِ . خَامِسهَا : قَالَ الْفَاكِهَانِيُّ وَسَبَقَهُ إلَى مَعْنَاهُ اِبْن هُبَيْرَة : هُوَ فِيمَا يَظْهَرُ لِي أَنَّهُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ ، وَالتَّقْدِيرُ كُنْت حَافِظ سَمْعِهِ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ فَلَا يَسْمَعُ إلَّا مَا يَحِلُّ اِسْتِمَاعُهُ ، وَحَافِظ بَصَرِهِ كَذَلِكَ إلَخْ .
سَادِسُهَا : قَالَ الْفَاكِهَانِيُّ : يَحْتَمِل مَعْنًى آخَرَ أَدَقَّ مِنْ الَّذِي قَبْلَهُ ، وَهُوَ أَنْ يَكُون مَعْنَى سَمْعِهِ مَسْمُوعَهُ ، لِأَنَّ الْمَصْدَر قَدْ جَاءَ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ مِثْل فُلَانٌ أَمَلَى بِمَعْنَى مَأْمُولِي ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ إلَّا ذِكْرِي وَلَا يَلْتَذُّ إلَّا بِتِلَاوَةِ كِتَابِي وَلَا يَأْنَسُ إلَّا بِمُنَاجَاتِي وَلَا يَنْظُرُ إلَّا فِي عَجَائِبِ مَلَكُوتِي وَلَا يَمُدُّ يَدَهُ إلَّا فِيمَا فِيهِ رِضَايَ وَرِجْله كَذَلِكَ ، وَبِمَعْنَاهُ قَالَ اِبْن هُبَيْرَة أَيْضًا ، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : هَذِهِ أَمْثَالٌ وَالْمَعْنَى تَوْفِيقُ اللَّهِ لِعَبْدِهِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يُبَاشِرُهَا بِهَذِهِ الْأَعْضَاءِ ، وَتَيْسِير الْمَحَبَّة لَهُ فِيهَا بِأَنْ يَحْفَظ جَوَارِحه عَلَيْهِ وَيَعْصِمَهُ عَنْ مُوَاقَعَة مَا يَكْرَه اللَّهُ مِنْ الْإِصْغَاء إلَى اللَّهْو بِسَمْعِهِ ، وَمِنْ النَّظَر إلَى مَا نَهَى اللَّه عَنْهُ بِبَصَرِهِ ، وَمِنْ الْبَطْش فِيمَا لَا يَحِلّ لَهُ بِيَدِهِ ، وَمِنْ السَّعْي إلَى الْبَاطِل بِرِجْلِهِ . وَإِلَى هَذَا نَحَا الدَّاوُدِيُّ ، وَمِثْله الْكَلَابَاذِيّ ، وَعَبَّرَ بِقَوْلِهِ أَحْفَظُهُ فَلَا يَتَصَرَّفُ إلَّا فِي مَحَابِّي ، لِأَنَّهُ إذَا أَحَبَّهُ كَرِهَ لَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيمَا يَكْرَهُهُ مِنْهُ .
سَابِعُهَا : قَالَ الْخَطَّابِيُّ أَيْضًا : وَقَدْ يَكُون عَبَّرَ بِذَلِكَ عَنْ سُرْعَة إجَابَة الدُّعَاء وَالنُّجْح فِي الطَّلَب ، وَذَلِكَ أَنَّ مَسَاعِيَ الْإِنْسَان كُلَّهَا إنَّمَا تَكُون بِهَذِهِ الْجَوَارِح الْمَذْكُورَة .
وَقَالَ بَعْضهمْ : وَهُوَ مُنْتَزَع مِمَّا تَقَدَّمَ لَا يَتَحَرَّك لَهُ جَارِحَةٌ إلَّا فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ ، فَهِيَ كُلُّهَا تَعْمَلُ بِالْحَقّ لِلْحَقّ .
– وقد أخذ السلف – أهل السنة والجماعة – بظاهر الحديث ، وأجروه على حقيقته . ولكن ما ظاهر هذا الحديث ؟ .
هل يقال : إن ظاهره أن الله تعالى يكون سَمْعَ الوَلِيّ وبصره ويده ورجله ؟ .
أو يقال : إن ظاهره أن الله تعالى يسدد الولي في سمعه وبصره ويده ورجله ، بحيث يكون إدراكه وعمله لله وبالله وفي الله ؟ .
ولا ريب أن القول الأول ليس ظاهر الكلام ، بل ولا يقتضيه الكلام لمن تدبر الحديث ، فإن في الحديث ما يمنعه من وجهين :
الأول : أن الله تعالى قال : " وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه " ، وقال : " لئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه " . فأثبت عبدًا ومعبودًا ، ومتقربًا ومتقَربًا إليه ، ومحِبًا ومحبوبًا ، وسائلاً ومسئوولاً ، ومعطِيًا ومعطَى ، ومستعِيذًا ومستعاذًا به ، ومعيذًا ومعاذًا . فسياق الحديث يدل على اثنين متباينين ، كل واحد منهما غير الآخر . وهذا يمنع أن يكون أحدهما وصفًا في الآخر أو جزءًا من أجزائه .
الوجه الثاني : أن سمع الولي وبصره ويده ورجله كلها أوصاف أو أجزاء في مخلوق حادث بعد أن لم يكن ، ولا يمكن لأي عاقل أن يفهم أن الخالق الأول الذي ليس قبله شيء يكون سمعًا وبصرًا ويدًا ورجلاً لمخلوق ، بل إن هذا المعنى تشمئز منه النفس أن تتصوره ، ويحسر اللسان أن ينطق به ولو على سبيل الفرض والتقدير ، فكيف يسوغ أن يقال إنه ظاهر الحديث القدسي ، وأنه قد صرف عن هذا الظاهر ؟ سبحانك اللهم وبحمدك ، لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .
وإذا تبين بطلان القول الأول وامتناعه ، تعين القول الثاني ، وهو : أن الله تعالى يسدد هذا الولي في سمعه وبصره وعمله ، بحيث يكون إدراكه بسمعه وبصره وعمله بيده ورجله كله لله تعالى إخلاصًا ، وبالله تعالى استعانةً ، وفي الله تعالى شرعًا واتباعًا ، فيتم له بذلك كمال الإخلاص والاستعانة والمتابعة ، وهذا غاية التوفيق ، وهذا ما فسره به السلف ، وهو تفسير مطابق لظاهر اللفظ ، موافق لحقيقته ، متعين بسياقه ، وليس فيه تأويل ، ولا صرف للكلام عن ظاهره . ولله الحمد والمنة .

(المستفاد)

٦٠- أن من أتى بما وجب عليه ، وتقرب بالنوافل وفقه الله بحيث لا يسمع ما لم يأذن به الشرع ، ولا يبصر ما لم يأذن له في إبصاره ، ولا يمد يده إلى شيء لم يأذن له الشرع في مدها إليه ، ولا يسعى إلا فيما أذن له في السعي إليه . وهذا هو المراد بقوله : "كنت سمعه .. " لا ما يذكره الاتحادية و الحلولية . تعالى الله عن قولهم .

٦١- أن الله تعالى إذا أحب عبدًا وفقه وسدده في سمعه وبصره ويده ورجله ، أي في كل حواسه بحيث لا يسمع إلا ما يرضي الله عزّ وجل ، وإذا سمع انتفع ، فلا يسمع إلا خيرًا ، وكذلك أيضًا لا يطلق بصره إلا فيما يرضي الله . وإذا أبصر انتفع ، فلا يرى إلا خيرًا ، كذلك في يده : لا يبطش بيده إلا فيما يرضي الله ، وإذا بطش فيما يرضي الله انتفع ، فلا يبطش إلا على حق ، وكذلك يقال في الرّجل فلا يمشي إلا إلى خير .

٦٢- في الحديث تربية لأهل الطاعة والأولياء أن ما حصل لهم من الطاعات والبعد عن السيئات إنما هو بفضل الله حيث أحبهم فيطرد هذا الكبر والعجب من القلب ولا يترك للشيطان مدخلًا .

٦٣- يدل الحديث على أن من وقع في المعاصي واستمر فيها نقصت محبة الله له ، وهذا من شؤم المعصية .

٦٤- قوله " وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأعطينّه وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِيْ لأُعِيْذَنَّهُ " رد على أهل الإلحاد والحلول الذين فهموا من قوله "كنت سمعه وبصره ويده ورجله " عقيدة الحلول الباطلة . فقد قال " لئن سألني " فأثبت سائل وهو العبد ومسؤول وهو الله .

٦٥- قوله "كنت سمعه الذي يسمع به ... الحديث " هذا تفسير لمعية الله الخاصة بعباده المؤمنين وأوليائه الصادقين .

٦٦- دل الحديث على أن أساس الطاعة وأصلها محبة الله في القلب ، فمن أحب الله أطاعه ، فإن قويت محبته زادت طاعته .

٦٧- دل الحديث على أن أساس المعاصي وأصلها محبة غيرالله من هوى أو نفس أو دنيا ، فمن أحب غير الله نقص من طاعته لله على قدر محبته لذلك الغير ، فإن زادت محبته لغير الله وقع في الشرك ، ومن هنا قال النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ – " تعس عبد الدينار" فعبوديته له على قدر محبته له .

(المعنى)

" وَلَئِنْ سَأَلَنِيْ لأُعطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِيْ لأُعِيْذَنَّهُ "

(وَلَئِنْ سَأَلَنِيْ لَأَعْطِيَنَّهُ) : لَأَعْطِيَنَّهُ ما سأل .

(وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي) : أي طلب مني أن أعيذه فأكون ملجأ له .

(لأَعِيذَنَّهُ) : لأحفظنه مما يخاف ، فذكر السؤال الذي به حصول المطلوب ، والاستعاذة التي بها النجاة من المرهوب ، وأخبر أنه سبحانه وتعالى يعطي هذا المتقرب إليه بالنوافل ما سأل ، ويعيذه مما استعاذ .

(المستفاد)

٦٨- أن الله تعالى إذا أحب عبدًا أجاب مسألته وأعطاه ما يسأل وأعاذه مما يكره ، فيحصل له المطلوب ويزول عنه المرهوب .

يحصل له المطلوب في قوله : " وَلَئِنْ سَأَلَنِيْ لأُعْطِيَنَّهُ " ويزول المرهوب في قوله : " وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِيَ لأُعِيذَنَّهُ " .

٦٩- كرامة الأولياء على الله تعالى حيث كان الذي يعاديهم قد آذنه الله بالحرب .

٧٠- أن معاداة أولياء الله من كبائر الذنوب ، لأن الله تعالى جعل ذلك إذنًا بالحرب .

٧١- أن من كان بالمنزلة المذكورة صار مجاب الدعوة .

٧٢- أن العبد ولو بلغ أعلى الدرجات لا ينقطع عن الطلب من ربه لما في ذلك من الخضوع له ، وإظهار العبودية . وإذا سأله أعطاه وأجاب دعاءه ، وأعاذه مما يكره .

٧٣- أن الدعاء سبب لحصول المطالب ، ففيه :

* الرد على الصوفية القائلين بأن الدعاء ونحوه من الأسباب ينافي التوكل .

* تواضع المؤمن لربه بافتقاره إليه وإنزال حوائجه به .

* أن الولي مستجاب الدعوة .

* أن الدعاء سبب لجلب المطلوب ودفع المكروه .

هذا وتمام الحديث عند البخاري في صحيحه :

" وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ " فيه فوائد :

٧٤- جواز إضافة التردد إلى الله مقرونًا بتفسيره ، ومعنى التردد في حق الله تعارض إرادتين مع كمال العلم بمقتضى الحكمة ، وبما سيكون ، بخلاف تردد المخلوق الذي هو نقص ، فمنشؤه الجهل بالمصلحة وبعواقب الأمور .

وتعارض الإرادتين في هذا الحديث : كراهته تعالى لمساءة المؤمن ومشيئته لقبض نفسه .

٧٥- أن كراهة المسلم للموت لا يُذم به ، لأنها جِبلِّيَّة ، وليس ذلك من قبيل كراهة لقاء الله ، كما جاء في الحديث : " من كره لقاء الله كره الله لقاءه " فذاك حين المعاينة .

٧٦- أن الله يكره ما يسوء وليَّه ، ولكنه تعالى يفعل ما تقتضيه حكمته البالغة .

٧٧- أن الموت حتم على كل نفس لا مفر منه ، كما قال تعالى : (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ) (آل عمران / ١٨٥) (أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ) (النساء / ٧٨) .

٧٨- إثبات الأفعال الاختيارية في حقه تعالى .

٧٩- ترجيح أعلى المصلحتين بتفويت أدناهما .

٨٠- قوله " يكره الموت " يدل على أن الجزع من الموت وعدم محبته لا إثم فيه ، لأن الكلام في الحديث عن المؤمن .

٨١- قوله " أكره مساءته " يدل على شدة الموت وصعوبة نزوله ولهذا سماها الله " مساءة " أي يحصل له سوء فيه ، فنسأل الله أن يهون علينا سكرته .

٨٢- المراد بالتردد هنا أن الله كتب الموت على الناس جميعًا والمؤمن يكره الموت لما فيه من شدة وكرب ، فالله كتبه على الناس ومع ذلك يكره سبحانه ما يسيء المؤمن فسمى ذلك ترددًا .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : هل في ثبوت ولاية الله تعالى لشخص أن يكون واسطة بينك وبين الله في الدعاء لك وقضاء حوائجك وما أشبه ذلك ؟

ج : لا ، فالله تعالى ليس بينه وبين عباده واسطة ، وأما الجاهلون المغرورون فيقولون : هؤلاء أولياء الله وهم واسطة بيننا وبين الله . فيتوسلون بهم إلى الله أولاً ثم يدعونهم من دون الله ثانيًا .

س : هل هذا على إطلاقه ، أي أنه إذا سأل الإنسان أي شيء أجيب مادام متصفًا بهذه الأوصاف ؟

ج : لا ، لأن النصوص يقيد بعضها بعضًا ، فإذا دعا بإثم ، أو قطيعة رحم ، أو ظلمًا لإنسان فإنه لا يستجاب له ، حتى وإن كان يكثر من النوافل ، حتى وإن بلغ هذه المرتبة العظيمة وهي : محبة الله له فإنه إذا دعا بإثم ، أو قطيعة رحم ، أو ظلم فإنه لا يستجاب له ، لأن الله عزّ وجل أعدل من أن يجيب مثل هذا .

الحديث التاسع والثلاثون

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – قَال :
" إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ "
حديثٌ حسنٌ رواهُ ابنُ ماجة والبَيهَقِيُّ وغيرُهما (١) (٢) .

المعنى الإجمالي

مِن رحمة الله تعالى بهذه الأمة أن الله عفا عن إثم الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه فقال تعالى :

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) (الحج / ٧٨) .

والمؤاخذة على الأفعال مشروطةٌ بقصدها ، وفي هذا الحديث فَضْلٌ لهذه الأمة عى سواها من الأمم ، وفضل لنبينا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على غيره من النبيين .

وفيه الحثّ والترغيب في الدخول في الإسلام ، والانتساب إلى أمة الإجابة .

توضيح الحديث

(المعنى)

(تَجَاوَزَ) : عفا ورفع .

(عَنْ أُمَّتِيْ) : أمة الإجابة ، أي تجاوز من أجلي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

(الخَطَأَ) : أن يرتكب الإنسان العمل عن غير عمد . أوهو أن يقصد بفعله شيئا فيصادف غير ما قصد .

(وَالنِّسْيَانَ) : بكسر النون ضد الذِّكر ، ذهول القلب عن شيءٍ معلوم من قبل .

---

(١) قلت : هذه راوية (البيهقي / ١٥٤٩٠) ، ولابن ماجة روايتان (٢٠٤٣ ، ٢٠٤٥) ، وبينهما من الاختلافات كالتالي :
– عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ – رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – : " إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ ، وَالنِّسْيَانَ ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ " . (ابن ماجه / ٢٠٤٣) .
– عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ ، قَالَ :
" إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ ، وَالنِّسْيَانَ ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ " . (ابن ماجه / ٢٠٤٥) .
– عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – :
" إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِى عَنْ أُمَّتِى الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ " . (البيهقي / ١٥٤٩٠) . فنلحظ الآتي :
١ – رواية (ابن ماجه / ٢٠٤٣) عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ – رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ – ، وليست عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ – .
٢ – رواية (ابن ماجه / ٢٠٤٣) فيها كلمة (قَدْ) في جملة (إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَجَاوَزَ) .
٣ – رواية (ابن ماجه / ٢٠٤٣) ليس فيها كلمة (لِي) في جملة (إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي) .
٤ – رواية (ابن ماجه / ٢٠٤٥) فيها كلمة (وَضَعَ) بدلًا من (تَجَاوَزَ لِي) في جملة (إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي) ، بدلًا من (إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ ..) .
(٢) قال الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجة / ٢٠٤٣ : صحيح .

(وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ) : حملوا عليه قهرًا ، والاستكراه : الإلزام والإجبار ، أن يكرهه شخص أويلزمه الشخص بما لا يريد أو بعمل محرم ولا يستطيع دفعه ، وهذه الثلاثة أعذار شهد لها القرآن الكريم .

أما الخطأ والنسيان فقد قال الله عزّ وجل : (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) (البقرة / ٢٨٦) .

وأما الإكراه : فقال الله عزّ وجل : (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (النحل / ١٠٦) .

فرفع الله عزّ وجل حكم الكفر عن المكرَه ، فما دون الكفر من المعاصي من باب أولى لاشك .

إذًا هذا الحديث مهما قيل في ضعفه فإنه يشهد له القرآن الكريم كلام رب العالمين .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ١٩)

١- فضل الله عز وجل على هذه الأمة ورفع الحرج عنها وتجاوزه سبحانه عن الإثم والخطأ والنسيان .

٢- فيه كرم الله سبحانه وتعالى وعظيم عفوه ، حيث تجاوز عن تلك الأمور .

٣- سعة رحمة الله عزّ وجل ولطفه بعباده حيث رفع عنهم الإثم إذا صدرت منهم المعصية على هذه الوجوه الثلاثة ، ولو شاء الله لعاقب من خالف أمره على كل حال .

٤- المراد من قوله " تجاوز " يعني عن الإثم ، لكن قد يضمن أحيانًا ويعيد الفعل أحيانًا على حسب الفعل فمن نسي الوضوء وصلى فلا إثم عليه لكن عليه الإعادة وهكذا .

٥- ظاهر لفظ الحديث في قوله " أمتي " يدل على أن ذلك من خصائص هذه الأمة المحمدية .

٦- شرف هذه الأمة على غيرها .

٧- إن الله لا يؤاخذ فردًا إلا إذا تعمد العصيان وقصد قلبه المخالفة وترك الامتثال عن رغبة وطواعية .

٨- دل على أن : الخطأ والنسيان والإكراه معفو عنها متجاوز عن الإثم فيها .

٩- الحديث يؤيد قوله تعالى : (لا يكلف الله نفسًا إلاَّ وسعها) (البقرة / ٢٨٦) .

١٠- دل على الفرق بين الخطأ والنسيان : -

فالخطأ : أن يقصد بفعله شيئًا فيصادف فعله غير ما قصده ، كأن يقصد أن يقتل كافر فصادف قتله مسلمًا .

والنسيان : أن يكون ذاكرًا الشيء فينساه عند الفعل .

١١- فائدة التكليف أنه يميز الطائع من العاصي .

١٢- رفع الإثم عن المخطيء والناسي والمستكره ، وأما الحكم فغير مرفوع ، فلو أتلف شيئا خطأ ، أو ضاعت منه الوديعة نسيانًا ضمن ، ويستثنى من الإكراه : الزنى والقتل فلا يباحان بالإكراه ، ويستثنى من النسيان : ما تعاطى الإنسان سببه ، فإنه يأثم بفعله لتقصيره .

١٣– أن جميع المحرّمات في العبادات وغير العبادات إذا فعلها الإنسان جاهلاً أو ناسيًا أو مكرهًا فلا شيء عليه فيما يتعلق بحق الله ، أما حق الآدمي فلا يعفى عنه من حيث الضمان ، وإن كان يُعفى عنه من حيث الإثم .

فجميع المحرّمات يرفع حكمها بهذه الأعذار وكأنه لم يفعلها ولا يستثنى من هذا شيء ، وهذا الحديث عام في كل حق لله عزّ وجل من المحظورات ، أما المأمورات فإنها لا يسقط أداؤها وقضاؤها ، فلا بد أن تُفعل . ولكن يسقط الإثم في تأخيرها بعذر .

١٤– أن هذه الأمور الثلاثة : الخطأ ، والنسيان ، والإكراه سبب منع التكليف وللتخفيف في حقوق الله ، لأنه مبني على العفو والرحمة ، وأما في حقوق الآدميين فلا تمنع من ضمان ما يجب ضمانه إذا لم يرض صاحب الحق بسقوطه .

١٥– النسيان من صفات الإنسان .

١٦– هناك بعض الأمور لا يعذر الناس فيها مثل من رأى النجاسة في الثوب وأهمل إزالتها ثم صلى بها ناسيًا فعليه القضاء ، والأمثلة على هذا كثيرة في كتب الفقه .

١٧– استثنى أهل العلم بالإجماع من الإكراه إذا أكره على قتل مسلم ، لنصوص أخرى ، وفي هذا عظمة دم المسلم .

١٨– بيان رحمة الله ، حيث لا يكلف نفسًا إلا وسعها . أي إلا طاقتها .

١٩– فيه سهولة الشريعة الإسلامية وتيسير الله لها .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : هل الواجبات تسقط بالجهل مطلقًا ، أو يقال : تسقط بالجهل إن كان غير مقصّر ، فإن كان مقصّرًا لم يعذر ؟

ج : قال الشيخ العثيمين – يرحمه الله – الظاهر : أن الواجبات تسقط بالجهل ما لم يمكن تداركها في الوقت .

فالمهم أن هذا الحديث مؤيَّدٌ بالقرآن الكريم كما سبق ، وينبغي للإنسان أن ينظر إلى الحوادث التي تقع نسيانًا أو جهلًا أو إكراهًا نظرة حازم ونظرة راحم .

نظرة حازم : بأن يلزم الإنسان إذا علم أن فيه تقصيرًا .

ونظرة راحم : إذا علم أنه لم يقصّر ، لكنه جاهل لا يدري عن شيء .

وكان شيخنا عبد الرحمن بن سعدي – يرحمه الله – يقول في المسائل الخلافية : إذا كان الإنسان قد فعل وانتهى فلا تعامله بالأشد ، بل انظر للأخف وعامله به ، لأنه انتهى ولكن انهَهُ أن يفعل ذلك مرّة أخرى ، إذا كنت ترى أنه لا يفعل .

الحديث الأربعون

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ : أَخَذَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمَنْكِبِي فَقَالَ : "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ " ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ : إِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ " . رواهُ البخاريُّ / ٦٤١٦

المعنى الإجمالي

الحديث يدور على التخفف من الدنيا ، وترك الانشغال بها عن الآخرة ، وتقصير الأمل مما فيها ، والحث على طلب الصالحات ، والتحذير من تسويف التوبة ، واغتنام وقت الصحة قبل نزول المرض ، ووقت الفراغ قبل حدوث انشغال ، ويؤخذ منه : أن الدنيا دار عمل لا دار جزاء ، والآخرة هي دار القرار ؛ كما قال تعالى : (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت / ٦٤) ، أي : لهي دار الحياة الحقيقية لامتناع أن يطرأ الموت عليها .

وقيل في تفسير قوله تعالى : (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) (الفجر / ٢٤) ، يا ليتني عملت لأجل حياتي هذه ، أي : الآخرة ، وهي تأكيد لآية العنكبوت بأن الحياة الحقيقية هي الآخرة .

توضيح الحديث

(المعنى)

(أَخَذَ) : أمسك ، أي تناوله بيده وقبض عليه ، وإنما فعل ذلك ليتفطَّن لما يلقى إليه .

(بِمَنْكِبِي) : بفتح الميم وكسر الكاف : مجمع العضد والكتف ، ويروى بالإفراد : (بِمَنْكِبِي) والتثنية :
(بِمَنْكِبَيَّ) أي أمسك بكتفي من الأمام وذلك من أجل أن يستحضر ما يقوله النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –
(كُنْ فِي الدُّنْيَا) : أي : مدة إقامتك بها .

(كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ) : أي : متشبهًا بالغريب ، يعني : لا تركن إلى الدنيا ، ولا تطمئن فيها ، ولا تتعلق بها ، لأنك على جناح السفر منها إلى وطن إقامتك ، وهو الآخرة ، كالغريب الذي لا يستقر في دار الغربة ، ولا يسكن إليها ، ويظل مُشتاقًا إلى وطنه . لا يجد من يستأنس به ، ولا مقصد له إلا الخروج عن غربته إلى وطنه من غير أن ينافس أحدًا .

فالغريب لم يتخذها سكنًا وقرارًا .

(أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ) : المار في الطريق ، الطالب وطنه ، و (أو) بمعنى بل ، من قبيل الترقي من الغريب الذي ربما تطمئن نفسه إلى بلد الغربة إلى عابر السبيل الذي ليس كذلك . وعابر السبيل : لم يستقر فيها أبدًا ، بل هو ماشٍ . وهذا يعني الزهد في الدنيا ، وعدم الركون إليها ، لأنه مهما طال بك العمر فإن مآلك إلى مفارقتها .

(إِذَا أَمْسَيْتَ) : المساء : من الزوال إلى نصف الليل .

(فَلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ) : إذا بقيت إلى وقت المساء حيًا . والمعنى : اعمل العمل قبل أن تصبح ولا تقل غدًا أفعله ، لأن منتظر الصباح إذا أمسى يُؤخِّر العمل إلى الصباح ، وهذا غلط ، فلا تؤخِّر عمل اليوم لغد .

أو المعنى : " إِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاح " لأنك قد تموت قبل أن تصبح . " وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرِ المَسَاء " لأنك قد تموت قبل أن تمسي .

(وَإِذَا أَصْبَحْتَ) : الصباح : من الفجر إلى الزوال ، أو من نصف الليل إلى الزوال ، والمقصود : إذا بقيت إلى وقت الصباح حيًا .

(فَلا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ) : بأعمال الليل ، أي اعمل وتجهّز ، وهذا أحد المعنيين في الأثر . لأن لكل من الصباح والمساء عملا يخصه إذا أُخِّر عنه لم يستدرك كماله وإن شرع قضاؤه ، وعابر السبيل أكمل زهدًا من الغريب ، لأن عابر السبيل ليس بجالس ، والغريب يجلس لكنه غريب .

(وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ) : اغتنم العمل حال الصحة فإنه ربما عرض مرض مانع منه ، فتقدم الميعاد بغير زاد ، فالإنسان إذا كان صحيحًا تجده قادرًا على الأعمال منشرح الصدر ، يسهل عليه العمل لأنه صحيح ، وإذا مرض عجز وتعب ، أو تعذر عليه الفعل ، أو إذا أمكنه الفعل تجد نفسه ضيّقة ليست منبسطة ، فخذ من الصحة للمرض ، لأنك ستمرض أو تموت .

(وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ) : ومن حياتك لموتك : اعمل في حياتك ما تلقى نفعه بعد موتك ، فإنه ليس بعد الموت إلا انقطاع العمل ، الحي موجود قادر على العمل ، وإذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث ، فخذ من الحياة للموت واستعد .

هذه كلمات نيّرات ، ولو أننا سرنا على هذا المنهج في حياتنا لهانت علينا الدنيا ولم نبال بها واتخذناها متاعًا فقط .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٥٠)

١- فضيلة ابن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – لأخذه بمنكبه وتخصيصه بالوصية .

٢- أن وضع العالم يده على بدن المتعلم عند التعليم كمنكبه وكفه للتأنيس والتنبيه من وسائل إحضار ذهنه إليه .

٣- أخذ الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بمنكب عبد الله فيه تنبيه طالب العلم لما يلقى عليه ، وإشعار المتعلم باهتمام المعلم به وحرصه على توصيل العلم إلى قرارة نفسه ، وهذا يؤدي إلى حفظ العلم ، كما فيه محبة الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لعبد الله بن عمر ، لأن مثل هذا غالبًا يفعله المرء مع من يحب .

٤- فعل ما يكون سببًا لانتباه المخاطب وحضور قلبه ، لقوله : " أَخَذَ بِمَنْكِبَيَّ " .

٥- الابتداء بالنصيحة والإرشاد لمن لم يطلب ذلك .

٦- يدل الحديث على أن النصيحة تبذل أحيانًا بدون سؤال وطلب ، فقد أسدى النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– هذه النصيحة لابن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – بدون سؤال وطلب منه ، وهذا هو شأن المؤمن .

٧- مخاطبة الواحد وإرادة الجمع ، فإن هذا لا يخص ابن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – ، بل يعم جميع الأمة .

٨- الإرشاد إلى الزهد في متع الدنيا وحظوظها ، كما قال سبحانه : (وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (طه / ١٣١) .

٩- التزهيد في الدنيا وأن لا يتخذها الإنسان دار إقامة ، لقوله : " كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ " .

١٠- الحض على ترك الدنيا والزهد فيها ، وألا يأخذ منها الإنسان إلا مقدار الضرورة المعينة على الآخرة .

١١- المبادرة إلى فعل الخير والإكثار من الطاعات فلا يهمل ولا يُسوف لأنه لا يدري متى ينتهي أجله .

١٢- حسن تعليم النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بضرب الأمثال المقنعة .

١٣- أن من طرق البيان التشبيه .

١٤- قوله " غريب " إشارة إلى أننا في هذه الدنيا على سفر للدار الآخرة .

١٥- من لوازم الغربة للرجل الغريب ما يلي : –

أ – عدم الاستقرار في البلد الذي يمر عليه ، وكذلك المؤمن لا يستقر في الدنيا .

ب – رضاؤه بالقليل من المتاع ، وهذا هو حال المؤمن التقي مع متاع الدنيا فيرضى بالقليل منه .

ج – الغريب لا ينافس أهل البلد في دنياهم وبنائهم وأموالهم وشؤونهم لأن همته متعلقة بما أمامه من طريق ، وكذلك المؤمن لا ينافس الناس في دنياهم بل همه معلق بالآخرة والاستعداد لما أمامه .

د – استعداده للسفر في أي لحظة أو ساعة ، وكذلك أيضًا المؤمن مستعد للقاء ربه متى شاء الله سبحانه .

هـ – الغريب لا يأسف ويحزن لفوات شيء من دنيا الناس في ذلك البلد لأنها لا تعنيه وكذلك المؤمن لا يأسف ويحزن لفوات شيء من أمور الدنيا حزنًا يقطعه عن عمله وآخرته .

و – الغريب لا يطمئن ويرتاح حتى تنقطع غربته بالوصول لما يريد ، والمؤمن لا يرتاح ولا يطمئن حتى يوصله الله بفضله لدار كرامته .

ز – الغريب يجعل إقامته في ذلك البلد عونًا له على قطع سفره ، فيتزود فيه من الماء والطعام والراحة ليواصل سيره ، وكذلك المؤمن يجعل الدنيا عونًا له على سفره للدار الآخرة فيتزود بالأعمال الصالحة لتعينه على سفره .

١٦- أن المؤمن في الدنيا كالغريب وهو النازل في غير وطنه ، يعد العدة للرحيل والعودة ولا يعنيه ما يعني أهل الوطن ولا يبالي بقلة من يعرف ، قال الحسن : " المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها ، ولا ينافس في عزها ، له شأن وللناس شأن " .

١٧- الحديث لا ينفي طلب الرزق والتزود من الدنيا كما أن الغريب في حال غربته لا يقطعه ذلك عن التزود والأكل والرزق .

١٨- وصف الغربة في الحديث يدل على أمرين : –

الأول : ينفي العَجْب والكِبر والبَطَر والفخر لأن الغريب كذلك .

الثاني : يوحي اللفظ بالمسكنة والذِّلة الجزئية .

وكِلا الأمرين يجب أن يتحلى بهما المؤمن ، فينفي الكبر والبطر والفخر ، ويلبس لباس العبودية والفقر والذلة لله سبحانه وتعالى .

١٩- التحذير من الرذائل ، إذ الغريب لقلة معرفته بالناس قليل الحسد والعداوة ، والحقد والنفاق ، والنزاع وجميع الرذائل التي تنشأ بالاختلاط بالخلائق ولقلة إقامته قليل الدار والبستان والمزرعة ، وسائر الأشياء التي تشغل عن الخالق من لم يوفقه الله .

٢٠- أن المؤمن في هذه الدنيا كعابر السبيل ، وهو المسافر الذي همه الوصول إلى غايته لا يستقر له قرار في منازل سيره ، ولا يلهو بما يمر به من المشاهد .

٢١- الحذر والخوف من عقاب الله عز وجل هو شأن المسافر الذي يجتهد و يحتاط وهو يخشى الانقطاع .

٢٢- قوله : " غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ " يشتركان في عدم الاستقرار والاستيطان والاستعداد للرحيل .

٢٣- الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا ، تقصير الأمل ، والاستعداد للموت ، والجدّ بحسن العمل .

٢٤- أن المؤمن لا يطمئن بالحياة الدنيا ولا يرضى بها بدلًا عن الآخرة .

٢٥- الحرص على الوقت والاستعداد للموت والإسراع في التوبة والعمل الصالح .

٢٦- أن المؤمن حقًا دائم التشمير في سيره إلى الله ، فهو دائم العبودية لله .

٢٧- اغتنام المناسبات والفرص قبل فوات الأوان .

٢٨- الزهد في الدنيا يكون بعدم التعلق بها والانشغال بما يُقرِّب إلى الله في الآخرة .

٢٩- حديث الباب يضبط تعامل المؤمن مع الدنيا ، فينظر لها على أنها ممر لا مقر .

٣٠- يبين منزلة الدنيا عند المؤمن وأنها أقل شأنًا من أن يتعلق بها أو يصرف لها همَّه وهِمَّته بل يسخرها في طاعة الله .

٣١- لا يدل الحديث على ترك الرزق وتحريم ملذات الدنيا ، بدليل فعل النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الذي قال هذه الوصية وصحابته الكرام الذين طبقوها فقد تاجروا وعملوا وتلذذوا بالحلال مما يدل على أن المراد بالحديث عدم التعلق بالدنيا بحيث تصده عن طاعة ربه .

٣٢- يُربِّي الحديث المسلم على أن يزيل من ذهنه الخلود في هذه الدنيا كما هو حال الرجل الغريب الذي يمر ببلد فإنه جعل في قرارة ذهنه أنه لن يستقر فيها .

٣٣- الحديث يربي المؤمن على التطلع للآخرة والنظر والاستعداد لها .

٣٤- يبين الحديث مدة الدنيا بالنسبة للآخرة وأنها كإقامة غريب في غربته مقارنة باستيطانه في بلده أو استراحة عابر سبيل مقارنة بمدة إقامته عند أهله .

٣٥- يدل الحديث بمفهومه على خسارة من باع دنياه بدينه ، لأنه باع فانٍ زائل بباقٍ دائم .

٣٦- فيه شاهد لما اختُص به النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من جوامع الكلم .

٣٧- الموعظة التي ذكرها ابن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – : أن من أصبح لا ينتظر المساء ، وذكرنا لها وجهين في المعنى ، وكذلك من أمسى لا ينتظر الصباح .

والموعظة الثانية : أن يأخذ الإنسان من صحته لمرضه ، لأن الإنسان إذا كان في صحة تسهل عليه الطاعات واجتناب المحرمات بخلاف ما إذا كان مريضًا ، وكذلك أيضًا أن يأخذ الإنسان من حياته لموته .

٣٨- عمل ابن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – بوصية النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، كما هو ظاهر من قوله : " إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح " .

٣٩- أن قول ابن عمر تضمن تفسيرًا ، وتطبيقًا عمليًا للحديث لوصية النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

٤٠- وصيته – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – بِقِصَر الأمل بقوله : " إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء " .

٤١- وصيته – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – باغتنام الفرص بإحسان العمل ، وذلك في قوله :
" وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك " .

٤٢- أن الصحة فرصة للعمل حتى إن العبد يُكتب له في مرضه ما كان يعمل في صحته .

٤٣- أن الحياة في هذه الدنيا وقت للتزود للآخرة .

٤٤- أن الصحة والحياة نعمتان يغتنمهما ذوو الألباب ، وهم أهل الكَيْس والفِطْنَة والصبر والبصيرة ، قال :
" نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ " (خ / ٦٤١٢) .

٤٥- المسارعة إلى الأعمال الصالحة قبل أن لا يقدر عليها ، ويحل مرض أو موت ، أو بعض الآيات التي لا يقبل معها عمل .

٤٦- أنه ينبغي للعاقل مادام باقيًا والصحة متوفرة أن يحرص على العمل قبل أن يموت فينقطع عمله .

٤٧- ينبغي على المسلم أن يبادر بالأعمال الصالحات قبل هجوم هاذم اللذات ، فإنه لا يدري متى يأتيه ، فكل أحد سيموت .

٤٨- أن الإنسان ينبغي أن يستغل عمره في طاعة الله قبل حلول الآفات ، ولهذا قال ابن عمر :
" وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ " ، يعني : اغتنم الأعمال الصالحة ، قبل أن يحول بينك وبينها السقم ، وفي الحياة قبل أن يحول بينك وبينها الموت .

٤٩- إن الإنسان إذا لم يستغل حياته وصحته فإنه يندم حين لا ينفع الندم ، ويتمنى الرجوع فلا يستطيع .

٥٠- فضيلة عبد الله بن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – حيث تأثّر بهذه الموعظة من رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : لماذا أَخَذَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمَنْكِبِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – ؟

ج : فيه تنبيه طالب العلم لما يلقى عليه ، وإشعار المتعلم باهتمام المعلم به وحرصه على توصيل العلم إلى قرارة نفسه ، وهذا يؤدي إلى حفظ العلم ، كما فيه محبة الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لعبد الله بن عمر ، لأن مثل هذا غالبًا يفعله المرء مع من يحب .

س : " كَأَنَّكَ غَرِيبٌ ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ " أيهما أكثر زهدًا (الغريب أم عابر السبيل) ؟

ج : وعابر السبيل أكمل زهدًا من الغريب ، لأن عابر السبيل ليس بجالس ، والغريب يجلس لكنه غريب .

الحديث الحادي والأربعون

عَنْ أَبِيْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ بِنِ عمْرِو بْنِ العَاصِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ "
حَدِيْثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ الحُجَّةِ بِإِسْنَادٍ صَحِيْحٍ (١) .

المعنى الإجمالي

شرط التحقُّق بصفة الإيمان الكامل هو الخضوع لأحكام الشرع والتسليم لإرادة الله دون أدنى تردد .

وأنَّ من استحسن شيئًا برأيه المجرَّد ، ومالت إليه نفسُه ، ولو كان مخالفًا للشرع ؛ فهذا يكون ناقص الإيمان ، وقد ينتفي بالكلية إن كان هواه لا يكون تبعًا لما جاء به الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في كل الدين ، فإنه حينئذ يكون مرتدًا .

توضيح الحديث

(المعنى)

(لا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ) : الإيمان الكامل ، الذي وعد الله أهله بدخول الجنة ، والنجاة من النار .

(أَحَدُكُمْ) : الخطاب لأمة الإجابة ، وهم أهل الإيمان ، والخطاب شاملٌ للذَّكر والأنثى على السواء .

(حَتَّى) : بمعنى " إلى " ، أي : يستمر عدم الإيمان الكامل إلى صيرورة هواه تابعًا لما جاء به النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

(هَوَاهُ) : بالقصر ما تحبه وتميل نفسه إليه . أي اتجاهه وقصده .

(تَبَعًا) : أي تابعًا .

(لِمَا جِئْتُ بِهِ) : من هذه الشريعة المطهرة الكاملة ، بأن يميل قلبه وطبعه إليه كميله لمحبوباته الدنيوية التي جبل على الميل بها .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٣٠)

١– نفي الإيمان عمّن لم يكن هواه تابعًا ما جاء به الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ولا يلزم من نفي الإيمان نفي أصله ، لكن لا يُنفى الإيمان إلا لترك واجب أو فعل محرم فلا يُنفى لترك مستحب ، كما نبه إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله – .

٢– أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أهل السنة والجماعة .

٣– أن من كان هواه تابعًا لجميع ما جاء به النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كان مؤمنًا كاملا .

---

(١) قال الشيخ الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم / ١٥ : (ضعيف) .

الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة لأبي القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني ، سنة الولادة : ٤٥٧هـ / سنة الوفاة ٥٣٥ هـ .

٤- لا يكمل إيمان أحد حتى يكون هواه وميله إلى الشريعة وتحكيمها .

٥- تحذير الإنسان من أن يحكم العقل أو العادة مقدمًا إياها على ما جاء به الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وجه ذلك : نفي الإيمان عنه .

٦- أنه يجب على الإنسان أن يستدلّ أولاً ثم يحكم ثانيًا ، لا أن يحكم ثم يستدل ، بمعنى أنك إذا أردت إثبات حكم في العقائد أو في الجوارح فاستدل أولًا ثم احكم ، أما أن تحكم ثم تستدلّ فهذا يعني أنك جعلت المتبوع تابعًا وجعلت الأصل عقلك والفرع الكتاب والسنة .

٧- تقسيم الهوى إلى محمود ومذموم ، والأصل عند الإطلاق المذموم كما جاء ذلك في الكتاب والسنة ، فكلما ذكر الله تعالى اتباع الهوى فهو على وجه الذم ، لكن هذا الحديث يدلّ على أن الهوى ينقسم إلى قسمين:

محمود : وهو ما كان تبعًا لما جاء به الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

ومذموم : وهو ما خالف هدي الرسول وأمره – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

وعند الإطلاق يحمل على المذموم ، ولهذا يقال : الهدى ، ويقابله الهوى .

٨- الفرق بين الهوى و اتباع الهوى ، فاتباع الهوى هو الدوران معه وإن خالف الأمر فيكون مذمومًا ، والهوى هو الرغبة في الشيء ومحبته فإن وافق الأمر كان محمودًا وإن خالفه كان مذمومًا .

٩- دل على أن الهوى يحتاج إلى مجاهدة حتى يتبع شرع الله ففيه تربية على المجاهدة .

١٠- طاعة الهوى تصرف عن دين الله .

١١- المؤمن يجعل هواه على حسب الشريعة ، وأما ناقص الإيمان فيقدم طاعة الهوى أحيانًا ، وأما المنافق والكافر فيحرف الشريعة على حسب هواه ورغبته .

١٢- يدل على خطورة الهوى ، لأنه إن لم يكن تبع الشرع فإنه ينقص الإيمان وقد يزيد النقص إلى درجة خطيرة جدًا .

١٣- المسلم مستسلم لأمر الله سواءً أوافق هواه أم لا ؟

١٤- المؤمن يحب الله وأوامره ، ويعظم نواهيه ، وهذا معنى أن يجعل هواه تبعًا لما جاء به النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

١٥- التحذير من اتباع الهوى .

١٦- وجوب تحكيم الشريعة في كل مسائل الدين الاعتقادية والعملية ، والرضا بذلك والتسليم ، لقوله : " لِمَا جِئتُ به " والنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – جاء بكل ما يصلح الخلق في معادهم ومعاشهم ، قال الله تعالى :

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) (النحل / ٨٩) .

١٧- وجوب الاستسلام والانقياد لأوامر الله تعالى .

١٨- أن الشريعة كاملة .

١٩- أن كراهة شيء مما جاء به الرسول ينافي الإيمان ، إما لأصله أو لكماله الواجب .

٢٠- تحريم تقديم قول أحد من الناس على حكم الشرع .

٢١- وجوب تقديم حكم الشرع على قول كل أحد .

٢٢- أنه لا خيار لأحد في أمر قضاه الله ورسوله .

٢٣- تحريم محبة ما يكرهه الله ورسوله ، وأنه منافٍ للإيمان .

٢٤- وجوب تقديم النقل على العقل إذا بدا بينهما تعارض .

٢٥- يدل الحديث على أن المؤمن لا يبحث عما يشتهي هواه ، لكن يبحث عن طاعة الله ثم يفعلها .

٢٦- الحديث يربي المسلم على محاسبة نفسه وهواه هل هي تتبع الشرع أم لا ؟

٢٧- يربي النفس على المجاهدة ، لأن الهوى هو أمل النفس ومرادها ومبتغاها ، ولأجل ذلك يحتاج إلى جهد ومجاهدة وإيمان حتى يكون تبعًا للشرع .

٢٨- يربي المسلم على طلب الشرع والدليل ولو خالف هواه ، فالمؤمن يبحث عن الدليل فإن صح عمل فيه ولو كانت نفسه وهواه ينازعه لأنه جعل هواه تبعاً لدين الله .

٢٩- أن من كان هواه وميله لما جاءت به الشريعة فهو كامل الإيمان .

٣٠- دل الحديث على أن من جعل هواه يتبع دين الله وشرعه فقد استكمل الإيمان .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : هل نفي الإيمان هنا نفي وجوب أم نفي كمال ولماذا ؟

ج : نفي كمال ، وحملناه على ذلك لأنه لا يصدق في كل مسألة ، لأن الإنسان قد يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في أكثر مسائل الدين ، وفي بعض المسائل لا يكون هواه تبعًا ، فيحمل على نفي الكمال .

الحديث الثاني والأربعون

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : قَالَ اللهُ تَعَالَى : " يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوتَنِيْ وَرَجَوتَنِيْ غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلا أُبَالِيْ ، يَا ابْنَ آدَمَ لَو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ استَغْفَرْتَنِيْ غَفَرْتُ لَكَ ___ ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَو أَتَيْتَنِيْ بِقِرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيْتَنِيْ لا تُشْرِكِ بِيْ شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقِرَابِهَا مَغفِرَةً " رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيْثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ (١) (٢) .

المعنى الإجمالي

هذا الحديث يدلّ على سَعَة رحمة الله سبحانه وكرمه وجوده ، وقد بَيَّنَ فيه الأسباب التي تحصُل بها المغفرة للمرء ، وهي الدعاء والاستغفار ، وعلَّق هذين السببين على التوحيد ، فمن لقي الله عز وجل موحِّدًا ، نفعه الدعاء والاستغفار ، ولا ينفع مع الشرك شيءٌ لا دعاء ولا غيره . ولعلَّ في تعليقه ذلك على التوحيد ونفي الشرك تنبيهٌ لعدم الاغترار برحمة الله الواسعة وترك العمل والاجتهاد في ذلك .

توضيح الحديث

(المعنى)

" يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوتَنِيْ وَرَجَوتَنِيْ غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلا أُبَالِيْ "

(مَا دَعَوتَنِيْ) : أي ما دمت تسألني ، والدعاء ينقسم إلى قسمين : دعاء مسألة ، ودعاء عبادة .

فدعاء المسألة أن تقول : يا رب اغفر لي . ودعاء العبادة أن تصلي لله ، فنحتاج الآن إلى دليل وتعليل على أن الدعاء يسمّى عبادة ؟

الدليل : قول الله تعالى : (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) (غافر / ٦٠) فقال : (ادْعُونِي) ثم قال : (يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي) فسمى الدعاء عبادة .

أما كيف كانت العبادة دعاءً : فلأن المتعبّد لله داعٍ بلسان الحال ، فلو سألت المصلي لماذا صلى لقال : أرجو ثواب الله ، إذًا فهو داع بلسان الحال ، وعليه فيكون قوله : " مَا دَعَوتَنِيْ وَرَجَوتَنِي " يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة ، ولكن لاحظ القيد في قوله : " ورَجَوتَنِي " خِفْت من عقوبتي وطمعت في مغفرتي ، فلا بد من هذا القيد ، أي أن تكون داعيًا لله راجيًا إجابته .

---

(١) قلت : رواية الترمذي كالتالي : " يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ ، وَلا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً " .

(٣٥٤٠) . ، ونلحظ الاختلافات كالتالي :

١ – كلمة (فِيكَ) بدلًا من كلمة (مِنْكَ) في جملة (غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي) .

٢ – كلمة (وَلا أُبَالِي) ليست موجودة في جملة (ثُمَّ استَغْفَرْتَنِيْ غَفَرْتُ لَكَ ___ ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَو أَتَيْتَنِيْ بِقِرَابِ) .

(٢) قال الشيخ الألباني في (صحيح الترمذي / ٣٥٤٠) : صحيح .

(غَفَرْتُ لَكَ) : المغفرة : هي ستر الذّنب والتجاوز عنه ، أي سترت ذنوبك ولا أعاقبك بها في الآخرة .

(عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ) : أي ما وقع منك من الذنوب والتقصير .

(وَلا أُبَالِي) : أي لا أهتم بذلك ، لا أكترث بذنوبك ولا أستكثرها وإن كثرت إذ لا يتعاظمني شيء ، فإن جرائم العباد في جنب عظمة الله ورحمته صغيرة أو أصغر (١) .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٤٨)

١- شرف ابن آدم حيث وجه الله إليه الخطاب بقوله " يَا ابْنَ آدَمَ " ولاشك أن بني آدم فضّلوا على كثير ممن خلقهم الله عزّ وجل وكرّمهم الله سبحانه وتعالى .

٢- أن كلمة (ابن) أو : (بني) أو ما أشبه ذلك إذا أضيفت إلى القبيلة أو إلى الأمة تشمل الذكور والإناث ، وإذا أضيفت إلى شيء محصور فهي للذكور فقط .

٣- فيه لطف الله سبحانه وتعالى في مناداته لعبده وقربه منه .

٤- أن الله يحب من عباده أن يرجوه ويدعوه ويوحدوه .

٥- فضل الدعاء والرجاء .

٦- الدعاء مأمور به وموعود عليه بالإجابة .

٧- يربي جانب الرجاء في قلب المؤمن .

٨- أن الدعاء والرجاء سبب لمغفرة الذنوب .

٩- أن من دعا الله ورجاه فإن الله تعالى يغفر له .

١٠- أنه لابد مع الدعاء من رجاء ، وأما القلب الغافل اللاهي الذي يذكر الدعاء على وجه العادة فليس حريًّا بالإجابة ، بخلاف الذكر كالتسبيح والتهليل وما أشبه ذلك ، فهذا يُعطى أجرًا به ، ولكنه أقل مما لو استحضر وذكر بقلبه ولسانه .

١١- الترغيب في الدعاء والاستغفار .

---

(١) وَلا أُبَالِي : البالُ لغة : الحالُ التي تَكْتَرِثُ بها ، ولذلك يُقال : ما بالَيتُ بكذا بالَةً : أي ما اكْتَرَثتُ به ، والبال القلب وقول الناس ما أبالي بكذا أي ما أشغل به بالي والبال يقال بمعنى الحال يقال ما بالك أي ما حالك ، أَيْ مَا أَكْتَرِث وَمَا أَلْتَفِت .

وَلا أُبَالِي : أَيْ وَالْحَالُ أَنِّي لَا أَتَعَظَّمُ مَغْفِرَتَك عَلَيَّ وَإِنْ كَانَ ذَنْبًا كَبِيرًا أَوْ كَثِيرًا . قَالَ الطِّيبِيُّ : فِي قَوْلِهِ وَلَا أُبَالِي مَعْنَى لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ . ، (ولا أبالي) بذنوبك إذ لا معقب لحكمي ولا مانع لعطائي كأنه من البال فإنه إذا قال أحد : لا أبالي ، كأنه قال لا يشتغل بالي بهذا الأمر أو نحوه . وقيل : ولا أبالي : لا أكترث بذنوبك ولا أستكثرها وإن كثرت إذ لا يتعاظمني شيء . وقيل : (وَلا أُبَالِي) : أي لا أهتم بذلك .

قلت (والقائل / عماد) : وهنا إشكال وسؤال : هل هذه من صفات النفي التي يسميها العلماء الصفات السلبية ، لقوله : " وَلا أُبَالِي " ، وهل ورد عن أحد من السلف تفسير يوضح معنى " وَلا أُبَالِي " في حق لله ؟ يقول الشيخ العثيمين في (مجموع فتاوى العثيمين) : إثبات صفات النفي التي يسميها العلماء الصفات السلبية ، لقوله : " وَلا أُبَالِي " فإن هذه صفة منفية عن الله تعالى ، وهذا من قسم العقائد ، وهذا كثير في القرآن مثل قوله : (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) (البقرة / ٢٥٥) وقوله : (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (الكهف / ٤٩) وقوله : (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ) (الفرقان / ٥٨) وهي كثيرة .

ولكن اعلم أن المراد بالصفات المنفية إثبات كمال الضد ، فيكون نفي المبالاة هنا يراد به كمال السلطان والفضل والإحسان ، وأنه لاأحد يعترض على الله أو يجادله فيما أراد . (هذا ما توصلت إليه من خلال البحث ، فمن كان عنده زيادة علم فليخبرنا وجزاه الله خيرًا) .

١٢- يدل الحديث على أن الدعاء يجب أن يكون معه رجاء بالله أنه يستجيب ويسمع وينصر ويعطي ولذلك قَرَن في الحديث بين الدعاء والرجاء فقال " إِنَّكَ مَا دَعَوتَنِيْ وَرَجَوتَنِيْ " .

١٣- يدل الحديث على أن الإنسان إذا تلبس بالمعاصي والذنوب والخطايا ينبغي ألاَّ يمنعه ذلك من الدعاء بل إنه أحوج ما يكون إلى الدعاء ، ويدل على ذلك في الحديث قوله : " على ما كان منك " .

١٤- يدل على أن الله سبحانه وتعالى إذا أعطى عبده المؤمن وغفر له لا ينقص ذلك مما عنده لقوله"ولا أبالي"

١٥- إثبات صفات النفي التي يسميها العلماء الصفات السلبية ، لقوله : " وَلا أُبَالِي " فإن هذه صفة منفية عن الله تعالى ، وهذا من قسم العقائد .

ولكن اعلم أن المراد بالصفات المنفية إثبات كمال الضد ، فيكون نفي المبالاة هنا يراد به كمال السلطان والفضل والإحسان ، وأنه لا أحد يعترض على الله أو يجادله فيما أراد .

(المعنى)

" يَا ابْنَ آدَمَ لَو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ استَغْفَرْتَنِيْ غَفَرْتُ لَكَ "

(عَنَانَ السَّمَاء) : بفتح المهملة أي أعلى السماء ، وقيل إن " عَنَانَ السَّمَاء " ما عنَّ لك حين تنظر إليها ، وقيل : (عَنَانَ السَّمَاء) : أي السحاب أعلاه ، ولا شك أن السحاب يسمى العنان ، لكن الظاهر أن المراد به (عنان السماء) ، والسماء على الأرض كالقبة لها جوانب ولها وسط ، أعلاها بالنسبة لسطح الأرض هو الوسط .

(ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِيْ) : أي طلبت مني المغفرة ، سواء أقلت : أستغفر الله ، أم قلت : اللهم اغفر لي . لكن لابد من حضور القلب واستحضار الفقر إلى الله عزّ وجل .

(المستفاد)

١٦- أن الاستغفار سبب لحصول المغفرة .

١٧- أنه لا يسلم أحد من الذنوب .

١٨- أن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا مهما عظمت لقوله : " لَو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاء ثُمَّ استَغْفَرْتَنِيْ غَفَرْتُ لَكَ " وأن الإنسان متى استغفر الله عزّ وجل من أي ذنب كان عِظَمًا وقدرًا فإن الله تعالى يغفره ، وهذا كقوله تعالى : (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا) (النساء / ١١٠) .

١٩- دلَّ على أن الاستغفار إذا تقبله الله واستجابه غفر الله لصاحبه ولو كانت ذنوبه عنان السماء .

٢٠- الله يغفر كل شيء إذا تاب الإنسان لربه بما في ذلك الشرك .

٢١- عفو الله ومغفرته أوسع وأعظم من ذنوب العبد إذا استغفر وتاب .

٢٢- أن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه عبده لغناه وكرمه وأنه لا مكره له .

٢٣- الردّ على الذين يكفرون المسلمين بالذنوب ، وعلى المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين ، بمعنى أنه ليس بمؤمن ولا كافر في الدنيا ، ويخلد في النار في الآخرة . والصواب قول أهل السنة : أن العاصي لا يسلب عنه اسم الإيمان ، ولا يعطاه على الإطلاق ، بل يقال : هو مؤمن عاص ، أو مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته ، وعلى هذا يدل الكتاب والسنة ، واجماع سلف الأمة .

(المعنى)

" يَا ابنَ آدَمَ إنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقِرَابِ الأَرْضِ خطَايَا ثُمَّ لَقِيْتَنِي لا تُشْرِكْ بِيْ شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقِرَابِهَا مَغْفِرَةً "

(لَوْ أَتَيْتَنِيْ) : أي جئتني بعد الموت .

(بِقِرَابِ الأَرْضِ) : بضم القاف وكسرها ، والضم أشهر ، أي ما يقاربها ، إما ملئًا ، أو ثقلاً ، أو حجمًا ، أو بمثلها .

(خَطَايا) : جمع خطيئة وهي الذنوب .

(ثُمَّ لَقِيْتَنِيْ) : مِت على الإيمان .

(لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا) : قوله : " شَيْئًا " نكرة في سياق النفي تفيد العموم أي لا شركًا أصغر ولا أكبر ، وهذا قيد عظيم قد يتهاون به الإنسان ، لاعتقادك توحيدي ، والتصديق برسلي وبما جاءوا به .

(لأَتَيْتُكَ بِقِرَابِهَا مَغْفِرَةً) : وهذا لاشكّ من نعمة الله وفضله ، بأن يأتي الإنسان ربه بملء الأرض خطايا ثم يأتيه عزّ وجل بقرابها مغفرة ، وإلا فمقتضى العدل أن يعاقبه على الخطايا .

(المستفاد)

٢٤- بيان معنى لا إله إلا الله : أنه هو إفراد الله بالعبادة ، وترك الشرك قليله وكثيره .

٢٥- حصول المغفرة بهذه الأسباب الثلاثة :

الدعاء مع الرجاء ، والاستغفار والتوحيد وهو السبب الأعظم الذي مَنْ فقده فقد المغفرة ، ومن جاء به فقد جاء بأعظم أسباب المغفرة .

٢٦- أن الإنسان إذا أذنب ذنوبًا عظيمة ثم لقي الله لايشرك به شيئًا غفر الله له . ولكن هذا ليس على عمومه لقول الله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) (النساء / ٤٨) .

٢٧- فيه بيان سعة رحمة الله وعظيم مغفرته ، وسعة كرمه وجوده .

٢٨- الترغيب في إخلاص العمل لله .

٢٩- فتح باب الأمل للعصاة ليسارعوا للتوبة والندم مهما كثرت خطاياهم .

٣٠- التوحيد أساس المغفرة وهو السبب الوحيد للحصول عليها .

٣١- فضيلة التوحيد وأنه سبب لمغفرة الذنوب ، وقد قال الله عزّ وجل : (قلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) (الأنفال / ٣٨) فمهما عظمت الذنوب إذا انتهى الإنسان عنها بالتوحيد غفر الله له .

٣٢- إثبات لقاء الله عزّ وجل ، لقوله : " ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا " وقد دلّ على ذلك كتاب الله عزّ وجل ، قال الله تعالى : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (الكهف / ١١٠) وقال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ) (الانشقاق / ٦) .

٣٣- أن التوحيد الخالص من الشرك سبب لمغفرة جميع الذنوب .

٣٤- فضل التوحيد .

٣٥- ضرر الشرك .

٣٦- أن الشرك لا يغفر .

٣٧- تشبيه المعقول بالمحسوس ، لقوله : " بقراب الأرض خطايا " أي : ملؤها أو قريب .

٣٨- الحديث أصل في فضل التوحيد والدعاء والاستغفار .

٣٩- الحديث أصل في باب التوبة والحث عليها .

٤٠- يربي المسلم على إحسان الظن بربه سبحانه وتعالى لأن الله عند ظن عبده به .

٤١- بين الحديث أسباب مغفرة الذنوب والخطايا ، وهي ما يلي : -

أ- الدعاء لقوله " ما دعوتني " .

ب - الرجاء لله سبحانه لقوله " ورجوتني " .

ج - الاستغفار في جميع الأوقات لقوله " ثم استغفرتني غفرت لك " .

د - التوحيد لقوله " ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا " .

٤٢- الحديث يفتح باب الأمل للمسرف على نفسه بالمعاصي ، ولذلك جميع ألفاظ الحديث تدل على ذلك : قوله : " على ما كان منك ولا أبالي " وقوله " لو بلغت ذنوبك عنان السماء " وقوله " لو أتيتني بقراب الأرض خطايا " . وكلها ألفاظ موجهة للمسرف على نفسه بالذنوب وغيره من باب أولى .

٤٣- الإسلام لا يكبت النفس ويحطمها ولذلك عالج المذنب والمخطئ بفتح الأمل له وفتح باب المغفرة .

٤٤- الحديث يربي الإنسان والناس جميعًا على التعلق بالله ورجائه والانطراح بين يديه .

٤٥- الحديث يبين ضعف الإنسان وكثرة ذنوبه ، وعظم الله وسعة رحمته .

٤٦- دل الحديث على أن الإنسان لا غنى له عن ربه طرفة عين ، فيحتاج إعانته ومغفرته وتوفيقه وهداه .

٤٧- فيه فضل التوحيد حيث يغفر الله لصاحبه ذنوبه وخطاياه لما قام بقلبه من توحيد الله وإخلاص العبادة له .

٤٨- من تأمل الحديث وجد أنه يربي جانب الحياء من الله ، فإذا تامل المؤمن ألفاظ الحديث وأن الله ينادي عباده ، وفتح لهم باب المغفرة مع أنهم هم المحتاجون له ، ومع ذلك يذنبون ، لا شك أن ذلك يورث المؤمن الحياء من الله سبحانه وتعالى .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : هل الاستغفار مجرّد قول الإنسان : اللهم اغفر لي ، أو أستغفر الله ؟

ج : لا ، لابد من فعل أسباب المغفرة وإلا كان دعاؤه كالاستهزاء كما لو قال الإنسان : اللهم ارزقني ذرية طيبة ، ولم يعمل لحصول الذرية ، والذي تحصل به المغفرة التوبة إلى الله عزّ وجل .

والتوبة : مِنْ تاب يتوب أي رجع . وهي الرجوع من معصية الله إلى طاعته . ويشترط لها خمسة شروط :

الشرط الأول : الإخلاص :

والإخلاص شرط في كل عبادة ، والتوبة من العبادات ، قال الله تعالى :

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (البينة / ٥) فمن تاب مراءاة للناس ، أو تاب خوفًا من سلطان لا تعظيمًا لله عزّ وجل فإن توبته غير مقبولة .

الشرط الثاني : الندم على ما حصل :

وهو انكسار الإنسان وخجله أمام الله عزّ وجل أن فعل ما نهي عنه ، أو ترك ما أوجب عليه .

س : الندم انفعال في النفس ، فكيف يسيطر الإنسان عليه ؟

ج : أنه يسيطر عليه إذا أشعر نفسه بأنه في خجل من الله عزّ وجل وحياء من الله ويقول : ليتني لم أفعل وما أشبه ذلك .

وقال بعض أهل العلم : إن الندم ليس بشرط :

أولًا : لصعوبة معرفته .

والثاني : لأن الرجل إذا أقلع فإنه لم يقلع إلا وهو نادم ، وإلا لاستمر . لكن أكثر أهل العلم – يرحمهم الله – على أنه لابد أن يكون في قلبه ندم .

الشرط الثالث : الإقلاع عن المعصية التي تاب منها :

فإن كانت المعصية ترك واجب يمكن تداركه وجب عليه أن يقوم بالواجب ،كما لو أذنب الإنسان بمنع الزكاة ، فإنه لابد أن يؤدي الزكاة ، أو كان فعل محرمًا مثل أن يسرق لشخص مالاً ثم يتوب ، فلابد أن يرد المال إلى صاحبه ، وإلا لم تصح توبته .

س : رجل سرق مالًا من شخص وتاب إلى الله ، لكن المشكل كيف يؤدي هذا المال إلى صاحبه ؟ يخشى إذا أدى المال إلى صاحبه أن يقع في مشاكل فيدّعي مثلًا صاحب المال أن المال أكثر ، أو يتَّهَم هذا الرجل ويشيع أمره ، أو ما أشبه ذلك ، فماذا يصنع ؟

ج : لابد أن يوصل المال إلى صاحبه بأي طريق ، وبإمكانه أن يرسل المال مع شخص لا يتهم بالسرقة ويعطيه صاحبه ، ويقول : يا فلان هذا من شخص أخذه منك أولاً والآن أوصله إليك ، ويكون هذا الشخص محترمًا أمينًا بمعنى أنه لا يمكن لصاحب المال أن يقول : إما أن تعين لي من أعطاك إياه وإلا فأنت السارق ، أما إذا كان يمكن فإنه مشكل .

مثال ذلك : أن يعطيه القاضي ، أو يعطيه الأمير يقول: هذا مال لفلان أخذته منه ، وأنا الآن تائب ، فأدّه إليه . وفي هذه الحال يجب على من أعطاه إياه أن يؤدّيه إنقاذًا للآخذ وردًّا لصاحب المال .

س : إن الذي أخذت منه المال قد مات ، فماذا أصنع ؟

ج : يعطيه الورثة ، فإن لم يكن له ورثة أعطاه بيت المال .

س : أنا لا أعرف الورثة ، ولا أعرف عنوانهم ؟

ج : يتصدّق به عمن هو له ، والله عزّ وجل يعلم هذا ويوصله إلى صاحبه . فهذه مراتب التوبة بالنسبة لمن أخذ مال شخص معصوم .

س : والغيبة كيف يتخلص منها إذا تاب ؟

ج : من العلماء من قال : لابد أن يذهب إلى الشخص ويقول : إني اغتبتك فحللني ، وفي هذا مشكلة .

ومنهم من فصّل وقال : إن علم بالغيبة ذهب إليه واستحله ، وإن لم يعلم فلا حاجة أن يقول له شيئًا لأن هذا يفتح باب شرّ .

ومنهم من قال : لا يُعلِمْه مطلقًا ، فيستغفر له ويكفي .

ولكن القول الوسط هو الوسط ، وهو أن نقول : إن كان صاحبه قد علم بأنه اغتابه فلابد أن يتحلل منه ، لأنه حتى لو تاب سيبقى في قلب صاحبه شيء ، وإن لم يعلم كفاه أن يستغفر له .

الشرط الرابع : العزم على أن لا يعود :

فلابد من هذا ، فإن تاب من هذا الذنب لكن من نيته أن يعود إليه متى سنحت له الفرصة فليس بتائب ، ولكن لو عزم أن لا يعود ثم سوّلت له نفسه فعاد فالتوبة الأولى لا تنتقض ، لكن يجب أن يجدد توبة للفعل الثاني .

ولهذا يجب أن نعرف الفرق بين أن نقول : من الشرط أن لا يعود ، وأن نقول : من الشرط العزم على أن لا يعود .

الشرط الخامس : أن تكون التوبة وقت قبول التوبة :

فإن كانت في وقت لاتقبل فيه لم تنفعه ، وذلك نوعان : نوع خاص ، ونوع عام .

النوع الخاص : إذا حضر الإنسان أجله فإن التوبة لاتنفع ، لقول الله تعالى : (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (النساء / ١٨)

ولما غرق فرعون قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين فقيل له :

(ءَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (يونس /٩١) .

أي الآن تسلم ، ومع ذلك لم ينفعه .

وأما العام : فهو طلوع الشمس من مغربها ، فإن الشمس تشرق من المشرق وتغرب من المغرب ، فإذا طلعت من المغرب آمن الناس كلهم ، ولكن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا .

ولهذا قال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" لاَ تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ وَلاَ تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا " صحيح أبي داود / ٢٤٧٩ .

فهذه هي شروط التوبة ، وأكثر العلماء – يرحمهم الله – يقولون : شروط التوبة ثلاثة : الندم ، والإقلاع ، والعزم على أن لا يعود .

ولكن ما ذكرناه أوفى وأتمّ ، ولابد مما ذكرناه .

ومن حُسن تأليف المؤلِّف – يرحمه الله – أنه جعل هذا الحديث آخر الأحاديث التي اختارها – يرحمه الله – المختوم بالمغفرة ، وهذا يسمّى عند البلاغيين براعة الختام .

وهناك مايسمّى براعة الاستهلال فإذا افتتح الإنسان كتابه بما يناسب الموضوع يسمونه براعة افتتاح ، مثل قول ابن حجر – يرحمه الله – في بلوغ المرام :

" الحمد لله على نعمه الظاهرة والباطنة قديمًا وحديثًا " يشير إلى أن هذا الكتاب في الحديث .

وإلى هنا ينتهي الكلام على الأربعين النووية ، التي نحثُّ كل طالب علم على حفظها وفهم معناها والعمل بمقتضاها ، نسأل الله عزّ وجل أن يجعلنا ممن سمع وانتفع إنه سميع قريب ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وهذه تتمة ابن رجب

فقد استدرك بعض العلماء على الإمام النووي ، وأوردوا عليه بعض مما ترك من الأحاديث التي تعتبر الأم في بابها قالوا : ترك حديثًا في الفرائض هو أصل للفرائض " أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا ، فَمَا أَبْقَتَ الْفَرَائِضُ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَر " .

وقد اتفق علماء الفرائض أن هذا الحديث أصل في باب الميراث ، والاتفاق على أن الإرث يكون بالفرض والتعصيب ، إذًا : ألحقوا الفرائض على ما جاء في كتاب الله ، فإن الله قد أعطى كل ذي حق حقه ، فلا وصية لوارث ، وبين ميراث الزوجين عند وجود الولد وعدمه ، وبين حق الذكر مع الأنثى في الأولاد والأخوة والأخوات ، وبين حق الأم والأب إذا كان هناك أولاد أو ليس هناك أولاد ، وبين ميراث الجميع ، وما بقي فلذوي العصبات ، (لأولى رجل ذكر) .

فيقولون : إنه لم يذكره وكان من حقه أن يذكره مع هذه الأحاديث ، ولذا جاء ابن رجب – يرحمه الله – وأخذ الأربعين أو الاثنين والأربعين وأضاف إليها ثمانية حتى كملت الخمسين حديثًا وأدخل فيها هذا الحديث ، وما شاكله مثل : " يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ " وهذا أيضًا أصل في بابه ، فلم يفصل في ذكر المحرمات وأحال ذلك إلى ما ذكر من المحرمات من النساء في القرآن .

الحديث الثالث والأربعون

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا ، فَمَا أَبْقَتَ الْفَرَائِضُ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَر " . رواهُ البخاريُّ ، ومسلمُ (١) .

المعنى الإجمالي

يأمر النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – القائمين على قسمة تركة أن يوزعوها على مستحقيها بالقسمة العادلة الشرعية كما أراد الله تعالى . فيعطى أصحاب الفروض المقدرة فروضهم في كتاب الله . وهى الثلثان ، والثلث ، والسدس ، و النصف ، والربع ، والثمن . فما بقى بعدها ، فإنه يعطى إلى من هو أقرب إلى الميت من الرجال لأنهم الأصل في التعصيب والمعصبون هم الذكور المرتبطون بالميت في النسب وبعدهم أهل الولاء والمولى الذي يعصب هو المنعم على عتيقه بالعتق فإذا مات العتيق ولم يكن له ورثة من النسب ورثه مولاه وهو المنعم عليه بالعتق ، فيُقَدَّمون على ترتيب منازلهم وقربهم من الميت . ولما كانت الأموال وقسمتها ، محطَّ الأطماع ، وكان الميراث في معظم الأحيان لضعفاء وقاصرين ، تَولَّى الله – تبارك وتعالى – قسمتها بنفسه في كتابه مبيَّنة ، مفصَّلة ، حتى لا يكون فيها مجال للآراء والأهواء ، وسوَّاها بين الورثة على مقتضى العدل والمصلحة والمنفعة التي يعلمها .

توضيح الحديث

(المعنى)

" أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا "

(أَلْحِقُوا) : أعطوا .

(الْفَرَائِضَ) : جمع (فريضة) بمعنى مفروضة و (المفروض) المُقدَّر، لأن (الفرض) التقدير ، فكأن اسمها ملاحظ فيه قوله تعالى : (نصيبًا مفروضًا) أي مقدرًا معلومًا .

وتعريفها شرعًا : العلم بقسمة المواريث بين مستحقيها .

والمراد بالفرائض هنا ، الأنصاب المقدرة في كتاب الله ، وهي : النصف ، ونصفه ، وهو الربع . ونصف نصفه ، وهو الثمن . والثلثان ، ونصفهما ، وهو الثلث . ونصف نصفهما ، وهو السدس .

(بِأَهْلِهَا) : أي من يستحقها بنص القرآن .

---

(١) قلت : هذه الرواية بنصها ليست موجودة لا عند البخاري ولا مسلم والاختلافات كالتالي :

١ – كلمة (أَبْقَتَ) في جملة (أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا ، فَمَا أَبْقَتَ الْفَرَائِضُ) لم أجدها لا في البخاري ولا في مسلم ولا في غيرهما من دواوين السُّنة ، وإنما الذي ورد كالتالي : أ – (فَمَا بَقِيَ) (خ / ٦٧٣٢ ، م / ٤٢٢٦) . ب – (فَمَا تَرَكَتِ) (خ / ٦٧٤٦ ، م / ٤٢٢٧) .

٢ – كلمة (فَهْوَ) في جملة (فَمَا بَقِيَ فَهْوَ لأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ) (خ / ٦٧٣٢ ، م / ٤٢٢٦) .

٣ – كلمة (لأَوْلَى) في جملة (فَهْوَ لأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ) (خ / ٦٧٣٢ ، م / ٤٢٢٦) .

" أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَهْوَ لأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ " . (خ / ٦٧٣٢ ، م / ٤٢٢٦) .

" أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا تَرَكَتِ الْفَرَائِضُ فَلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ " . (خ / ٦٧٤٦ ، م / ٤٢٢٧) .

" أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ " . (خ / ٦٧٣٧) .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٢٠)

١- أهمية علم المواريث حيث قسَّمها الله بنفسه ، ولم يتركها لمخلوق حتى وإن كان نبيًّا فضلًا عن عالم .

٢- وجوب تقسيم التركة .

٣- وجوب التركة لمستحقيها .

٤- وجوب إلحاق الفرائض بأهلها على ما في كتاب الله وسنة رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

(المعنى)

" فَمَا أَبْقَتَ الْفَرَائِضُ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ "

(فَمَا أَبْقَتَ) : فما بقي أي ما زاد بعد أهل الفروض ، أي أبقت بعد أخذ كل ذي فرض فرضه .

(فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ) : أي لأقرب ، أي لمن يكون أقرب في النسب إلى المورث .

قال الخطابي : " المعنى أقرب رجل من العصبة " .

(ذَكَرٍ) : هذا الوصف للتنبيه على سبب استحقاقه ، وهو الذكورة التي هي سبب العضوية ، وسبب الترجيح في الإرث ، ولذلك جعل للذكر مثل حظ الأنثيين . وحكمته أن الرجال تلحقهم مؤن كثيرة بالقيام بالعيال والضيوف ، والأرقاء والقاصدين ، ومواساة السائلين ، وتحمل الغرمات ، ونحو ذلك .

(المستفاد)

٥- تقديم من يرث بالفرض فيُعطى ميراثه ، وما بقي يكون لِمَن يرث بغير تقدير .

٦- أن ما يبقى بعد الفروض للعصبة ، وهو كل ذكر يدلي بنفسه بالقرابة ليس بينه وبين الميت أنثى .

٧- تقديم الأقرب فالأقرب ، فلا يرث عاصب بعيد مع عاصب قريب .

٨- أنه لا شيء للعاصب إذا استغرقت الفروض التركة .

٩- أن العاصب إذا انفرد أخذ جميع المال .

١٠- كمال الشريعة واشتمالها على قواعد كليَّة عامة ، كما جاء في هذا الحديث .

١١- أن الإرث ينقسم إلى قسمين :

- إرث بالفرض. - إرث بالتعصيب .

العصبة في اللغة : قرابة الرجل لأبيه ، سموا بالعصبة لأنهم عصبوا به ، أي أحاطوا .

واصطلاحًا : هو كل وارث ليس له سهم مقدر صريح في الكتاب والسنة ، (يعني كل من يرث بلا تقدير) .

* الذين يرثون بالتعصيب أو العصبة المتعصبون بأنفسهم هم :

الأولاد الذكور وأولاد الابن والأب والجد والأخوة الأشقاء والأخوة لأب وأبناء الأخوة الأشقاء وأبناء الأخوة لأب والأعمام الأشقاء أو الأعمام لأب وبنو الأعمام الأشقاء وبنو الأعمام لأب .

١٢– إذا بقي شيء بعد الفرائض أخذه العصبة المتعصبون بأنفسهم ، والعصبة المتعصبون بأنفسهم لا يكونون إلا من الذكور أما النساء فلا تعصب منهن بنفسها إلا المعتقة ولهذا قال الشارح ابن دقيق العيد – يرحمه الله – والحديث يقتضي اشتراط الذكورة في العصبة المستحق للباقي .

قلت : لا يخرج عن ذلك الوصف إلا المعتقة فإنها تعصب بنفسها على من أعتقته إذا لم يكن له وارث من النسب .

١٣– عدل الله – عز وجلّ – وحكمته في تقسيم الميراث .

١٤– أهمية وفضل علم الفرائض حيث أمر الشرع بها .

١٥– رحمة الله بخلقه حيث لم يتركهم سدىً ، بل بيَّن لهم حقوقهم .

١٦– فضل الذَّكر على الأنثى في الميراث ، حيث إنه موكَّل بالإنفاق على المرأة وبالصداق وبالجهاد وغير ذلك .

١٧– فضل الدِّين وأنه مقدَّم على النسب إذ قال : " أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا " أي بأهل الفرائض ، وإن من أهلها الأُخوَّة في الدِّين ، فلا توارث بين دينين مختلفين حتى وإن كان بين أبٍ وابنه ، أو أخٍ وأخيه .

١٨– أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أوتي جوامع الكلم .

١٩– حرص النبى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على إعطاء كل ذى حق حقه .

٢٠– السنة شارحة ومفسرة للقرآن .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : (فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَر) ما فائدة كلمة ذكر بعد كلمة رجل ، أما تغني كلمة رجل عن كلمة ذكر ، وما السر في ذكرها ؟

ج : إنما ذكر في الحديث لفظة (ذَكَر) فقال : (فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَر) مع أن الرجل لا يكون إلا ذكرًا ، وذلك لدفع التوهم ، حتى لا يظن أحد أن المراد من لفظ الرجل هو الكبير القادر ، فإن الطفل وإن كان رضيعًا يستحق الإرث بالتعصيب ، ويأخذ كل المال عند الانفراد ، وهذا هو السر في كلمة (ذَكَر) .

الحديث الرابع والأربعون

عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" الرَّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ " . رواهُ البخاريُّ ، ومسلمُ .

المعنى الإجمالي

هذا الحديث يدل على كمال الشريعة وأنها تشتمل على قواعد كلية عامة ، ومن ذلك أنها بيَّنت أن المرأة إذا أرضعت أحدًا فإنه يكون محرَّمًا عليها وكذلك وفروعه ، أبناؤه وبناته ونسلهم ويماثل المحرمات من الرضاع كلَّ امرأة حرُمت من النسب . وأن الرضاع كالنسب في التحريم . وهو بالإجماع فيما يتعلق بتحريم التناكح وتوابعه ، والجمع بين قريبتين وانتشار الحرمة بين الرضيع والأولاد المرضعة ، وتنزيلهم منزلة الأقارب في حل نحو نظر وخلوة وسفر ، لا في باقي الأحكام ، كتوارث ووجوب الإنفاق ونحو ذلك ، ثم التحريم المذكور بالنظر إلى المرضع فإن أقاربه أقارب للرضيع وأما أقارب الرضيع ما عدا أولاده فلا علاقة بينهم وبين المرضع ، فلا يثبت لهم شيء من الأحكام .

توضيح الحديث

(المعنى)

(الرَّضَاعَةُ) : بفتح الراء ، الإرضاع . و الرضاع لغة : اسم لمص الثدي وشرب لبنه .

واصطلاحًا : هو مص طفل صغير لبن امرأة أو شربه ونحوه .

(تُحَرِّمُ) : بتشديد الراء المكسورة مع ضم أوله .

(مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ) : مثل ما تحرمه .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ١٥)

١– مشروعية إرضاع غير ذي نسب .

٢– الحديث دليل على أن الرضاع محرم كالنسب ، وهذا ثابت بالكتاب والسنة والإجماع . قال تعالى :

(وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ) . ذكرهما في جملة المحرمات .

وأما السنة أحاديث الباب وغيرها ، وأجمع علماء الأمة على التحريم بالرضاع .

٣– بيان حكم المرضع وثبوت البنوَّة أو الأخوَّة بالرضاع .

٤– يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب .

فعدد المحرمات من الرضاع سبع ، وهن المحرمات من النسب ، لقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ " (خ / ٢٦٤٥) .

قال ابن قدامة : " كل امرأة حرمت من النسب حرم مثلها من الرضاع ، وهن : الأمهات ، والبنات ، والأخوات ، والعمات ، والخالات ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت " .

٥- إذا أرضعت امرأة ولدًا (بشروط الرضاع المعروفة ، ومنها :

أ- خمس رضعات فأكثر

ب – مشبعات

ج – في زمن الرضاع أو قبل الفطام ...) صار هذا الطفل ولدًا لها في النكاح والنظر والخلوة وفي المحرمية .

في النكاح : أي تحريمه ، في النظر : أي في جوازه ، في الخلوة : أي في جوازها ، في المحرمية : أي ثبوتها .

ولا يكون ولدًا لها في وجوب النفقة والبر والميراث والولاية وعدم دفع الزكاة .

فإذا ارتضع من المرأة صارا أبويه (من الرضاع) وآباؤهما أجداده وجداته . وإخوة المرأة وأخواتها أخواله وخالاته . وإخوة الرجل وأخواته أعمامه وعماته .

وأما بالنسب للمرتضع فتنتشر الحرمية إلى فروعه فقط دون أصوله وحواشيه .

فالقاعدة إذًا :

الرضاع ينتشر إلى المرتضع وفروعه فقط دون أصوله وحواشيه ، وينتشر إلى أصول وفروع وحواشي المرضعة .

٦- أن الرضاع كالنسب في التحريم . وهو بالإجماع فيما يتعلق بتحريم التناكح وتوابعه ، والجمع بين قريبتين وانتشار الحرمة بين الرضيع والأولاد المرضعة ، وتنزيلهم منزلة الأقارب في حل نحو نظر وخلوة وسفر ، لا في باقي الأحكام ، كتوارث ووجوب الإنفاق ونحو ذلك ، ثم التحريم المذكور بالنظر إلى المرضع فإن أقاربه أقارب للرضيع وأما أقارب الرضيع ما عدا أولاده فلا علاقة بينهم وبين المرضع ، فلا يثبت لهم شيء من الأحكام .

المساواة بين الأخوة من النسب والأخوة من الرضاع في الحقوق والأحكام .

٧- كمال الشريعة واشتمالها على قواعد كليَّة عامة ، كما جاء في هذا الحديث .

٨- أنَّ كلَّ امرأة حرُمت من النسب يحرم ما يُماثلها من الرضاعة .

٩- ما يثبت في الرضاع من المحرمية ، ومنها تحريم النكاح .

١٠- أنه يثبت فيه مثل ما يثبت في النسب .

فكل امرأة حرمت نسبًا ، حرمت من تماثلها رضاعًا .

١١- الذين تنشر فيهم المحرمية من أجل الرضاع ، هم المرتضع وفروعه ، أبناؤه وبناته ونسلهم .

أما أصوله ، من أب ، وأم ، وآبائهم ، فلا يدخلون في المحرمية . وكذلك حواشيه ، من إخوة وأخوات ، وأعمام ، وعمات ، وأخوال ، وخالات كل هؤلاء غير داخلين في حكمه .

والرضيع يكون كأحد أولاد المرضعة ، فتكون أمه ، وصاحب اللبن أباه ، وأولادهما إخوته وأخواته وآباؤه منهما .

١٢- وإن عَلَوْا – أجداده ، وأعمامهما : وعماتهما ، وأخوالهما ، وخالاتهما وأعمامه ، وأخواله ، وإخوانهما وأخواتهما ، أعمامه و عماته ، وأخواله ، و خالاته .

١٣- التحذير من اختلاط الأنساب ، وبيان ما يحل أو يحرم من الأنساب .

١٤- بيان المحارم .

١٥- سعة رحمة الله بعباده حيث وسَّع عليهم فيما يحتاجون إليه ، وبيَّن لهم الحقوق والأحكام .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : هل يجوز إرضاع غير ذي نسب أو غير ذي قرابة ؟

ج : نعم يجوز ، وهذا الحديث دلَّ على مشروعية إرضاع غير ذي نسب ، وهو دليل على أن الرضاع محرم كالنسب ، وهذا ثابت بالكتاب والسنة والإجماع ، قال تعالى : (وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ) . ذكرهما في جملة المحرمات ، وأما السنة أحاديث الباب وغيرها ، وأجمع علماء الأمة على التحريم بالرضاع .

س : هل كل الأحكام التي تترتب على الأولاد بالرضاع ، تترتب على الأولاد بالنسب ؟

ج : تشترك في البعض ، وتختلف في البعض ، وبالمثال يتضح المقال فمثلًا : إذا أرضعت امرأة ولدًا (بشروط الرضاع المعروفة ، ومنها : ١- خمس رضعات فأكثر ٢ - مشبعات ٣ - في زمن الرضاع أو قبل الفطام ...) صار هذا الطفل ولدًا لها في (الأحكام المشتركة) : النكاح ، والنظر ، والخلوة ، وفي المحرمية .

في النكاح : أي تحريمه ، في النظر : أي في جوازه ، في الخلوة : أي في جوازها ، في المحرمية : أي ثبوتها .

ولا يكون ولدًا لها في (الأحكام المختلفة) وجوب النفقة ، والبر ، والميراث ، والولاية ، وعدم دفع الزكاة .

الحديث الخامس والأربعون

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ يَقُولُ : " إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ " ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ ؟ فَقَالَ : " لَا ، هُوَ حَرَامٌ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عِنْدَ ذَلِكَ : قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ ، إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِم الشُّحُومَ ، فَأَجْمَلُوهُ ، ثُمَّ بَاعُوهُ ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ "

رواهُ البخاريُّ ، ومسلمٌ (١) .

المعنى الإجمالي

جاءت هذه الشريعة الإسلامية السامية ، بكل ما فيه صلاح للبشر ، وحذّرت من كل ما فيه مضرة تعود على العقول والأبدان والأديان . فأباحت الطيبات – وهى أغلب ما خلق الله في الأرض لنا . وحرمت الخبائث ، ومن تلك الخبائث المحرمة هذه الأشياء الأربعة المعدودة في هذا الحديث . فكل واحد منها يشار به إلى نوع من المضار . وهذا الحديث يدل على تحريم بيع كل ما هو حرام ، وإذا كان أكله حرامًا واقتناؤه حرامًا فثمنه حرام ، والله تعالى حرم الميتة ، فثمنها حرام ، وذلك لأنه لا يجوز أكلها ، فكذلك لا يجوز أكل ثمنها ثم ذمّ الله اليهود عندما حرم الله عليهم الشحوم عملوا الحيلة لبيع ما أذابوه منها فذموا على استعمالهم تلك الحيلة ليأكلوا بها ما حرم الله .

---

(١) قلت : أما رواية البخاري فهي كالتالي :

– عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ : " إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ " فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ : أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ ؟ فَقَالَ : " لاَ هُوَ حَرَامٌ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عِنْدَ ذَلِكَ :

" قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَه " . (خ / ٢٢٣٦) . ، ونلحظ فيها الآتي :

١ – كلمة (لَمَّا) مثبتة في جملة (إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ) .

٢ – كلمة (عَلَيْهِم) غير موجودة في جملة (إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ) .

٣ – كلمة (شُحُومَهَا) بدلًا من كلمة (الشُّحُومَ) في جملة (إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ) .

٤ – كلمة (جَمَلُوهُ) بدلًا من كلمة (فَأَجْمَلُوه) في جملة (إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ) .

– عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ : " إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ " . فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ فَإِنَّهُ يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ ؟ فَقَالَ : " لا هُوَ حَرَامٌ " . ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عِنْدَ ذَلِكَ : " قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ " .

(م / ٤١٣٢) . ، ونلحظ فيها الآتي :

١ – كلمة (لَمَّا) مثبتة في جملة (إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ) .

٢ – كلمة (شُحُومَهَا) بدلًا من كلمة (الشُّحُومَ) في جملة (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهُ) .

٣ – كلمة (أَجْمَلُوهُ) بدلًا من كلمة (فَأَجْمَلُوه) في جملة (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهُ) .

– وهناك روايات أخرى وفيها :

" قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا " . (خ / ٢٢٢٣) عن ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – .

" لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا " . (خ / ٣٤٦٠) عن ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – .

" لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا " . (م / ٤١٣٤) عن ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – .

" قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الشُّحُومَ فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا " . (م / ٤١٣٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – .

توضيح الحديث

(المعنى)

" سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ يَقُولُ :

" إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ "

(عَامَ الْفَتْحِ) : أي فتح مكة ، وكان في رمضان عام (٨) هـ .

(حَرَّمَ) : بإفراد الضمير ، وإن كان المقام يقتضي التثنية ، إشارة إلى أن أمر النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ناشيء عن أمر الله ، وهو نحو قوله تعالى : (والله ورسوله أحق أن يرضوه) ، وذلك تأدبًا مع الله تعالت عظمته ، وتفرد بالإجلال.

(الْخَمْر) : كل ما أسكر العقل ، وسميت خمرًا لأنها تخمر العقل ، أي تغطيه ، فالخمر ما خامر العقل أي غطاه حتى لا يَعْرِف شاربه المشرق من المغرب .

(وَالْمَيْتَة) : بفتح الميم ، وهي ما ماتت من الحيوانات حتف أنفها أي بدون ذكاة شرعية .

(وَالْخِنْزِير) : هو حيوان خبيث نجس قبيح الشكل حرم الله أكله .

(وَالأَصْنَام) : جمع صنم ، وهو ما كان منحوتًا على شكل صورة وتصنع التماثيل من الخشب أو الحجارة أو غيرهما وهي التي تمثل على شكل الآلهة التي يعبدونها ، على هيئة مخصوصة للعبادة .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٢٦)

١– أن التحليل والتحريم لله ورسوله ، فما حرمه الله ورسوله فهو حرام ، وما أحله الله ورسوله فهو حلال .

٢– تحريم بيع الخمر ، وهذا بالإجماع ، وكذلك شربها واقتنائها .

٣– تحريم بيع الميتة بجميع أجزائها ، وهذا بالإجماع كما حكاه ابن المنذر .

٤– تحريم بيع الخنزير . قال ابن المنذر : " أجمع أهل العلم على أن بيع الخنزير وشراؤه محرم " . وقال ابن القيم :
" وأما تحريم بيع الخنزير ، فيتناول جملته ، وجميع أجزائه الظاهرة والباطنة " .
وقال : " والخنزير أشد تحريمًا من الميتة " .

٥– تحريم بيع الأصنام . قال ابن القيم : " تحريم بيع الأصنام أعظم تحريمًا وإثمًا وأشد منافاة للإسلام من بيع الميتة والخنزير".

٦– بيان تحريم النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هذه الأمور الأربعة .

٧– بيان النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هذا التحريم بمكة عام الفتح ؛ لِيُبادر الذين أسلموا إلى الامتناع من هذه الأربعة ، انتفاعًا وبيعًا .

٨– تحريم شراء هذه الأشياء ، فإذا كان البيع محرمًا ، فالشراء كذلك .

٩– تحريم أكل وشرب الخمر والميتة والخنزير .

١٠– تحريم الانتفاع بهذه النجاسات في غير الأكل والشرب .

(المعنى)

فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ ؟ فَقَالَ : لَا ، هُوَ حَرَامٌ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عِنْدَ ذَلِكَ : قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ ، إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِم الشُحُومَ ، فَأَجْمَلُوهُ ، ثُمَّ بَاعُوهُ ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ " .

(أَرَأَيْتَ) : أي أخبرني ، هل يصح بيعها لما فيها من المنافع .

(يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ) : المعنى تدهن السفن بالشحوم بعد أن تذاب ، ليمنع ذلك تسرب الماء للخشب ، و هذا تعليل يقصد منه هل يكون مؤثرًا في الحكم تأثير إباحة .

(وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ) : أي بعد دبغ الجلود تدهن بالشحوم بعد إذابتها لتلين .

(وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ) : أي يستضيئون به ، حين يجعلونه في المصابيح وهي السرج . هو حرام : الضمير يعود على البيع .

(فَقَالَ : لَا): الضمير في قال يعود على رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ولا نهي أو نفي للحكم المتوهم .

(هُوَ حَرَامٌ) : هذه الجملة تأكيد لما تفيده لا ، أي هو حرام : بيعها حرام ، ومن العلماء من حمل قوله (هو حرام) على الانتفاع فقال : يحرم الانتفاع بها .

(قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ) : هذا دعاء عليهم أي أهلكهم ولعنهم ، وقيل : معناه لعنهم وطردهم من رحمته .

(فَأَجْمَلُوهُ) : وفي رواية جملوه : بفتح الجيم والميم المخففة ، أي أذابوه ، و " الجميل " الشحم المذاب ، أي أذابوه حتى يصير ودكًا ، فيزول عنه اسم الشحم ، احتيالا على الوقوع في المحرم .

(ثُمَّ بَاعُوهُ ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ) : أي آل بهم الأمر إلى أنهم أكلوا ثمن ما حرم عليهم .

(المستفاد)

١١– جواز لعن اليهود .

١٢– أن التحيل على محارم الله سبب لغضب الله .

١٣– أن المتحيل متشبه باليهود المغضوب عليهم .

١٤– تحريم الحيل التي يُتوصَّل بها إلى استحلال ما حرَّم الله .

١٥– أن كل حيلة يتوصل بها إلى تحليل محرم فهي باطلة .

١٦– ذمُّ اليهود وبيان أنَّهم أهلُ حيَل للوصول إلى استباحة الحرام .

١٧– بيان عداوتنا لليهود .

١٨– مشروعية الدعاء عليهم بـ (قاتلهم الله) .

١٩– جواز التعميم في الدعاء على اليهود بـ (قاتل الله اليهود) حيث أطلق كلمة اليهود معرَّفة بـ (ال) .

٢٠– تحذير هذه الأمَّة أن تقع فيما وقعت فيه اليهود من هذه الحيَل .

٢١– رحمة الله بهذه الأمة حيث بيَّن لها ما أخطأت فيه الأمم السابقة وحذَّرهم منه ومن عاقبته .

٢٢- أن كل ما حرم الله الانتفاع به يحرم بيعه وأكل ثمنه وهذا عام في كل ما كان المقصود من الانتفاع به حرامًا ، وهو قسمان : أحدهما ما ينتفع به مع بقاء عينه كالأصنام فإن منفعتها المقصودة منه الشرك بالله عز وجل ، وهو أقبح المعاصي على الإطلاق ، ويلتحق بذلك ما كانت منفعته محرمة ككتب الشرك والسحر والبدع والضلال ونحوها .

والثاني : ما لا ينتفع به إلا مع إتلاف عينه ، فإذا كان المقصود الأعظم منه محرمًا فإنه يحرم بيعه كما يحرم بيع الخنزير والخمر والميتة مع أن في بعضها منافع غير محرمة ، كأكل الميتة للمضطر ، ودفع الغصة بالخمر ، وإطفاء الحريق به ، والخرز بشعر الخنزير ، والانتفاع بشعره وجلده ، فهذه المنافع لما كانت غير مقصودة لم يعبأ بها وحرم البيع .

٢٣- أنَّ ما حرَّم الله فبيعُه حرام وثمنه حرام .

٢٤- بيان حكم أكل المال الحرام .

٢٥- بيان خطر وشؤم المعصية .

٢٦- دنو منزلة اليهود بسبب معاصيهم .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : " إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ " لماذا جاءت كلمة : " حَرَّمَ " بالإفراد ، ولم يقل : (حَرَّمَا) بألف الإثنين إذ المقام يقتضيه ؟

ج : جاءت كلمة : " حَرَّمَ " بالإفراد ، وإن كان المقام يقتضي التثنية ، إشارة إلى أن أمر النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ناشيء عن أمر الله ، وهو نحو قوله تعالى : (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ) (التوبة / ٦٢) ، وذلك تأدبًا مع الله تعالت عظمته ، وتفرد بالإجلال .

الحديث السادس والأربعون

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ ، فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْرِبَةٍ تُصْنَعُ بِهَا ، فَقَالَ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : الْبِتْعُ وَالْمِزْرُ ، فَقِيلَ لِأَبِي بُرْدَةَ : مَا الْبِتْعُ ؟ قَالَ : نَبِيذُ الْعَسَلِ ، وَالْمِزْرُ نَبِيذُ الشَّعِيرِ ، فَقَالَ : " كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ " . رواهُ البخاريُّ .

المعنى الإجمالي

سُئل النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن شرب البتع الذي هو نبيذ العسل ، فأتى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بجواب عام شامل . مفاده أنه لا عبرة باختلاف الأسماء ، ما دام المعنى واحدًا ، والحقيقة واحدة .

فكل شراب أسكر ، فهو خمر محرَّم ، من أي نوع أخذ . وهو من جوامع كلمه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وحسن بيانه عن ربه . وبهذا جاء من العلم في مدة بعثته بما يسعد البشرية في الدنيا والآخرة .

توضيح الحديث

(المعنى)

(الْبِتْعُ) : بكسر الباء وسكون التاء ، ويقال : بفتحها أيضًا .

(النَبِيذُ) : اسم لما ينبذ في الماء وكان الأولون ينبذون في الماء شيئًا من الفواكه ثم يأخذونه ويشربونه في آخر النهار فإذا كان نبيذ اليوم أو قبل أن يتم له يوم وليلة فهو مباح فإذا زاد عن اليوم والليلة وبدأ ينش أي يغلي ويرتفع حَرُم .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٩)

١– فضيلة أبي موسى الأشعري – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – ، لأن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لم يولّه الإمارة إلا لكونه عالمًا فطنًا حاذقًا ، ولذلك اعتمد عليه عمر – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – ، ثم عثمان – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – ، ثم عليٌّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – خلافًا للخوارج والروافض فإنهم طعنوا فيه .

٢– حرص النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على تعليم أمته أينما كانوا ، وإيصال الخير لهم حيثما كانوا .

٣– فقه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حيث إنه يختار الرجل المناسب للمكان المناسب .

٤– حرص الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم – على معرفة الأحكام الشرعية .

٥– تحريم تناول جميع أنواع المسكرات ، سواء أكانت من عصير العنب أم غيره ،
وقد تواترت بذلك الأحاديث عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

٦– هذا الجواب من النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – جواب عام شامل ، وهو أن كل شراب أسكر فهو خمر محرم من أي نوع اتخذ .
وقد جاء في رواية : (كل مسكر حرام) .

وهذه الرواية تفسير المراد بقوله في حديث الباب : (كل شراب أسكر) وأنه لم يرد تخصيص التحريم بحالة الإسكار ، بل أنه إذا كانت فيه صلاحية الإسكار حرم تناوله ولو لم يسكر المتناول بالقدر الذي تناول منه .

٧- أن علة التحريم هي الإسكار ، فاقتضى ذلك تحريم ما يسكر ، ولو لم يكن شرابًا كالحشيش ونحوها وأن كل ما وجد فيه الإسكار حرم تناول قليله وكثيره .

٨- إن المفتي يجيب السائل بزيادة عما سأله عنه ، إذا كان ذلك مما يحتاج إليه السائل .

٩- كمال الشريعة واشتمالها على قواعد كليَّة عامة ، كما جاء في هذا الحديث .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : "كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ " هل يتغير الحكم إذا كان القدر الذي يشربه قليلًا أو كثيرًا أو إذا كان بعض الناس لا يسكرون من بعض الأنواع ؟

ج : علة التحريم هي الإسكار ، فاقتضى ذلك تحريم ما يسكر ، ولو لم يكن شرابًا كالحشيش ونحوها وأن كل ما وجد فيه الإسكار حرم تناول قليله وكثيره .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – : " كُلُّ مُسْكِرٍ ، حَرَامٌ ، وَمَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ ، فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ " . ابن ماجة (٣٣٩٣) الترمذي / ١٨٦٥حسن صحيح ، (صحيح أبي داود / ٣٦٨١)
(النسائي / ٥٦٠٧) تحقيق الألباني : صحيح

وهذه الرواية تفسر المراد وأنه لم يرد تخصيص التحريم بحالة الإسكار ، بل أنه إذا كانت فيه صلاحية الإسكار حرم تناوله ولو لم يسكر المتناول بالقدر الذي تناول منه .

الحديث السابع والأربعون

عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكْرِبَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ :
" مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ " .
رَوَاهُ أَحْمَدُ ، وابْنُ مَاجَهْ ، والتِّرْمِذِيُّ ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثٌ حَسَنٌ (١) (٢) .

المعنى الإجمالي

هذا الحديث من جوامع كلمه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وهو أصلٌ في باب الطب وصحة الأبدان ، ويدلُّ على كمال هذه الشريعة التي تعتني بجميع ما ينفع الإنسان ، وتحذّره من جميع ما يضره ، وترشده إلى الأكمل والأفضل وتعطي له البدائل الممكنة .

توضيح الحديث

(المعنى)

(مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً) : أَيْ ظَرْفًا .
(شَرًّا مِنْ بَطْنٍ) : صِفَةُ وِعَاءٍ ، جَعَلَ الْبَطْنَ أَوَّلًا وِعَاءً كَالْأَوْعِيَةِ الَّتِي تُتَّخَذُ ظُرُوفًا لِحَوَائِجِ الْبَيْتِ تَوْهِينًا لِشَأْنِهِ ثُمَّ جَعَلَهُ شَرَّ الْأَوْعِيَةِ لِأَنَّهَا اُسْتُعْمِلَتْ فِيمَا هِيَ لَهُ وَالْبَطْنُ خُلِقَ لِأَنْ يَتَقَوَّمَ بِهِ الصُّلْبُ بِالطَّعَامِ وَامْتِلَاؤُهُ يُفْضِي إِلَى الْفَسَادِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا فَيَكُونُ شَرًّا مِنْهَا .
(بِحَسْبِ اِبْنِ آدَمَ) : أَيْ يَكْفِيهِ لسد الرمق ، وإمساك القوة .
(أُكُلَاتٌ) : بِضَمَّتَيْنِ ، خَبَرُهُ نَحْوُ قَوْلِهِ بِحَسْبِك دِرْهَمٌ ، وَالْأُكْلَةُ بِالضَّمِّ : اللُّقْمَةُ ، أَيْ يَكْفِيهِ هَذَا الْقَدْرُ فِي سَدِّ الرَّمَقِ وَإِمْسَاكِ الْقُوَّةِ .

---

(١) قلت : هذه رواية (الترمذي / ٢٣٨٠) ، أما رواية أحمد فهي كالتالي : " ما ملأ ابن آدم وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، حَسْبُ ابن آدم أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ طعام وَثُلُثٌ شراب وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ " (أحمد / ١٧٢٢٥)
وأما رواية ابن ماجة فهي كالتالي :
" مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، حَسْبُ الآدَمِيِّ ، لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ غَلَبَتِ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ ، فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ ، وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ "
(ابن ماجة / ٣٣٤٩) . – ونلحظ من الروايات الثلاثة الاختلافات الآتية :
١ – كلمة (آدَمِيٌّ) في جملة (مَا مَلأَ آدَمِيٌّ) ليست عند أحمد ، وبدلًا منها عنده (ابن آدم) .
٢ – كلمة (بِحَسْبِ) ليست عند أحمد ، ولا ابن ماجة ، وبدلًا منها (حَسْبُ) .
٣ – كلمة (ابْنِ آدَمَ) في جملة (بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ) ليست عند ابن ماجة ، وبدلًا منها (حَسْبُ الآدَمِيِّ) .
٤ – كلمة (أُكُلَاتٌ) في جملة (بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ) ليست عند ابن ماجة ، وبدلًا منها (لُقَيْمَاتٌ) .
٥ – جملة (فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ) ليست عند ابن ماجة ، وبدلًا منها (فَإِنْ غَلَبَتِ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ) .
٦ – كلمة (لِطَعَامِهِ) ليست عند أحمد ولا ابن ماجة فعند أحمد (فَثُلُثٌ طعام) ، و عند ابن ماجة (فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ) .
٧ – كلمة (لِشَرَابِهِ) ليست عند أحمد ولا ابن ماجة فعند أحمد (فَثُلُثٌ شراب) ، و عند ابن ماجة (فَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ) .
٨ – كلمة (لِنَفَسِهِ) ليست عند ابن ماجة ، وبدلًا منها (فَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ) .
(٢) قال الشيخ الألباني في (صحيح الترمذي / ٢٣٨٠) ، (صحيح ابن ماجة / ٣٣٤٩) : صحيح .

(يُقِمْنَ) : مِنْ الْإِقَامَةِ .

(صُلْبَهُ) : أَيْ ظَهْرَهُ تَسْمِيَةً لِلْكُلِّ بِاسْمِ جُزْئِهِ ، كِنَايَةً عَنْ أَنَّهُ لَا يَتَجَاوَزُ مَا يَحْفَظُهُ مِنْ السُّقُوطِ وَيَتَقَوَّى بِهِ عَلَى الطَّاعَةِ .

(فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ) : بِفَتْحِ الْمِيمِ وَيُضَمُّ ، أَيْ إِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ التَّجَاوُزِ عَمَّا ذُكِرَ فَلْتَكُنْ أَثْلَاثًا .

(فَثُلُثٌ) : أَيْ فَثُلُثٌ يَجْعَلُهُ .

(لِطَعَامِهِ) : أَيْ مَأْكُولِهِ .

(وَثُلُثٌ) : يَجْعَلُهُ .

(لِشَرَابِهِ) : أَيْ مَشْرُوبِهِ .

(وَثُلُثٌ) : يَدَعُهُ .

(لِنَفَسِهِ) : بِفَتْحِ الْفَاءِ أَيْ يُبْقِي مِنْ مِلْئِهِ قَدْرَ الثُّلُثِ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ التَّنَفُّسِ وَيَحْصُلُ لَهُ نَوْعُ صَفَاءٍ وَرِقَّةٍ وَهَذَا غَايَةُ مَا اُخْتِيرَ لِلْأَكْلِ وَيَحْرُمُ الْأَكْلُ فَوْقَ الشِّبَعِ . وَقَالَ الطِّيبِيُّ – يرحمهُ اللَّهُ – : أَيْ الْحَقُّ الْوَاجِبُ أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ عَمَّا يُقَامُ بِهِ صُلْبُهُ لِيَتَقَوَّى بِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَإِنْ أَرَادَ الْبَتَّةَ التَّجَاوُزَ فَلَا يَتَجَاوَزُ عَنْ الْقَسْمِ الْمَذْكُورِ .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ١٢)

١– كمال الشريعة حيث إنها ما تركت شيئًا ينفع الناس إلا ودلتهم عليه ، ولا شيئًا يضر الناس إلا وحذَّرتهم منه .

٢– آية من آيات نبوة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم – حيث كان أُمِّيًّا لا يحسن القراءة فكيف له بعلم هذه القاعدة والتي هي أهم قواعد علم الطب .

٣– عدم التوسع في الأكل والشرب ، وهذا أصل جامع لأصول الطب كلها ، لو استعمله الناس لتعطلت دكاكين الصيادلة لأن أصل كل داء التخمة ، فهذا بعض منافع قلة الغذاء وترك التملؤ من الطعام بالنسبة إلى صحة البدن ، وأما منافعها بالنسبة إلى القلب ، فهي أنها توجب رقة القلب وقوة الفهم وانكسار النفس ، وضعف الهوى والغضب ، بخلاف التوسع في الأكل والشرب فإنه يثقل البدن ويزيل الفطنة ، ويجلب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة .

٤– بيان الأدب الشرعي الذي ينبغي أن يكون عليه الآكلُ في مقدار أكله .

٥– التحذير من ملء البطن ؛ لِمَا يجلبه من الأمراض والكسل والخمول .

٦– خطورة البطن وأنه رأس الشرور .

٧– يكفي الآدمي أكلات يسيرات .

٨– قليل من الأكل يقيم صلب الآدمي .

٩– أنَّ الكفايةَ تحصل بما يكون به بقاء الحياة .

١٠– أقصى حد مسموح به للأكل ما مقداره ثلث البطن .

١١– أنَّه إن كان لا بدَّ من الزيادة على الكفاية ، فليكن في حدود ثلثي البطن .

١٢– خطورة مجاوزة الحد في الأكل والشرب والنفس .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : لماذا ذكر أن شر وعاء امتلأ هو البطن ؟

ج : الْبَطْنُ خُلِقَ لِأَنْ يَتَقَوَّمَ بِهِ الصُّلْبُ بِالطَّعَامِ وَامْتِلَاؤُهُ يُفْضِي إِلَى الْفَسَادِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا فَيَكُونُ شَرّ الأوعية .

س : النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم –كان أُمِّيًّا لا يحسن القراءة ، فكيف عرف هذه القاعدة الطبية ؟

ج : هذه آية من آيات نبوة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم – حيث كان أُمِّيًّا لا يحسن القراءة فعلَّمه الله هذه القاعدة والتي هي أهم قواعد علم الطب .

س : ما الفائدة من قلة الطعام والشراب ؟

ج : قلة الطعام والشراب ، هذا أصل جامع لأصول الطب كلها ، لو استعمله الناس لتعطلت دكاكين الصيادلة لأن أصل كل داء التخمة ، فهذا بعض منافع قلة الغذاء وترك التملؤ من الطعام بالنسبة إلى صحة البدن ، وأما منافعها بالنسبة إلى القلب ، فهي أنها توجب رقة القلب وقوة الفهم وانكسار النفس ، وضعف الهوى والغضب ، بخلاف التوسع في الأكل والشرب فإنه يثقل البدن ويزيل الفطنة ، ويجلب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة .

الحديث الثامن والأربعون

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :
" أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا ، وَإِنْ كَانَتْ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فِيهِ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ " .
رواهُ البخاريُّ ، ومسلمُ [(١)] .

المعنى الإجمالي

يبين هذا الحديث أن النفاق العملي له خصال أو خلال وذكر منها هنا أربع خصال وهي : الكذب في الكلام ، إخلاف الوعد ، الفجور في الخصومة ، الغدر في العهد .

توضيح الحديث

(المعنى)

(أَرْبَعٌ) : من الخصال .

(كَانَ مُنَافِقًا) : نفاق عمل .

(خَصْلَةٌ) : بفتح الخاء ، خلة .

(مِنْهُنَّ) : من هؤلاء الأربع .

(يَدَعَهَا) : يتركها .

(حَدَّثَ) : أخبر عن ماضي الأحوال .

(وإِذَا وَعَدَ) : الخير .

(أَخْلَفَ) : لم يف .

(فَجَرَ) : مال في الخصومة عن الحق ، واحتال في رده .

(غَدَرَ) : نقض العهد .

---

(١) قلت : رواه البخاري (٢٤٥٩ ، ٣١٧٨) إلا أن رواية (٣١٧٨) بعيدة لذا سنستثنيها ، ورواه مسلم (٢١٩) ، وهي أقرب إلى رواية البخاري لأن رواية مسلم فيها جملة (فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ) ، وفيها من الاختلافات كالآتي :
١ – جملة (وَإِنْ كَانَتْ) عند البخاري (أَوْ كَانَتْ) ، وعند مسلم (وَمَنْ كَانَتْ) .
٢ – جملة (خَصْلَةٌ مِنهُنَّ فِيهِ) عند البخاري (فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ) ، وعند مسلم (فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ) .
٣ – جملة (حَتَّى يَدَعَهَا : مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ) عند البخاري ومسلم (حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ) .
٤ – جملة (إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإِذَا وَعَدَ) عند مسلم (إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ) .
٥ – جملة (أَخْلَفَ ، وإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) عند البخاري (أَخْلَفَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ) . وإليكم الروايتين :
عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا ، أَوْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ " . (خ / ٢٤٥٩) .
" أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ " . غَيْرَ أَنَّ فِى حَدِيثِ سُفْيَانَ " وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ " . (م / ٢١٩) .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ١٤)

١- أنَّ من حسن التعليم ذكر المُعلِّم العدد قبل تفسير المعدود ؛ ليكون أوقعَ في ذهن المتعلِّم .

٢- بيان علامات النفاق .

٣- أن النفاق منه ما هو عملي ، ومنه ما هو اعتقادي .

٤- أن النفاق منه ما هو أكبر ، وأصغر ، وبيان الأصغر .

٥- أن النفاق يتجزأ ، وهو عبارة عن خصال .

٦- بيان خطورة اجتماع خصال النفاق في الشخص .

٧- تحريم الكذب في الحديث ، وأنَّه من خصال النفاق .

٨- تحريم إخلاف الوعد ، وأنَّه من خصال النفاق .

٩- تحريم الفجور في الخصومة ، وأنَّه من خصال النفاق .

١٠- تحريم الغدر في العهود ، وأنَّه من خصال النفاق .

١١- الحث على سلامة القول والفعل والنية ، فإن فساد القول بالكذب وفساد النية بالإخلاف ، وفساد الفعل بالغدر .

١٢- قد يجمع المسلم بين إيمان ونفاق ، فقد يفعل هذه الخصال مع أنه يأتي بأركان الإسلام .

١٣- الإيمان يزيد وينقص ، فإذا ترك هذه الخصال انتفى عنه النفاق وزاد إيمانه .

١٤- التحذير من التخلق بهذه الأخلاق الخبيثة التي يرجع إليها أصول النفاق الأصغر نفاق العمل وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة ، ويبطن ما يخالف ذلك ، وأما النفاق الأكبر فهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه ، وهذا النفاق الذي كان على عهد رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، ونزل القرآن بذم أهله ، وأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ " وفي الصحيح أيضًا " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ " كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :
" آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ "
(خ / ٣٣ ، م / ٥٩) ، فهل أَرْبَعٌ ، أم ثَلاثٌ ، وكيف نجمع بينهما ؟

ج : قال الحافظ في الفتح تعليقًا على آية النافق ثلاث : فإن قيل ظاهره الحصر في الثلاث فكيف جاء في الحديث الآخر بلفظ " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ " الحديث ، أجاب الْقُرْطُبِيُّ بِاحْتِمَالِ أَنَّهُ اِسْتَجَدَّ لَهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ الْعِلْمِ بِخِصَالِهِمْ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ ، ثم قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ : لَيْسَ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ تَعَارُضٌ لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ عَدِّ الْخَصْلَةِ الْمَذْمُومَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ النِّفَاقِ ، كَوْنُهَا عَلَامَةً عَلَى النِّفَاقِ لِاحْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ الْعَلَامَاتُ دَالَّاتٍ عَلَى أَصْلِ النِّفَاقِ وَالْخَصْلَةُ الزَّائِدَةُ إِذَا أُضِيفَتْ إِلَى ذَلِكَ كَمُلَ بِهَا خُلُوصُ النِّفَاقِ ، عَلَى أَنَّ فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ مِنْ طَرِيقِ عَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَا يَدُلُّ عَلَى إِرَادَةِ عَدَمِ الْحَصْرِ فَإِنَّ لَفْظَهُ : مِنْ عَلَامَةِ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ . وَكَذَا أَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، وَإِذَا حُمِلَ اللَّفْظُ الْأَوَّلُ عَلَى هَذَا لَمْ يَرِدْ السُّؤَالُ فَيَكُونُ قَدْ أَخْبَرَ بِبَعْضِ الْعَلَامَاتِ فِي وَقْتٍ ، وَبِبَعْضِهَا فِي وَقْتٍ آخَرَ اِنْتَهَى .

س : جاء في الصحيح من هذه الخصال " وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ " ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ "
(خ / ٣٤) وإذا أحصينا الخصال في الأحاديث نجدها خمسة وهي (مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ " فكيف نجمع بينها ؟

ج : قال القرطبي أيضًا والنووي : حصل من مجموع الروايتين خمس خصال لأنهما تواردتا على الكذب في الحديث والخيانة في الأمانة وزاد الأول الخُلف في الوعد والثاني الغدر في المعاهدة والفجور في الخصومة ، وفي رواية مسلم الثاني بدل الغدر في المعاهدة الخلف في الوعد كما في الأول فكأن بعض الرواة تصرف في لفظه لأن معناهما قد يتحد وعلى هذا فالمزيد خصلة واحدة وهي الفجور في الخصومة ، والفجور الميل عن الحق والاحتيال في رده وهذا قد يندرج في الخصلة الأولى وهي الكذب في الحديث ووجه الاقتصار على هذه العلامات الثلاث أنها منبهة على ما عداها إذ أصل الديانة منحصر في ثلاث : القول والفعل والنيه ، فنبه على فساد القول بالكذب ، وعلى فساد الفعل بالخيانة ، وعلى فساد النية بالخلف ، لأن خلف الوعد لا يقدح إلا إذا كان العزم عليه مقارنًا للوعد أما لو كان عازمًا ثم عرض له مانع أو بدا له رأي فهذا لم توجد منه صورة النفاق قاله الغزالي في الأحياء .

س : هل هذه الخمس خصال فقط هي خصال المنافقين أم هناك غيرها ، ولماذا اختصت هذه الخمس بالذكر ؟

ج : يحتملُ أن يقال : إنَّما خُصَّتْ تلك الخصالُ الخمسُ بالذِّكر ؛ لأنَّها أظهرُ عليهم مِنْ غيرها عند مخالطتهم للمسلمين ، أو لأنَّها هي التي يَضُرُّون بها المسلمين ، ويقصدون بها مفسدتهم ، دون غيرها مِنْ صفاتهم ، والله تعالى أعلم .

س : نجد بعض المسلمين يقع منه إحدى هذه الخصال ، أو بعضها ، فهل يكون منافقًا ؟

ج : قال النووي في شرحه على مسلم (١ / ١٥٠) : هَذَا الْحَدِيث مِمَّا عَدَّهُ جَمَاعَة مِنْ الْعُلَمَاء مُشْكِلًا مِنْ حَيْثُ إِنَّ هَذِهِ الْخِصَال تُوجَد فِي الْمُسْلِم الْمُصَدِّق الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَكٌّ . وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ مُصَدِّقًا بِقَلْبِهِ وَلِسَانه وَفَعَلَ هَذِهِ الْخِصَال لَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِكُفْرٍ ، وَلَا هُوَ مُنَافِق يُخَلَّد فِي النَّار ؛ فَإِنَّ إِخْوَة يُوسُف صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَعُوا هَذِهِ الْخِصَال . وَكَذَا وُجِدَ لِبَعْضِ السَّلَف وَالْعُلَمَاء بَعْض هَذَا أَوْ كُلّه . وَهَذَا الْحَدِيث لَيْسَ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّه تَعَالَى إِشْكَال ، وَلَكِنْ اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي مَعْنَاهُ . فَالَّذِي قَالَهُ الْمُحَقِّقُونَ وَالْأَكْثَرُونَ وَهُوَ الصَّحِيح الْمُخْتَار : أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ هَذِهِ الْخِصَال خِصَال نِفَاق ، وَصَاحِبهَا شَبِيه بِالْمُنَافِقِ فِي هَذِهِ الْخِصَال ، وَمُتَخَلِّق بِأَخْلَاقِهِمْ . فَإِنَّ النِّفَاق هُوَ إِظْهَار مَا يُبْطِن خِلَافه ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَوْجُود فِي صَاحِب هَذِهِ الْخِصَال ، وَيَكُون نِفَاقه فِي حَقّ مَنْ حَدَّثَهُ ، وَوَعَدَهُ ، وَائْتَمَنَهُ ، وَخَاصَمَهُ ، وَعَاهَدَهُ مِنْ النَّاس ، لَا أَنَّهُ مُنَافِق فِي الْإِسْلَام فَيُظْهِرُهُ وَهُوَ يُبْطِنُ الْكُفْر . وَلَمْ يُرِدْ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِهَذَا أَنَّهُ مُنَافِق نِفَاق الْكُفَّار الْمُخَلَّدِينَ فِي الدَّرْك الْأَسْفَل مِنْ النَّار .

وَقَوْله – صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا) مَعْنَاهُ شَدِيد الشَّبَه بِالْمُنَافِقِينَ بِسَبَبِ هَذِهِ الْخِصَال .

قَالَ بَعْض الْعُلَمَاء : وَهَذَا فِيمَنْ كَانَتْ هَذِهِ الْخِصَال غَالِبَة عَلَيْهِ . فَأَمَّا مَنْ يَنْدُر فَلَيْسَ دَاخِلًا فِيهِ . فَهَذَا هُوَ الْمُخْتَار فِي مَعْنَى الْحَدِيث . وَقَدْ نَقَلَ التِّرْمِذِيُّ – يرحمه الله – عَنْهُ مَعْنَاهُ عَنْ الْعُلَمَاء مُطْلَقًا فَقَالَ : إِنَّمَا مَعْنَى هَذَا عِنْد أَهْل الْعِلْم نِفَاقُ الْعَمَل . وَقَالَ جَمَاعَة مِنْ الْعُلَمَاء : الْمُرَاد بِهِ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَن النَّبِيّ – صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَحَدَّثُوا بِإِيمَانِهِمْ ، وَكَذَبُوا ، وَاُؤْتُمِنُوا عَلَى دِينهمْ فَخَانُوا ، وَوَعَدُوا فِي أَمْر الدِّين وَنَصْره فَأَخْلَفُوا ، وَفَجَرُوا فِي خُصُومَاتهمْ . وَهَذَا قَوْل سَعِيد بْن جُبَيْر ، وَعَطَاء بْن أَبِي رَبَاح . وَرَجَعَ إِلَيْهِ الْحَسَن الْبَصْرِيُّ – يرحمه الله – بَعْد أَنْ كَانَ عَلَى خِلَافه . وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ اِبْن عَبَّاس وَابْن عُمَر – رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ – ، وَرَوَيَاهُ أَيْضًا عَنْ النَّبِيّ – صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ الْقَاضِي عِيَاض – يرحمه الله – : وَإِلَيْهِ مَالَ كَثِير مِنْ أَئِمَّتنَا . وَحَكَى الْخَطَّابِيُّ – يرحمه الله – قَوْلًا آخَر أَنَّ مَعْنَاهُ التَّحْذِير لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَعْتَاد هَذِهِ الْخِصَال الَّتِي يُخَاف عَلَيْهِ أَنْ تُفْضِي بِهِ إِلَى حَقِيقَة النِّفَاق . وَحَكَى الْخَطَّابِيُّ : – يرحمه الله – أَيْضًا عَنْ بَعْضهمْ أَنَّ الْحَدِيث وَرَدَ فِي رَجُل بِعَيْنِهِ مُنَافِق وَكَانَ النَّبِيّ – صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَا يُوَاجِههُمْ بِصَرِيحِ الْقَوْل ، فَيَقُول : فُلَان مُنَافِق ، وَإِنَّمَا كَانَ يُشِير إِشَارَة كَقَوْلِهِ – صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَا بَال أَقْوَام يَفْعَلُونَ كَذَا ؟ وَاَللَّه أَعْلَم .

وقال الشيخ عبد المحسن العباد في شرح سنن أبي داود (٤٨١ – ٥٩٨) :

وهذه الأمور كلها من النفاق العملي ، وليست من النفاق الاعتقادي ، فالنفاق الاعتقادي هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، وأهله في الدرك الأسفل من النار ، فلما كان للإسلام قوة وصولة وشوكة لم يستطيعوا أن يظهروا ما في بواطنهم فلجأوا إلى أن يتظاهروا بالإسلام وهم يبطنون الكفر ، كما ذكر الله عنهم : (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) (البقرة /١٤) . فهذه الأمور الواردة في هذا الحديث من النفاق العملي

، وليست من النفاق الاعتقادي ، لكن من أتى بهذه الأمور مستحلاً لها فإنه يكون كافرًا بهذا الاستحلال . وقوله : " من كن فيه كان منافقًا " ، أي : أن من كانت هذه الأمور مجتمعة فيه فقد وصل إلى حد عظيم فيما يتعلق بهذا الوصف ، فيكون منافقًا خالصًا في النفاق العملي وليس الاعتقادي ، فلا يكون كافرًا بمجرد اتصافه بهذه الصفات الذميمة ، ولكن يكون عنده تمكن في النفاق ، ومن وجدت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق ، وأما إذا اجتمعت كلها فيه فقد وصل إلى النهاية والقمة في النفاق العملي ، ويكفر العبد –كما قلنا – باستحلال هذه الخصال الذميمة ، فمن استحل الكذب فإنه يكفر ، وهذا فيما لا يسوغ فيه الكذب وأما ما جاء فيه جواز الكذب سواءً أكان صريحًا أم تلويحًا ، كالإصلاح بين الناس ، وبين المرأة وزوجها ، فلا بأس بذلك ، وأما استحلال الكذب مطلقًا فلاشك أنه كفر .

س : (يَدَعَهَا) : فعل مضارع ، والأمر منه (دع) ، فما الماضي منه ؟

ج : دَعْهُ ، أي : اتْرُكْهُ ، وأصْلُه : ودَعَ يَدَعُ ، كوَضَعَ يَضَعُ ، كما في الصِّحاحِ ومنْهُ الحديثُ : " دَعْ ما يُرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ " ، وقالَ عمرو بنُ مَعْدِ يكَرِبَ : (إذا لَمْ تَسْتَطِعْ أمْرًا فدَعْهُ وجاوِزْهُ إلى ما تَسْتَطِيعْ) .

أمَّا الفعل الماضي ، قالوا : أُمِيتَ ماضِيهِ ، لا يُقَالُ : وَدَعَهُ وإنَّمَا يُقَالُ في ماضِيهِ : تَرَكَهُ كما في الصِّحاحِ وزادَ : ولا وادِعٌ ، ولكن تارِكٌ ، ورُبَّمَا جاءَ في ضَرُورَةِ الشِّعْرِ ودَعَهُ ، وفي لسانِ العرب : وَدَعَهُ يَدَعُهُ : تَرَكَه ، وهي شاذَّةٌ ، وكلامُ العَرَبِ : دَعْني وذَرْني ، ويَدَعُ ويَذَرُ ، ولا يَقُولونَ : وَدَعْتُك ، ولا وَذَرْتُك ، اسْتَغْنَوا عنْهَا بتَرَكْتُكَ ، والمَصْدَرُ فيهما : تَرْكًا ، ولا يُقَالُ : وَدْعًا ولا وَذْرًا ، وحكاهُمَا بَعْضُهُم ، ولا وادِعٌ ، وقدْ جاءَ في بَيْت أنْشَدَهُ الفارِسِيُّ في البَصْرِيّاتِ :

(فأيُّهُما ما أتْبَعَنَّ فإنَّني حَزِينٌ على تَرْكِ الّذِي أنا وادِعُ)

وفي صحيح مسلم / ٨٦٥ : " لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ " .

قال في تاج العروس ٢٢ / ٣٠٦ : قال شَيْخُنا عِنْدَ قَوْلِهِ : وقدْ أُمِيتَ ماضِيهِ ، قلتُ : هي عِبارَةُ أئِمَّةِ الصَّرْفِ قاطِبَةً ، وأَكْثَرُ أهْلِ اللُّغَةِ ، ويُنافِيه ما يَأْتِي بأثَرِهِ منْ وُقُوعِه في الشِّعْرِ ، ووُقُوعِ القِراءَةِ ، فإذا ثَبَتَ وُرُودُه ولو قَلِيلاً فكَيْفَ يُدَّعَى فيهِ الإماتَةُ قلت : وهذا بعَيْنِه نَصُّ اللَّيثِ ، فإنّه قالَ : وزَعَمَتِ النَّحْوِيَّةُ أنَّ العَرَبَ أماتُوا مَصْدَرَ يَدَعُ ويَذَرُ ، واسْتَغْنَوا عنْهُ بتَرْكٍ ، والنَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أفْصَحُ العَرَبِ ، وقد رُوِيَتْ عَنْهُ هذهِ الكَلِمَةُ ، قالَ ابنُ الأثِيرِ : وإنَّمَا يُحْمَلُ قَوْلُهُم على قِلَّةِ استِعْمَالِهِ ، فهُوَ شاذٌّ في الاسْتِعْمَالِ ، صَحِيحٌ في القِيَاسِ ، وقد جاءَ في غَيْرِ حديثٍ ، حتى قُرِئَ بِهِ قولُه تعالى : (ما وَدَّعَكَ) وهذا غايَةُ ما فَتَحَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، فتَبَصَّرْ وكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ .

قلت : (والقائل عماد) : كيف يُحكم على الماضي بأنهم أماتوه ، وقد جاء على لسان خير البشر – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أفْصَح العَرَبِ ، إذ قال : " أَيْ عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ ، أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ – اتِّقَاءَ فُحْشِهِ "

(خ / ٦٠٥٤ واللفظ له ، م / ٢٥٩١) ، إلا أن يكون المقصود من قول النحاة : " أماتوه " : أي : لم يكثروا استعماله .

س : (وإِذَا وَعَدَ) ، هل هناك فرق بين (وَعَدَ ، و أَوْعَدَ) ؟

ج : قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان (٥ / ٢٧٦) :

الْوَعْد يُطْلَقُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الْوَعْدِ بِالشَّرِّ .

وَمنَ الْآيَاتِ الْمُوَضِّحَةِ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (٢٢ / ٧٢) فَإِنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فِي النَّارِ : (وَعَدَهَا اللَّهُ) بِصِيغَةِ الثُّلَاثِيِّ الَّذِي مَصْدَرُهُ الْوَعْدُ ، وَلَمْ يَقُلْ أَوْعَدَهَا وَمَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، مِنْ أَنَّ مَا وَعَدَ بِهِ الْكُفَّارَ مِنَ الْعَذَابِ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، وَأَنَّهُ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ بِذَلِكَ ، جَاءَ مُبَيَّنًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (ق) (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) الْآيَةَ (٥٠ / ٢٨) وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) أَنَّ مَا أَوْعَدَ الْكُفَّارَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ، لَا يُبَدَّلُ لَدَيْهِ ، بَلْ هُوَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : (كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ) (٥٠ / ١٤) أَيْ : وَجَبَ وَثَبَتَ فَلَا يُمْكِنُ عَدَمُ وُقُوعِهِ بِحَالٍ وَقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ) (٣٨ / ١٤) كَمَا أَوْضَحْنَاهُ فِي كِتَابِنَا : (دَفْعُ إِيهَامِ الِاضْطِرَابِ ، عَنْ آيَاتِ الْكِتَابِ) فِي سُورَةِ (الْأَنْعَامِ) ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) الْآيَةَ (٦ / ١٢٨) ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّ مَا أُوعِدَ بِهِ الْكُفَّارُ لَا يُخْلَفُ بِحَالٍ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ ، أَمَّا مَا أُوعِدَ بِهِ عُصَاةُ الْمُسْلِمِينَ ، فَهُوَ الَّذِي يَجُوزُ أَلَّا يُنَفِّذَهُ وَأَنْ يَعْفُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) الْآيَةَ (٤ / ٤٨) .

وَبِالتَّحْقِيقِ الَّذِي ذَكَرْنَا : تَعْلَمُ أَنَّ الْوَعْدَ يُطْلَقُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَمَا بَيَّنَّا ، وَإِنَّمَا شَاعَ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ ، مِنْ أَنَّ الْوَعْدَ لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الْوَعْدِ بِخَيْرٍ وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي لَا يُخْلِفُهُ اللَّهُ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمُتَوَعَّدُ بِهِ شَرًّا ، فَإِنَّهُ وَعِيدٌ وَإِيعَادٌ ، قَالُوا : إِنَّ الْعَرَبَ تَعُدُّ الرُّجُوعَ عَنِ الْوَعْدِ لُؤْمًا ، وَعَنِ الْإِيعَادِ كَرَمًا ، وَذَكَرُوا عَنِ الْأَصْمَعِيِّ أَنَّهُ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ ، فَجَاءَهُ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ فَقَالَ : يَا أَبَا عَمْرٍو ، هَلْ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ؟ فَقَالَ : لَا ، فَذَكَرَ آيَةَ وَعِيدٍ ، فَقَالَ لَهُ : أَمِنَ الْعَجَمِ أَنْتَ ؟ إِنَّ الْعَرَبَ تَعُدُّ الرُّجُوعَ عَنِ الْوَعْدِ لُؤْمًا وَعَنِ الْإِيعَادِ كَرَمًا ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

وَلَا يَرْهَبُ ابْنُ الْعَمِّ وَالْجَارُ سَطْوَتِي ... وَلَا انْثَنَى عَنْ سَطْوَةِ الْمُتَهَدِّدِ

فَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ ... لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

فِيهِ نَظَرٌ مِنْ وَجْهَيْنِ .

الْأَوَّلُ : هُوَ مَا بَيَّنَّاهُ آنِفًا مِنْ إِطْلَاقِ الْوَعْدِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى التَّوَعُّدِ بِالنَّارِ ، وَالْعَذَابِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) (٢٢ / ٧٢) وَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) (٢٢ / ٤٧) ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ الَّذِي لَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْهُ ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ فِي حُلُولِ الْعَذَابِ الَّذِي يَسْتَعْجِلُونَكَ بِهِ لَهُمْ ، لِأَنَّهُ مُقْتَرِنٌ بِقَوْلِهِ : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) (٢٢ / ٤٧) فَتَعَلُّقُهُ بِهِ هُوَ الظَّاهِرُ .

الثَّانِي : هُوَ مَا بَيَّنَّا أَنَّ مَا أَوْعَدَ اللَّهُ بِهِ الْكُفَّارَ لَا يَصِحُّ أَنْ يُخْلِفَهُ بِحَالٍ ؛ لِأَنَّ ادِّعَاءَ جَوَازِ إِخْلَافِهِ ، لِأَنَّهُ إِيعَادٌ وَأَنَّ الْعَرَبَ تَعُدُّ الرُّجُوعَ عَنِ الْإِيعَادِ كَرَمًا يُبْطِلُهُ أَمْرَانِ :

الْأَوَّلُ : أَنَّهُ يَلْزَمُهُ جَوَازُ أَلَّا يَدْخُلَ النَّارَ كَافِرٌ أَصْلًا ، لِأَنَّ إِيعَادَهُمْ بِإِدْخَالِهِمُ النَّارَ مِمَّا زَعَمُوا أَنَّ الرُّجُوعَ عَنْهُ كَرَمٌ ، وَهَذَا لَا شَكَّ فِي بُطْلَانِهِ .

الثَّانِي : مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ : عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ مَا أَوْعَدَ بِهِ الْكُفَّارَ مِنَ الْعَذَابِ ، كَقَوْلِهِ : (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) الْآيَةَ (٥٠ / ٢٨ – ٢٩) وَقَوْلِهِ تَعَالَى فِيهِمْ : (فَحَقَّ وَعِيدِ) (٥٠ / ١٤) وَقَوْلِهِ فِيهِمْ : (فَحَقَّ عِقَابِ) (٣٨ / ١٤) وَمَعْنَى حَقَّ : وَجَبَ وَثَبَتَ ، فَلَا وَجْهَ لِانْتِفَائِهِ بِحَالٍ ، كَمَا أَوْضَحْنَاهُ هُنَا وَفِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

قال الكفوي في الكليات : الوعد الترجية بالخير وقد اشتهر أن الثلاثي من الوعد يستعمل في الخير والمزيد فيه في الشر وليس الأمر فيجب أن يعلم أن ذلك فيما إذا أسقط الخير والشر بترك المفعول رأسًا كما في قوله

وإِنّي وإنْ أَوْعَدْتُه أَوْ وَعَدْتُه لَمخْلِفُ إيعادِي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي

وقال بعضهم أَوْعَد إذا أُطلق فهو في الشر وأما وعد فيقال : (وعده الأمر ووعده به) خيرًا وشرًا فإذا أطلقا قيل في الخير وعد وفي الشر أوعد أو حكمًا بجعله أمرًا مبهمًا يحتمل الخير والشر وكذا المزيد ، ولما كان الشأن في الوعد تقليل الكلام هربًا من شائبة الامتنان ناسبه تقليل حروف فعله بخلاف الإيعاد فإن مقام الترهيب يقتضي مزيد التشديد والتأكيد الأكيد فيناسبه تكثير حروف الوعيد .

س : هل المقصود بالنفاق هنا المضاد للاسلام ، الذي يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه ، و الذي كان على عهد رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، ونزل القرآن بذم أهله ، وأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار ؟

ج : النفاق منه ما هو عملي ، ومنه ما هو اعتقادي ، و منه ما هو أكبر ، وأصغر ، والمقصود هنا النفاق العملي والأصغر ، وليس الذي ذكر في السؤال فالذي ذكر النفاق الأكبر .

س : إذا فعل المسلم بعض هذه الخصال فهل يصبح فيه خصلة من النفاق ، وهل من الممكن أن يجتمع في الإنسان إيمان ونفاق ؟

ج : قد يجمع المسلم بين إيمان ونفاق ، فقد يفعل هذه الخصال مع أنه يأتي بأركان الإسلام .

الحديث التاسع والأربعون

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :
" لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ؛ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا " .
رَوَاهُ أَحْمَدُ ، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكُبْرَى ، وَابْنُ مَاجَهْ ، وَالْحَاكِمُ ، وَالتِّرْمِذِيُّ وقال : حَسَنٌ صَحِيحٌ [(١) (٢)] .

المعنى الإجمالي

هذا الحديث أصلٌ في التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ ، مع الأخذ بالأسباب المشروعة ، والأخذ بها لا يُنافي التوكلَ ، وقد أرشد رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى الجمع بين الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله .

قَالَ الْمَنَاوِيُّ : أَيْ تَغْدُو بَكْرَةً وَهِيَ جِيَاعٌ وَتَرُوحُ عِشَاءً وَهِيَ مُمْتَلِئَةُ الْأَجْوَافِ ، فَالْكَسْبُ لَيْسَ بِرَازِقٍ بَلْ الرَّازِقُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى فَأَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ التَّوَكُّلَ لَيْسَ التَّبَطُّلَ وَالتَّعَطُّلَ ، بَلْ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ التَّوَصُّلِ بِنَوْعٍ مِنْ السَّبَبِ لِأَنَّ الطَّيْرَ تُرْزَقُ بِالسَّعْيِ وَالطَّلَبِ ، وَلِهَذَا قَالَ أَحْمَدُ : لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى تَرْكِ الْكَسْبِ بَلْ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى طَلَبِ الرِّزْقِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ لَوْ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ فِي ذَهَابِهِمْ وَمَجِيئِهِمْ وَتَصَرُّفِهِمْ وَعَلِمُوا أَنَّ الْخَيْرَ بِيَدِهِ لَمْ يَنْصَرِفُوا إِلَّا غَانِمِينَ سَالِمِينَ كَالطَّيْرِ .
لَكِنْ اِعْتَمَدُوا عَلَى قُوَّتِهِمْ وَكَسْبِهِمْ وَذَلِكَ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ اِنْتَهَى .

---

(١) قال الشيخ الألباني في (صحيح الترمذي / ٢٣٤٤) ، (صحيح ابن ماجة / ٤١٦٤) : صحيح .

(٢) قلت : على كثرة الروايات إلا بينها اختلافات كالتالي :

" لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا " (أحمد / ٢٠٥) .

" لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا " (أحمد / ٣٧٠) .

" لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ألا ترون أنها تغدو خماصًا وتروح بطانًا " (أحمد / ٣٧٣) .

" لَو أَنَّكُم تَوَكَّلُون عَلَى الله حَق تَوَكُّله ، لَرُزِقْتُم كَمَا تُرْزَق الطَّيْر ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوح بِطَانًا " . (النَّسَائِيُّ فِي الْكُبْرَى / ١١٨٠٥) .

" لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا " . (ابن ماجه / ٤١٦٤)

" لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا " . (الحاكم / ٧٨٩٤) .

" لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا " . (الترمذي / ٢٣٤٤) .

قلت : هذه الرواية التي في المتن هي رواية البَزَّار بحروفها وفيها : " لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا " . (البَزَّار / ٣٤٠) . ونلحظ الآتي :

١ – كلمة (تَوَكَّلُونَ) في جملة (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ) عند (أحمد / ٢٠٥) (لو أنكم تتوكلون) (بتاءين) .

٢ – كلمة (تَوَكَّلُونَ) في جملة (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ) عند (أحمد / ٣٧٠) (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ) ، وكذا عند (الحاكم / ٧٨٩٤) ، و (ابن ماجه / ٤١٦٤) .

٣ – كلمة (تَوَكَّلُونَ) في جملة (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ) عند (أحمد /٣٧٣) (لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ) بزيادة كلمة (كُنْتُمْ) ، وكذا عند (الترمذي/ ٢٣٤٤) .

٤ – كلمة (لَرَزَقَكُمْ) عند (النَّسَائِيُّ فِي الْكُبْرَى / ١١٨٠٥) ، و (الترمذي/ ٢٣٤٤) (لَرُزِقْتُم) .

٥ – كلمة (يَرْزُقُ) عند (النَّسَائِيُّ فِي الْكُبْرَى / ١١٨٠٥) (تُرْزَق) .

٦ – كلمة (يَرْزُقُ) عند (الترمذي / ٢٣٤٤) (يُرْزَقُ) ، بضم الياء ، فعل مضارع مبني لما لم يُسَمَّ فاعله .

٧ – جملة (كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا) عند (أحمد /٣٧٣) (كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ألا ترون أنها تَغْدُو) ، بزيادة جملة (ألا ترون أنها) .

توضيح الحديث

(المعنى)

(لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ) : بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ لِلتَّخْفِيفِ أَيْ تَعْتَمِدُونَ .

(حَقَّ تَوَكُّلِهِ) : بالاعتماد على الله عز وجل دون غيره في استجلاب المصالح ، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة ، مع الإيمان يَقِينًا أَنْ لَا فَاعِلَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ لَا مُعْطِيَ وَلَا مَانِعَ إِلَّا هُوَ ثُمَّ تَسْعَوْنَ فِي الطَّلَبِ بِوَجْهٍ جَمِيلٍ وَتَوَكُّلٍ .

(تَغْدُو) : أَيْ تَذْهَبُ أَوَّلَ النَّهَارِ .

(خِمَاصًا) : بِكَسْرِ الْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ جَمْعُ خَمِيصٍ أَيْ جِيَاعًا ، ضامرة البطون من الجوع .

(وَتَرُوحُ) : أَيْ تَرْجِعُ آخِرَ النَّهَارِ .

(بِطَانًا) : بِكَسْرِ الْمُوَحَّدَةِ جَمْعُ بَطِينٍ ، وَهُوَ عَظِيمُ الْبَطْنِ وَالْمُرَادُ شِبَاعًا ، ممتلئة البطون .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ١٨)

١- مشروعية قول (لو) ، وأن النهي عن قولها ليس على إطلاقه .

٢- فضيلة التوكل ، وأنه من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق ، قال الله تعالى :(ومن يتوكل على الله فهو حسبه).

٣- وجوب التوكل على الله والاعتماد عليه في جلب كلِّ مطلوب ، ودفع كلِّ مرهوب .

٤- أن التوكل لا ينافي النظر إلى الأسباب ، فإنه أخبر أن التوكل الحقيقي لا يضاده الغدو والرواح في طلب الرزق ، ولهذا سئل الإمام أحمد عن رجل جلس في بيته ، أو في المسجد وقال : لا أعمل شيئا حتى يأتيني رزقي ، قال أحمد : هذا رجل جهل العلم واستدل بهذا الحديث .

٥- للتوكل حق وحقيقة .

٦- التوكل عبادة لا يجوز صرفها لغير الله .

٧- الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله ، وذلك لا يُنافي التوكل .

٨- التوكل من أسباب الرزق .

٩- الرزق مضمون ومُقدَّر .

١٠- يحثنا النبى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على العمل بجدٍ طلبًا للرزق وعدم التواكل .

١١- الإسلام يدعو إلى النشاط والبكور ، ويحذّر من الكسل والتواكل .

١٢- تنويع النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في وسائل التعليم .

١٣- التعليم بضرب الأمثال .

١٤- عدم الاستحياء من ضرب الأمثال ولو بمخلوقات ضعيفة ، وهذا اقتداءً بالقرآن .

١٥- ذكر الأمثال يقرب المعنى للأذهان .

١٦- رعاية الله للمخلوقات ، وتسبيب أسباب الرزق لهم .

١٧- رحمة وعناية الله بالطير .

١٨- بيان أن الطير تذهب صباحًا وبطونها خاوية ، وترجع وبطونها ممتلئة من رزق الله .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : جاء النهي عن أن نقول كلمة (لو) فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ " (م / ٢٦٦٤) ، فهل النهي عن قولها على إطلاقه ، وكيف الجمع ؟

ج : النهي عن قولها ليس على إطلاقه ، قال العلامة العثيمين في القول المفيد على كتاب التوحيد (٢ / ٣٦٢) :

" لو" تستعمل على عدة أوجه :

الوجه الأول : أن تستعمل في الاعتراض على الشرع ، وهذا محرم ، قال الله تعالى : (لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا) (آل عمران / ١٦٨) . في غزوة أحد حينما تخلف أثناء الطريق عبد الله بن أبي في نحو ثلث الجيش ، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلا اعترض المنافقون على تشريع الرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وقالوا : لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قتلوا ، فرأينا خير من شرع محمد ، وهذا محرم وقد يصل إلى الكفر .

الثاني : أن تستعمل في الاعتراض على القدر ، وهذا محرم أيضًا ، قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا) (آل عمران / ١٥٦) أي : لو أنهم بقوا ما قتلوا ؛ فهم يعترضون على قدر الله .

الثالث : أن تستعمل للندم والتحسر ، وهذا محرم أيضًا ؛ لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهي عنه ؛ لأن الندم يكسب النفس حزنًا وانقباضًا ، والله يريد منا أن نكون في انشراح وانبساط ، قال – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَىْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ " (م / ٦٩٤٥) .

مثال ذلك : رجل حرص أن يشتري شيئًا يظن أن فيه ربحًا فخسر ، فقال : لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة ؛ فهذا ندم وتحسر ، ويقع كثيرًا ، وقد نهي عنه .

الرابع : أن تستعمل في الاحتجاج بالقدر على المعصية ؛ كقول المشركين : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) (الأنعام / ١٤٨) . وقولهم : (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ) (الزخرف / ٢٠) وهذا باطل .

الخامس : أن تستعمل في التمني ، وحكمه حسب المتمنى : إن كان خيرًا فخير ، وإن كان شرًا فشر ، و عن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في قصة النفر الأربعة قال أحدهم : " لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ " فهذا تمنى خيرًا ، وقال الثاني : " لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ " فهذا تمنى شرًا . فقال النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في الأول :

" فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ " وقال في الثاني : " فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ " صحيح الترمذي : الزهد (٢٣٢٥) .

السادس : أن تستعمل في الخبر المحض . وهذا جائز ، مثل : لو حضرت الدرس لاستفدت ، ومنه قوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ وَلَوْلا أَنَّ مَعِي الْهَدْيَ لأَحْلَلْتُ " (خ / ١٦٥١) فأخبر النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدي ولأحل ، وهذا هو الظاهر لي . وبعضهم قال : إنه من باب التمني ،كأنه قال : ليتني استقبلت من أمري ما استدبرت حتى لا أسوق الهدي . لكن الظاهر : أنه خبر لما رأى من أصحابه ، والنبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لا يتمنى شيئًا قدَّر الله خلافه .

س : هل من التوكل أن يجلس أحدنا في بيته مُوقنًا أن الرزق سيأتيه ، دون الأخذ بالأسباب ؟

ج : التوكل لا ينافي النظر إلى الأسباب ، فإنه أخبر أن التوكل الحقيقي لا يضاده الغدو والرواح في طلب الرزق ، ولهذا سئل الإمام أحمد عن رجل جلس في بيته ، أو في المسجد وقال : لا أعمل شيئا حتى يأتيني رزقي ، قال أحمد : هذا رجل جهل العلم واستدل بهذا الحديث فالمقصود : الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله ، وذلك لا يُنافي التوكل ، وقد أرشد رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى الجمع بين الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله ، وَلِهَذَا قَالَ أَحْمَدُ : لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى تَرْكِ الْكَسْبِ بَلْ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى طَلَبِ الرِّزْقِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ لَوْ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ فِي ذَهَابِهِمْ وَمَجِيئِهِمْ وَتَصَرُّفِهِمْ وَعَلِمُوا أَنَّ الْخَيْرَ بِيَدِهِ لَمْ يَنْصَرِفُوا إِلَّا غَانِمِينَ سَالِمِينَ كَالطَّيْرِ . لَكِنْ اِعْتَمَدُوا عَلَى قُوتِهِمْ وَكَسْبِهِمْ وَذَلِكَ لا يُنَافِي التَّوَكُّلَ اِنْتَهَى .

الحديث الخمسون

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : " أَتَى النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رجلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا ، فَبَابٌ نَتَمَسَّكُ بِهِ جَامِعٌ ، قَالَ :
" لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " . رواهُ أحمدُ [١] [٢] .

المعنى الإجمالي

يتجلَّى هنا فضل وأهمية ذكر الله – عز وجل – وأنه شيء يسير يجلب الثواب والأجر الكثير فينبغي على الإنسان أن يجعل لسانه كثير الذكر مداومًا عليه .

توضيح الحديث

(المعنى)

(إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ) : قَالَ الطِّيبِيُّ : الشَّرِيعَةُ مَوْرِدُ الْإِبِلِ عَلَى الْمَاءِ الْجَارِي وَالْمُرَادُ مَا شَرَعَ اللَّهُ وَأَظْهَرَهُ لِعِبَادِهِ مِنْ الْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ اِنْتَهَى . قَالَ الْقَارِي : الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا هُنَا النَّوَافِلُ .

(قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ) : بِضَمِّ الْمُثَلَّثَةِ وَيُفْتَحُ أَيْ غَلَبَتْ عَلَيَّ بِالْكَثْرَةِ حَتَّى عَجَزْت عَنْهَا لِضَعْفِي .

(فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ) : قَالَ الطِّيبِيُّ : التَّنْكِيرُ فِي بِشَيْءٍ لِلتَّقْلِيلِ الْمُتَضَمِّنِ لِمَعْنَى التَّعْظِيمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى :

(وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ) وَمَعْنَاهُ أَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ يَسِيرٍ مُسْتَجْلِبٍ لِثَوَابٍ كَثِيرٍ قَالَ الْقَارِي : وَإِلَّا ظَهَرَ أَنَّ التَّنْوِينَ لِمُجَرَّدِ التَّنْكِيرِ اِنْتَهَى . قُلْت : بَلْ الْأَظْهَرُ هُوَ مَا قَالَ الطِّيبِيُّ فَتَأَمَّلْ .

(نَتَمَسَّكُ بِهِ) : أَيْ نتعَلَّقُ بِهِ وَنستَمْسِكُ وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَتْرُكُ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ رَأْسًا بَلْ طَلَبَ مَا يَسْتَمْسِكُ بِهِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ عَنْ سَائِرِ مَا لَمْ يُفْتَرَضْ عَلَيْهِ قَالَهُ الطِّيبِيُّ : " قَالَ لَا يَزَالُ " أَيْ هُوَ أَنَّهُ لَا يَزَالُ . ليسهل عني أداءها ، أو يحصل به فضل ما فات منها من غير الفرائض ، ولم يرد الاكتفاء به عن الفرائض والواجبات .

(لِسَانُك رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) : أَيْ طَرِيًّا مُشْتَغِلًا قَرِيبَ الْعَهْدِ مِنْهُ وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى الذِّكْرِ .

---

(١) قلت : هذا الحديث رواه أحمد (١٧٧١٦ وهذه هي ، ١٧٧٣٤)، والترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجة (٣٧٩٣)، وبينها فروق يسيرة كالتالي :

١ – جملة (إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا) عند (أحمد / ١٧٧٣٤) (قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ) ، وكذا عند (الترمذي / ٣٣٧٥) ، و (ابن ماجة / ٣٧٩٣) .

٢ – جملة (فَبَابٌ نَتَمَسَّكُ بِهِ جَامِعٌ) عند (أحمد / ١٧٧٣٤) (فمرني بأمر أتثبت به) ، وعند (الترمذي / ٣٣٧٥) (فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ) ، وعند (ابن ماجة / ٣٧٩٣) (فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ) .

٣ – جملة (رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) عند (أحمد / ١٧٧٣٤) (رطبًا بذِكْرِ اللَّهِ) .

(إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فمرني بأمر أتثبت به فقال لا يزال لسانك رطبا بذكر الله عز و جل) (أحمد / ١٧٧٣٤) .

(إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ ، قَالَ : لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) . (الترمذي / ٣٣٧٥) .

(إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ ، فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ ، قَالَ : لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ) . (ابن ماجة / ٣٧٩٣) .

(٢) قال الشيخ الألباني في (صحيح الترمذي / ٣٣٧٥) ، (صحيح ابن ماجة / ٣٧٩٣) : صحيح .

(المستفاد) (وعدده في هذا الحديث / ٥)

١- فضل الصحابة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُم - وحرصهم على الخير والأسئلة عن أمور دينهم .

٢- سؤال الصحابة عن جوامع الخير .

٣- فضل المداومة على الأعمال الصالحة وإن قلت .

٤- فضل وأهمية ذكر الله عزَّ وجلَّ والمدوامة عليه .

٥- الذكر يرطب اللسان .

الأسئلة والأجوبة التدبرية

س : هل يصح أن يترك أحدنا شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ ، ويتمسك بباب واحد ؟

ج : لَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَتْرُكُ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ رَأْسًا بَلْ طَلَبَ مَا يَسْتَمْسِكُ بِهِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ عَنْ سَائِرِ مَا لَمْ يُفْتَرَضْ عَلَيْهِ قَالَهُ الطِّيبِيُّ : " قَالَ لَا يَزَالُ " أَيْ هُوَ أَنَّهُ لَا يَزَالُ . ليسهل عني أداءها ، أو يحصل به فضل ما فات منها من غير الفرائض ، ولم يرد الاكتفاء به عن الفرائض والواجبات .

س : هل الذكر يرطب اللسان ، وكيف ؟

ج : لا تزال رطوبة لسانك مستمرة من الذكر، أَيْ طَرِيًّا مُشْتَغِلًا قَرِيبَ الْعَهْدِ مِنْهُ وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى الذِّكْرِ .

النَظْمُ المعين

على حفظ الأربعين (١)

هذا نظم لأحاديث الأربعين النووية .. تسهيلا على طالبه ... لناظمه / سليمان بن أحمد بن عبدالعزيز الدويش

إذ قال : الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد

فهذا نظم متواضع لأحاديث الأربعين النووية وتكملة أحاديث ابن رجب التي شرحها في كتابه المفيد (جامع العلوم والحكم)

قال ناظمه : وقد سطرته مساهمة في نشر العلم وتسهيلا على طالبه ذكرت فيه الحديث ومَنْ رواه مِن الصحابة – رضي الله عنهم – ومَنْ خرجه من أئمة الحديث وأشرت إليه ببعض ألفاظه وضمنت ذلك بعض الفوائد . أقدمه سائلا الله تعالى أن يجعله مؤديًا للغرض نافعًا في بابه وأن يرزقني الإخلاص فيه والقبول وقد قلت :

1	قال سليمان لربي الحمد	حمدًا كثيرًا طيبًا وبعد
2	صلى الإله دائمًا وسلّما	على نبي للأنام علّما
3	والآل والأصحاب ثم من سلك	سبيله ما دار قطب أو فلك
4	ثم الحديث بعد قد يطول	فاسمع هديت للذي أقول
5	إليك نظم أربعين النووي	مما انتقى من الحديث النبوي
6	أول ذاك ما روى الشيخان	عن عمر الفاروق بالبرهان
7	فإنما الأعمال بالنيات	وهي سبيل الفوز بالهبات
8	وبعد هذا قد روى القشيري	عن النبي الصادق البشيرِ
9	قال أبو حفص جلسنا حوله	فجاء جبريل فقال قوله
10	وعلّم الناس أمور الدين	على لسان الصادق الأمين
11	وبعد ذاك ما روى البخاري	ومسلم في صادق الأخبارِ
12	حديث عبد الله وهو ابن عمر	قد بني الإسلام لفظه ظهر
13	ثم حديث الصادق المصدوق	عن طور خلق الله للمخلوق
14	أخرجه الشيخان في الصحيح	عن ابن مسعودِ الفتى النصوح
15	ثم حديث أمِنا الصِدِّيقة	فيمن يريد غير ذي الطريقة
16	عند البخاري وعند مسلمْ	وزاد لفظًا غير هذا فاعلم
17	وبعد ذا ماجاء للنعمان	ولفظه في غاية البيان
18	ونصه إن الحرام بيّن	قد خرجاه وهو نص متقن
19	ثم حديث ديننا النصيحة	ومسلم ضمنه صحيحة
20	عن الصحابي تميم الدارى	عن النبي المصطفى المختار
21	ثم الذي قد خرجا لابن عمر	وفيه أمر بقتال من كفر

22	حتى يدين الناس بالشهادة		ويخلصوا لله في العبادة
23	وبعد ذا ما خرجا عن الرضا		أبي هريرةٍ حبيب المرتضى
24	حديث ما نهيت فاتركوه		والأمر إن أطقتموا فأتوه
25	ثم الذي رواه عنه مسلم		وقول خير الخلق ليس يكتم
26	الله ربي طيب لا يقبل		إلا الذي بالطيبات يعمل
27	ثم حديث الحسن السبط الذي		عند النسائي وعند الترمذي
28	وقال عنه حسن صحيح		دع ما يريب لفظه صريح
29	ثم حديث حسن في الترمذي		وغيره لما رواه يحتذي
30	فعن أبي هرٍ رفيع الشأن		الحسن في تركك ما لا يعني
31	ثم الذي قد خرجاه عن أنس		من خير خلق الله علمه اقتبس
32	لا يؤمن المؤمن قبل أن يحبْ		لغيره مثل الذي له أحبْ
33	وبعده ما رويا للهذلي		وهو ابن مسعود رفيع المنزل
34	الدم معصوم لكل مسلمِ		إلا ثلاث إن أتاها فافهمِ
35	ثم الذي عندهما للثقةِ		وفيه قل خيرًا وإلا فاصمتِ
36	أبو هريرةٍ لنا رواهُ		كما روى لنا الذي تلاهُ
37	حديث قال أوصني لا تغضبْ		عند البخاريِّ الفتى المؤدبْ
38	ثم حديث جاء عن شداد		ومسلم رواه بالإسناد
39	أن أحسنوا في ذبحكم والقتلة		والعبد إن يحسنْ سيلقى فعله
40	ثم الذي روى معاذ بن جبل		وجندَب ذاك الغفاري البطل
41	وقد رواه الترمذيْ وحسنه		صححه أيضًا فراجع سننه
42	قال اتق الله بحيث كنت		فإن حفظت قوله ظفرت
43	ثم حديث حسن صحيح		في الترمذي لفظه فصيح
44	وهو حديث الحبر يا غلام		ختامه قد جَفَّت الأقلام
45	ثم روى أبو مسعودِ البدري		عند البخاري عظيم القدرِ
46	قد أدرك الناس من النبوة		فاحفظه يا هذا بكل قوة
47	وعن أبي عمروٍ وقيل عَمْرَة		سفيان عند مسلمٍ كالدرة
48	حديث قل آمنت ثم فاستقم		وهو عظيم من جوامع الكلم
49	أيضًا حديث جابر الأنصاري		عن سائل لسيد الأخيار
50	يقول إن صليت مكتوبات		وذاك عند مسلم بالذات

51	يليه نقل الأشعري المحكم		الحارث بن عاصم في مسلم
52	أوله قال الطهور شطر		ثم الصلاة نور وهي أجر
53	وعن أبي ذر ويدعى جُندَب		حديث يا عبادِ قاله الرب
54	أشرف ما رواه أهل الشام		ومسلم رواه بالتمام
55	كما روى عنه الحديث التالي		أكرم به والله من مقال
56	أهل الدثور ذهبوا بالأجر		وأكتفي منه بهذا القدر
57	وفي الصحيحين حديث الدوسي		أعني أبا هرٍّ بغير لبس
58	كل سلامى فعليه صدقة		فاعجب لدين قد أتى بالشفقة
59	ثم حديث البر إحسان الخلق		هذا الذي به النبي قد نطق
60	خرجه مسلم للنَّواس		ذاك ابن سمعان شديد الباس
61	وقد أتى في الدارميْ وأحمد		مما روى وابصة بن معبد
62	البر ما أفتاك فيه القلب		أو حكَّ في الصدر فذاك الذنب
63	وهو حديث حسن في الجملة		لكن في الإسناد بعض علّة
64	وعن أبي نجيحٍ العرباضِ		في وعظ سيّد الأنام الراضي
65	عند أبي داودَ جاء في السنن		والترمذيْ قال صحيح وحسن
66	ثم الذي روى معاذ بن جبل		حديث أرشدني إلى خير عمل
67	فقال قد سألتَ عن عظيم		إياك أن تشرك بالعليم
68	وقد رواه الترمذيُّ بالسند		وهو صحيح حسن فليعتمد
69	ثم حديث الخشني فاحفظنْ		في الدارقطنيِّ وغيره حسن
70	ما فرض الله فلا تضيعوا		والصمت عن بعض الأمور أنفع
71	ثم حديث ازهد بدنيا الناس		وقد روى ذاك أبو العباس
72	سهل بن سعدِ الساعديُّ فاستبنْ		عند ابن ماجةٍ وغيرِه حسنْ
73	ثم الذي فيه يقول لا ضرر		ولا ضرار وهو لفظ اشتهر
74	وذاك عن أبي سعيدِ الخدري		كذا ابن ماجةٍ رواه فادرِ
75	والدارقطنيّ وحسناه		ومالك أيضًا لنا رواه
76	لكنه قال حديث مرسل		وبعضهم لغير هذا نقلوا
77	ثم حديث حسن في البيهقي		وغيره عن ابن عباسِ التقي
78	لو أعطي الناس بدعواهم وفي		صحيحي الشيخين بعضه روي
79	ثم حديث مسلم ذي القدر		يرويه عن أبي سعيد الخدري
80	إذا رأيتَ منكرًا فأنكر		باليد فاللسان لا تؤخر

81	وبعد ذا أبو هريرةٍ روى		لنا حديثين ومسلم حوى
82	حديث لا تحاسدوا وكونوا		في الله إخوانًا لبعض لينوا
83	ومن يُنفِّسْ كربة عن مؤمن		تكن له يوم الحساب مأمن
84	ثم حديث في الصحيحين أتى		عن ابن عباس فأنعم بالفتى
85	عن النبي قال : قال الله :		والخير والله بما حواه
86	الحسنات في الجزاء عشرا		والسيئات إن تركن غفرا
87	ثم الحديث بعده القدسي		رواه عن نبينا الدوسي
88	يقول من عادى لنا وليًا		عند البخاري أتى مرويًا
89	ثم روى ابن ماجةٍ والبيهقي		عن حبر هذي الأمة الموفق
90	تجاوز الله عن الأخطاء		أعظم بذا والله من عطاء
91	ثم حديث بعد ذا لابن عمر		كن كالغريب للسبيل قد عبر
92	وزاد عبد الله في النصيحة		وفي البخاري أتت صريحة
93	ثم حديث لابن عمروِ المؤتمنظ		قال النواوي صحيح وحسن
94	وقال رُوِّينا كذا في الحجة		تصحيحه والمقدسي حجة
95	أتبع هواك للذي قد جاءَ		عن النبي إن ترد نجاءَ
96	ثم الذي عن أنس عن حِبِّه		فيما رواه المصطفى عن ربه
97	وهو حديثُ يا ابن آدم الذي		أتى صحيحًا حسنًا في الترمذي
98	لو جئتني ملء قراب الأرض		خطيئة غفرت يوم العرض
99	لمؤمن بر به موحدِ		وليس هذا للكفور الملحدِ
100	ثم أتى الشيخ الإمام ابن رجب		بشرحها وجاء فيه بالعجب
101	وقد أتى فيه بما يجلو الظلم		سماه جامع العلوم والحكم
102	وأكمل العدة خمسين وقد		أبان عن رتبتها بل ونقد
103	أولها عن ابن عباس الرضا		بأهلها فلتلحقوا الفرائضا
104	قد خرجاه في الصحيحين بلا		شك وخرجا الذي له تلا
105	عن أمنا عائشة المصونة		ومرة عن غيرها يروونه
106	يحرم من رضاعة ما يحرمُ		من نسب ومن وِلاَدٍ فاعلموا
107	ثم حديث جابر في الخمر		في عام فتح مكةَ فلتدر
108	وفيه تحريم شحوم المَيْتَه		من أي وجه كان قد حويته
109	كذا بيان حالة اليهود		في الغدر والخداع والجحود

110	وهو دليل واضح البرهان		هذا الذي قد خرج الشيخان
111	وقد روى الجعفي يا همامُ		حديث كلِّ مسكر حرام
112	فعن أبي موسى سألتُ فاعلمنْ		وذاك عند بعثه إلى اليمن
113	ثم الذي رووا عن المقدام		في هدي أزكى الناس في الطعام
114	حسبك منه ما يقيم الصلبا		وليس ما يَطغى فيعمى القلب
115	خرجه له الإمام أحمد		والترمذيْ حسنه فلتشهد
116	كذا النسائي مع ابن ماجة		نحن إليه في أمسِّ الحاجة
117	وبعد ذاك ما روى ابن عمروِ		في النهي عن صفات أهل الغدر
118	أربعُ من كن به فإنهْ		منافق وذاك فاحذَرَنَّه
119	قد خرجاه وهو لفظ كالدرر		وبعده يأتي الحديث عن عمر
120	لو أنكم توكلون حقًا		لنلتموا من الكريم الرزقَ
121	وقد رواه أحمد الشيباني		والترمذي يا أولي العرفان
122	وقال عنه حسن صحيح		ثم النسائي الفتى المليح
123	كذا ابن ماجة روى والحاكم		ثم ابن حبان الإمام العالم
124	يليه ما رواه عبد الله		هو ابن بُسر دونما اشتباه
125	قد كثرت يا حبنا الشرائع		فهل عسى باب لهذا جامع
126	لسانك اجعله بذكر اللهِ		رطبًا ولا تغفل كفعل اللاهي
127	وقد أتى بلفظه في المسند		للعالم الحبر الإمام أحمد
128	هذا الذي جادت به القريحة		بداية طيبة مليحة
129	من خائف راجٍ لعفو ربه		معترف بجهله وذنبه
130	وأختم القول بحمد ربي		مصليًا على النبي حبي
131	مبتهلاً لعالم الغيوب		بأن ينجينا من الكروب
132	يا رب فاغفر لي ذنوبي كلها		واستر عيوبي دقها وجلها

تم النظم بحمد الله تعالى وتوفيقه مؤملا التكرم بإفادتي بما يراه المطلع من زلل وأن يكرمني بإيضاح ما يلحظه من خلل والله أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم وكتبه سليمان بن أحمد بن عبدالعزيز الدويش

وقد أذنت لمن أراد توزيعها وتنسيقها ونشرها وطباعتها لوجه الله تعالى .

النَظْمُ المعين

على حفظ الأربعين(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على رسوله الأمين– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –

١ – الحَمْـــدُ للهِ عَلَـــى مَـــا أنْعَمَـــا مِـنْ سُـنَنٍ تَجْلُـو عَـنِ الْقَلْـبِ الْعَمَـى

٢ – يَاطَالِبًـــا تَحَفُّـــظُ الأَرْبَعِينَـــا هَـــاكَ نُظَيْمًـــا هَلْهَـــلاً مُعِينَـــا

٣ – وَعُهـــدَةُ التَّخـــرِيجِ لِلنَّـــوَاوِي تَرَكْتُهَـــا فَهْـــوَ الإِمَـــامُ الْحَـــاوِي

٤ – رَوَى حَـــدِيثَ إِنَّمَـــا الأَعْمَـــالُ عُمَـــرُ وَهْـــوَ الصَّـــاحِبُ الْمِفضَـــالُ

٥ – وَبَيْنَمَـــا نَحْـــنُ جُلُـــوسٌ قَـــدْ رَوَى طُـــوبَى لَـــهُ كَـــمْ شَـــرَفٍ لَـــهُ حَـــوَى

٦ – وَبُـــنِيَ الإِســـلاَمُ لاِبـــنِ عُمَـــرِ وَلاِبـــنِ مَسْـــعُودٍ هُمَامِنَـــا السَّـــرِي

٧ – مَرَاتِـــبُ الْخَلْـــقِ لَـــدَى مَـــنْ نَفَثَـــا وَقَـــدْ رَوَتْ عَائِشَـــةٌ مَـــنْ أَحـــدَثَا

٨ – وَبـــنُ بَشِـــيرٍ أَقْصُـــدُ النُّعْمَـــانَا إِنَّ الْحَـــــلاَلَ بَـــــيِّنٌ أَتَانَا

٩ – وَدِينُنَـــا نَصِـــيحَةٌ لِلـــدَّارِي أُمِـــرْتُ لاِبـــنِ عُمَـــرَ الْمُخْتَـــارِ

١٠ – وَمَـــا نَهيـــتُكُمْ لِنجـــلِ صَـــخْرِ أَبِي هُرَيـــرَةَ الإِمَـــامِ الْفَخـــرِ

١١ – وَاللهُ طَيِّـــبٌ وَلَـــيْسُ يَقْبَـــلُ عَنـــهُ كَـــذَاكَ عِنـــدَ مَـــنْ قَـــدْ نَقَلُـــوا

١٢ – دَعْ مَـــا يَرِيبـــكَ أَتَـــى عَـــنِ الْحَسَـــنْ رَيْحَانَـــةِ النَّـــبِي نِعـــمَ الْمـــؤْتَمَنْ

١٣ – وَعَـــنْ أَبِي هُرَيـــرةٍ مِـــنْ حسْـــنِ إِسْـــلاَمِ مَـــرْءٍ تَـــرْكُ مَـــا لاَ يَعْـــنِي

١٤ – وَقَـــدْ أَتَـــى عَـــنْ أَنَـــسٍ لاَيُـــؤْمِنُ وَلاَ يَحِـــــلُّ دَمُ ذَاكَ الْمـــــؤْمِنُ

١٥ – إِلاَّ بِإِحْـــدَى مِـــن ثَـــلاَثٍ لِلأَبَـــرْ أَيْ نَجْـــلِ مَسْـــعُودٍ الـــذِي قَبـــلُ غَبَـــرْ

١٦ – مَـــنْ كَـــانَ يـــؤْمِنُ وَلاَتَغْضَـــبْ كِـــلاَ هَـــذَيْنِ لِلدَّوْسِـــيِّ وَهْـــوَ قَـــدْ خَـــلاَ

١٧ – وَكُتِـــبَ الإِحسَـــانُ عَـــنْ شَـــدَّادِ أَيْ نَجْـــلِ أَوْسٍ حَـــائِزِ الْمـــرَادِ

١٨ – وَجُنْـــدُبٌ عَنـــهُ اتَّـــقِ الإِلَـــهَ وَبَعْـــدَهُ وَصِـــيَّةٌ رَوَاهَـــا

١٩ – حَبرُ الْقُرَانِ والْفَتَى الْمَرْضِيِّ   وَعُقْبَةُ بنُ عمرٍو الْبَدْرِيّ

٢٠ – عَنهُ إِذَا لَمْ تَسْتَحِي، اتْبَعِ الْكَلِمْ   آمَنتُ بالإِلَهِ ثُمَّتَ استَقِمْ

٢١ – رَوَى أبوعَمْرٍو وَذاسُفْيَانُ   وَجَابِرٌ عَنهُ رَوَى الْفُرْسَانُ

٢٢ – أرَيتَ إِنْ صَلَّيْتُ مَا قَدْ فُرِضَا   وَصُمْتُ رَمضَانَ كَسَبْتُ لِلرِّضَا

٢٣ – ثُمَّ الطَّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ نُمِي   لِلأَشْعَرِيِّ الحَارِثِ بنِ عَاصِمِ

٢٤ – وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ أَخِي غِفَارِ   النَّهيُ عَنْ ظُلْمٍ حَدِيثُ الْبَارِي

٢٥ – وَعَنهُ مَارُوِيَ فِي الأُجُورِ   إِذْ ذَهَبُوا بِهَا ذَوِي الدُّثُورِ

٢٦ – كلُّ سلاَمَى عَنْ أَبِي هِرِّ الأَغَرْ   وَالْبِرُّ عَنْ نَوَّاسِنَا نِعمَ الأَبَرْ

٢٧ – وَقَد رَوَى الْعِرْبَاضُ نجلُ سَارِيَهْ   مَوْعِظَةً تَهُدِ الْقُلُوبَ الْوَاعِيَهْ

٢٨ – تَقوَى الإِلَهِ السَّمْعُ لِلْوُلاَةِ   وَسُنَنِ الأَئِمَّةِ الْهُدَاةِ

٢٩ – ثمَّ مُعَاذٌ سَأَلَ الْعَدْنَانِي   عَنْ عَمَلٍ يدْخِلُ لِلْجِنَانِ

٣٠ – وَيُبْعِدُ الْعَبدَ مِن النِّيرانِ   فَقَالَ أنْ تَعْبُدَ لِلدَّيَّانِ

٣١ – وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةٍ الْخُشَنِي   جُرْثُومُ نَجلُ نَاشِرٍ نِعمَ السَّنِي

٣٢ – إِنَّ الإِلَهَ فَرَضَ الْفَرَائِضَا   حَدَّ حدُودًا أَوْ كَقَوْلِ الْمُرْتَضَى

٣٣ – وَرَحْمَةً سَكَتَ لاَنِسْيَانَا   لاَتَسْأَلوا واتَّبِعُوا الْقُرْءانَا

٣٤ – وَفِي الَّذِي بِيَدِ خَلْقِهِ ازْهدَنْ   تَنَالُ حبَّهُمْ لِسَهْلِ الْمُؤْتَمَنْ

٣٥ – ثُمَّ كَذَاكَ الزُّهدُ فِي الدُّنَيَا   تَنَالُ حبَّ اللهِ هَيَّاهَيَّا

٣٦ – أَبُوسَعِيدٍ قَدْ رَوَى عَنِ النَّبِي   لاَضَرَرٌ وَلاَ ضِرَارَ اجْتَنِبِ

٣٧ – عَنِ ابنِ عَبَّاسِ الإِمَامِ الْمُرْتَضَى   حدِثُهُ الَّذِي أَبَانَ لِلْقَضَا

٣٨ – فَالْمُدَّعِي مُطَالَبٌ بِالْبَيِّنَهْ   وَالْمُنْكِرُ الْيَمِنُ مِنهُ بَيِّنَهْ

٣٩ – أَبُو سَعِيدٍ سَعْدُنَا ذَا الْعَلَمِ   رَوَى حَدِيثًا فِي صَحِيحِ مسْلِمِ

٤٠ – أنْ غَيِّرِ الْمُنْكَرَ ثُمَّ لاَشَطَطْ   بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ والْقَلْبِ فَقَطْ

٤١ – أُخُوَّةُ الإِسلاَمِ لاَتَحَاسَدُوا   رَوَى أبو هُرَيرَةَ الْمُؤَيَّدُ

٤٢ – وَقَدْ رَوَى عَنْ مؤْمِنٍ مَن نَّفَسَا   كُرْبَةَ دُنْيَا عَنهُ رَبِّي نَفَّسَا

٤٣ – وَنَجلُ عَبَّاسِ الْفَتَى الأَبِيُّ   رَوَى كَمَا رَوَى لَهُ النَّبِيُّ

٤٤ – عَنْ رَبِّهِ مَنْ جَا بِفِعلِ الْحَسَنَةْ   وَالسَّيِّئَاتُ زَمَّ عَنْهَا رَسَنَةْ

٤٥ – ضَعّفَتْ الأُولَى بِسَبْعِمَائَةِ   وَتَرْكُ ذِي بِحَسَنَةٍ كَامِلَةِ

٤٦ – وَقَدْ رَوَى إِمَامُنَا الدَّوْسِيُّ   مَنْ عَادَ الأَوْلِيَا وَذَا قُدْسِيُّ

٤٧ – عَنْ خَطَإٍ إِلَهُنَا تَجَاوَزَا   رَوَى ابنُ عَبَّاسٍ الَّذِي قَدْ بَرّزَا

٤٨ – كُنْ فِي الدُّنَيَا عَابِراً سَبِيلاَ   لاَتَنْتَظِرْ مَسَاءً أَوْ مَقِيلاَ

٤٩ – رَوَاهُ عَبدُ اللهِ نَجلُ عُمَرِ   وَعَنْ سَمِيِّهِ ابنِ عَمرٍو الأَطْهَرِ

(٥٠ – أتْبِعْ هَواكَ لِلَّذِي قَدْ جَاءَ   عَنِ النَّبِيّ إِنْ تَرِدْ نَجَاءَ)

٥١ – عَنْ أنَسٍ يَقُولُ قَالَ اللهُ لَكْ   إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكْ

٥٢ – لَوْ بِقُرَابِ الأَرْضِ مِنْ خَطَايَا   فَلاَ أُبَالِي سَبَقَتْ رُحْمَايَا

٥٣ – قَدْ تَمَّ مَا أرَدْتُ مِن نِظَامِ   وَالْحَمْدُ للهِ عَلَى الإِسلاَمِ

٥٤ – ثُمَّ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ دَائِمَةْ   عَلَى النَّبِي فِي الْبَدْءِ ثُمَّ الْخَاتِمَةْ

٥٥ – يَارَبِّ حَقِّقَنْ لَنَا كُلَّ رَجَا   وَهَبْ لَنَا مِنكَ جَمِيعًا فَرَجَا

(الجدول المعين على حفظ الأربعين) (إعداد / عماد الدين أبو النجا)

1- متن النووية وزيادتها حسب المتن

م	الراوي	متن الحديث	التخريج
1	عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي حَفْصٍ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ :سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ:	" إنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلَى مَا هَاجَرَ إلَيْهِ "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
2	عَنْ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَيْضًا قَالَ:	" بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذَاتَ يَوْمٍ ، إذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ . حَتَّى جَلَسَ إلَى النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . –فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ ، وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إنْ اسْتَطَعْت إلَيْهِ سَبِيلًا . قَالَ : صَدَقْت .فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ! قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ . قَالَ : أَنْ تُؤْمِنَ بِاَللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ . قَالَ : صَدَقْت . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ . قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّك تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ . قَالَ : مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ . قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا ؟ قَالَ : أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ . ثُمَّ انْطَلَقَ ، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَ : يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ ؟ . قُلْت : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ "	مُسْلِمٌ
3	عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ:	" بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
4	عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ : –	" إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ إلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : بِكَتْبِ رِزْقِهِ ، وَأَجَلِهِ ، وَعَمَلِهِ ، وَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ ؛ فَوَاَللَّهِ الَّذِي لَا إلَهَ غَيْرُهُ إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا . وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
5	عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا –قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: –	" مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ " وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ : " مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
6	عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا –قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –يَقُولُ:	" إنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقْد اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
7	عَنْ أَبِي رُقَيَّةَ تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ:	" الدِّينُ النَّصِيحَةُ . قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قَالَ لِلَّهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِرَسُولِهِ ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ "	مُسْلِمٌ
8	عَنْ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ:	" أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ؛ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
9	عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ صَخْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ:	" مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
10	عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :	" إنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ تَعَالَى " : يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا " ، وَقَالَ تَعَالَى " : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ " ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إلَى السَّمَاءِ : يَا رَبِّ ! يَا رَبِّ ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ ؟ "	مُسْلِمٌ
11	عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ سِبْطِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرَيْحَانَتِهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -قَالَ : حَفِظْت مِنْ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–	" دَعْ مَا يُرِيبُك إلَى مَا لَا يُرِيبُك "	التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ :حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

12	عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :	" مِنْ حُسْنِ إسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ "	التِّرْمِذِيُّ حَدِيثٌ حَسَنٌ
13	عَنْ أَبِي حَمْزَةَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَال:	" لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
14	عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: –	" لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ) يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله (إلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : الثَّيِّبُ الزَّانِي ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
15	عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ:	" مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
16	عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنْ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: –	أَوْصِنِي . قَالَ : " لَا تَغْضَبْ " ، فَرَدَّدَ مِرَارًا ، قَالَ : " لَا تَغْضَبْ "	الْبُخَارِي
17	عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَال:	" إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ "	مُسْلِمٌ
18	عَنْ أَبِي ذَرٍّ جُنْدَبِ بْنِ جُنَادَةَ ، وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ:	" اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْت ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقْ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ "	التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ ، وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ : حَسَنٌ صَحِيحٌ .
19	عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ:	" كُنْت خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَوْمًا ، فَقَالَ : يَا غُلَامِ ! إنِّي أُعَلِّمُك كَلِمَاتٍ : احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْك ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَك ، إذَا سَأَلْت فَاسْأَلْ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْت فَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوك بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوك إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَك ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوك بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوك إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْك ؛ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ . " وَفِي رِوَايَةِ غَيْرِ التِّرْمِذِيِّ " : احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أمامك ، تَعَرَّفْ إلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفُك فِي الشِّدَّةِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَك لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَك ، وَمَا أَصَابَك لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَك ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنْ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا "	التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .
20	عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–	" إنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى : إذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْت "	الْبُخَارِي
21	عَنْ أَبِي عَمْرٍو وَقِيلَ : أَبِي عَمْرَةَ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ:	" قُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَك ؛قَالَ : قُلْ : آمَنْت بِاَللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ "	مُسْلِمٌ
22	عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : –	" أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : أَرَأَيْت إذَا صَلَّيْت الْمَكْتُوبَاتِ ، وَصُمْت رَمَضَانَ ، وَأَحْلَلْت الْحَلَالَ ، وَحَرَّمْت الْحَرَامَ ، وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا ؛ أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : نَعَمْ "	مُسْلِمٌ
23	عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْحَارِثِ بْنِ عَاصِمٍ الْأَشْعَرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :	" الطَّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ – أَوْ : تَمْلَأُ – مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَك أَوْ عَلَيْك ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو ، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا "	مُسْلِمٌ
24	عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، أَنَّهُ قَالَ:	" يَا عِبَادِي : إنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْته بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ؛ فَلَا تَظَالَمُوا . يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَنْ هَدَيْته ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ . يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلَّا مَنْ أَطْعَمْته ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ . يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ عَارٍ إلَّا مَنْ كَسَوْته ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ . يَا عِبَادِي ! إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ . يَا عِبَادِي ! إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي . يَا عِبَادِي ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْت كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَته ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ . يَا عِبَادِي ! إنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا ؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَن إلَّا نَفْسَهُ "	مُسْلِمٌ
25	عَنْ أَبِي ذَرٍّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَيْضًا ، "أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالُوا لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: –	يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ ؛ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ . قَالَ : أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ ؟ إنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً ، وَأَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ : أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ. "	مُسْلِمٌ

26	عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–	" كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
27	عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ:	" الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ "	مُسْلِمٌ
27 مكرر	وَعَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ:	" جِئْتَ تَسْأَلُ عَنْ الْبِرِّ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . فَقَالَ : استفت قلبك ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ "	أَحْمَدُ بْنِ حنبل وَالدَّارِمِيّ حَسَنٌ حَدِيثٌ
28	عَنْ أَبِي نَجِيحٍ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ:	" وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ! كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا ، قَالَ : أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ "	والتِّرْمِذِيُّ دَاوُدَ أَبُو وقال : حَسَنٌ صَحِيحٌ .
29	عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ:	قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ ! أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدْنِي مِنْ النَّارِ ، قَالَ : " قَدْ سَأَلْت عَنْ عَظِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ : تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ ، ثُمَّ قَالَ : أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، ثُمَّ تَلَا " تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ " حَتَّى بَلَغَ " يَعْمَلُونَ " ، ثُمَّ قَالَ : أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ : رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ ، ثُمَّ قَالَ : أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟ فَقُلْت : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ! فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ : كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا . قُلْت : يَا نَبِيَّ اللهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ : ثَكِلَتْك أُمُّك وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ – أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ – إلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟ " !	التِّرْمِذِي وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .
30	عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ جُرْثُومِ بْنِ نَاشِرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :	" إنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا "	حَدِيثٌ حَسَنٌ ، رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ وَغَيْرُهُ.
31	عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ:	جَاءَ رَجُلٌ إلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ ؛ فَقَالَ : " ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّك اللهُ ، وَازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبَّك النَّاسُ "	حديث حسن ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ
32	عَنْ أَبِي سَعِيدٍ سَعْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ:	" لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ "	حَدِيثٌ حَسَنٌ ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَالدَّارَقُطْنِيّ
33	عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ:	" لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ وَدِمَاءَهُمْ ، لَكِنَّ الْبَيِّنَةَ عَلَى الْمُدَّعِي ، وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ "	حَدِيثٌ حَسَنٌ ، رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ
34	عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –قَالَ سَمِعْت رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ :	" مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ "	مُسْلِمٌ
35	عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :	" لَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَنَاجَشُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَانًا ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ ، وَلَا يَخْذُلُهُ ، وَلَا يَكْذِبُهُ ، وَلَا يَحْقِرُهُ ، التَّقْوَى هَاهُنَا ، وَيُشِيرُ إلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ "	مُسْلِمٌ
36	عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ:	" مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ ، وَيَتَدَارَسُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ؛ إلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ ، وَذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ "	مُسْلِمٌ

37	عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ فِيمارَبّه تَبارَكَ وتَعَالَى ، قال:	" إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
38	عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:	" مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَد آذَنْتهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ "	الْبُخَارِي
39	عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أَنَّ رَسُولَاللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال:	" إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْه "	حَدِيثٌ حَسَنٌ ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَالْبَيْهَقِيّ
40	عَنْ ابْن عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ : أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمَنْكِبِي ، وَقَالَ:	" كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّك غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ . " وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – يَقُولُ : إذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِك لِمَرَضِك ، وَمِنْ حَيَاتِك لِمَوْتِك .	الْبُخَارِي
41	عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: –	" لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ "	حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ فِي كِتَابِ "الْحُجَّةِ"
42	عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُول : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:	" يَا ابْنَ آدَمَ ! إنَّكَ مَا دَعَوْتنِي وَرَجَوْتنِي غَفَرْتُ لَك عَلَى مَا كَانَ مِنْك وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُك عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتنِي غَفَرْتُ لَك ، يَا ابْنَ آدَمَ ! إنَّك لَوْ أَتَيْتنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُك بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً "	التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ
43	عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا –قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : –	" أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا ، فَمَا أَبْقَتَ الْفَرَائِضُ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
44	عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – عَنْ النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ:	" الرَّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
45	عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ يَقُول :	" إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ ؟ فَقَالَ : لَا ، هُوَ حَرَامٌ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عِنْدَ ذَلِكَ : قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ ، إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِم الشُّحُومَ ، فَأَجْمَلُوهُ ، ثُمَّ بَاعُوهُ ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
46	عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–	أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ ، فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْرِبَةٍ تُصْنَعُ بِهَا ، فَقَالَ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : الْبِتْعُ وَالْمِزْرُ ، فَقِيلَ لِأَبِي بُرْدَةَ : مَا الْبِتْعُ ؟ قَالَ : نَبِيذُ الْعَسَلِ ، وَالْمِزْرُ نَبِيذُ الشَّعِيرِ ، فَقَالَ : كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ "	الْبُخَارِي
47	عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرْبَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ :	" مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِه "	أَحْمَد وابْنُ مَاجَهْ والتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ
48	عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ:	" أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا ، وَإِنْ كَانَتْ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فِيهِ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ "	الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ
49	عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ:	" لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزَقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا "	أَحْمَد وابْنُ مَاجَهْ والتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ
50	عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ:	" أَتَى النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رجلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا ، فَبَابٌ نَتَمَسَّكُ بِهِ جَامِعٌ ؟ قَالَ : لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ "	أَحْمد

2 – جدول للنووية حسب طرف الحديث فقط

م	طرف الحديث	الراوى	التخريج
1	" إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى "	عمر بن الخطاب	البخاري ومسلم
2	"بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذَاتَ يَوْمٍ ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ "	عمر بن الخطاب	مسلم
3	" بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ "	عبد الله بن عمر	البخاري ومسلم
4	" إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ "	عبد الله بن مسعود	البخاري ومسلم
5	"مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ"	عائشة	البخاري ومسلم
6	" إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ "	النعمان بن بشير	البخاري ومسلم
7	" الدِّينُ النَّصِيحَةُ "	أبو رقية تميم بن أوس	مسلم
8	" أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ "	عبد الله بن عمر	البخاري ومسلم
9	" مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ "	أبو هريرة	البخاري ومسلم
10	" إنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا "	أبو هريرة	مسلم
11	" دَعْ مَا يَرِيبُك إلَى مَا لَا يَرِيبُك "	أبو محمد الحسن بن على	الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح
12	" مِنْ حُسْنِ إسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ "	أبو هريرة	الترمذي : حسن
13	" لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ "	أنس بن مالك	البخاري ومسلم
14	" لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ "	عبد الله بن مسعود	البخاري ومسلم
15	"مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا"	أبو هريرة	البخاري ومسلم
16	" لَا تَغْضَبْ "	أبو هريرة	البخاري
17	" إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ "	أبو يعلى شداد بن أوس	مسلم
18	" اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْت "	أبو ذر ومعاذ	الترمذي : حسن وفى بعض النسخ: حسن صحيح
19	"يَا غُلَامِ ! إنِّي أُعَلِّمُك كَلِمَاتٍ : احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْك"	عبد الله بن عباس	الترمذي : حسن صحيح
20	" إنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى إذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْت "	أبو مسعود عقبة بن عمرو	البخاري
21	" قُلْ : آمَنْتُ بِاَللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ "	أبو عمرو سفيان بن عبد الله	مسلم
22	" أَرَأَيْت إذَا صَلَّيْت الْمَكْتُوبَاتِ ، وَصُمْت رَمَضَانَ ، .... أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : نَعَمْ "	جابر بن عبد الله	مسلم

23	" الطَّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ "	أبو مالك الحارث بن عاصم	مسلم
24	" يَا عِبَادِي : إِنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي"	أبو ذر	مسلم
25	" ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ "	أبو ذر	مسلم
26	" كُلُّ سُلَامَى مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ "	أبو هريرة	البخاري ومسلم
27	"الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ"	النواس بن سمعان	مسلم
27	أَتَيْت رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -فَقَالَ " : جِئْتَ تَسْأَلُ عَنْ الْبِرِّ ؟	وابصة بن معبد	أحمد والدارمي حديث حسن
28	" أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ "	العرباض بن سارية	أبو داود والترمذي حسن صحيح
29	" يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ. ..، قَالَ " : لَقَدْ سَأَلْت عَنْ عَظِيمٍ "	معاذ	الترمذي حسن صحيح
30	" إنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا "	أبو ثعلبة الخشني جرثوم بن ناشر	الدارقطني حديث حسن
31	" دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ ..... ؛ فَقَالَ " : ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّك اللَّهُ "	أبو العباس سهل بن سعد الساعدي	ابن ماجة : حديث حسن
32	" لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ "	أبو سعيد الخدري	ابن ماجة والدارقطني حديث حسن
33	" لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى "	ابن عباس	البيهقي حديث حسن
34	" مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ "	أبو سعيد الخدري	مسلم
35	" لَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَنَاجَشُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا "	أبو هريرة	مسلم
36	" مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا "	أبو هريرة	مسلم
37	" إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ "	ابن عباس	البخاري ومسلم
38	" مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقْد آذَنْتهُ بِالْحَرْبِ "	أبو هريرة	البخاري
39	" إنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ "	ابن عباس	ابن ماجة والبيهقي حديث حسن
40	"كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّك غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ"	ابن عمر	البخاري
41	" لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ "	عبد الله بن عمرو	كتاب الحجة حديث حسن صحيح
42	" يَا ابْنَ آدَمَ ! إنَّك مَا دَعَوْتنِي وَرَجَوْتنِي غَفَرْتُ لَك "	أنس	الترمذي وقال حسن صحيح
43	" أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا "	ابن عباس	البخاري ومسلم
44	" الرَّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ "	عائشة	البخاري ومسلم
45	" إنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ "	جابر	البخاري ومسلم

46		" كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَام "	أبو موسى الأشعري	البخاري
47		" مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ "	المقدام بن معد يكرب	أحمد والترمذي وابن ماجة وقال الترمذي حسن
48		" أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا "	عبد الله بن عمرو	البخاري ومسلم
49		" لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ "	عمر بن الخطاب	أحمد وابن ماجة
50		" يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ ..... قَالَ : لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ "	عبد الله بن بسر	أحمد

3- جدول النووية حسب حروف المعجم

م	الراوى	طرف الحديث	التخريج	رقم الحديث
1	أبو ذر ومعاذ	" اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْت "	الترمذي	18
2	عبد الله بن عمرو	" أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا "	البخاري ومسلم	48
3	سهل بن سعد الساعدي	" ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللَّهُ "	ابن ماجة	31
4	عمر بن الخطاب	" الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ "	مسلم	2
5	ابن عباس	" أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا "	البخاري ومسلم	43
6	ابن عمر	" أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ "	البخاري ومسلم	8
7	عبد الله بن مسعود	" إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ "	البخاري ومسلم	4
8	النعمان بن بشير	" إنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ "	البخاري ومسلم	6
9	ابن عباس	" إنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ "	ابن ماجة والبيهقي	39
10	أبو هريرة	" إنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا "	مسلم	10
11	أبو ثعلبة جرثوم بن ناشر	" إنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا "	الدارقطني	30
12	أبو يعلى شداد بن أوس	" إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ "	مسلم	17
13	ابن عباس	" إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ "	البخاري ومسلم	37
14	جابر	" إنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ "	البخاري ومسلم	45
15	عمر بن الخطاب	" إنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا	البخاري ومسلم	1

		نَوَى "		
16	أبو مسعود عقبة بن عمرو	" إنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى "	البخاري	20
17	العرباض بن سارية	" أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ "	أبو داود والترمذي	28
18	أبو ذر	" أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ ؟ "	مسلم	25
19	النواس بن سمعان	" الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ "	مسلم	27
20	ابن عمر	" بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ "	البخاري ومسلم	3
21	وابصة بن معبد	" جِئْتَ تَسْأَلُ عَنْ الْبِرِّ ؟ قُلْت : نَعَمْ "	أحمد والدارمي	27
22	أبو محمد الحسن بن على	" دَعْ مَا يَرِيبُك إلَى مَا لَا يَرِيبُك "	الترمذي والنسائي	11
23	أبو رقية تميم بن أوس	" الدِّينُ النَّصِيحَةُ "	مسلم	7
24	عائشة	" الرَّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ "	البخاري ومسلم	44
25	أبو مالك الحارث بن عاصم	" الطَّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ "	مسلم	23
26	أبو عمرو سفيان بن عبد الله	" قُلْ : آمَنْت بِاَللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ "	مسلم	21
27	أبو هريرة	" كُلُّ سُلَامَى مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ "	البخاري ومسلم	26
28	أبو موسى الأشعري	" كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَام "	البخاري	46
29	ابن عمر	" كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّك غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ "	البخاري	40
30	أبو هريرة	" لَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَنَاجَشُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا "	مسلم	35
31	أبو هريرة	" لَا تَغْضَبْ "	البخاري	16
32	أبو سعيد الخدري	" لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ "	ابن ماجة والدارقطني	32
33	أنس	" لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ "	البخاري ومسلم	13
34	عبد الله بن عمرو	" لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِه "	كتاب الحجة	41
35	ابن مسعود	" لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ "	البخاري ومسلم	14
36	عبد الله بن بسر	" لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ "	أحمد	50
37	معاذ	" لَقَدْ سَأَلْت عَنْ عَظِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى	الترمذي	29

		مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ "		
38	عمر بن الخطاب	" لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ "	أحمد وابن ماجة	49
39	ابن عباس	" لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ "	البيهقي	33
40	المقدام بن معد يكرب	" مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ "	أحمد والترمذي و ابن ماجة	47
41	أبو هريرة	" مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ "	البخاري ومسلم	9
42	عائشة	" مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ "	البخاري ومسلم	5
43	أبو هريرة	" مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ "	الترمذي	12
44	أبو سعيد الخدري	" مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ "	مسلم	34
45	أبو هريرة	" مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتهُ بِالْحَرْبِ "	البخاري	38
46	أبو هريرة	" مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا "	البخاري ومسلم	15
47	أبو هريرة	" مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا "	مسلم	36
48	جابر	" نَعَمْ "	مسلم	22
49	أبو ذر	" يَا عِبَادِي : إِنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي "	مسلم	24
50	أنس	" يَا ابْنَ آدَمَ ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتنِي وَرَجَوْتنِي غَفَرْتُ لَك "	الترمذي وقال حسن صحيح	42
51	ابن عباس	" يَا غُلَامِ ! إِنِّي أُعَلِّمُك كَلِمَاتٍ : احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْك "	الترمذي	19

4- جدول النووية حسب التخريج

م	التخريج	عدد أحاديثه	الصحابي	طرف الحديث	رقم الحديث
1	البخاري ومسلم	16	أبو هريرة له ثلاثة أحاديث	" مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ "	9
2				" مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا "	15
3				" كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ "	26
4			عائشة لها حديثان	" مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ "	5
5				" الرَّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ "	44
6			ابن عباس له حديثان	" إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ "	37
7				" أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا "	43
8			ابن مسعود له حديثان	" إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ "	4
9				" لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ "	14
10			عبد الله بن عمر له حديثان	" بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ "	3
11				" أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا "	8
12			عمر بن الخطاب	" إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى "	1
13			عبد الله بن عمرو	" أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا "	48
14			النعمان بن بشير	" إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ "	6
15			أنس	" لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ "	13
16			جابر	" إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ "	45
17	البخاري	5	أبو هريرة له حديثان	" لَا تَغْضَبْ "	16
18				" مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ"	38
19			أبو مسعود عقبة بن عمرو	" إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى "	20
20			ابن عمر	" كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ "	40
21			أبو موسى الأشعري	" كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَام "	46

22	مسلم	13	أبو هريرة له ثلاثة أحاديث	" إنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا "	10
23				" لَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَنَاجَشُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا "	35
24				" مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا "	36
25			أبو ذر له حديثان	" يَا عِبَادِي : إِنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي "	24
26				" أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ ؟ "	25
27			عمر بن الخطاب	" الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ"	2
28			أبو رقية تميم بن أوس	" الدِّينُ النَّصِيحَةُ "	7
29			أبو يعلى شدَّاد بن أوس	" إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ "	17
30			أبو عمرو سفيان بن عبد الله	" قُلْ : آمَنْت بِاَللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ "	21
31			جابر	" نَعَمْ "	22
32			أبو مالك الحارث بن عاصم	" الطَّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ "	23
33			أبو سعيد الخدري	" مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ "	34
34			النواس بن سمعان	" الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ "	27
35	أحمد 4	والدارمي	وابصة بن معبد	" جِئْتَ تَسْأَلُ عَنْ الْبِرِّ؟ قُلْت :نَعَمْ "	27
36		بانفراد	عبد الله بن بسر	" لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ "	50
37		مع الترمذي وابن ماجة والنسائي	عمر بن الخطاب	" لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ"	49
38		مع ابن ماجة والترمذي	المقدام بن معد يكرب	" مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ "	47

39	الترمذي 9	مع أحمد وابن ماجة	المقدام بن معد يكرب	" مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ "	47
40		مع أحمد وابن ماجة والنسائي	عمر بن الخطاب	" لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ"	49
41		مع أبي داود	العرباض بن سارية	" أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ "	28
42		مع النسائي	الحسن بن على	" دَعْ مَا يَرِيبُك إلَى مَا لَا يَرِيبُك "	11
43		بانفراد	أبو هريرة	" مِنْ حُسْنِ إسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ "	12
44			أبو ذر ومعاذ	" اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْت "	18
45			ابن عباس	" يَا غُلَامِ ! إنِّي أُعَلِّمُك كَلِمَاتٍ : احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْك "	19
46			معاذ	"لَقَدْ سَأَلْت عَنْ عَظِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ"	29
47			أنس بن مالك	" يَا ابْنَ آدَمَ ! إنَّكَ مَا دَعَوْتنِي وَرَجَوْتنِي غَفَرْتُ لَك "	42
48	ابن ماجه 5	بانفراد	سهل بن سعد الساعدي	" ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّك اللَّهُ "	31
49		مع الدارقطني	أبو سعيد الخدري	" لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ "	32
50		مع البيهقي	ابن عباس	" إنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ "	39
		مع الترمذي	المقدام بن معديكرب	" مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ "	47
		مع الترمذي وأحمد والنسائي	عمر بن الخطاب	" لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ "	49

51	البيهقي	1	ابن عباس	" لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ "	**33**
52	الدراقطني	1	أبو ثعلبة الخشني	" إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا "	**30**
53	كتاب الحجة	1	عبد الله بن عمرو	" لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ "	**41**

الخَاتِمَةُ (نَسْأَلُ اللهَ حُسْنَهَا)

الحمد لله فاتحة كل خير وخاتمة كلّ نعمة ، أحمده عز وجل وأشكره على توفيقه وعونه ، وعلى جميع نعمه الظاهرة و الباطنة وبعد . فيقول العبد الضعيف أدام الله عليه عافيته ، وختم بالخير عاقبته ، هذا آخر ما يَسَّر الله لي من كتابة هذه الرسالة الموسومة (الشَّرْحُ المُعِين لِحِفْظِ وفَهْمِ الأَرْبَعِين و تَتِمَّة الخَمْسِين) – ومن نعم الله – سبحانه وتعالى– على عبده أن يبدأ عملًا ما ، ثم تحوطه رعاية الله وعنايته حتى يفرغ منه ، وأهم الأعمال في هذه الحياة ما كان خالصًا لله تعالى ، يبتغي به رضى ربه ، وشكر نعمته عليه .

وَهَذَا آخِرُ مَا يَسَّرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَهُوَ شَيْءٌ يَسِيرٌ ، وَلَمْ يَعْرَ بِحَمْدِ اللهِ مِنْ أَثْوَابِ الْفَائِدَةِ بِتَعْرِيَتِهِ عَنِ الإِطَالَةِ وَالإِعَادَةِ ، وَمَعَ اعْتِرَافِي بِالْعَجْزِ ، جَعَلَنِي وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ التَّغَاضِي . إِذْ مَا مِنْ أَحَدٍ غَيْرِ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ يَسْلَمُ . مِنْ صَالِحِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمَسْؤُولُ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِكُلِّ عَمَلٍ جَمِيلٍ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

قال أبو تمام : (فَإِنْ يَكُ ذَنْبٌ عَنَّ أو تَكُ هَفْوَة ... عَلَى خَطَأ مِنِّي فَعُذْرِي عَلَى عَمْدِ)

ولوْ غشِيَني نورُ التّوفيقِ . ونظرْتُ لنفْسي نظرَ الشّفيقِ . لسَترْتُ عَواري الذي لمْ يزَلْ مسْتورًا . ولكِنْ كانَ ذلِكَ في الكِتابِ مسْطورًا . وأنا أسْتغفِرُ اللهَ تعالَى ممّا أودَعْتُه منْ أباطيلِ اللّغْوِ . وأضاليلِ اللّهْوِ . وأسترْشِدُهُ إلى ما يعْصِمُ منَ السّهْوِ . ويحْظى بالعَفْوِ . إنهُ هوَ أهلُ التّقْوى وأهلُ المَغفِرَةِ . ووليُّ الخيْراتِ في الدُنْيا والآخِرَةِ

هذا ولا أدَّعي أني أتيت بما لم تستطعه الأوائل ، كما أنني لا أدَّعي لعملي هذا العصمة أو الكمال ، فهذا شأن الرسل والأنبياء ، ومن ظن أنه قد أحاط بالعلم فقد جهل نفسه (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)(الإسراء /٨٥)

فالعلم بحر لا شاطيء له ، قال أبو نواس :

فقلْ لمنْ يدَّعِي فِي العِلْمِ فَلْسَفَةً ... حَفِظْتَ شَيْئًا ، وغابَتْ عنك أشياءُ

يقول الثعالبي : لا يكتب أحد كتابًا فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غيرها أن يزيد فيه أو ينقص منه ، هذا في ليلة ، فكيف في سنين معدودة ؟

قال معمر : (لو عرض الكتاب مائة مرة ما كاد يسلم من أن يكون فيه سقط . أو قال : خطأ) . وعن المزني تلميذ الشافعي : (لو عرض كتاب سبعين مرة ، لوجد فيه خطأ ، أبى الله أن يكون كتاب صحيحًا غير كتابه)

ويقول المزني : (قرأت كتاب (الرسالة) على الإمام الشافعي ثمانين مرة ، فما من مرة إلا كان يقف على خطأ ، فقال الشافعي : هيه – أي حسبك واكْفُفْ – أبى الله أن يكون كتاب صحيحًا غير كتابه) .

ورحم الله ابن العماد الأصبهاني إذ يقول – والصواب أن هذا الكلام للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الملقب بأستاذ البلغاء من رسالة له بعث بها إلى العماد الأصفهاني يعتذر إليه من كلام استدركه عليه – :

" إني رأيت أنه لا يكتب إنسانٌ كتابًا في يومه ، إلا قال في غده لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن ، ولو زِيدَ كذا لكان يستحسن ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر " .

فأرجو مسامحة ناظريه فهم أهلوها ، وأؤمل جميلهم فهم أحسن الناس وجوها .

قال الشاعر :

أَسِيْرُ خَلْفَ رُكَّاب الْنُّجُبِ ذَا عَرَجٍ مُؤَمِّلاً كَشْفَ مَا لَقِيْتُ مِنْ عِوَجِ
فَإِنْ لَحِقْتُ بِهِمْ مَنْ بَعْدِ مَا سَبَقُوا فَكَمْ لِرَبِ الْوَرَى فِي ذَاكَ مِنْ فَرَجِ
وَإِنْ بَقِيْتُ بِظَهْرِ الأَرْضِ مُنْقَطِعًا فَمَا عَلَى عَرَجٍ فِي ذَاكَ مِنْ حَرَجِ

قال أبو نواس :

مَنَحْتُكُم يَا أَهْلَ مصرَ نَصِيحَتِي ... أَلَا فخُذُوا مِنْ نَاصِحٍ بِنَصِيبِ
فلا تَثِبُوا وثْبَ السّفاهِ فتركبوا ... علَى ظهرِ صعبِ الرَّأسِ غيرِ رَكوبِ
فإنْ يكُ باقِي إفكِ فرعونَ فيكُم ... فإنَّ عَصَا موسَى بكفِّ خَصيبِ

اللهم إنا نشهد أنك واحدٌ فردٌ صمدٌ ، وأن محمدًا عبدك ورسولك – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وأنه بلغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وأن الرسل حق ، وأنهم بلَّغوا الرسالة ، وأن الموت حق ، والقبر حق ، والميزان حق ، والصراط حق ، والجنة حق والنار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور .

اللهم توفنا مسلمين تائبين ، لا مغيرين ولا مبدلين آمين يا رب العالمين ،

ولقد خَتَمْتُ بِذَا الخِتامِ مَقَالَتِي وعلى الإلَهِ تَوَكُّلِي وثَنَائِي
إنْ كانَ تَوفِيقٌ فَمِنْ رَبِّ الوَرَى والعَجْزُ للشيطانِ والأَهْوَاءِ
فِي حِينِها أدعُو الذي بِدُعَائِهِ يَمْحُو الخَطَا ويَزِيدُ فِي النَّعْمَاءِ
سُبحانَك اللَّهمَّ ثم بحمدِكَا أَسْتَغفِرك وأتوبُ مِنْ أَخْطَائِي

هذا وأسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع بهذا الجهد ، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم ، وأستغفر الله العظيم من كل ذنب وخطيئة ، و صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وقد فرغت من جمع هذا الكتاب في يوم الثلاثاء الموافق للخامس والعشرين من شهر رجب لعام أربعة وثلاثين وأربعمائة وألف لهجرة الخليل المصطفى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، الموافق للرابع من شهر يونيو للعام الثالث عشر بعد الألفين للميلاد .

كتبه خَجِلًا وجِلًا / أبو حمزة عماد الدين أبو النجا

بورسعيد – جمهورية مصر العربية .

١٤٣٤/٧/٢٥هـ ٢٠١٣/٦/٤ م

صحيفة المصادر

١- الأربعون النووية بتعليقات الشيخ ابن عثيمين – يرحمه الله –
المؤلف : محمد بن صالح بن العثيمين – يرحمه الله –
٢- شرح الأربعين النووية للإمام النووي – يرحمه الله –
المؤلف : سليمان بن محمد اللهيميد
٣- التحفة الربانية في شرح الأربعين حديثا النووية
ومعها شرح الأحاديث التي زادها ابن رجب الحنبلي
تأليف : فضيلة الشيخ العلامة إسماعيل بن محمد الأنصاري – يرحمه الله –
٤- التلخيص المعين على شرح الإربعين للشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين – يرحمه الله –
إعداد : سلطان بن سراي الشمري
٥- تعليم الأحب أحاديث النووي وابن رجب
المؤلف : فيصل بن عبدالعزيز آل مبارك
٦- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم
تأليف : الإمام الحافظ الفقيه زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب المتوفى سنة (٧٩٥) هـ حقق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه : الدكتور ماهر ياسين الفحل
٧- شرح الأربعين
المؤلف : ابن دقيق العيد
٨- شرح الأربعين النووية
الشارح : صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
٩- شرح الأربعين النووية
المؤلف : عطية بن محمد سالم (المتوفى : ١٤٢٠هـ)
١٠- شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية
المؤلف : ابن شرف النووي
١١ – تعليقات تربوية على الأربعين النووية
المؤلف :عقيل بن سالم الشمري
١٢ – مُشكِل إعراب أحاديث الأربعين النووية وتصريفها (القسم الأول)
المؤلف : د. مؤمن بن صبري غنام

استنصاح

قَالَ رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ " . وذكر منها :
" وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ " .

فأهيب بإخواني أن يبادروا بالاستجابة لأمر رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وأن يُقدِّموا لي النصيحة ، وكذلك استرشادًا بقول رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (الدِّينُ النَّصِيحَة) فأنا أطلب من إخواني النصيحة بما يرونه أنفع وأفضل لإخراج هذا العمل في أفضل صورة و هو :
(الشَّرْحُ المُعِين لِحِفْظِ وفَهْمِ الأَرْبَعِين و تَتِمَّة الخَمْسِين)

وأخيرًا : أسألكم بالله ألا تبخلوا عليَّ بأيِّ نقدٍ بَنَّاء أو اقتراحٍ أو توجيهٍ أو نصيحةٍ فالمؤمن مرآة أخيه والمؤمنون نَصَحَة والمنافقون غَشَشَة .

وجزاكم الله خيرًا .

للتواصل : موقع التواصل الاجتماعي
صفحة / عماد أبو النجا ، صفحة / عماد الدين أبو النجا
محمول : ٠١١١١٦٤٣٦٦٦
01116781666

صحيفة الكتاب

شكر ٣
مقدمة ٥
التمهيد ١٢
الحديث الأول ١٤
الحديث الثاني ٢٢
الحديث الثالث ٦٢
الحديث الرابع ٦٦
الحديث الخامس ٧٨
الحديث السادس ٨٠
الحديث السابع ٨٥
الحديث الثامن ٩٢
الحديث التاسع ٩٧
الحديث العاشر ١٠٢
الحديث الحادي عشر ١٠٨
الحديث الثاني عشر ١١٣
الحديث الثالث عشر ١١٦
الحديث الرابع عشر ١٣١
الحديث الخامس عشر ١٤٠
الحديث السادس عشر ١٤٤
الحديث السابع عشر ١٤٨
الحديث الثامن عشر ١٥٢
الحديث التاسع عشر ١٥٥
الحديث العشرون ١٦٢
الحديث الحادي و العشرون ١٦٥
الحديث الثاني والعشرون ١٦٩
الحديث الثالث والعشرون ١٧٣

الحديث الرابع والعشرون ١٧٨
الحديث الخامس والعشرون ١٩٢
الحديث السادس والعشرون ١٩٧
الحديث السابع والعشرون ٢٠٢
الحديث الثامن والعشرون ٢١١
الحديث التاسع والعشرون ٢١٩
الحديث الثلاثون ٢٢٩
الحديث الحادي والثلاثون ٢٣٤
الحديث الثاني والثلاثون ٢٤٤
الحديث الثالث والثلاثون ٢٤٧
الحديث الرابع والثلاثون ٢٥١
الحديث الخامس والثلاثون ٢٥٧
الحديث السادس والثلاثون ٢٦٤
الحديث السابع والثلاثون ٢٧٦
الحديث الثامن والثلاثون ٢٨٢
الحديث التاسع والثلاثون ٢٩٤
الحديث الأربعون ٢٩٧
الحديث الحادي والأربعون ٣٠٢
الحديث الثاني والأربعون ٣٠٥
الحديث الثالث والأربعون ٣١٤
الحديث الرابع والأربعون ٣١٧
الحديث الخامس والأربعون........................ ٣٢٠
الحديث السادس والأربعون ٣٢٤
الحديث السابع والأربعون ٣٢٦
الحديث الثامن والأربعون ٣٢٩
الحديث التاسع الأربعون ٣٣٦
الحديث الخمسون ٣٤٠

النظم المعين على حفظ الأربعين (١) ٣٤٢
النظم المعين على حفظ الأربعين (١) ٣٤٧
الجدول المعين على حفظ الأربعين ٣٥٠
جدول النووية حسب أطراف الحديث ٣٥٤
جدول النووية حسب حروف المعجم ٣٥٦
جدول النووية حسب التخريج ٣٥٩
الخاتمة ٣٦٣
صحيفة المصادر ٣٦٥
استنصاح ٣٦٦
صحيفة الكتاب ٣٦٧